



# مؤتمر فلسطين المسيحية



أوراق بحثية حول المسيحية في فلسطين  
منذ القرن الأول الميلادي وحتى بداية الحكم العثماني في فلسطين

إعداد  
الأستاذ حسام أبو النصر  
والأستاذ جوزيف حزبون

القدس، ٢٠٢٣



## الفهرس

١. كلمة راعي المؤتمر، غبطة البطريك ميشيل صباح، بطريك القدس للاتين سابقا ..... ٢
٢. كلمة الأستاذ جوزيف حزبون، المدير الإقليمي للبعثة البابوية لفلسطين في القدس ..... ٤
٣. الكلمة الافتتاحية، الأستاذ حسام أبو النصر، رئيس مؤتمر فلسطين المسيحية ..... ٦
٤. يسوع المسيح: حياته وتعاليمه، من الولادة إلى القيامة والصعود إلى السماء، د. قسطندي الشوملي ..... ١١
٥. المسيحية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام - منعطف القرن السادس إلى السابع،  
القس الدكتور ميري الراهب ..... ١٧
٦. المسيحية في القرون الأولى والفرق «المهرطقة»، الأستاذ عبد الغني سلامة ..... ٣١
٧. المسيحية في فلسطين: من الحقبة البيزنطية حتى مجيء الإسلام، الدكتور وليد الشوملي ..... ٤٩
٨. الآثار البيزنطية في فلسطين، قطاع غزة أنموذجاً، الباحثة منى سمير مقاط ..... ٥٩
٩. مسيرة الملكة هيلانة وقسطنطين في فلسطين، المنتصر بالله سهيل ترزي ..... ٢٤
١٠. أوضاع المسيحية في فلسطين منذ العصر الأموي  
حتى نهاية العصر الفاطمي (٤١ - ٥٦٧ هـ / ٦٦١ - ١١٧١ م)، الدكتورة إلهام جبر شمالي ..... ٧٣
١١. العلاقة المسيحية الإسلامية في مدينة القدس، د. مروان محمد حمدان الاقراع ..... ١٠٤
١٢. الحروب الصليبية في فلسطين بين الصراع السياسي والتوازن الحضاري، د. محمود رياض الأسطل ..... ١٢١
١٣. هوية المسيح في الميزان المنطقي والتاريخي والاركيولوجي، د. جبرا الشوملي ..... ١٤٢
١٤. الخلفية التاريخية للمذاهب المسيحية: الوحدة في تعدد مصالح، المطران الدكتور منيب أ. يونان ..... ١٦٥
١٥. المؤرخون العرب وكتابة التاريخ المسيحي، د. منيب منصور ..... ١٨٥
١٦. توصيات المؤتمر ..... ٢٠٠

كلمة غبطة البطريرك ميشيل صباح  
بطريرك القدس السابق للاتين

## تاريخ فلسطين المسيحية في القرون الأولى بين القرن الأول والسابع

نحن في زمن نستعد فيه لعيد الميلاد المجيد، أتمنى لكم جميعاً عيد سلام ومحبة وأخوة، لكم ولكل فلسطين ولكل هذه الأرض المقدسة، لتعود وتكون من جديد أرض ميلاد، وسلام، وعدل ومحبة ومساواة.

موضوع هذا المؤتمر هو تاريخ فلسطين المسيحية. هنا ولدت المسيحية، في مدننا وقرانا. في بيت لحم وفي الناصرة وفي القدس وفي كل أنحاء فلسطين. ومن هنا انتشرت المسيحية في العالم. ودخلت تاريخ البشرية، ثم حضرت أو غابت، مع تقلبات التاريخ. وهنا بقيت المسيحية في الواقع ما كان السيد المسيح مع تلاميذه أي «القطيع الصغير»، والذي كان السيد المسيح، وما زال يقول له حتى اليوم: لا تخف أيها القطيع الصغير.

لكن ليس هذا موضوع المؤتمر، بل هو معرفة هذا التاريخ، في هذه الأرض التي ولد فيها. المسيحية نشأت هنا، ومن هنا انتشرت في أنحاء العالم، وهي اليوم هنا دين للمسيحيين الفلسطينيين، وهي تراث لفلسطين، وتراث فلسطين تراث لكل أهلها. والقضية هي معرفة هذا التاريخ في مناهجنا المدرسية.

أرض فلسطين أرض مقدسة، أرض لله ولأهلها، ولأهلها الحاضرين اليوم فيها. يقولون: لم يكن لفلسطين وجود في التاريخ. نحن موجودون اليوم، وكل الماضي هو نحن وهو فلسطين اليوم. كل ماضي هذه الأرض هو ماضينا، وهو نحن اليوم. نحن ورثة هذه الأرض، أيا كان وضعها مدى القرون والأجيال الماضية وحتى اليوم، وأيا كانت الشعوب التي استقرت فيها أو رحلت عنها، بما فيها المرحلة اليهودية، التي تنازعنا اليوم وتقول لنا: لا حق لكم في الوجود. كل تاريخ فلسطين تاريخنا، ونحن ورثته بكل ما فيه.

أرضنا، مثل كل أرض، مليئة بتاريخ أهلها، مجروبهم وحضاراتهم. وتتميز أرضنا بكونها مليئة بسر الله فيها. فهي أرض مقدسة للديانات الثلاث الموحدة.

تاريخها تاريخ طويل، فيه فترة قبل الديانات الموحدة. وفترة بعدها. واليوم نحن فيها شعب واحد، مسيحيين ومسلمين بكل الفترات التاريخية المختلفة التي مررنا بها. كلنا مررنا بالفترة المسيحية من القرن الأول حتى السابع وما بعده وحتى اليوم، وكلنا مررنا بالفترة الإسلامية منذ بدأت وحتى اليوم. ومن ثم، كلنا اليوم شعب واحد، بعضنا أسلم وبعضنا بقي مسيحياً. كل تاريخ أرضنا المسيحية والإسلامية، هو تاريخنا، مسيحيين ومسلمين معاً. نختلف في ديننا، لكن تاريخنا واحد، وإنسانيتنا واحدة.

ومن ثم، التاريخ المسيحي مدة سبعة قرون قبل الإسلام، هو تاريخ المسلمين أيضا، إذ كلنا معاً، مسيحيين ومسلمين، سكان الأرض نفسها وورثة كل تاريخها، المسيحي والإسلامي.

من ثم معرفة هذا التاريخ حق لكل فلسطيني، لسلامة التراث وسلامة الحقيقة. وذكره ومعرفته لا تضير أي موقف ديني. الدين والإيمان شيء والتاريخ ومعرفته شيء آخر. وكل مؤمن يجب أن يكون راسخاً في دينه بحيث لا يخاف أية معرفة. ومن ثم مناهج التربية والتعليم من واجبها ومن حق كل الطلاب والطالبات عليها أن يعرفوا كل تاريخ أرضهم، المسيحي والمسلم.

أتمنى أن يوضح المحاضرون في هذا المؤتمر كل ما غاب عن المناهج من التاريخ المسيحي في القرون الأولى في أرض فلسطين، فهو تراثنا، مسيحيين ومسلمين، ولو كان تاريخ دين مسيحي فقط. فهو تراثنا المشترك. وأرجو أن يعي المسؤولون عن المناهج هذه الفجوة التي توجد في الكتب المدرسية، لتزيلها وتكمل معرفة الطلاب والطالبات بتكملة معرفة تاريخ شعبهم وأرضهم. ولا نخاف من التاريخ. من عرف نفسه، ودينه وتاريخه، لا يخاف التاريخ ولا أي ماضٍ، أيا كان، سواء كان له أو عليه.

نحن في فترة نريد أن نستعيد فيها فلسطين ونريد أن نحررها من احتلال سياسي. يبدأ التحرير بقوة ورسوخ كل واحد في دينه، وبمقدرته على معرفة كل تاريخ أرضه وشعبه، وكل دين فيها. فهو جزء من الأرض ومن التراث والحقيقة. أتمنى للمؤتمر التوفيق والنجاح، ونجاحه هو في إعداد ما يلزم ليساعد قسم المناهج على توفير المعرفة كلّها في هذا الموضوع.

كلمة الأستاذ جوزيف حربون  
المدير الإقليمي للبعثة البابوية، القدس

## فلسطين بلد التعددية منذ القدم

في ساحات إحدى الجامعات الفلسطينية، ينضم إلى مجموعة من الزملاء (أو الزميلات) طالب جديد. ثم تكتشف المجموعة أن الطالب الجديد مسيحي الديانة. هنا بدافع الفضول، تنهال التساؤلات المتنوعة التي تتراوح بين مضمون الإيمان المسيحي ومدى مطابقة تعاليم القرآن لمضمون هذا الإيمان المسيحي، وبين العادات والتقاليد والمأكل والمشرب، وجذور هذا المسيحي الفلسطيني ومن أين جاء ومتى حلّ بأرض فلسطين. إذا كان الطالب المسيحي على معرفة بتاريخه و/أو بجوهر إيمانه، سيتمكن من الإجابة على الأسئلة ومن ثم يتجاوز موضوع الدين لبناء صداقة تدوم سنين طويلة، أما إذا لم تكن لديه دراية أو شخص يساعده في الإجابة على الأسئلة، فسيجد نفسه منعزلاً يتحاشى الاختلاط ليتفادى الإحراج، وهنا نخسر كلنا إمكانية اندماج الطالب المسيحي في وسطه وممارسة دوره البناء، ومن ثمّ تزداد الهوة بين أبناء المجتمع.

يقول المثل العربي: «الإنسان عدو ما يجهل»

هذا المثل ينطبق اليوم على واقعنا العربي، والفلسطيني بشكل خاص، على نحو يضر بنسيج المجتمع ووحدة. خلال مؤتمر المناهج الذي عقدناه في أيلول/سبتمبر عام ٢٠١٩، تم تحديد بعض المشاكل الحقيقية في كتب التاريخ في المنهج الفلسطيني، وتم أيضاً طرح بعض التوصيات، من بينها مراجعة كتب التاريخ. فكتب التاريخ في المناهج تغطي تاريخ العرب والمسلمين عموماً ابتداءً من الدعوة الإسلامية ومن ثمّ انتشار الإسلام، دون تخصيص ما يكفي لبحث تاريخ فلسطين كوطن وبلد مستقل. ولكننا فلسطينيون، نعيش على أرض فلسطين، وسط ظروف غير اعتيادية، حيث نقع تحت احتلال جاثم يحاول طمس الهوية والثقافة وتزييف التاريخ وتحريف القضية. فأين تاريخ فلسطين في كتب مادة التاريخ؟ وما هي مكونات الشعب الفلسطيني؟ هذا سؤال جدي يحتاج إلى عمل حثيث ودؤوب، حتى نكشف عن جذور المواطن الفلسطيني لأن الجهل يدفعنا إلى القلق والخوف مما يدفع إلى العداوة، ولذلك بعض مكونات الشعب الفلسطيني اليوم لا تتقبل المسيحي الفلسطيني لعدم معرفتها بجذوره الضاربة في القدم.

جلّ اهتمامنا في هذا المؤتمر إذن، منصباً على تاريخ فلسطين قبل الإسلام، تحديداً منذ الدعوة المسيحية التي ولدت في فلسطين، وفيها نشأت وتطورت، ومنها انطلقت إلى شتى أرجاء المعمورة، وذلك بهدف إلقاء الضوء على الوجود المسيحي في فلسطين حتى القرن السادس عشر. وبالتالي، الدعوة المسيحية / أو كما يطيب للبعض تسميتها: الدعوة النصرانية / والتي هي دعوة فلسطينية، وعلى الديانة التي هي ديانة فلسطينية بامتياز. فأين هي في مادة التاريخ؟

غياب أي ذكر للمسيحية والجماعة المسيحية الفلسطينية ونشأتها وتطورها، أدى إلى أزمة هوية لدى الفلسطيني المسيحي. من هو؟ من أين أتى؟ وفي ظل انتشار معلومات مبهمة غير واضحة حول حروب الفرنجة وحملات التبشير، يميل الطالب المسيحي والمسلم على حدّ سواء إلى الاعتقاد أنّ جذوره أوروبية إما من القرن الحادي عشر مع الفرنجة أو من القرن الثامن عشر مع الحملات التبشيرية؛ وهنا ينظر المسلم إلى المسيحي على أنّه دخيل على الوطن الفلسطيني، وينظر المسيحي إلى نفسه على أنّه دخيل على هذا البلد ويبدأ في التفكير في الهجرة كمهرب من الاحتلال وسطوته، ومن التطرف الإسلامي المتنامي، بينما غالبية الفلسطينيين المسلمين هم مثل الفلسطيني المسيحي يعانون سطوة الاحتلال ويؤرقهم التطرف. وبالتالي، أحد أهم أسباب أزمة الهوية والانتماء، وأزمة الثقة، هي الجهل. لذلك قلت: «الإنسان عدو ما يجهل».

وحتى نحارب الجهل، علينا أن نضيء شمعة العلم وننشر المعرفة الصحيحة، فنعيد اكتشاف جذورنا المشتركة دون خوف أو وجل من تأثير ذلك على حياتنا اليوم.

فلسطين قبل القرن الأول لم تكن يهودية فقط! فعلاً، كانت اليهودية منتشرة في فلسطين، ولكن كان في فلسطين أيضاً من سكان الأمم الوثنية، فيها رومان ويونان وآراميين وفارسيين وجنسيات متعددة، وذلك منذ القرن السابع قبل الميلاد على أقل تقدير. إذن فلسطين هي بلد التعددية اللغوية والإثنية والعرقية، بلد مضياف فيه مكان للجميع. في القرون الثلاثة الميلادية الأولى، انتشرت المسيحية إلى جانب اليهودية والوثنية. ولكن بين القرن الرابع والسابع، أصبحت المسيحية هي ديانة الأغلبية حتى قيل في منتصف القرن الخامس إن القدس كانت مدينة مسيحية بالكامل. بينما بقي في سائر فلسطين وثنيون وسامريون ويهود وغيرهم.

عند مجيء الإسلام، شكّل المسيحيون في فلسطين أغلبية، ولكن بعضهم اعتنق الإسلام وبعضهم ترك البلد. وبالتالي، من الفلسطينيين المسلمين من كان أصله مسيحي، أو يهودي أو سامري أو وثني. تماماً كما هو الحال في الجزيرة مع الدعوة الإسلامية، فمن النصارى من أسلم ومن اليهود من أسلم ومن الوثنيين من أسلم أيضاً.

خلاصة القول، الفلسطيني اليوم، غير المسيحي، أصله إما فلسطيني وثني أو يهودي أو سامري أو غيره من الإثنيات والأعراق التي كانت منتشرة في ربوع فلسطين. والفلسطيني المسيحي هو الفلسطيني الذي أثر البقاء على ديانته في كنف خلافة كانت منفتحة على التعددية في أغلب الأحيان. وذلك لا شذوذاً عن القاعدة، بل اتباعاً للقاعدة التي سار عليها نبي الإسلام، في عهوده واتفاقيات مع القبائل العربية، وكتاب الدكتور سلوى بالحاج العايب مليء بالأمثلة التاريخية والعملية. وعليه، حتى لا نلعن ظلام الجهل والتجهيل، عملنا مع شركائنا على إضاءة شمعة نور وعلم، نقلقي من خلالها الضوء على تاريخ فلسطين ونمو المسيحية فيها وتطورها، حتى يعرف الفلسطيني اليوم جزئية مجهولة من تاريخ بلاده، ويربط ما بين فلسطين الكنعانية وفلسطين اليونانية وفلسطين الرومانية ومن ثم فلسطين المسيحية البيزنطية وأخيراً فلسطين العربية الإسلامية.

معرفة التاريخ ليست هدفاً بحد ذاتها. دراسة التاريخ تهدف إلى إلقاء الضوء على قبسات من الماضي من شأنها أن تساهم في توضيح بعض أسباب معاناة اليوم فتحدّ من التشرذم وتبادل الاتهامات ونظرات الشك، حتى نتمكن من بناء مستقبل آمن لنا أجمعين على أرضنا ووطننا فلسطين. نأمل من خلال هذا المجهود الحثيث أن نعزز الشعور بالانتماء للأرض، أرض فلسطين، وأرض الديانة المسيحية بامتياز. ونعزز العلاقات المسيحية الإسلامية على أسس من المساواة: مساواة في الجذور، والتاريخ، والمعاناة، والاضطهاد، والخوف والقلق، ومساواة في الطموحات والآمال بالتحرّر من الاستعمار وبالعيش الكريم على أرضنا المشتركة، أرض فلسطين.

أقدم أولاً جزيل الشكر للصديق عمر حرامي، النحلة الدؤوب في مركز السبيل للاهوت التحرّر، ولكل المبادرات الرائعة التي يقومون بها لخدمة الإنسان في فلسطين. فهو الذي عرفني بالأستاذ والباحث حسام أبو النصر، مدير مركز القدس للدراسات والبحوث، والذي من دونه، ما كان لنا اليوم أن نلتقي للإصغاء للبحوث التي أنجزتها كوكبة من الباحثين الفلسطينيين، ومناقشتهم ما عثروا عليه من معلومات قيمة في موضوعنا هذا اليوم.

شكراً لحضوركم واهتمامكم. والآن مع كلمة رئيس المؤتمر، ثم إلى جوهر لقائنا: مع الباحثين ونتائج بحوثهم.

كلمة الأستاذ حسام أبو النصر  
رئيس مؤتمر فلسطين المسيحية

## افتتاحية المؤتمر

أتى هذا الكتاب حصيلة جهد وعمل طويل برعاية سيادة غبطة البطريرك ميشيل صباح، وبدعم سخّي من الاستاذ العزيز جوزيف حزبون المدير الاقليمي للبعثة البابوية، وشراكة مع مركز سبيل القدس برئاسة الصديق عمر حرامي، بعد عمل شاق وطويل لاجراء مؤتمر فلسطين المسيحية إلى النور، بجهود الاخوة في اللجنة العليا للمؤتمر، وبيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية وكادرها وباحثيها والتي تعمل منذ ٢٠ عاما على حفظ هذا التاريخ واعداد المؤتمرات والندوات والملتقيات لخدم اجيالنا، وبالتأكيد لم يأتي هذا المؤتمر وليد اللحظة بل هو حصيلة سنوات من النقاش والتأريخ والبحث والندوات، ضمن رؤيتنا الوطنية لكتابة التاريخ الفلسطيني بشكله الصحيح، بعيدا عن أي ضغوطات سياسية أو دينية أو غيرها. لذلك إن فلسطين شعبا ووطنا متصالحا مع نفسه وتاريخه، فكان مشروعنا الأول هو تسليط الضوء على فلسطين الكنعانية وتاريخها القديم، من خلال لقاءات مع باحثين ومؤرخين ومفكرين على مدار ٢٠ عاما فأكثر، وقد توجت بعقد مؤتمر فلسطين الكنعانية الذي رعته وزارة الثقافة وترأست لجنته التحضيرية، بعيدا عن عمليات التشويه واللغظ السائدة، خاصة مع ازدياد الهجوم وعمليات الطمس للهوية الوطنية، حيث ارتأيت مبكرا أن كتابة هذا التاريخ هي عملية متكاملة مستمرة ضمن العقد التاريخي وأحداث متسلسلة لا يمكن تجاوز تاريخنا المسيحي فيها، بل ونعتز به كفلسطينيين واعتز به كمسلم باعتباره إمتداد لاجدادنا ولسيدنا المسيحي الفلسطيني عيسى ابن مريم المعذبة، لذلك جاءت الرؤية بأن نعقد مؤتمرنا فلسطين المسيحية ضمن تسلسلنا في كتابة التاريخ ليتناول الحقبة الزمنية التاريخية منذ مهد سيدنا المسيح عليه السلام حتى سقوط الدولة البيزنطية عام ١٤٥٣م بروية تاريخية بحث، بعيدا عن أي تأثير ديني أو سياسي، فليس هذا مكانه، فجاءت الاوراق ضمن هذا السياق الزمني بما لا تتجاوزه إلا في حالات التوضيح والاشارة، كما أن هناك من اعترض على اسم المؤتمر كما اعترضوا على فلسطين الكنعانية سابقا، ابشر هؤلاء أن هناك فلسطين الأموية وفلسطين العباسية، وفلسطين الأيوبية وصولا إلى فلسطين العثمانية، بما يخدم رؤيتنا الوطنية لكتابة التاريخ وليس ضمن ما يراه الآخرون دينيا أو غيره. وإن من ينظر للاسم دون التمعن في المضمون هو كمن يرى قشور الأشياء لا باطنها ويحكم بناء عليها فلذلك لن يكون هناك مساحة لنقاش القشور، بل هذا الكتاب فسحة ومجمع علمي فكري ثقافي يتناول هذا الاطار التاريخي، وتصويبه في أحيان والاضافة في أحيان أخرى حتى نكتبه بشكله الحقيقي كما يجب أن يكون وليس كما يريد أعداء الوطن. وفلسطين حضارة متصالحة مع تاريخها وليس لها أي تناقض معه بل تناقضه الوحيد مع الاحتلال الاسرائيلي ومحاولاته لتشويه تاريخ أمتنا المشرف، ففلسطين أرض كنعانية عربية مسيحية إسلامية وطنية



ولا يمكن سلخ اي جزء من هويتها التي تشكل كينونتنا وماضينا وحاضرنا ومستقبلنا. وكي لا أطيل، فإن عجلة كتابة التاريخ تحتاج لإعادة النظر فيها لأن المؤرخ مؤتمن على تاريخنا، ويجب بالضرورة أن لا يخضع لأهوائه أو ضغوطات حزبية أو سياسية أو دينية في كتابته، واليوم انا أعتبر نفسي مؤتمنا على هذا المؤتمر كإيمان آل نسبية وآل جودة على مفاتيح كنيسة القيامة، وكإيمان اخوتنا المسيحيين على أولى قبلتنا، وثالث الحرمين، وعلى مسرى النبي؛ لم لا فأول من انتفض وينتفض دفعا عن الاقصى أهلنا المقدسين والمسيحيين منهم. أخيرا أشكر كل من ساهم في إنجاح هذا الكتاب من باحثين ومفكرين، أثروا أعماله بأبحاثهم وأوراقهم، والتي حرصنا على طباعتها لتكون متاحة ومرجعا هاما للباحثين والمهتمين، وهذا ما يطمئننا أن هناك أيدي نقية ما زالت تحافظ على هذا الإرث رغم محاولات التغول والعبث على التاريخ بنظريات وروايات وقصص الهدف منها حرف البوصلة عن تاريخنا العريق والمتين، ونحن كفلسطينيين لا نقبل لأحد أن يكتب تاريخنا ولن نقبل من أحد منا أن يعبث به ولا نسمح للاحتلال طمسه وتدميره لصالح الامبريالية الاستيطانية التوسعية، على حساب شعبنا .

المجد لسيدنا المسيح عيسى والصلاة والسلام على خاتم انبيائنا سيدنا محمد والسلام عليكم يا أهل السلام .



## الفصل الأول:

# جذور المسيحية في فلسطين



## يسوع المسيح: حياته وتعاليمه من الولادة إلى القيامة والصعود إلى السماء

مقدمة:

ظهرت الديانة المسيحية في فلسطين بعد ولادة السيد المسيح عليه السلام في مدينة بيت لحم عام ٤ ق.م. وبعد نشأته في الناصرة بدأ السيد المسيح رسالته التي أدت إلى وجود الجماعة المسيحية الأولى. وسرعان ما انتشرت المسيحية في القرون القليلة اللاحقة في مختلف أنحاء والإمبراطورية الرومانية، رغم الاضطهاد الذي كان أباطرة روما يمارسونه ضد أتباع هذه الديانة. وأصبحت الديانة المسيحية منذ القرن الرابع دين الإمبراطورية، ثم انتشرت عبر العصور في جميع أنحاء العالم. وسنتناول في هذا العرض، الدور الأول لنشأة المسيحية، من خلال الحديث عن حياة يسوع المسيح وتعاليمه من الولادة إلى القيامة والصعود إلى السماء.

كيف كانت الظروف السائدة قبل ولادة السيد المسيح

كان الرومان يحكمون فلسطين زمن يسوع، وقد اختاروا هيرودس ملكاً على اليهود عام ٤٠ ق.م. وقد ملك على البلاد ستاً وثلاثين سنة، إذ توفي عام ٤ ق.م، أي بعد مولد يسوع بزمن يسير. وكان هيرودس حاكماً لا يعرف العدل في حكمه. وكان في المجتمع اليهودي في زمن يسوع، عدد من الجماعات الدينية نذكر منها: الفريسيون وقد غلب عليهم لقب معلمي الشريعة، والغيورون وقد نشطوا في مقاومة الرومان، والأسينيون الذين اعدوا أنفسهم لاستقبال المسيا، والصدوقيون الذين تعاونوا مع الرومان، وكانوا من الطبقة الأرستقراطية التي كانت تشرف على هيكل القدس، والسامريون الذين بنوا هيكلهم فوق جبل جرزيم. ولقد كان لكل من هؤلاء توقعات مختلفة من المسيا.

البشارة

تعتبر الأناجيل الأربعة المصدر الرئيس لتتبع حياة يسوع، كما وردت في العهد القديم العديد من الآيات التي تشير إلى صفات المسيا، الذي سوف يأتي لكي يخلص العالم. وقد دعمت الحفريات الأثرية المختلفة ما روته الأناجيل عن حياته. وقد ولد يسوع بحسب الأناجيل في بيت لحم خلال حكم هيرودس الكبير. ولا يمكن تحديد تاريخ ميلاده بدقة، بيد أن أغلب الباحثين يحدونه بين عامي ٤ إلى ٨ قبل الميلاد. ويتفق متى ولوقا أنه ينحدر من بيت داود، ويتفقان أيضاً أن هذه الولادة قد تمت بشكل إعجازي، دون تدخل رجل، ويعرف هذا الحدث في الكنيسة باسم «الولادة من عذراء». فقد أرسل الله الملك جبرائيل إلى بلدة في الجليل اسمها الناصرة إلى عذراء تدعى مريم، كانت مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف: إذ دخل عليها الملك جبرائيل وقال: «السلام عليك، الرب معك، لا تخافي، لقد نلت حظوة عند الله، فستحبلين وتلدن أبناء تسمينه يسوع، فيكون عظيماً وابن الله العلي يدعى».

وقد آمن يوسف بمعجزة البشارة ولم يتخل عن العذراء مريم. وقامت مريم العذراء بزيارة قريبتها أليصابات في عين كارم لكي تخبرها بأنها حبل (لوقا ١: ٣٩-٤٥)، وكانت أليصابات حبل أيضاً بيوحنا المعمدان، وأقامت عندها ثلاثة أشهر.

## الولادة

ولد يسوع عندما كان أوغسطس قيصر إمبراطور روما، وكيرينيوس حاكماً لسوريا. وكانت فلسطين ابتداءً من عام ٦٣ ق.م. من المناطق الخاضعة للإمبراطورية الرومانية. ولكي يتحقق الرومان أن الضرائب تقدم لهم على نحو صحيح، أمر القيصر أوغسطس بإحصاء سكان الإمبراطورية، فذهب كل واحد إلى مدينته ليكتتب فيها. وصعد يوسف من الناصرة في الجليل إلى بيت لحم، لأنه كان من بيت داود، ليكتتب فيها مع مريم خطيبته، وكانت حبل. وبينما هما في بيت لحم جاء وقتها لتلد، فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجته في مذود في مغارة، لأنه كان لا محل لهما في الخان. وذلك لكي تتحقق نبوءة النبي ميخا في العهد القديم (٧٥٠ ق.م). ويذكر القديس لوقا أنه كان هناك رعاة يبيتون في البرية ويتناوبون السهر في الليل على رعيتهن، فظهر لهم ملاك الرب وبشرهم بمولد يسوع:

«لا تخافوا! ها أنا أبشركم بخبر عظيم يفرح له جميع الشعوب، ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب. واليكم هذه العلامة. تجدون طفلاً مقمطاً مضجعا في مذود. (لوقا ٢: ٨-١٢).

ويذكر متى أن حكماء من المشرق قد قدموا إلى زيارة الطفل يسوع، وأحضروا هدايا ذهباً ولباناً ومراراً. وهذه رموز تشير إلى الملك والكهنوت والآلام. وقد قدم هؤلاء من بلاد فارس، وكانوا يعنون بدراسة الفلك. وتقول الرواية إن الملك هيرودس قد طلب من هؤلاء الحكماء، أو ملوك الشرق (المجوس)، أن يخبروه عن مكان وجود الطفل يسوع، ولكنهم غادروا المكان دون أن يعلموه بذلك. «ولما رأى هيرودس أن ملوك الشرق (المجوس) قد سخروا به، غضب جداً وأرسل جنوده من أجل قتل جميع الصبيان الذين في بيت لحم وفي كل تخومها، من ابن سنتين فما دون، بحسب الزمان الذي تحققه من المجوس. كما هرب يوسف مع مريم والطفل يسوع إلى مصر من وجه هيرودس الذي غضب من حث المجوس بوعدهم. ويصف إنجيل متى رحلة هروب العائلة المقدسة إلى مصر بقوله:

«إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً: قم وخذ الصبي وأمه واهرب إلى مصر، وكن هناك حتى أقول لك، لأن هيرودس مزعج أن يطلب الصبي ليهلكه».

فقام وأخذ الصبي وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر، هكذا خرج الطفل يسوع المسيح وأمه العذراء مريم والقديس يوسف النجار من بيت لحم إلى مصر، هرباً من بطش هيرودس الملك الذي كان يقتل الأطفال تحسباً لظروف ملك يزاحمه الملك. أخبر الملك يوسف النجار أن يبقى في مصر حتى يموت هيرودس. ومكثت الأسرة المقدسة في مصر حتى وفاة هيرودس الكبير عام ٤ ق.م. وبعد موته عاد يوسف ومريم والطفل من مصر وسكنوا الناصرة.

## طفولة يسوع في الناصرة

ورغم أن السيد المسيح قد ولد في بيت لحم، إلا أنه قد قضى أغلب سنين حياته في الناصرة. فقد عاد يوسف ومريم والطفل من مصر وسكنوا الناصرة. وكانت بلدة صغيرة تبعد نحو ميل إلى الشمال من صفوريا التي كانت من المراكز الكبيرة في المنطقة. ونشأ يسوع في أسرة تحافظ على القيم الدينية، وفي بيئة يهودية مغلقة تنتظر قدوم «الماشيح». ولا تبوح الأناجيل بشيء من أمر أسرته خلال تلك الفترة، سوى أنه كان يمتلئ بالحكمة وكانت نعمة الله عليه (لوقا ٢: ٤٠). وقد وردت في الإنجيل حادثة واحدة تتصل بحياة يسوع المبكرة، عندما كان عمره لا يتجاوز الثانية عشرة. عندما سعدت العائلة إلى اورشليم كعادتهم في العيد. وبعد أن انقضت أيام العيد وأخذوا طريق العودة، بقي الصبي يسوع في اورشليم ووالداه لا يعلمان، بل كانا يظنان أنه مع المسافرين. وبعد مسيرة يوم، أخذوا يبحثان عنه عند الأقارب والمعارف، فما وجداه. فرجعا إلى اورشليم يبحثان عنه، فوجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسا مع معلمي الشريعة يستمع إليهم ويسألهم. ولما رآه والداه

تعجباً. وقالت له أمه:

«يا بني لما فعلت بنا هكذا؟ فأجاب: ولماذا بحثتما عني؟ أما تعرفان أنه يجب أن أكون في بيت أبي؟» (لوقا ٤: ٤٢-٥٢).

معمودية يسوع وبداية خدمته بين الناس عندما بلغ يسوع نحو الثلاثين من عمره، ظهر يوحنا المعمدان في البرية، وكان يعمد الناس ويعظهم، ويعد الناس لمجيء المسيح. وكان تأثير يوحنا في الناس شديداً. وجاء يسوع من الجليل إلى يوحنا كي يعمده، بيد أن يوحنا حاول أن يثنيه عن ذلك قائلاً:

«أنا احتاج أن أتعمد على يدك، فكيف تبجيء أنت إلي؟»  
فأجابه يسوع: «ليكن هذا الآن لأننا به نتمم مشيئة الأب». واعتمد يسوع وخرج في الحال من الماء، وانفتحت السماوات له، فرأى روح الله يهبط كأنه حمامة وينزل عليه، وقال صوت من السماء:

«هذا هو ابني الحبيب الذي به رضيت» (متى ٣: ١٤-١٧).  
وأقام يسوع في البرية أربعين يوماً بعد معموديته. وفي هذا الوقت استطاع أن يتأمل في الدعوة التي أراد له الله أن يقوم بها. فصام أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى جاع. فدنا منه المجرب وقال له: «إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزا». فأجابه يسوع: ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله». وبعد محاولات عديدة من المجرب: قال يسوع: «ابتعد عني يا شيطان لأن الكتاب يقول للرب الهك تسجد وإياه وحده تعبد». لم يستسلم يسوع بالرغم من أن الجوع كان قد أَلح عليه في تلك البرية المقفرة.

#### رسالة يسوع

لم يمكث يسوع في الناصرة إلا قليلاً، فقد ذهب إلى كفرناحوم ليقوم فيها، وقد اعتاد أن يبدأ رحلاته منها. وعندما سمع يسوع أن هيرودس أنتيباس قد أعدم يوحنا المعمدان عام ٢٩م، ذهب لوقته إلى الجليل، وقرأ في الناصرة خلال الصلاة نصاً من التوراة من سفر أشعيا:

«روح الرب علي، لأنه مسحني لأبشر المساكين، أرسلني لأشفي المنكسري القلوب، لأنادي للمأسورين بالإطلاق، وللعمى بالبصر، وأرسل المنسحقين في الحرية، وأكرز بسنة الرب المقبولة»،  
ثم طوى السفر وسلمه إلى الخادم وجلس. وكانت عيون جميع الذين في المجمع شاخصة إليه، فابتدأ يقول لهم: قد تم في هذا اليوم هذا المكتوب في مسامعكم» (لوقا ٤: ١٢-١٨).

وبدأ يسوع عمله التبشيري في المنطقة المحيطة ببحيرة طبريا، فتبعه بعض الرجال ليكونوا رسلاً وتلاميذ، فاختر منهم اثني عشر ليكونوا رسله، كي يحملوا الرسالة التي جاء من أجلها. وعين يسوع أيضاً اثني عشر تلميذاً ليلازموه، وكان هؤلاء الإثني عشر مختارين من حلقة أكبر كانت تتبعه وتشمل نساءً والرسل السبعين، وهم: سمعان بطرس صياد سمك،

يعقوب ويوحنا ابنا زبدي صيادا سمك، أندرواس صياد سمك، يهوذا الاسخريوطي، الذي أسلم يسوع لقاء ثلاثين من الفضة، متى، جاب للضرائب، وفيليبس وبرثولوماوس ومتى وتوما ويعقوب بن حلفى وتداوس. وقال لهم يسوع لقد اخترتكم لتكونوا معي وسأرسلكم لتبشروا الناس، وسيكون لكم سلطان وتطردون الأرواح النجسة. وانطلق يسوع في تبشيره من دعوة المعمدان ذاتها الداعية إلى التوبة، بيد أنه ترك مناطق نهر الأردن واتجه شمالاً، ثم أخذ يطوف قرى الجليل، واليهودية، وجنوب لبنان، ومناطق من الجولان، وشمال الأردن التي كان تعرف باسم المدن العشر، والخليل إضافة إلى اورشليم ومناطق أخرى.

### يسوع المعلم

كان يسوع معلماً يتمتع بشعبية واسعة، وقد تركت تعاليمه بشكل أساسي في أهمية ترك أمور الجسد والاهتمام بأمور الروح، وشجب بنوع خاص مظاهر الكبرياء والتفاخر البشري، وحلل بعض محرمات الشريعة اليهودية، وجعل بعضها الآخر أكثر قساوة كالطلاق. وركز أيضاً على دور الإيمان في نيل الخلاص، وعلى أهمية المحبة. وقد استخدم الأمثال في نشر تعاليمه، لزيادة التأثير في السامعين والوصول إلى قلوبهم وعقولهم. وكانت أمثاله إما أقوالاً موجزة وإما قصصاً موسعة. وقد استخدم يسوع أمثلة من الحياة اليومية ليوضح ملكوت الله، وأوضح أن الملكوت قائم داخل النفوس التي قبلت حكم الله. واستخدم يسوع في أمثاله الصور الزراعية والعادات والتقاليد التي كان معروفة في ذلك الوقت، مما يدل على ارتباطه الوثيق بأرض فلسطين، كما ورد في مثل الزارع، ومثل العذارى. واختلفت مملكة يسوع عن حكم الملك هيرودس، وحكم الإمبراطورية الرومانية. فقد قال: ادفعوا إلى القيصر ما للقيصر وإلى الله ما لله» (لوقا ٢٠: ٢٠-٢٦). وكان أول خطاب علني ليسوع هو العظة على جبل التطويبات التي تنطوي على خلاصة للنقاط الرئيسية في تعاليمه:

هنيئاً للمساكين في الروح، لأن لهم ملكوت السماوات  
هنيئاً لأنقياء القلوب لأنهم يشاهدون الله  
هنيئاً لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون  
هنيئاً للمضطهدين من أجل الحق، لأن لهم ملكوت السماوات  
كونوا كاملين كما أن أباكم كامل  
أحبوا أعداءكم  
لا تدينوا لثلاث تدانوا

ومن أمثاله حول الانتقام: من ضربك على خدك الأيمن، وأحبوا أعداءكم، وصلوا من أجل مضطهديكم، ومثل الغني الغبيّ حول الطمع، ومثل لعازر حول التعالي عن معاناة الآخرين، ومثل من أراد أن يخاصمك ليأخذ ثوبك فاترك له رداءك أيضاً. ومن قصصه، قصة الابن الضال حول المغفرة، وقصة السامري حول المحبة. وقد وجه رؤساء الكهنة ومعلمو الشريعة جواسيس لكي يمسكونه بكلمة. فسأله: هل ندفع الجزية لقيصر أم لا؟ فأجابهم: ادفعوا إلى القيصر ما للقيصر، وإلى الله ما لله. وبين أن المرء لا يستطيع أن يخدم سيدين في وقت واحد.

### معجزات يسوع

كان يسوع يصنع للمعجزات، وتذكر الأناجيل، بشكل مفصل، عددًا كبيرًا من الأعاجيب والمعجزات التي اجترحها. ولقد سجل الإنجيل خمساً وثلاثين معجزة ليسوع. ويظهر يسوع سلطة الله على الطبيعة، فهو يهدئ عاصفة في بحيرة طبريا، ويجول الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل، ويطعم خمسة آلاف شخص بمخمسة أرغفة وسمكتين. وهو يطرد الأرواح الشريرة،



فقد شفى العرج والعميان، والمقعدين والحرس، وغيرهم. وقام بإحياء ابنة يايروس وابن الأرملة الوحيد في نايين، ولعازر صديق يسوع. وكانت هذه المعجزات علامات تشير إلى حقيقة يسوع، وتجربنا بعلاقته الخاصة بالله وبملكوته الآتي. وكانت قيامة لعازر من الموت ذات نتائج خطيرة على يسوع، فقد اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب في دار قيافا رئيس الكهنة وتشاوروا ليمسكوا يسوع بحيلة، فقد خشوا أن يعلن الناس أن يسوع هو المسيا. وعرض عليهم يهوذا أن يقتادهم إليه مقابل ثلاثية قطعة من الفضة.

### الصلاة

كان يسوع يعتزل الناس بين الفينة والأخرى كي يخلو مع الآب. لقد حاول الناس أن يجعلوه ملكا كي يهزم الرومان، فأخبرهم أنه ليس ذلك النوع من القادة. وما قاله كان أشبه بصدمة لهم. وقد تجلّى على جبل الطور لكي يظهر حقيقته لتلاميذه. ولهذا أخذ بطرس ويعقوب ويوحنا وانفرد بهم على جبل مرتفع وتجلّى بمشهد منهم: وظهر لهم إيليا وموسى وهما يكلمان يسوع. وظهرت سحابة ظللتهم وقال صوت من السحابة: «هذا هو ابني الحبيب فله اسمعوا.» وبينما هم نازلون من الجبل أوصاهم أن لا يخبروا أحدا بما رأوا.

وانتشرت تعاليم يسوع واستفحلت شعبيته، إثر نشاط حافل دام ثلاث سنوات. وظهر ذلك بصورة جلية عند دخوله الظافر إلى القدس يوم أحد الشعانين، مما زاد من خطر هيروُدس عليه. كما نشب خلاف بينه وبين رؤساء الكهنة وزعماء اليهود. وكان من الأمور التي دفعت إلى خصومة القادة الدينيين، دخوله إلى الهيكل وطرده الباعة منه. فقد قلب يسوع موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام، ولم يدع أحدا يجتاز الهيكل بمتاع. إضافة إلى مثل الكرامين الذي فسره الصدوقيون ورئيس الكهنة بأنه موجه لهم. لقد جعل يسوع نفسه شخصا غير محبوب لدى رؤساء الكهنة وزعماء اليهود، لأنه لم يخش أن يوجه النقد إلى الفساد في داخل الهيكل. ولهذا قرر مجلس اليهود قتله خلال تواجده في أورشليم ضمن احتفالات عيد الفصح، خوفا من تحوّل حركته إلى ثورة سياسية تستفز السلطات الرومانية وتدمر الحكم الذاتي الذي يتمتعون به. بدأ يسوع الأسبوع الأخير من حياته في القدس بتناول عشائه الأخير مع تلاميذه، حيث قدم فيه لهم الخبز الفطير والنبيد ليحملا معنى خاصا:

«خذوا هذا هو جسدي. وأخذ كأسا وشكر وناولهم

فشربوا منها كلهم وقال لهم: هذا هو دمي دم العهد الجديد.»

فقد أمر يسوع التلاميذ أن يذكروه بتكرار تناول الخبز والنبيد، فقد أراد عندما كسر الخبز، أن يتذكروا جسده الذي سيرفع على الصليب، أما النبيد فقد جعله رمزا لدمه المهرق الذي سيسفك. وبعد الفراغ من العشاء خرجوا إلى جبل الزيتون، وقال يسوع لتلاميذه اقعدا هنا بينما أنا أصلي. وبعد أن أتم يسوع صلاته عاد إلى تلاميذه الثلاثة المختارين فوجدتهم نياما. وبينما يسوع يتكلم ظهرت عصاة يقودها يهوذا أحد التلاميذ الاثني عشر، فدنا من يسوع ليقبله، فقال له: «أقبله يا يهوذا تسلّم ابن الإنسان؟» وكان يهوذا قد ذهب إلى رؤساء الكهنة ليسلم لهم يسوع، ووعدوه بأن يعطوه مالا، وكانت هذه هي الفرصة لكي يسلمه.

اعتقل يسوع بعد العشاء الأخير واقتيد عبر وادي قدرون إلى منزل قيافا رئيس الكهنة، وقضى ليلته هناك. ثم استجوبه قيافا في اليوم التالي واسلمه إلى السلطات الرومانية. وطالبت الطبقة الأرستقراطية في المجلس اليهودي الأعلى بإدانة المسيح وقتله. فأخذوه إلى بلاطس البنطي للمطالبة بصلبه. لكن بيلاطس لم يجد في أقواله ما يبرر الحكم عليه بالموت، لأن شهادات الأشخاص الذين استدعاهم المجلس الأعلى اليهودي كانت متناقضة. فأرسله إلى السجن مع الذين

اتهموا بالثورة على الرومان، وكان باراباس أحدهم. ثم سلمه إلى هيروودس انتيباس حاكم الجليل. وقد جرت العادة في عيد الفصح أن يطلق الحاكم سراح سجين يرغب الشعب في إطلاق سراحه، فسألهم الحاكم:

أيهما تريدون أن أطلق لكم. أجابوا باراباس، فقال لهم بيلاطس:

«وماذا أفعل بيسوع الذي يقال له المسيح؟ فأجابوا كلهم: أصلبه!»

وقد نفذ الحكم بيسوع سريعاً، فقد اقتيد مع لصين إلى مكان الصليب حاملاً صليبه، ثم ربط إلى عمود وتم جلده حتى تسربل بالدم وانهار، وبعد ست ساعات احتجبت الشمس، وصرخ يسوع صرخة قوية: «يا أبي في يديك استودع روحي، وأسلم الروح.» كان الموت على الصليب يستغرق ساعات، بل حتى أياماً، إذ كان المصلوب يموت من الاختناق عندما يصيبه الإعياء الشديد. وقد علق يسوع على الصليب الساعة التاسعة صباحاً، ومات بعد ست ساعات فقط. وتذكر الأناجيل بشيء من التفصيل أحداث محاكمة يسوع أمام مجلس اليهود ثم أمام بيلاطس البنطي ومنازعته على الصليب، حيث صلب المسيح خارج المدينة على تل الجلجثة وقد تبعه ليشهد عملية الصلب جمع غفير.

لم تسمح الشريعة اليهودية ببقاء الجسد الميت على الصليب خلال الليل، فأُنزل رجل يدعى يوسف الرامي جسد يسوع عن الصليب، ووضعه في قبر جديد كان يملكه. وكان هذا يوم الجمعة قبل حلول السبت. وفي صباح يوم الأحد جاءت النساء من اتباع يسوع إلى القبر ليظنّين جسده. فوجدن الحجر مدحرجاً، ولم يجدن جسد الرب يسوع. وبينما كن في حيرة، ظهر لهنّ رجلان عليهما ثياب براقّة، فارتعبن وقال لهنّ الرجلان: «لماذا تطلبن الحي بين الأموات؟ ما هو هنا، بل قام.» إن ملاكاً من السماء أخبرهنّ أن يسوع قد قام من بين الأموات.

ذهبت النساء وأخبرن التلاميذ بأن المسيح قد قام من الموت. وما لبث أن ظهر السيد المسيح لتلاميذه مرّات عدة خلال الأربعين يوماً التي تلت موته، واجترح عدة عجائب بعد قيامته، أكد لهم خلالها قيامته، وزودهم بمزيد من تعاليمه. كان تأثير القيامة عميقاً في تلاميذه، وخاصة بعد حلول الروح القدس عليهم، فطفقوا يستعدون لنشر الأخبار السارة في كل مكان. أمّا حياة التلاميذ الاثني عشر ومن معهم، أو حياة الكنيسة الأولى في عهد الرسل يمكن معرفة نشاطاتها عن طريق سفر أعمال الرسل، فبعد خمسين يوماً من قيامة يسوع حلّ الروح القدس على الكنيسة الأولى وفق السفر، ويمثل هذا الحدث للمسيحيين ميلاد الكنيسة في القدس. وكان أعضاؤها يداومون على تلقي المواعظ الدينية والصلاة وكسر الخبز وتقاسم جميع ما يملكون. وقد استطاع الرسل أيضاً بحسب سفر الأعمال اجترار عدد من العجائب والمعجزات، وكانت تعاليمهم وعظاتهم، خصوصاً عظي بطرس الأولى والثانية، سبباً في تدمير مجلس اليهود، ما أدى إلى توقيف بطرس ويوحنا عدة مرات في السجن، وكذلك بولس فيما بعد. وإن كان أحد القيامة يوم فرح بالنسبة لتلاميذه، فيوم الصعود كان أبهج الأيام. ففي هذا اليوم عاد يسوع إلى أبيه السماوي، إذ بعد أن نزل إلى الأرض، فإنه يعود الآن إلى السماء وقد أكمل رسالته.

## المسيحية في شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام منعطف القرن السادس إلى السابع

كانت شبه الجزيرة العربية وطن النبي محمد - حتى الربع الأول من القرن السابع - تقع في زاوية هادئة نائية من العالم. وكانت الأحداث التاريخية تبدو بعيدة عن هذه المنطقة، مما لم يُتَح للعرب ولا في أي حال من الأحوال أن يلعبوا دوراً ريادياً فيها، وبدوا حينذاك وكأنه حكم عليهم أن يقفوا متفرجين حياديين في مسرح الأحداث. وكان ذلك لاعتبارات عدة منها: أن كلمة الفصل لم تتقرر بعد، لاعتبارات عديدة. كان القرن السادس هو زمن الاضطراب الذي يسبق الهيجان، وكان كل شيء في طريقه نحو التطور، وكان انتقال القرن السادس إلى السابع فترة مفاجآت وتحول لاعتبارات عديدة. وعلى ضوء هذه الاعتبارات والخلفيات يقتضي الأمر النظر في نشأة القرآن وفهمها.

### ١. الخلفية السياسية:

في منعطف القرن السادس إلى السابع كانت شبه الجزيرة العربية شبه فراغ من الأحداث الساخنة وبعيدة عن القوتين العظميين آنذاك، وهما الدولة البيزنطية في الشمال الغربي والدولة الفارسية الحديثة النشوء في الشمال الشرقي. وكانت الدولة البيزنطية تحتل شمال إفريقيا والنواحي الأخرى حول النيل، وشبه جزيرة سيناء وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبعض الأجزاء الأوروبية. أما الدولة الفارسية الحديثة فكانت تسيطر على المنطقة الواقعة بين بحر قزوين والخليج الفارسي، ومن نهر دجلة غرباً حتى نهرى أوكسس وإندوس شرقاً، وكانت عاصمتها سلوقية - قتسيفون (طسيفون قديماً). والتقت حدود الدولتين في بلاد ما بين النهرين شمال الجزيرة العربية، مما اضطر كل من الدولتين أن تخلق لها منطقة عازلة أو حزاماً فاصلاً. وكانت تنزل في هاتين المنطقتين العازلتين قبيلتان عربيتان كانت كل واحدة منهما تابعة لإحدى هاتين الدولتين. فالغساسنة كانوا غرباً أي في الجزء الخاضع لبيزنطة، والمناذرة شرقاً ضمن النطاق الفارسي. وبالطبع لم تكن القوتان العظميان لتسندا إلى القبائل العربية قسطاً من المسؤوليات إلا بعضاً من الأدوار الجانبية فقط، فكانت تجنّدها في حالة هجوم الحيوش المعادية وكان عليها أيضاً صد الغزوات التي كانت تشنها القبائل البدوية وكذلك حراسة الطرق التجارية. وكانت كل من الدولتين الكبيرتين تسعى إلى توسيع نطاق نفوذهما في الجزيرة العربية مما كان له تأثير على حياة محمد منذ ولادته وزمن حياته وحتى وفاته. واتفق أنه في العام ذاته الذي ولد فيه النبي حاول أبرهة اجتياح الجزيرة العربية من

١ هكذا سماها رودى باريت (Rudi Paret)، وهي تسمية حق، في كتابه «محمد والقرآن»، دار النشر شتوتغارت وبرلين وكولون وماين ١٩٩٦/٢، صفحة ٩.

٢ المزيد على نلك في كتاب (Graf) الجزء الأول، صفحة ١٥ والخ. وعرفان شهيد «غسان»، في موسوعة الإسلام، الطبعة الجديدة الثانية، صفحة ١٠٢٠ الخ... و (J.S. Trimmingham) صفحة ١٧٨-١٨٨.

٣ لمزيد على هذا في كتاب (Graf) الجزء الأول، صفحة ١٨ الخ... وعرفان شهيد، الموضوع «للخميون» الطبعة الجديدة، EI-V صفحة ٦٣٢ - ٦٣٤.

٤ ليس هناك إلا مصادر قليلة يعتمد بها تروي أخبار أبرهة. ووفقاً ل Procopius احتل الملك الأثيوبي Hellesthea ios جنوب العربية في الربع الثاني من القرن السادس، وقتل الملك اليمني ونصب مكانه اثيوبياً يدعى Esimphaios، الذي لم يبق في المنصب مدة طويلة لأن الأثيوبيين الذين كانوا قد استوطنوا جنوب العربية ثاروا عليه ونجحوا في عزله ونصبوا أبرهة على العرش بدلاً منه. أما ماضيه فليس واضحاً كل الوضوح، وعلى الأرجح كان عبد أحد التجار البيزنطيين من Adulis. لکنه

الجنوب، وكان أبرهة هذا حبشياً وأميراً على اليمن، وكان خاضعاً للدولة الإثيوبية. وكان الاثيوبيون بطبيعة الحال الجغرافي موالين للبيزنطيين الذين كانوا يهدفون من وراء هذا الهجوم أن يقيموا سداً في وجه النفوذ الفارسي في الجزيرة العربية. ومما تناقلته الروايات عن أبرهة أنه كان يقود فيلاً في طليعة الجيش، ولذلك دعيت تلك السنة «بسنة الفيل» وقد وصلت الحملة أبواب مكة، ولكنها فشلت بسبب تفشي الوباء، ولم يلبث أبرهة حتى مات هو أيضاً بعد وقت قصير. وبهذا انتهى حلم البيزنطيين بالسيطرة على الجزيرة العربية سيطرة غير مباشرة.

أما الفرس فقد كانوا أوفر حظاً في النجاح. ففي عام ٥٧٢ هملوا من الشمال الشرقي على الجانب الغربي للخليج الفارسي وعلى أجزاء من جنوب الجزيرة العربية وطردها منها الأثيوبيين فباتت سيطرتهم على تلك البلاد سيطرة مباشرة. والحدث الثاني ذو الأهمية السياسية في الشرق جرى عام ٦١٠ وهو عام دعوة النبي محمد، لأنه بعد أن اغتصب فوكاس (وهو بيزنطي) الملك وقتل الإمبراطور موريقيوس (عام ٦٠٢) جرد الملك الفارسي «خسرو الثاني» حملة على الدولة البيزنطية ونجح خلال خمس سنوات في احتلال شرقي آسيا الصغرى والوصول حتى خلقدونيا. وجاءت الجيوش الفارسية من الشمال بقيادة الجنرال شاهين واجتاحت سوريا وفلسطين عام ٦١١ واحتلت القدس عام ٦١٤. وتمكنت من الوصول عام ٦١٩ إلى مصر وانتزعت هذه البلاد أيضاً من البيزنطيين. وراح ضحية هذه الحملة مئات الكنائس والاديرة التي دمرها الفرس، واستولوا كذلك على عود الصليب المقدس في القدس واخذوه معهم. وفي هذه الأثناء طرأت تطورات جذرية على الحال في القسطنطينية. فقد جاء هراكليوس (هرقل) بجيشه ودخل المدينة يوم ٢ تشرين الثاني عام ٦١٠ وعزل فوكاس واعتلى عرش الإمبراطورية. وفي عام ٦٢١ حمل حملة مضادة على الفرس واسترد منهم مصر وفلسطين وسوريا. وتمكّن من القضاء على جيش الفرس بمساعدة الأرمن الكرجيين والخزريين في المعركة قرب نينوى وهدم عاصمتهم سلوقية قتسيفون، واستطاع بعد سنتين من ذلك الحدث أن يسترد ذخيرة الصليب المقدس إلى القدس في موكب انتصار مجيد. ولكن فرحة البيزنطيين بهذا النصر لم تدم طويلاً، لأن الدولتين الكبيرتين اللتين أنهكتا طاقتيهما في حروبهما مع بعضهما البعض، مكنتا دولة عظمى جديدة من الظهور في الجزيرة العربية وكانت في بداية نشوئها.

وكان هذا الحدث مفاجئاً للدولتين الكبيرتين واضطرهما الأمر الى إفساح المكان ليتسع لدولة عظمى ثالثة. لم يعد موقف العرب من التاريخ موقف المتفرج، بل أخذوا يلعبون فيه دوراً رئيسياً. وكان الجيش الإسلامي عام ٦٣٠ قد أخضع شبه الجزيرة العربية بقيادة النبي محمد، لكنه لم يكتب له أن يعيش ليشهد بنفسه استيلاء أتباعه على فلسطين وبلاد ما بين النهرين خلال الست سنوات التي تلت وفاته.

لم تكن الخلفية السياسية للدولتين الكبيرتين ولا الدور الذي تيسر للعرب في مستهل القرن السابع أمرين خافيين على النبي محمد، فلدينا دلائل قرآنية تشير إلى موقفه إزاء الأحداث الجارية، ومنها: إحدى السور التي رافقت الحجة المكية الأولى والتي تسلط الضوء على بعض هذه الأحداث السياسية، إنها سورة ١٠٥ والتي سميت أيضاً باسم «سورة الفيل» وتتناول

اشتهر بترميم سد مأرب وكان ذلك في عام ٦٥٧. وتعلل المعسادر الإسلامية هجومه على مكة بأنه أراد ان يهدم الكعبة حتى تحل الكنيسة التي بناها في صنعاء محل الكعبة محجاً يزوره الحجاج. ومزيداً على هذا راجع A.F.L. Beeston، الموضوع «أبرهة»، الطبعة الجديدة I- El صفحة ١٠٢ الخ. و L.I.Conrad، الموضوع Abraha and Muhammad: some observations apropos of ehronology and literaty topoi in the earty Arabic historical tradition“ نشر المقال في BSOAS عام ١٩٨١ صفحة ٢٢٥ - ٢٤٠.

٥ قابل: فيليب حتي، تاريخ سوريا والمشملة على لبنان وفلسطين، نشر في London and New York ٢/١٩٥٧. والمؤلف ذاته: الشرق الأدنى في التاريخ، تاريخ ٥٠٠٠ عام، نشر في Princeton, New York, Toronto and London عام ١٩٦١ و George Ostrogorsky: تاريخ الدولة البيزنطية، صدر في Munchen

نبأ زحف أبرهة الأشرم إلى مكة، والتي تعزي سبب انهزامه إلى العناية الإلهية لأن مصير تلك المدينة العربية مسقط رأس النبي وموضع إقامته ليست غائبة عن بال الله، فهو الذي يحارب عنها.

كما يدعو إلى الانتباه إلى أن دعوة النبي جاءت في عصر اضطرابات وتحركات سياسية كبيرة، كما كانت الحال أيضاً زمن دعوة الكثيرين في العهد القديم. وكان محمد وقت دعوته يمارس مهنة التجارة، فلم يكن مروره - أحياناً - في مناطق نفوذ الدولتين أثناء «رحلات عمله» أمراً بعيد الاحتمال. حتى وإن لم يكن الأمر صحيحاً فإنه من المستحيل أن يعيش المرء آنذاك في مكة وهي المدينة الواقعة على أهم الطرق التجارية دون التأثير بالتحركات السياسية. أما كونها قد بقيت مصونة من هذه الاضطرابات، وظلت تجارتها ذات شأن وازدهاراً، فذلك يشير إلى تدخل العناية الإلهية. لأن الله هو الذي «أطعمهم (أي قريش) من جوع وأمنهم من خوف» (سورة قريش وأيضاً سورة الأنشراح): «ووضعنا عنك وزرك».

كانت الاضطرابات التي حدثت حوالي عام ٦١٠ ذات تأثير ثوري وباعثه على تغييرات جذرية. وليس من قبيل الصدفة أن فكرة قرب انتهاء العالم والدينونة كانت تلعب دوراً هاماً في السور الأولى. وحسب رأي العالم Noeldeke<sup>٦</sup> هناك ٤٨ سورة يرجع عهدها إلى الحقبة المكية الأولى منها حوالي عشرين سورة تحوي إشارات مباشرة وثلاث عشرة سورة إشارات غير مباشرة إلى الأمور الأخيرة ونهاية العالم. وما كانت الأحداث التي دارت في شمال الجزيرة العربية إلا لتوحي بأن العالم يوشك أن يهلك. وشهد على ذلك أسماء بعض هذه السور مثل:

- سورة الليل رقم ٩٢
- سورة القارعة رقم ١٠١
- سورة الزلزلة رقم ٩٩
- سورة الانفطار رقم ٨٢
- سورة التكوير رقم ٨١ (المقصود بها الشمس والنجوم)
- سورة الانشقاق رقم ٨٤
- سورة القيامة رقم ٧٥
- سورة الحاقة رقم ٦٩
- سورة الواقعة رقم ٥٦

كان محمد واثقاً من رسالته إزاء هذه الشدائد الفاجعة المزمع إتيانها واستطاع أن يهز مشاعر الناس لمواجهةها قبل فوات الأوان، وقد توجه أولاً إلى أهل مدينته وعشيرته. وكان في إعلانه عن الدينونة يتمثل بصور عالقة بذهنه وعلى الخصوص صور مسيحية. لأن هذا الموضوع من سمات الكنيسة النسطورية المميزة<sup>٨</sup>. وهناك مجال للاعتقاد بأن عظات

٦ راجع M.J. Kister في «مكة وقبائل العربية» والمؤلف ذاته في «المجتمع والدين من الجاهلية إلى الإسلام» نشر في Vermont / Variorum ١٩٩٠ صفحة ٣٧.

٧ T. Noeldeke الجزء الأول صفحة ٧٤ الخ.

٨ قابل أيضا Philippe Gignoux في «Le doctrines eschatologiques de Narsai» صدر في L'OrientSyrien (١١) ١٩٦٦، Vernon، صفحة ٣٢١-٣٥٢ و

٣٦١-٤٨٨ وكذلك الجزء (١٢) عام ١٩٦٧، صفحة ٢٣-٥٤.



الدينونة كانت تسمع أيضاً في الجزيرة العربية لكننا لا نملك عظة واحدة وجهت لأهل مكة على نحو مباشر أو باليقين. إنما محمد وحده كان واثقاً من أنه رسول هذه المدينة وليس سواها. ولم يأخذ في نشر دعوته خارج حدود مكة إلا في وقت لاحق.

لم يُشر محمد إلى الخلافات بين بيزنطة وفارس والتي أوقدت نار الحروب بينهما إلا إشارة واحدة وهي السورة ٣٠ التي يعزوها إلى الحقبة المكية الثالثة واسم السورة «الروم»، وكتبت على الأغلب بعد سقوط فلسطين عام ٦١٤ م. وتقول الآيات ٢-٤: «غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون، في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» (أي عندما يفوز البيزنطيون بالنصر). يلاحظ في هذه الآيات أن النبي ينحاز إلى البيزنطيين ويقف ضد الفرس ويتوقع أن يعود الأولون ويغلبون، الأمر الذي تم بالفعل فيما بعد. وفي هذا الوقت بالذات الذي يعد الحقبة المكية الثانية كان موقف محمد إلى جانب البيزنطيين موقفاً جليلاً لا لبس فيه، لأن انتصار البيزنطيين كان لا يزال انتصار المؤمنين آنذاك.

## ٢. الخلفية الكنسية:

كما لاقت الحالة السياسية في منعطف القرن السادس إلى السابع اضطرابات وتحركات كبيرة كتلك الحالة التي لاقتها الكنسية أيضاً. واعتاد الكثير من الباحثين ممن نقلوا أخبار المسيحيين زمن محمد أن يظهروا العقائد المسيحية والثقافة الكنسية وطقوسها وأعمال التقوى وكأنها قد تمت صياغتها بشكل نهائي. وفي الواقع لم تكن الحال هكذا. لأن الكثير مما له علاقة بالكنيسة كان في حالة مخاض، وكان الكثير من الأمور لم توضح والكثير لم يفصل فيه بعد. وفيما يلي شرح موجز لأهم خواص الجماعات المسيحية المتدينة:

### (١) مفهوم «الديانة القومية»

من أهم الميزات التي تميزت بها ديانات الهلال الخصيب هي الميزة «القومية».. فلا مناص لنا من وضعها نصب أعيننا إذا أردنا فهم القرآن فهماً صحيحاً. ويعني مفهوم الديانات القومية أن الحضارة القومية ولغتها وهويتها وانتماءها الديني تكون وحدة واحدة لا تتجزأ في هذه الديانات. وقد كانت القومية والدين متشابكين تشابكاً تاماً لكن لم تكن القومية بمفهومها العصري الذي نشأ في القرنين الثامن والتاسع عشر. وينطبق هذا الأمر على الديانات الثلاث التي تعرف عليها محمد. فالزرداشتيه (نسبة إلى زورواست) كانت ديانة الدولة الفارسية ومرتبطة بالقومية الإيرانية واللغة الفارسية ارتباطاً وثيقاً. كما ينطبق هذا أيضاً على اليهودية، حتى لو لم يكن لها إقليم خاص بها في زمن محمد، لكنها كانت بلا شك ديانة قومية لأن الشعب والديانة كانا متشابكين تشابكاً قوياً، كما كانت حتى طقوس اليهود الدينية في بلاد العرب باللغة العبرية. إن المتناقل عن الديانة اليهودية أنها نجحت في أن تصبح ديانة قومية ذات إقليم خاص بها في جنوب غرب العربية وهذا مرده إلى اعتناق (ذو النواس) ملك حمير الديانة اليهودية بين عامي ٥٢٢-٥٢٥ م. ومن المحتمل أن المسيحية كانت على خلاف ذلك لأنها كانت منذ البداية تلتزم الاتجاه التبشيري ولم تكن لترتبط بأية لغة من اللغات وأي شعب من الشعوب ارتباطاً خاصاً، وذلك استناداً إلى التوصية بأن «تلمذوا جميع الأمم». ولكنها وإن لم تكن قومية بحد ذاتها، بل عالمية، فإن تكوينها الكنسي كان ومنذ البداية ذا طابع قومي. فقد كانت في الكنيسة الأولى طوائف مسيحية يهودية وأخرى هليلنية (يونانية). وقد لعب هذا المفهوم دوراً هاماً فيما بعد فيما يتعلق بتكوين الكنيسة ونظامها. فقد نشأت كنائس قومية كان

٩ نقل إلينا التاريخ الإسلامي إحدى هذه العظات المسيحية العربية وترجع إلى قس بن ساعدة، ومع أن ما نعرفه عن هذه الشخصية يشوبه الغموض إلا أن أحداً لا يشك في حقيقة كونه التاريخي. (سأبي ذكره مرة ثانية في آخر هذا المقال).

أعضاؤها مرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالثقافة «القومية» ولغتها. وكان هذا الأمر من الأهمية بمكان لهذه الكنائس من أجل فهمها لواقعها. وفيما يلي صورة موجزة لهذه الكنائس القومية:

#### أ. كنيسة «الدولة الملكية»:

يرمز الاسم إلى كنيسة الدولة البيزنطية التي كانت تساند مجمع خلقدونيا (٤٥١) واسمها «ملكية» لم يكن الاسم الأصلي (وهو مشتق من مالكا بالسرانية وملك بالعربية) بل كان لقباً لقبها به المسيحيون غير الخلقدونيين في القرن العاشر إشعاراً بالذم وكناية عن أن الخلقدونيين في ذلك المجمع لم يتبعوا التعليم المسيحي النقي بل أذعنوا لسلطة القيصر مارسيون. ومما لا شك فيه أن الدولة والكنيسة كانتا في الواقع متداخلتين بعضهما ببعض، وكانت الكنيسة عند نهاية القرن السادس وفي بداية القرن السابع كنيسة الدولة البيزنطية الرسمية وينتمي إليها البطاركة الثلاثة هم بطريك الإسكندرية وبطريك أنطاكية وبطريك القدس. أما من الجهة الحضارية فإن الكنيسة الملكية كانت تتسم بالطابع اليوناني المحض، لأن أتباعها كانوا إما يونانيين أو من غير اليونانيين الذين كانوا من الطبقة المثقفة وتحضروا بالحضارة الإغريقية وأصبحوا هيلينيين. لكن الكنيسة لم تستطع أن تثبت في عضويتها عدداً كبيراً من المواطنين الذين كانوا يتكلمون السريانية والسالكين القرى والأماكن الصحراوية والجبليّة في سوريا وفلسطين ومصر. وكانت لغة هذه الكنيسة لغة حضارتها (أي اليونانية) وفي الوقت ذاته كانت لغة التوراة والطقس الديني. وكان النبي محمد مطلعاً على أمور البيزنطيين كما تدل على ذلك الآيات المقتبسة أعلاه، وكان تأييده لهم تأييداً حاسماً كونهم المؤمنين.

#### ب. الكنيسة النسطورية<sup>١١</sup>:

يشير هذا الاسم إلى الكنيسة التي استوطنت نواحي ما بين النهرين والواقعة في دولة فارس الزاردشتية. وبالرغم من أنها تحمل اسم نسطوريوس وهو الذي رفضت تعاليمه وأدين في مجمع أفسس عام ٤٣١، فقد كانت تعلن أنها خليفة الكرسي الإنطاكي الفرعي وأنها أم جميع البطريكيات<sup>١٢</sup>. ونتيجة الصراعات التي استمرت بين بيزنطة والفرس اضطر المسيحيون القاطنون حول دجلة والفرات إلى الابتعاد شيئاً فشيئاً عن بيزنطة ليحافظوا على كياناتهم هناك، وأعلنوا عن انفصالهم، والذي كان إدارياً في بدايته في مجمع سلوقية قتسيفون عاصمة الدولة الفارسية عام ٤١٠، كما أعلنوا أن كنيستهم أصبحت كنيسة وطنية مستقلة عام ٤٢٤، وكان يرأسها منذ ذلك الحين رئيس خاص بها يلقب «كاتوليكوس»، وكانت تنقسم إلى عدة مطرانيات ومراكز رؤساء مطارنة. وتم بعد ذلك ليس بمدة طويلة الانفصال العقائدي. وإذا أدين تعاليم نسطوريوس وأعلنت كفرة في مجمع أفسس عام ٤٣١ فقد جاء الانفصال الكنسي بعد الانفصال السياسي. ولم يكن عامل الانفصال عن بيزنطة سياسياً فقط، بل كان حضارياً أيضاً، فقد لعبت الخلافات الحضارية دوراً لا يستهان به حتى في النزاعات العقائدية أيضاً. فمن الناحية الحضارية كان النساطرة يعلنون أنفسهم خلفاء الأشوريين، ولم تكن لغتهم اليونانية، بل السريانية الشرقية التي ترجم بها الكتاب المقدس في وقت موغل في القدم<sup>١٣</sup> حيث كانت لغة الليتورجية والشعائر الدينية أيضاً. وكانت الكنيسة النسطورية من أكثر كنائس الشرق ازدهارا. وانتشر عملها الإرسالي منذ زمن قديم جدا في الخليج الفارسي وحتى جنوب العربية. وكان في منتصف القرن الثالث مطران مختص بقطر والبحرين. وبعد أن احتل الفرس شبه الجزيرة العربية أخذنا نسمع عن مطرانيات نسطورية في صنعاء وجزيرة سوقطرة في اليمن. وتأسست مطرانيات نسطورية

١١ مزيداً على هذا B. Holmberg الموضوع "Nasturiyyum" الطبعة الجديدة EI-VII صفحة ١٠٣٠-١٠٣٣، و W.Hage «التأثير» صفحة ١٢ الخ.

«الكنيسة الحالة»، صفحة ١٠ الخ. و Graf في كتابه التاريخ "Geschichte" صفحة ٧٠ الخ. و J.S. Trimmingham صفحة ١٥٩ الخ.

١٢ راجع B. Heiler، «الكنائس الشرقية» اصدار Leiden and Koin ١٩٦٤، صفحة ٤٢١.

١٣ F.Rillet الموضوع "Syriac" في الموسوعة "of the early church" الجزء II صفحة ٨٠٩ الخ.

أيضا في سوريا وفلسطين في بداية القرن السابع بعد أن احتلها الفرس عام ٦١٤. وكان المبشرون النسطوريون قد وصلوا قبل ذلك - في القرن الرابع - جنوب غرب الهند وحتى الصين في عام ٦٣٥. وكان المرسلون يتبعون بالطبع الطرق التجارية، ومن غير المستبعد أن صلة كانت لهم بمكة أيضا لكونها مدينة تجارية، مما يجعلنا نفرض أن النبي محمد تعرف أيضا بالنساطرة وخاصة لأنه كان تاجراً.

### ج. الكنائس القومية الشرقية (المذهب القائل بالطبيعة الواحدة):

كما أن الأسباب التي دعت إلى تأسيس كنيسة وطنية سريانية خاصة كانت أسبابا سياسية/حضارية، هكذا كانت هناك أسباب لاهوتية/حضارية دعت إلى تأسيس ثلاث كنائس قومية أخرى. وكان السبب المباشر لتأسيسها مجمع خلقدونيا الذي التأم عام ٤٥١ للبت في موضوع شخص المسيح. أما الصيغة التي أقرها المجمع أن في المسيح طبيعتين لا تقبلان «الدمج ولا الانفصال» هي الصيغة التي أراد القيصر مارسيان أن يحققها بالقوة من أجل الحفاظ على وحدانية إمبراطوريته، وكانت هذه الصيغة قد قبل بها اليونانيون والرومان، ولكن الشرقيين قابلوها بالمعارضة. ويدعى هؤلاء الشرقيون «ذوي الطبيعة الواحدة» لأنهم رأوا في الكلمة الذي صار جسداً طبيعة واحدة فقط أي طبيعة إلهية/إنسانية، وهم ينقسمون إلى ثلاث فئات ذات صفات حضارية خاصة.

### الكنيسة الأرمنية:

يعود تأسيس هذه الكنيسة حسب اعتقادها إلى التلميذ برثولوماوس والرسول تداوس. وقد اهتدت أرمينيا إلى المسيحية على يد غريغور المتنور (+٥٢٣) في زمن الملك تيريداتس الثالث (٣٣٠-٣٥٢)، وتم تجزئة أرمينيا بين بيزنطة ودولة الفرس في عام ٣٨٧. وبما أن مطارنتها كانوا منذ عهدها الأول يتلقون الرسامة في قيصرية كبدوكية (جنوب البحر الأسود) والتي كانت تقع في المنطقة البيزنطية فإن الكنيسة على البديهة تبنت قرارات خلقدونية، ولم يتم رفضها إلا فيما بعد حين جرت اتصالات بينها وبين الكنيسة اليعقوبية في عهد القيصر تيودورا، وفي مجمع فاغارتاباط الذي دعت إليه الامبراطورة نفسها، وتأكد الرفض من جديد في مجمع دفين (٥٢٧). إنه لم يكن من بين الكنائس القومية كالكنيسة الأرمنية التي لعبت دورها القومي على هذا النحو من الروعة. فإن الشعب والدين هنا وحدة لا تتجزأ، بل هما يبادلان الأدوار. وبالإضافة إلى ذلك هناك اللغة الخاصة بها وهي الهندية الأوروبية التي طورها معروب في بداية القرن الخامس وأدى وضعها الحضاري/الجغرافي إلى تضمينها عناصر فارسية يونانية وسريانية، وسرعان ما ترجمت بهذه الكتابة الحديثة التطور كل من التوراة والطقس الكنسي وكتابات مسيحية أخرى<sup>١٠</sup>. ومما لا شك فيه أن موقع هذه الكنيسة جنوب شرق البحر الأسود وبعدها الشاسع عن الجزيرة العربية يتيح لنا القول بأن النبي محمد لم يعرف شيئاً عن هذه الكنيسة ولم تكن له صلة مع أحد من أعضائها.

### الكنيسة اليعقوبية السورية الوطنية

نجد هذه الكنيسة في الغالب<sup>١٠</sup> على الأرض البيزنطية وخاصة في المناطق الجبلية في سوريا وفلسطين وأيضا في آسيا

١٤ راجع أيضا S.J. Voicu «اللغة الأرمنية وأدبها» في: Encyclopedia of early Church I, ١٩٩٢, Oxford University Press, N.York, صفحة ٥٧٩ الخ.

١٥ كان في الدولة الفارسية عدد ضتل من الطوائف السورية الوجدية الطبيعية والتي لم تنضم إلى الكنيسة النسطورية. وكان يشرف على هذه الطوائف مطرانيتان مستقلتان بعضهما عن بعض، وكان مركز أحدهما دير ماتاي (مناي) والأخرى مدينة تغريت على دجلة. وكانت علاقة هذه الطوائف بالكنيسة الأرمنية علاقة حسنة ودامت حقبة من الزمن إذ كانت هذه الأخيرة أيضاً ضمن الدولة الفارسية. ولم يتم اتحاد هذه الطوائف بالكنيسة اليعقوبية السورية إلا سنة ٦٢٩ بعد أن احتل



الصغرى وما بين النهرين. وإن الأثرية العظمى من أتباعها هي من أهالي سوريا المحليين. وكانت أنطاكية مركز هؤلاء المسيحيين التي دامت لمدة طويلة إلى أن طردهم الملكيون من هناك في بداية القرن السادس، لأن هؤلاء السوريين عارضوا قرارات خلدونيا معارضة صريحة وخالفوا البيزنطيين. وكان الفضل في تنظيم هؤلاء المسيحيين وجمع شملهم في كنيسة واحدة يعود إلى يعقوب بارادايوس والذي سميت الكنيسة باسمه. ويدين يعقوب بنجاحه لشخصين هما أمير الغساسنة الحارث بن جبلي والقيصرة تيودورا، لأن ذلك الأمير الغساني هو الذي قدم إلى القيصرة عام ٤٥٣ وطلب منها الموافقة على رسامة بارادايوس مطرانا لإديسا (عرفة). وكانت القيصرة تيودورا وهي زوجة القيصر يوستينيان والتي كانت بلا شك من ذوي الطبيعة الواحدة، عرفت بتوليها حماية ذوي الطبيعة الواحدة ودمجهم في الدولة البيزنطية على قدم المساواة. ولم يكن أمرها خافياً عن زوجها بالطبع. وإنما جعلت البطريك الإسكندري ذوي الطبيعة الواحدة - وكان هو أيضاً تحت حمايتها - يقوم بخدمة الرسامة هذه. كما حصل راهبان سوريان آخران على الرسامة المطرانية بإيعاز من القسطنطينية، مما أتاح لبارادايوس وهذين المطرانين التنقل في الشرق وإجراء رسامة الكهنة وتنظيم شؤون الطوائف. وهكذا نشأ في الإمبراطورية البيزنطية في وسط القرن السادس كنيسة سورية على رأسها بطريك. وكانت لغة هذه الكنيسة اللغة السريانية الغربية التي ترجم بها الكتاب المقدس منذ عصر مبكر واسم الترجمة (ترغوم بيشيتا). ونشأ في إديسا ليتورجية ونظمت تراتيل خاصة بالكنيسة. ومن مميزات المسيحية السورية الهامة الأخرى رهبنتها. فخلال رهبنة الغرب كانت الرهبنة في الشرق خاصة بالنسك والزهاد الذين اعتزلوا الدنيا وانصرفوا إلى الصحراء والجبال النائية والأراضي القاحلة ليقضوا حياتهم في الصلاة والتخلي عن الدنيا تخلياً تاماً. وكانت صحاري فلسطين وسيناء والأردن وسوريا في القرن السادس مليئة بمثل هؤلاء الرهبان وغيرهم. وكان محمد عارفاً بالرهبان ويؤكد ذلك القرآن نفسه. ولم يكن هناك خلاف بين محمد والرهبنة إلا في وقت متأخر في الحقبة المدنية<sup>١٦</sup> (نسبة إلى المدينة). وهكذا أصبح موقف القرآن من الرهبنة موقفاً ازدواجياً يتأرجح بين المدح من جهة وبين النقد من جهة أخرى<sup>١٧</sup>.

### الكنيسة القومية القبطية

هذه الكنيسة والكنيسة السورية ذي الطبيعة الواحدة متماثلتان، بينما القبطية هي على الأرض المصرية. وحسب المفهوم السائد لديها تنسب تأسيسها إلى البشير مرقس. وكانت الإسكندرية من بين أهم المراكز الكنسية اللاهوتية قديماً، ورفعت فيما بعد إلى إحدى كراسي البطريكيات الأولى. وبالإضافة إلى ذلك فقد لعب رهبان مصر وأديرتها دوراً كبيراً

هيراكليوس الدولة الفارسية. المزيد على ذلك راجع Hags «الحالة الكنسية»، صفحة ١٣ الخ.

١٦ نقلت البنا التقاليد الإسلامية قصة التقاء محمد أحد الرهبان واسمه بحيرة، وكان ذلك في بوسرا في شرقي الأردن، وجرى اللقاء عندما كان محمد بين التاسعة والثالثة عشر من عمره عندما كان في صحبة عمه أبي طالب أو أبي بكر أثناء رحلة إلى سورية. وفي هذه المقابلة تنبأ الراهب عن دعوة محمد وحذره من اليهود والبيزنطيين. إن إقتران هذه الرواية بهذه الخلفية يدعونا إلى التحفظ والروية. لأن علم الدفاع عن العقيدة الإسلامية قصد بهذه القصة البرهان الذي يستدل به على ان دعوة محمد وان لم تنبأ بها التوراة فإن احد الثقة المسيحيين المعتمد عليهم قد توقعها. ومن ناحية أخرى اتخذها اللاهوت الجدي المسيحي دلالة على ان محمداً استقى تعاليمه من المسيحيين اللهم هراطقة. وكلمة «بحيره» ومعناها بالسريانية المختار او المصطفى، كان صاحبها اما أرياني أو نسطوري او وحديطبيعي، ويتوقف ذلك على وجهات النظر المختلفة. راجع أيضاً A. Abel، موضوع "Bahira"، الطبعة الجديدة ١، عام ١٩٦٠، و صفحة ٩٢٢ الخ.

١٧ ان جميع النصوص القرآنية التي تتكلم عن الرهبنة هي مدنية. ورد ذكر الرهبنة مرة واحدة فقط (صورة الحديد ٥٧:٢٧): «ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفنا بعيسى ابن مريم واتبناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعاياتها فأتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون». إنما هناك جدل كبير حول تفسير هذه الآية. وورد ذكر الرهبان مرتين: مرة على نحو سلبى سورة (٣١-٣٤): «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ... يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس.... ومرة أخرى على نحو إيجابي (سورة ٥: ٨٧) (آية ٧٧ يقول) «قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل) والآية ٧٨ يقول: «لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون». للمزيد على ذلك A.J. Wensink الموضوع «رهبانية» EI-VII، صفحة ٣٩٦ الخ وذات المؤلف، الموضوع «الراهب»، EI-VII، صفحة ٣٩٧.

في تاريخ أرض النيل الكنسي. فإن أديرة مصر وسكانها المحليين عملوا على وضع الخطة التي أدت إلى رفض مقررات مجمع أفسس عام ٤٣١، وأصبح الأقباط والسوريون الغربيون منذ تلك الساعة متحالفين ضد الملكيين. وكان أحد الرهبان السوريين واسمه داميان والذي عاش بين عامي ٥٧٨-٦٠٥ هو الذي ساعد الأقباط على إنشاء كنيستهم الوطنية. وكان للمسيحيين أيضاً في الحالة هذه هوية قومية خاصة بهم يرجع عهدها إلى الفراعنة. وكانت هناك لهجات قبطية محلية عديدة منتشرة بين سكان مصر، وقد نقلت الترجمة السبعينية إلى القبطية في القرن الثالث أو الرابع، وأعلنت القبطية ابتداء من منتصف القرن السابع لغة الكنيسة الرسمية الوحيدة ولغة طقوسها وما يكتب في موضوعاتها<sup>١٨</sup>، لكن المثقفين كانوا يستعملون اللغة اليونانية هناك أيضاً.

وبالرغم من بعد مصر عن مكة بعض الشيء فإننا متأكدون من أنه كانت صلة بين محمد والأقباط. ونذكر في الدرجة الأولى امرأته ماريًا. وكان والي مصر الذي عينته بيزنطة في هذا المنصب، قد أحضرها إلى النبي ووهبها له (عام ٦٢٧-٦٢٩م)، وكانت أمة. فولدت له ابنه الوحيد إبراهيم الذي وافته المنية بعد أجل قصير ٦٣٢<sup>١٩</sup>، أما صلة النبي بالأقباط فقد جرت طبعاً قبل وفاته بمدة قصيرة وقد تكون هذه الصلة قد تمت أيضاً قبل دعوته. ويروي لنا الأدب الإسلامي إحدى هذه الحالات<sup>٢٠</sup>.

### الكنيسة الأثيوبية

كانت كنيسة أثيوبية تابعة للإسكندرية، وحسب المفهوم العام لديها يرجع تأسيسها إلى قيم خزانة (وزير مالية) كنداكة الملكة، ودخلت المسيحية تلك البلاد على يد فرومنتيوس وأديسيوس. وتم الإعلان عن الكنيسة أنها كنيسة الدولة الرسمية في عهد الملك إزنا في مملكة أكسوم بحوالي (٣٢٠-٣٤٢). وكان أول مطارنتها فرومنتيوس الذي رسمه البطريرك اثناسيوس مطرانا عام سنة ٣٣٠. وكان من جراء هذه الرسامة أن تشابكت الكنيسة الأثيوبية والقبطية بعضهما تشابكاً محكماً. ومنذ عهد مبكر جداً كان هناك اتصال بين أسوم و ذوي الطبيعة الواحدة السوريين، لأن الرهبان اليعقوبيين هم الذين أدخلوا - حوالي عام ٤٨٠ - للمرة الأولى وبصفة رسمية - التعاليم المناهضة للخلقدونية، وأدخلوا أيضاً الطقوس والعبادات السورية، وكانوا هم أيضاً الذين ترجموا التوراة بلغة ال Gez<sup>21</sup>. وبعد أن أعلنت مصر اللغة القبطية لغتها الرسمية والوحيدة أخذت اتجاهات مماثلة تحقق نجاحاً في إثيوبيا، فأصبحت لغة ال Gez اللغة الدينية المقدسة وترجمت التوراة بهذه اللغة المحلية عام ٦٧٧-٦٧٨<sup>٢٢</sup>.

وكان للنبي عدة اتصالات هامة مع المسيحيين الأثيوبيين<sup>٢٣</sup>. ويجدر هنا ذكر بلال<sup>٢٤</sup> العبد الأثيوبي الذي تصفه التقاليد الإسلامية بأنه من أوائل أتباع محمد ومن أكثرهم إخلاصاً، ويروي عنه التاريخ الإسلامي أنه كان أول مؤذن وكان أيضاً أمين صندوق النبي كما تقول التقاليد أن ممرضة النبي أم أيمن كانت هي أيضاً حبشية. وكان النبي أيضاً يتصل أحياناً

١٨ مزيد على ذلك MNaldini الموضوع «مصر» في EECI صفحة ٣٦٤، و I.H.DaImais. الموضوع «مصر» (Litugy. II) في Ebenda، و T.Orlandi الموضوع «Coptic» في EECI صفحة ١٩٩ الخ.

١٩ للمزيد على ذلك F. Buhl الموضوع «ماريا» في El New Ed. VI، ١٩٩١، صفحة ٥٧٥، و A.S.Atiya الموضوع «Kipt» في NewEd. V، صفحة ٩٠-٩٥

٢٠ يروي المؤرخ الاسلامي ابن اسحق ان نجارا قبطيا قد بنى سطح الكعبة عام ٦٠٠. راجع H. Busse، صفحة ١٢.

٢١ هذا ما كتبه J.S.Trimingham، صفحة ٢٨٩.

٢٢ للمزيد على ذلك Rainer.O الموضوع «Ethiopia-Ethiopic» صدر في EECI، صفحة ٢٨٩.

٢٣ بما يتعلق بالآتي راجع: E.Van Dozel الموضوع «النجاشي» في EJ New Ed. VII، صفحة ٨٦٢ الخ. و W.Montgomery Watt الموضوع «Habash-Habasha» في El New Ed III، ١٩٧١، صفحة ١١.

٢٤ W.Arafat الموضوع «بلال بن رباح» في HI New Ed. I، صفحة ١٢١٥.

بعبد حبشي آخر اسمه جابر الذي كان يتلو آيات من التوراة والإنجيل بجملة الموت. فلا عجب من أن بعض المؤرخين المسلمين عزوا إلى النبي معرفته باللغة الحبشية. ومن المؤكد أن القرآن، يحتوي على حوالي ٢٠٠ كلمة مستعارة من ال. ومن الأبناء التاريخية الثابتة ذلك النبأ القائل إنه حين كان النبي يعاني ضيقاً شديداً في مكة عام ٦١٥، عمد إلى إبعاد أكثر أتباعه إلى أثيوبيا المسيحية وكانوا حسب ما روته التقاليد ٨٩ رجلاً و١٨ امرأة. ولقراره هذا أن اتخذ بلداً مسيحياً ملجأً له معنى خاص ذو أهمية. وتجدر الإشارة بهذا الصدد أيضاً إلى ما تناقلته التقاليد الإسلامية أن المبعدين تلوا آيات من سورة مريم أمام الملك النجاشي<sup>٢٥</sup> ومطران فيرسي، وقصدوا بذلك إظهار الإسلام شكلاً من أشكال المسيحية.

وجملة القول: إن المسيحيين في محيط شبه الجزيرة العربية أنشأوا كنائس قومية تشابك فيها الإيمان مع الحضارة واللغة والهوية القومية المحلية وتداخلت هذه بعضها في بعض (كما كانت الحال أيضاً مع اليهود والزورواستينيين) . ورغم ذلك يجب ألا يعتبر تطور المسيحية في الشرق إلى كنائس قومية تطوراً نهائياً، لأن أموراً كثيرة كانت لا تزال بعد في حالة تحول وتبدل حتى في القرنين السادس والسابع، وتؤكد هذه الحقيقة محاولات الاتحاد الكثيرة التي جرت فيما بينهما. وفي القرن السابع نشأ في جبل لبنان كنيسة قومية جديدة هي المارونية. وكان سبب تأسيسها الجدل حول التعليل اللاهوتي لشخص المسيح أي حول (Monenergism and monotheletism) مما يثبت أن هذا التعليل اللاهوتي لم يصل إلى حل نهائي بعد حتى في القرن السابع. لذلك إذا اعتمدنا مجعني نيقيا وأفسس فقط في حكمنا على الإسلام لكان استنتاجنا العقائدي لا يخلو من التسرع لا بل كان إفراطاً في التبسيط التاريخي الذي يؤدي إلى التشويه.

كانت هذه إذن الكنائس القومية المحيطة بشبه الجزيرة العربية. وكان ينتمي إلى بعضها أعضاء في شبه الجزيرة، وهذا دليل على وجود قبائل مسيحية عربية<sup>٢٦</sup>. وفيما يلي سنلقي نظرة على هؤلاء المسيحيين.

المسيحيون العرب: ويمكن تقسيمهم إلى ثلاث فئات:

١. الغساسنة<sup>٢٧</sup>:

سلالة عربية يمنية الأصل، استوطنت بعد أن هجرت بلادها القطاع الذي كانت تحتله دولة البيزنطيين والممتد من البتراء جنوباً وحتى الشام وتدمر شمالاً والبصرة والفرات شرقاً. وبلغ الغساسنة أوج عزهم في الربعين الثاني والثالث من القرن السادس عندما نجحوا في توحيد القبائل العربية المختلفة التي كانت تقطن تلك البلاد. ومع أن دولتهم كانت تقع ضمن تخوم البيزنطيين كانت عقيدتهم ذي الطبيعة الواحدة، الأمر الذي مكّنهم من القيام بدور الوسيط في حالات كثيرة. وكما ذكرنا آنفاً كانت الكنيسة اليعقوبية السورية تدين ببقائها للغساسنة، لأن بطريركهم الحارث<sup>٢٨</sup> (ليس البطريرك هنا بالمعنى الكنسي) هو الذي سعى لدى القيصرية ثيودورا عام ٥٤٢ من أجل تحقيق رسامة يعقوب بارادايوس وثيودوروس مطرانين وأجرى الرسامة البطريرك الإسكندري. وبينما كان بارادايوس يتولى رعاية مدينة أديسا (وهي عرفة فيما بعد) والمدن الأخرى كان ثيودوروس كما تقول المصادر السورية مطران الصحراء مما يشير إلى أنه كان مسؤولاً عن القبائل

٢٥ قابل W.Raven في "some early Islamic texts on the Negus of Abyssinia" صدر في JSS، ١٩٨٨، صفحة ١٩٧ الخ.

٢٦ التفاصيل عن هذا الموضوع J.SpencerTrimingham في موضوعه: "Christianity among Times" Longman, London and New York, in

Librarie du the Arabs in Liban, صدر في لندن ١٩٧٩. و Caspar Detlef Gustav Muller الموضوع «الكنيسة والتبشير بين العرب قبل الاسلام» مجموعة

محاضرات وكتابات مبسطة من حقل اللاهوت وتاريخ الكنيسة»، صدر في Tubingen، ١٩٦٧.

٢٧ المراجع: انظر رقم ٢، من التعليقات والشرح.

٢٨ يجب عدم فهم كلمة «البطريرك» هنا بمعناها المتعارف عليه في الكنيسة. إنما أعطى القيصر البيزنطي يوسقيان (عام ٥٢٩) لقب Patricos للحارث، ويكنى

بهذا اللقب في الأدب العربي المبكر عن البطريرك. راجع J.S.Trimingham، منحة ١٨٠.

العربية والبدوية التي كانت تقطن مناطق حولان. وفي عام ٥٦٣ أرسل يعقوب بارادايوس الحارث في بعثة إلى القسطنطينية لينوب عنه في الجدل الذي كان قائماً حول هرطقة العقيدة القائلة بثلاثة آلهة (أي الآب والابن والروح القدس، آلهة منفصلة ومتميزة). إنما موقف الغساسنة ذي الطبيعة الواحدة كان السبب في سقوط دولتهم. لأن ما تم تحقيقه في عهد يوستينيان الأول (٥١٨ - ٥٣٦) لم يكن بالإمكان الحفاظ عليه أو تحقيقه في عهد طيباريوس (٥٨٢-٦٠٢). لأن هذا الأخير ألقى القبض على خلفاء الحارث وأبعدهم فيما بعد، مما أدى إلى تلاشي وحدة القبائل. واستمر الغساسنة يعيشون حياتهم القبلية لكنهم لم يعودوا ليشهدوا عصر ازدهار ثانٍ. واحتل الخليفة عمر منطقتهم عام ٦٣٧، لكنهم بقوا أمناء لإيمانهم. وكان الغساسنة من الناحية الحضارية عرباً كما كانت لغتهم العربية أيضاً. ولكنه لم يتم إنشاء كنيسة قومية لهم، فبقيت علاقتهم «بالكنيسة الأم» السورية علاقة التبعية. ولم يتم أيضاً تعريب النظام الكهنوتي والطقس الديني والتوراة، بل بقيت سريانية.

### ٠٢ المناذرة:

أصلهم من أواسط الجزيرة العربية وتوطنوا في أواسط بلاد ما بين النهرين (بيت عربية) وبابل وكان مركزهم الحيرة، وخلافاً للغساسنة الذين كانت أغلبيتهم بدواً كان المناذرة أو أكثرهم صناعاتاً أو تجاراً حضريين يسكنون المدن. لم يكن ملوك المناذرة مسيحيين إلا نادراً لكنهم كانوا يتحلون بالتسامح الديني. أما العلاقات التي كان المناذرة يقيمونها مع بيزنطة فقد كانت علاقات مؤقتة<sup>٢٩</sup>، لأن منطقتهم كانت تقع تحت النفوذ الفارسي، ولهذا السبب أيضاً تأثروا بالنسبورية تأثراً قوياً. وحضر مطران الحيرة هوشع مجمع سلوقية قطسيفون الذي وضع النظام الدستوري الدستوري على نحو قانوني. وكان مجمع مركبتا قد أقر الانفصال الإداري عن أنطاكية، وانعقد عام ٤٢٠ ومركبتا هذه كانت أيضاً في دولة المناذرة. ومن المؤكد أن ملكهم النعمان الرابع لم يعتنق العقيدة النسبورية قبل عام ٥٩٢. لكن حكم اللخمين لم يكتب له أن يتخطى بداية القرن السابع. كان المناذرة عرباً مجضرتهم، الأمر الذي يثبت عدد الكبير من الشعراء المسيحيين العرب الذين برزوا من وسطهم<sup>٣٠</sup>. ومن الناحية الكنسية استمر المناذرة على علاقتهم التبعية «بالكنيسة الأم» النسبورية. ولم يتوصلوا هم أيضاً إلى إنشاء كنيسة قومية عربية. وبقيت لغة الطقس الديني والتوراة ولغة الكنيسة هي اللغة السريانية. وازاء الشعر العربي للمناذرة لا يسع المرء إلا أن يبدي إعجابه بروعته<sup>٣١</sup>.

### ٣. مسيحيو نجران<sup>٣٢</sup>:

المركز الثالث للمسيحيين العرب في شبه الجزيرة العربية كان في جنوبها الغربي. وكانت المسيحية قد دخلت هناك في منتصف القرن الثاني بواسطة التجار الذين كانوا يمررون عبر الطرق التجارية. ولذلك لم يكن أتباع المسيحية في هذه البلاد عرباً في بادئ الأمر، بل كانوا يونانيين أو أثيوبيين أو سوريين<sup>٣٣</sup>. أما السكان العرب الأصليون فلم يكونوا وثنيين، بل موحدين عرباً، وكان إيمانهم يرجع حسب اعتقادهم إلى إبراهيم وامراته قطوره<sup>٣٤</sup>.

٢٩ راجع: عرفان شديد «Byzantino-Arabica» اجتماع الرملة سنة ٥٢٤ سر في مجلة الدراسات الشرق أوسطية، رقم ٢٣، عم ١٩٦٤، صفحة ١١٥-١٣١.

٣٠ يجدر هنا ذكر الناخبة اللباني، أبو داود الإيادي، أوس بن حجار، جرير ابن عبد المسيح، وميمون ابن قيس المعروف بالأعشى. راجع أيضاً:

J.S.Trimmgham، صفحة ٢٠١ في G.Anawati andScheicko ....

٣١ أحد المراجع J.S.Trimmgham، صفحة ٢٢٣.

٣٢ للمزيد على ذلك: عرفان شديد El New Ed. VII، صفحة ٨٧١ الخ، و J.S.Trinungham، صفحة ٢٨٧-٣٠٧.

٣٣ ليس لأسطورة المؤرخ الآرياني Philostrogus أية دلالة تاريخية، وهذه الأسطورة تتكلم عن إهداء السبأين على يد ثيوفيلوس مبعوث القيصر البيزنطي

يوستينيان. للمزيد على ذلك J.S.Triinningham، صفحة ٢٩٢ الخ.

٣٤ هذا ما رواه المؤرخ الآرياني Philostrogus (٣٦٠-٤٣٠) وكتب قائلا: «أرسل قسطنطينوس سفراء إلى أولئك الذين كانوا يدعون سابقاً سبأين، ويعرفون الآن



وكانت نجران مركز المسيحية في جنوب غرب الجزيرة العربية، وهي وادي خصيب كان يقع في ملتقى الطريقتين التجاريةتين إحداهما تؤدي إلى البحر المتوسط شمالاً والأخرى إلى العراق شرقاً. وهناك أساطير كثيرة تحدثت عن دخول المسيحية إلى نجران. ومن الثابت أن عدة طوائف مسيحية كانت هناك في بداية القرن السادس، ومن الثابت أيضاً أن «ذو النواس» الذي اعتنق اليهودية غزا نجران وحمل المسيحيين فيها على أن يختاروا أحد الأمرين، إما إنكار إيمانهم أو القتل. وكثيرون هم الذين فضلوا الموت على خيانة الإيمان فاستشهدوا. ويتضح من سجل هؤلاء الشهداء أن عدداً كبيراً منهم كانوا عرباً، إنما الروحانيون والكهنوتيون لم يكونوا عرباً، ومن بينهم الكاهنان موسى وإيليا وأصلهما الحيرة، والكاهن سرجيوس والشماس حنانيا وأصلهما روميان أي يونانيين، والكاهن أبراهام الفارسي وربما كان سورياً، والشماس يونان الحبشي. ومن ناحية أخرى تضمن جدول أسماء الشهداء أسماء عربية كانت في أغلبيتها مألوفة لدى الجنوب وأخرى كانت عربية عامة<sup>٣٥</sup>.

عادت نجران تحت السيطرة المسيحية عام ٥٢٥ بعد أن زحف إليها الأيوبيون وقتلوا «ذو النواس»، وأصبحت نجران مدينة المسيحيين العرب المقدسة في جنوب الجزيرة العربية وأصبح ديارها محجاً مسيحياً يزوره المسيحيون وكان ملتجأ يفرع إليه المضطهدون، وهذا ما قاله الشعراء فيه وتغنوا به<sup>٣٦</sup>.

ومن الأمر الممكن إثباته تاريخياً أن محمداً كان مطلعاً على مسيحيي نجران، لكنه ليس من الثابت تماماً العلاقة بين «أصحاب الأخدود» الذي ورد ذكرهم في سورة البروج (٨٥: ٤-٩) وبين شهداء نجران<sup>٣٧</sup>. يقول النص: «قتل أصحاب الأخدود (أي عليهم اللعنة)، النار ذات الوقود (نار جهنم ذات الوقود الذي لا ينفد) إذ هم عليها قعود (أي على نار جهنم في يوم الحساب)، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود (على ما فعلوه في حياتهم مع المؤمنين)، وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد (أي نعموا من المؤمنين)، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد».

وإذا كانت هذه الآيات تشير إلى ذلك الاستشهاد وفقاً لما نقلته التقاليد الإسلامية، فإننا نرى هنا مرة أخرى أن محمداً كان في الحقة المكية الأولى مندجاً بنفسه في مسيحيي نجران المؤمنين اندماجاً نشأ عنه ارتباط عاطفي وثيق. وعلى كل حال فإنه من الثابت والأكيد التقاء النبي مسيحيي نجران في عهد الوفود (٦٢٨)، وتم فيه الاتفاق الذي نقلته التقاليد الإسلامية على نحو رسالة عهدة هذا نصها: «إن رسول الله كتب إلى مطارنة نجران وكهنتهم وأتباعهم ورهبانهم... أن شعب نجران وأتباعه يتمتعون بحماية الله وذمة رسوله، ضماناً لأنفسهم ومجتمعهم وأرضهم وأملاكهم وكنائسهم (بيعتهم) وممارسة شعائرتهم، ولن يضطر أحد من المطارنة أو الرهبان أو الأوفياء (الذين يعطون الحق ويأخذون الحق) إلى التخلي عن مركزه، وضماناً لكل ما وجد في أرضهم صغيراً كان أم كبيراً، شريطة أن ذلك لم ينشأ من الربا أو ثمن الدم<sup>٣٨</sup> (مما يتلقاه القاتل المستأجر) في العصور الوثنية». أصبحت علاقة النبي بالمسيحيين منذ الآن تظهر تحولاً عما قبل، أي نحو موقف كان ليتخذه بعد الحقبة المدنية.

باسم الحومريين (Homeritae)، وهم قبيلة تحدرت من إبراهيم من امرأته كاتورة. أما المنطقة التي يسكنوها فيقول أن اليونانيين يسمونها العربية الكبيرة (Arabia Magna) والعربية السعيدة (Arabia Felix)، وتمتد إلى أبعد حدود الأوقيانوس، وعاصمتها سبأ...» نقله J.S. Trimmingham، صفحة ٢٩٢ الخ.

٣٥ راجع J.S. Trimmingham، صفحة ٢٩٢ الخ.

٣٦ راجع الأعشى (٦٢٩+) في ديوانه، وراجع أيضاً J.S. Trimmingham، صفحة ٣٠٥.

٣٧ للنقاش، راجع Th. Noeldeke I، صفحة ٩٧ الخ.

٣٨ نقله J.S. Trimmingham، صفحة ٣٠٦.

وبالإجمال، فإن ما يثير انتباه المرء أن المسيحيين خارج الجزيرة العربية أنشأوا كنائس قومية بينما المسيحيون العرب لم يختبروا هذا التطور، بل بقوا في أغلب الأحيان معتمدين على «كنيستهم الأم»، أي بما يتعلق بالإكليروس والطقوس الدينية واللغة الكنسية. ومما يجعل هذه الظاهرة باعثة على الإعجاب بنوع خاص أنه عند تأسيس إرساليات إحدى الكنائس قومية في الشرق كانت تقوم هذه الإرساليات قبل كل شيء بالترجمة للغة المحلية ولو لبعض أجزاء هامة فقط من الليتورجية، كالصلوات مثلاً، حتى وإن لم تتمكن من ترجمة الكتاب المقدس بأكمله. وكان هؤلاء المرسلون في الوقت نفسه ومن تلقاء أنفسهم الباعثين على إنشاء الأدب المسيحي القومي أو على الأقل إنشاء لون جديد من ألوانه<sup>٣٩</sup>. ومع ذلك يكتب العالم باوم شتارك ويقارن هذه الظاهرة بالجزيرة العربية ويقول: «إن الحقائق التي نعرفها عن الشرق تستند كلها إلى الحقيقة القائلة: إنه لم يكن في الجزيرة العربية من الكتب الطقسية الدينية حتى القرن السابع إلا كتباً سريانية أو يونانية. ولذلك يجدر أن نقول: إن البراهين التي يوردها الداعون إلى إنكار وجود كتابات باللغة العربية قبل الإسلام ذات طابع مسيحي، هي براهين أقوى من براهين أولئك الذين ينادون بوجودها»<sup>٤٠</sup>. إن السؤال عن وجود أدب مسيحي عربي يرجع إلى ما قبل الإسلام سؤال متنازع فيه جداً، والسبب في ذلك الموقف العاطفي، تضارب الأدلة والحجج. فالدعاة إلى التصديق بوجود مثل هذه الكتابات هم إما مسيحيون عرب ممن يهتمهم اكتشاف التراث المسيحي العربي فيما قبل الإسلام وبعثه من جديد<sup>٤١</sup>، أو أولئك المستشرقون الذين أرادوا إثبات العلاقة بين القرآن والتوراة<sup>٤٢</sup>. أما منكرها وجود هذه الكتابات فإنهم

٣٩ هذه الرواية موثوق بها، رواها A.Baumstark في «مشكلة الكتابات الكنسية المسيحية باللغة العربية قبل الإسلام» صدر في مجلة Islamic، سنة ١٩٣١، صفحة ٥٦٢-٥٧٥.

٤٠ راجع Ebenda، صفحة ٥٦٥.

٤١ من بين الذين يجدر ذكرهم هنا:

لويس شيخو، «النصرانية وأدبها في عرب الجاهلية صدر في بيروت ١٩٢٣.

وعبد المسيح المقدسي، «نقل الكتب المقدسة إلى العربية قبل الإسلام»، صدر في المشرق عدد ٣١ عام ١٩٣٣، صفحة ١-١٢.

وخليل سمير، «خصائص التراث العربي المسيحي القديم» صدر في TheL. Review V/٢، سنة ١٩٨٢، صفحة ١٥٦-١٩٠. وهناك غيرها من المراجع.

إن بعض ما ورد في نظرية شيخو مبالغ فيه، مما يدعو إلى التحفظ في معالجتها، استناداً إلى نشرات عديدة تدل على ذلك، ونشير هنا إلى أهمها،

إبراهيم الجاسقي، «انتقادات متفرقة لأبعاد كتب الأب شيخو» صدر في الضياء (٢) ١٨٨٩/٩٠، صفحة ٢١٣ الخ، و ٢٧٠ الخ، و ٣٦٨-٢٧٢، و (٣) ١٨٩٠/٩٠، صفحة ١٥٠ الخ، و ٢٠٩-٢١٢، و ٦٢٧ الخ، و ٦٨٤-٦٨٧.

وكيل حكيم: «الأب لويس شيخو وصور النصرانية في الجاهلية صدر في المشرق عدد ٦٤، عام ١٩٧٠، صفحة ٢٩٧-٣٢٢.

وأخيراً جورج قنوتي: ... إن أهم مؤيدي هذه المدرسة في عصرنا الحاضر هو عرفان شديد وإن كان بنا افتراضه على التخمين بلا شك، انه يعتقد أن في القرن الرابع

كان هناك طقوس عربية بسيطة جداً وترجمات عربية لأهم القراءات التوراتية المعينة للتورجية. ويذهب إلى أبعد من ذلك فيتحدث عن إنشاء كنيسة عربية تابعة

للبطريركية الأنطاكية في القرن الرابع. المراجع: عرفان شديد في «Arabs» Rome and the Arabs, A prolegomenon to the study of Byzantium and the

في D.C. ١٩٨٤ Washington Dumbarton Oaks Research Library and collection، والمؤلف نفسه في

«Byzantium and the Arabs in the 4th Century» Dumbarton Oaks, Washington D.C. ١٩٨٤، راجع خصوصاً صفحة ٤٣٥-٤٤٣، و ٥٥٤-٥٥٨، والمؤلف

نفسه في

«Byzantium and the Arabs in the 5th Century» Bumbarton Oaks, Washington D.C. ١٩٨٩، مراجعة خصوصاً صفحة ٤٢٢-٤٥٧، و ٥٢٠-٥٢٨.

٤٢ من الذين دافعوا بشدة عن وجود أدب عربي مسيحي قبل الإسلام W.Rudolph في «العلاقة» «Abhangigkeit» T.Andrae في الأصل «Ahrens

«Ursprung»، في «أمور مسيحية» «Christliches»، وأيضاً وبنوع خاص A.Baumstajfc «التبشير الأحدي في القدس قبل العصر البيزنطي» صدر في نشرات بيزنطية

(٣٠) عام ١٩١٩-٢٠، صفحة ٣٥٠-٣٥٩، والمؤلف نفسه «مشكلة الكتابات الكنسية المسيحية باللغة العربية قبل الإسلام» صدر في Islamica ٤، عام ١٩٣١، صفحة

٥٦٢-٥٧٥. والمؤلف نفسه «ترجمة عربية قديمة للأناجيل منقولة من الفلسطينية المسيحية» صدر في Semistik ٨، عام ١٩٣٢، صفحة ٢٠١-٢٠٩. والمؤلف نفسه من بين

ونصوص المحفوظة» أقدم نص للمزمور ١١٠ (١٠٩) يوناني/عربي، صدر في مجلة Oriens Christianus، عدد ٣١ عام ١٩٣٤، صفحة ٥٥-٦٦. والمؤلف نفسه «ترجمة

الأناجيل بالعربية من السريانية في فجر الاسلام وترجمة أخرى قبل الإسلام» صدر «Atti: del XIX Congresso internazionale Delgi Orientalistu»، روما ١٩٣٨،

يقصدون بذلك أن يشيروا إلى أن المسيحية عند العرب لم يكن لها أصل راسخ<sup>٤٣</sup>، وأن العرب لم يكن لهم هذا الإيمان المسيحي الذي أساسه الكتاب المقدس، مما تسبب في كثير من سوء الفهم لدى محمد<sup>٤٤</sup>، بما يتعلق بالثالوث (الآب والابن ومريم) الخ.

والرأي الذي نراه أن وجود أدب مسيحي عربي واضح المعالم قبل الإسلام أمر بعيد الاحتمال. وهذا يرجع إلى الوضع القائم آنذاك. لأنه لم يكن للمسيحيين العرب هوية قومية مطلقة مما يفسر حالة الحرب التي استمرت بين الغساسنة والمناذرة وكلاهما كانتا قبيلتين مسيحيتين عربيتين. والسبب الآخر أن كليهما لم يكونا مستقلين سياسياً استقلالاً تاماً. وهذا الوضع ينطبق أيضاً على وضع الكنيسة. لأن القبائل العربية المسيحية كانت متفرقة إلى شيع وتتنمي إلى ثلاث معتقدات مختلفة هي:

المنسطورية (المناذرة)، وذوي الطبيعة الواحدة السورية (الغساسنة) والأثيوبية (نجران)، وبينما نرى أن هذين العاملين بالذات العامل القومي والعامل العقائدي لعبا دوراً هاماً لدى الكنائس القومية في صراعها مع بيزنطة، والذي أدى إلى تطوير أدب محلي مسيحي مستقل، فإننا نرى أيضاً أن هذين العاملين كانا معدومين في القبائل المسيحية العربية قبل الإسلام.

لا تعنى هذه الحقيقة أن حالة العرب المسيحيين كانت حالة جمود، بل بالأحرى كانت حالة نشاط كثير. وتميزت الحقبة الزمنية في منعطف القرن السادس إلى السابع بأنها كانت حقبة محاض ومبحث، وكانت تتوقع شيئاً ما لأن بين العرب المسيحيين كان شيء جديد أخذ في الإنشاء، لكن الإسلام حال دون حدوثه بل إن الإسلام بزغ من هذه الحال بالذات، وتمكن من بلوغ تمامه أيضاً بسبب تغير الأوضاع السياسية. وما تثبته أقدم المخطوطات العربية أن المسيحيين العرب كانوا في طور انتقال من حالة إلى أخرى. ومما لا جدل فيه اليوم أن الخط العربي الذي كتب به القرآن والمعروف بالخط الكوفي كان قد نشأ في الحيرة ووضع العباديون<sup>٤٥</sup>. ومن بين أقدم المخطوطات العربية الثلاث التي بقيت محفوظة لدينا نسختان من أصل مسيحي وهما مخطوطة زياد (جنوب شرق حلب) ويرجع تاريخها إلى عام ٥١٢، ومخطوطة حاران يرجع تاريخها إلى عام ٥٦٨. وما يثبت الحقيقة أن المسيحيين كانوا يملكون دور انتقال في دور انتقال هو أن هاتين المخطوطتين لم تكتبتا بالعربية فحسب، بل أيضاً باليونانية والسريانية معاً<sup>٤٦</sup>. وبرغم أن الكتاب المقدس لم يكن قد نقل إلى العربية بعد<sup>٤٧</sup>، كانت

صفحة ٣٨٢-٦٨٤. أما العالم Joshua Blau وهو أحد الباحثين في السامية وأدبها، فإنه عبر عن معارضته لنظرية Baumstark. هذه الأخيرة وقال «هل هناك شيء لا يزال محفوظاً لدينا من ترجمات التوراة التي تعود إلى ما قبل الإسلام؟» صدر في LeMuseum، عدد ٨٦، عام ١٩٧٣ صفحة ٦٧-٧٢.

٤٣ راجع J.S.Trimingham الموضوع «المسيحية».

٤٤ راجع Hage الموضوع «التأثير» "Einfluss".

٤٥ راجع C.Rabin الموضوع "Arabiyya A. The Arabic Language" ظهر في EI New .Ed، صفحة ٥٦٤. روى المؤرخ الإسلامي الطبري القصة التالية:

بعد أن عقد خالد بن الوليد اتفاقية مع الانبار اتفق انه لاحظ انهم يكتبون بالعربية بمهارة فائقة فسألهم: «من أنتم؟» فأجابوا: نحن جماعة عربية تنحدر من إحدى القبائل العربية التي كانت هنا قبلاً والتي حط أجدادها في هذه البلاد على زمن نبوخذ نصر الذي أراد توطين العرب، واستمرت على العيش منا». ثم استفسر «من علمكم الحروف؟» فأجابوه: تعلمنا الكتابة من إباد». رواها J.S.Trimingham، صفحة ٢٢٧.

٤٦ راجع Ebenda

٤٧ كانت المبادرة في ترجمة الأناجيل من السريانية بالعربية أول ترجمة مبادرة إسلامية وذلك استناداً إلى التقاليد المنقولة، والتي تقول أن الحاكم المسلم عمرو ابن سعد ابن أبي وقاص طلب ترجمة عربية من البطريرك الأنطاكي يوحنا الصداوي، وبما أن البطريرك لم يكن يعرف العربية فإنه استعان بالعرب المسيحيين في طي والحيرة (كانوا لخميين)، لكن تلك الترجمة لم تعد موجودة. أما أقدم ترجمة عربية مما بقيت محفوظة لدينا فهي ترجمة المزامير، وترجع إلى حوالي القرن التاسع. قابل

J.S.Trimingham، صفحة ٢٢٥.

هناك العظة المسيحية العربية في أول ظهورها.

وكان من بين أشهر الوعاظ المسيحيين قبل الإسلام قس بن ساعدة الإيادي الذي ورد ذكره أنفاً. وكان ينتمي إلى قبيلة إياد واشتهر بشعره وخطبه الملهبة حماساً. وقد مات حوالي عام ٦٠٠ وحسب ما تناقلته الروايات وافته المنية في حلب. أما اسمه الأول فهو فريد في العربية واستناداً إلى علم أصل الكلام ربما كان اشتقاقه من كلمة «قس» أو قسيس التي تطلق على أحد الكهنة أو رجال الدين المسيحيين، مما جعل البعض يعتبره مطران نجران، وعلى أية حال نقل إلينا أبو الفرج الأصبهاني (علي بن الحسين) وهو من أئمة الأعلام في معرفة التاريخ واللغة، القصة التالية في «كتاب الأغاني» الذي وضعه حوالي منتصف القرن العاشر: «عندما جاء وفد من إياد إلى النبي سألهم: كيف حال قس بن ساعدة؟ فأجابوه: لقد مات يا رسول الله»، فقال: «أخاله أمام عيني في سوق عكاظ يمتطي جملة السكني اللون ويلقي عظته الملهبة الناس ولكني لا أعود أذكرها لسوء الحظ»، فقال واحد من الوفد: «أنا أذكرها يا رسول الله»، فسأله النبي: «ما كلام العظة الذي سمعته؟» فأجاب: سمعته يعظ كالتالي:

«أيها الناس! اسمعوا وعوا. إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. ليل داج، ونهار ساج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهّر، وبخار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وانهاة مجرأة. إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً. ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا فأقاموا؟ أم تزكوا فناموا؟ يا معشر إياد، أين الآباء والأجداد، وأين الفراعنة الشداد؟ ألم يكونوا أكثر منكم مالا، وأطول أجالا؟

طحنهم الدهر بكلكله، ومزقههم بتطاوله  
في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر  
لما رأيت موردا للموت ليس لها مصادر  
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر  
لا يرجع الماضي إلى مولا من الباقي غابر  
أيقنت أني لا محالة حيث صار الثوم صائر»<sup>٤٨</sup>

يجدر بالمرء أن يسمع هذه العظة تقرأ بالصوت الجهوري إذا أراد أن يختبر حسن ذوق الفن الخطابي والوزن الشعري اللذين طبع عليهما قائلها. كما أن سماعها على هذا النحو يتيح للمرء أن يتحقق بسهولة قرابتها من النثر المنظوم في القرآن. وكان قس بن ساعدة أول من دعا إلى العظة العربية المسيحية التي تأخذ بالحسبان الوضع البيئي الاجتماعي وعبر عنها عملياً في واقعية أدبية رائعة. فلا عجب من أن قسا قد أثر في النبي أثراً.

٤٨ نقلها W.Hage في «تأثير المسيحية الشرقية على الإسلام الناشئ» و Willi Hofner (Hg) في «الإسلام دين جاء بعد المسيحية»، صدر في دار النشر Christian Jensen Breklum، عام ١٩٧١. المزيد على قس بن ساعدة ch. Pellat في الموضوع «قس بن ساعدة» صدر في Brill Leiden، El New Ed. V، عام



## المسيحية في القرون الأولى والفرق «المهرطقة»

تمهيد

في مكالمة هاتفية أخبرني الأستاذ حسام أبو النصر عن مؤتمر سيعقد في رام الله بعنوان «فلسطين المسيحية»، والذي سيبرز أثر ودور المسيحيين في تاريخ فلسطين، وطلب مني المشاركة في ورقة بحثية، وأن أختار الموضوع بنفسني.. تحمست للفكرة، وقلت له سأكتب عن المسيحية في القرون الأولى، والفرق المهرطقة، وعلاقتها بنشوء الإسلام.. كانت لدي معلومات عامة عن الموضوع، وكنت أظن أن لدي وجهة نظر محددة، يمكنني طرحها بقليل من الجهد البحثي.. وما أن شرعت بالإعداد حتى تبين لي أن وجهة نظري غير واضحة تماما، وينقصها التوثيق والتدقيق.. وهكذا بدأت أتعرق في البحث من خلال ما تيسر من كتب، وما هو منشور على الإنترنت، وخاصة المحاضرات والنقاشات المسجلة على اليوتيوب، وبعض الدراسات المتخصصة.. وكلما اطلعت أكثر اكتشفت مدى جهلي بالموضوع، وصدمت بوقائع لم أكن أعرفها، وأسماء أسمع بها لأول مرة، واكتشفت فجوات وألغاز ونقاط غامضة، ووجهات نظر متناقضة، ومواضيع متشعبة ومتداخلة.. وفي لحظات معينة كدت أتوقف، وأعلن استسلامي.. ولكن فضولي البحثي حثني على المواصلة، بقدر ما استطعت..

لا أزعج أنني عرفت كل شيء، وكشفت كل ما هو غامض وملتبس، فما زال عندي الكثير من الأسئلة، والكثير من الفجوات.. فهذا الموضوع بحر واسع من العلوم، وكل ما فعلته أنني تأملت على شاطئه قليلا.. واستطعت أن أبلور وجهة نظر معينة، قد تكون صحيحة، وقد تكون خاطئة.. المهم أنني حاولت واجتهدت، فالكمال لله وحده.

مقدمة

تعتبر الفترة التاريخية الممتدة ما بين القرن السابع قبل الميلاد وحتى القرن السابع الميلادي، هي الفترة التي ظهرت وتشكلت فيها أغلب وأهم الديانات في العالم القديم، وخاصة منطقة الشرق الأوسط، كما شهدت إحدى ذروات النشاط الفكري الإنساني.. في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد ظهر «زرادشت» في بلاد فارس، وكل من «كونفوشيوس» و«لاوتسي» في الصين، و«بوذا» في شمال الهند، و«فيثاغورس» في اليونان، ثم تبعه «سقراط» و«أفلاطون».. وفي القرن الخامس قبل الميلاد في بلاد الشام وأرض الرافدين حيث كانت تلك المنطقة مسرحا لصراعات البابليين والفرس ومصر القديمة، والتي انتهت بجلب المسيحيين من بابل إلى القدس، تأسست الديانة اليهودية الجديدة، بأمر من «كورش الفارسي»، وتحت إشراف عزرا.

وفي القرن الأول الميلادي ولد السيد المسيح، وبدأت المسيحية كامتداد لليهودية، ثم أخذت بالانتشار التدريجي كديانة مستقلة، منشئة معها العديد من الفرق والمذاهب اليهودية/المسيحية. وفي القرن الثاني ظهرت المانوية والصابئة في كل من العراق وشبه الجزيرة العربية.. وفي القرن الخامس ظهرت المزدكية، وفي أواخر القرن السادس الميلادي ولد النبي محمد في مكة، ليدخل الدين الإسلامي الجديد مسرح التاريخ لأول مرة مع بدايات القرن السابع.

وكما تفرقت اليهودية إلى فرق ومذاهب (الفريسيين، والصدوقيين، والأسينيين، والسامرة قديما.. ثم في مرحلة لاحقة إلى شكناز وسفارديم..)، تفرقت المسيحيون الأوائل إلى غنوصيين، وأبيونيين، وأريوسيين، ونساطرة، ويعاقبة، وأقباط..

ثم إلى أرثوذكس، وكاثوليك، وروم، وبروتستانت.. وتكررت الظاهرة نفسها في الإسلام.. فظهر السُّنة، والشيعية، والمرجئة، والخوارج، والمعتزلة، واليزيدية، والأشعرية، والنصيرية، والموحدون، والسلفية، والوهابية..

تعتبر تلك الانقسامات ظاهرة طبيعية، من وجهة نظر سييسولوجية؛ حيث تبدأ الأديان (وكل المذاهب الفكرية والفلسفية والأخلاقية) بدايات بسيطة، تركز على شخصية مؤسسة (نبي، فيلسوف، مصلح اجتماعي)، تبدأ نقيية، طاهرة، مثالية، يلتف من حولها في البدايات المخلصون والباحثون عن النور والهداية، ولكن بعد وفاة المؤسس، وتكاثر الأتباع وتزايد أعداد المؤمنين، يبدأ الدين بأخذ مسار تطوري آخر، ومختلف.. حيث تأتي التفاسير، والشروحات، والتفاصيل، ومن ثم الأساطير والمبالغات.. ثم تنشأ طبقة من رجال الدين، بعد أن تكون مهمتها شرح الدين وتبسيطه، والتبشير به، تبدأ هذه الطبقة بتلمس مصالحها الخاصة.. وفي نفس الوقت، تعمل الطبقة السياسية الحاكمة (متحالفة معها الطبقة الاقتصادية والتجارية والنخب العسكرية) على الاستفادة من هذا الدين بما يخدم مصالحها، فتلتقي مصالحها وتوجهاتها مع مصالح وتوجهات الكهنوت، الذي يقوم بتفصيل دين جديد على مقاس السلطة.

بعد مضي عدة أجيال، تكون النسخة الجديدة من الدين قد افرقت واختلفت عن النسخة الأصلية بمقدار كبير، حتى لو احتفظت بجوهرها.. حيث تحتكر طبقة الكهنوت تفسير الدين، وتمثيله، والتمثيل الحضري للإله، والتحدث باسمه، ووضع التشريعات والقوانين (باسم الدين)، مع إبراز الشخصية المركزية في الدين (والذي هو النبي) على نحو مبالغ فيه، ولكن إبراز الجوانب التي تؤكد وتدعم علاقة طبقة الكهنوت بذلك النبي، وكأنها امتداد له، وصورة أصلية عنه، وناقلة أمينة لأقواله ونهجه.. في حين أن الحقيقة والواقع غير ذلك تماما.

الجوهر الأصلي للدين حين ظهر بدايةً، كان جوهرًا روحانيًا، فلسفيًا، شفافًا، إنسانيًا... وفي نسخه اللاحقة يتم التخلي تدريجيًا عن هذا الجوهر، لصالح جوهر ومحتوى جديدين، يقومان على المصالح المادية لطبقة الكهنوت الجديدة والطبقة السياسية اللتان توظفان الدين بما يخدم مصالحهما، مع الإدعاء طبعًا بأن هذا هو من صلب الدين، ومن أساسياته. هذا المسار التطوري السييسولوجي ينطبق تقريبًا على كل الأديان؛ حيث يتأثر في سياق تطوره وأثناء مسيرته التاريخية بالنزعات المادية، والظروف الموضوعية، والغرائز البشرية لأتباعه، فمثلا البوذية بدأت بفكر أخلاقي تأملي لمُصلح اجتماعي (بوذا)، الذي كان زاهداً ومتقشفاً، ولم يزعم أنه نبي، ثم تطورت أفكاره من بعده على يد الكهنوت، حتى صارت ديانة مكتملة، وجرى تعظيم بوذا لدرجة لم يكن أحد يتوقعها في أثناء حياته..

المسيحية بدأت بأفكار روحانية تدور حول التسامح والخلاص والفداء.. وكان عدد أتباع يسوع الناصري في حياته قليلاً جداً، ولكن بمثابرة الرسول «بولس» ورسائله، بعد المسيح بنصف قرن، لم تبقَ المسيحية في إطارها المحلي المحدود.. فقد أصبحت ديانة عالمية واسعة الانتشار بعد أن اعتنقها الإمبراطور الروماني قسطنطين، والذي أراد من «مجمع نيقية» توحيد المسيحية لتكون أدواته في توحيد أجزاء الإمبراطورية، ولبسطة نفوذه على شعوبها في أركانها المترامية الأطراف..

وقبل ذلك، لولا انتصار كورش الفارسي على بابل، لظلت اليهودية مجرد أماني مستحيلة للمسيبين.. وفي مرحلة الاحتلال اليوناني لفلسطين كادت اليهودية أن تنقرض، لولا تلاقي مصالح الحكم اليوناني مع المجمع الديني اليهودي. كما يقول «شلومو ساند»: «لولا التعايش بين اليهودية والهيلينية الذي ساهم في تحويل العقيدة اليهودية إلى دين ديناميكي مهوّد، لظل عدد اليهود ضئيل جداً، وكان عددهم اليوم كعدد السامريين».. وكما تحالفت اليهودية مع الاحتلال اليوناني، حلقت على جناحي النسر الروماني فيما بعد.

وبالنسبة للإسلام، لم يختلف تطوره السييسولوجي كثيراً عما حصل في بقية الأديان.. بدأ الإسلام في مكة بالدعوة للتوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والدعوة للعدل ومكارم الأخلاق، والتسامح والتعايش، بنزعة صوفية روحانية محلقة، شفافة.. وبعد وفاة النبي، توحد الدين بنظام الخلافة (الطبقة الحاكمة).. ثم وظفته السلطة لصالحها، واختلف على تفسيره وفهمه

الفقهاء وعلماء الكلام والفلاسفة، فنشأت الفرق والتيارات والمذاهب والطوائف.. جميع هذه الأديان والأفكار الفلسفية تأثرت ببعضها البعض؛ فكل دين تأثر بغيره، وأثر عليه، أخذ منه، وأعطاه؛ فالدين لا ينشأ فجأة بين يوم وليلة، بل يأخذ مساراً تطورياً قد يحتاج قروناً حتى يتخذ شكله النهائي، وخلال مسيرة تطوره يتأثر بالعوامل والظروف الموضوعية المحيطة به، وباجتهادات وتصورات وخلافات فقهاءه ورواده، أو بالتشكيلات الإثنية والثقافية لأتباعه، ويتأثر حتى بالجغرافيا.. فالدين من الناحية النظرية معطى ثابت؛ نبي، وكتاب مقدس، وعقيدة واحدة، وتعاليم راسخة، ومفاهيم محددة.. لكنه على أرض الواقع يتخذ أشكالاً وتمظهرات اجتماعية وسياسية وتشكيلات طائفية متعددة، شأنه شأن أي ظاهرة اجتماعية، فليس هناك دين ولا فكر لا ينشطر، لأن ذلك ضد الطبيعة، فلا وجود لدين خالص، إلا كمفهوم عام.

### نشأة المسيحية

بدأت المسيحية كطائفة يهودية صغيرة خلال حياة السيد المسيح. ثم صُلب (أو رُفِع) السيد المسيح دون أن يترك إرثاً مكتوباً، مخلفاً وراءه تعاليمه ووصاياه وتلاميذه فقط، ولكن بعد صلبه، وبشارة القدوم الثاني (القيامة) تحمس تلاميذه للتبشير بتعاليمه..

في البداية، وخلال القرن الأول الميلادي، نظر الرومان للمسيحية بوصفها طائفة يهودية مهرطقة، وأن المسألة شأن يهودي محلي، فلم يضطهدوا المسيحيين الأوائل، لكنهم بعد ذلك، ومع انتشار المسيحية كديانة مستقلة بدأ الرومان باضطهاد المسيحيين، وأخذوا ينظرون إلى هذا الدين الجديد على أنه تهديد.

كان مجمع أورشليم سنة ٥٠ م، أول مجمع كنسي، ويعتبر نواة للمجامع الكنسية، تقرر في هذا المجلس عدم إلزام الأميين من غير اليهود المتحولين إلى المسيحية بالمحافظة على شريعة موسى، وكان الاعتقاد الشائع لدى المجتمعين بأن المسيحية خاصة بمن هم من أصل يهودي، أي بوصف المسيحية ديانة محلية.. بيد أن بولس الرسول عمل على نشر المسيحية على مستوى عالمي، ودعا كل الأمم لاعتناقها، وبناء على ذلك أسس ما عرف بكنيسة الأمم.

وبدأ من العقد السابع للقرن الأول سيبدأ تلاميذ المسيح بكتابة الأناجيل الأربعة (القانونية) باللغة اليونانية، كان أولها إنجيل مرقس، ثم متى، ولوقا، وأخيراً يوحنا.. وطبعاً إلى جانب رسائل بولس، والتي صارت عماد المسيحية.

ومع الوقت وخلال أربعة قرون فقط انتشرت المسيحية، وصارت الديانة المهيمنة على حوض البحر المتوسط. وغدت من أهم الأحداث التي هزت كيان الإمبراطورية الرومانية، وهددت وجودها واستقرارها، ثم صارت عامل توحيد لها، ففي الوقت الذي تعرضت فيه الإمبراطورية للانحلال البطيء، تسلل في خفة ورقة إلى أذهان الناس دين نقي متواضع، ونما في صمت وخفاء، حتى رفع الصليب فوق أطلال الكابوتول، ثم تغلغل في القارة الأوروبية، وانتقل إلى آسيا وأفريقيا. واليوم تعتبر المسيحية أكبر ديانة في العالم، يدين بها أكثر من ربع سكان الأرض.

### هل المسيح شخصية تاريخية

لا يتسرب شكٌ لقلب أي مؤمن بالله بوجود يسوع المسيح كشخصية حقيقية، فكل أتباع الأديان السماوية يؤمنون جازمين وبيقين تام بكل الأنبياء، ويجلونهم، ذلك لأن أسماءهم وأخبارهم وردت في الكتب المقدسة، ولأن الله أمر بإتباعهم والإيمان بهم..

لكن عدداً من الكتاب والباحثين والمؤرخين الجدد يشككون بوجود هؤلاء الأنبياء، بل وينفي بعضهم وجودهم تاريخياً، سواء من منطلقات أيديولوجية، أو من منطلقات بحثية أكاديمية.. ويخصون بالتشكيك وجود النبي إبراهيم، وموسى، وعيسى المسيح، وحتى النبي محمد.. فمثلاً، يتحدث الفيلسوف الفرنسي «ميشيل أونفراي» عن أن يسوع مجرد

فرضية، وأن وجوده كفكرة أكثر من كونه شخصية تاريخية حقيقية. وحثتهم الرئيسة في زعمهم هذا عدم وجود أدلة أركيولوجية أو أي أثر مادي لهم، وعدم ذكرهم في السجلات والمخطوطات التاريخية..

ومنهم من يعتقد بوجود هؤلاء الأنبياء، لكنهم ينفون عنهم صفة النبوة، ويعتبرونهم شخصيات اجتماعية ذات شأن وحضور، أو أنهم كانوا ملوكاً وحكاماً لحضارات سابقة، ولكن تم تقديسهم وأسطرتهم، أو زجهم في سياق تكوّن ونشوء الأديان وتطورها..

لا يتسع المجال هنا لمناقشة تلك الأطروحات، ولكن سنمر سريعاً على مسألة تاريخية يسوع الناصري، نبي المسيحية. المؤمنون بتاريخية المسيح يقدمون الأدلة والبراهين التالية:

- يعتقد هؤلاء جازمين بوجود شخصية تاريخية اسمها عيسى بن مريم، أو يسوع الناصري، نبي المسيحية، ولد في بيت لحم، ونشأ في الناصرة، وُصِّب في القدس. ويرى هؤلاء أن تاريخ القرن الأول الميلادي، الذي ظهر فيه المسيح، معروف للمؤرخين ولا يوجد فيه غموض، وإن سجلات الرومان تحدثت عن المسيحيين، واعتبرتهم فرقة يهودية ولم تضطهدهم حتى عهد نيرون.

- كُتِّب العهد الجديد يُظهرون معرفة دقيقة بأحداث القرن الأول سياسياً واقتصادياً وثقافياً ودينياً. وقد ذكروا أسماء الأباطرة والحكام الرومان، بطريقة تؤكد أنهم كانوا معاصرين للأحداث.

- اتفق أغلب المؤرخين (ومنهم غير مسيحيين) أن عدة أجزاء من العهد الجديد كُتبت فعلياً في منتصف القرن الأول منها أناجيل مرقس، ومتى، ولوقا، ويوحنا، وسفر الأعمال، ورسالة يعقوب، ورسائل بولس. وبالإضافة للعهد الجديد توجد نحو ٤٠ مدونة مسيحية من القرن الأول، تذكر المسيح، وتؤكد وجوده، وتحدث عن تلاميذه. ولعل أول تلك الكتابات المسيحية التي تحدثت عن يسوع هي رسائل القديس بولس، كتبت بعد ٢٥ عاماً فقط من وفاة المسيح<sup>١</sup>.

- المؤرخ العالمي، ويل ديورانت، يقول إنه لا يوجد أي شخص يهودي أو أممي من القرن الأول قد أنكر وجود يسوع على الإطلاق. ومن المؤرخين غير المسيحيين في القرن الأول الذين أكدوا على تاريخية المسيح: المؤرخ اليهودي يوسفوس فلافيوس (٣٨ ١٠٠م)، والمؤرخ الروماني تاسيتس (٥٦-١١٧م)، والمؤرخ الروماني سوتونيوس (٤٦-١٢٠م)، والفيلسوف السوري مارا ابن سراييوم (٧٣م)، والمؤرخ الروماني اسيتوس (٥٥-١٢٠م)، والمؤرخ سيوطونيوس (٦٩-١٣٠م). كما اعتبر الحكام الرومان أن المسيحيين أعداء روما، بسبب عبادتهم ليسوع كرب بدلاً من قيصر. ومن بينهم اثنان من القياصرة، وهم تراجان (٥٦-١١٧م)، وهادريان (٧٦-١٣٦م)، وبليني الأصغر قاضي الإمبراطورية في عهد تراجان<sup>٢</sup>.

- تكمن قيمة هذه الأدلة في أنها مبكرة ومفصلة، في حين أن السيرة الذاتية المفصلة عن يسوع في العهد الجديد من الأناجيل يعود تاريخها إلى حوالي ٤٠ عاماً بعد وفاته. كل هذا مترافق مع شهادات العديد من شهود عيان عاشوا آنذاك، كما إن تلك المصادر تقدم الوصف الذي يتوافق مع ثقافة وجغرافيا فلسطين في القرن الأول<sup>٣</sup>.

- وهناك العديد من الكتاب الوثنيين الأوائل الذين كتبوا بإيجاز عن يسوع وعن المسيحيين قبل نهاية القرن الثاني. من ضمنهم ثالوس، فليغون، مارا بار سيرايبون، ولوسيان الساموساطي<sup>٤</sup>.

المنكرون، أو المشككون بتاريخية المسيح، يقدمون الحجج التالية:  
يرى بعض هؤلاء أن نشأة المسيحية في القرن الأول في حد ذاتها أمر غريب وغير متوقع مع وجود اليهودية.. فيما

١ القس عماد ميخائيل، هل كان يسوع شخصية تاريخية؟ فريق الدفاع اللاهوتي، [/https://www.difa3iat.com/about-us](https://www.difa3iat.com/about-us)

٢ ابرام لويس حنا، تحليل للأدلة المستخدمة في إثبات وجود المسيح تاريخياً، الحوار المتمدن، العدد ٦١٩٧، ١٠-٤-٢٠١٩.

٣ هل هناك أدلة تاريخية على وجود يسوع المسيح؟ ترجمة: علي محمد رجاى، مراجعة: مصطفى شهباز، المشروع العراقي للترجمة/ ٣٠-١٢-٢٠١٧.

٤ القس عماد ميخائيل، هل كان يسوع شخصية تاريخية؟ مصدر سبق ذكره.



يقول آخرون أن اهتمام اليهود كان حينها منصبا على مشكلة الاحتلال الروماني، وأنهم كانوا ينتظرون مخلصاً (مسيا)، يأتي من أبوين من نسل الملك داوود، ويكون قويا ومحاربا، يخلصهم من الرومان، ويعيد بناء الهيكل، ويقوم بمملكة الرب، أي أن اليهود انتظروا خلاصا نهائيا يشبه القيامة، أو نهاية التاريخ.. الأمر الذي أتى بصورة مغايرة تماما مع «يسوع»، حيث أتى مسالما، ومتواضعا، ولم يدع للحرب، بل قال (أو قيل على لسانه) «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»، والأغرب من وجهة نظر اليهود آنذاك أن المسيح أتى على هيئة بشر، يتألم، ويمرض، ويقوم من الأموات.. لذا رفض اليهود التصديق بيسوع، واعتبروه مهرطقا وساحرا ومضللا، وقد اتفقوا على «صلبه».

ربما يؤكد هذا الطرح وجود المسيح تاريخيا، ولكنه يزعم (على لسان اليهود) أنه ليس المسيا المنتظر، وأنه مجرد مدع.. ومثل هذا الطرح يدعم فرضيات علمانيين معاصرين (لا يؤمنون بالمسيح)، حيث يزعمون أن السلطة الرومانية اختلقت شخصية المسيح لتحديد فكرة الثورة الشعبية على الرومان، لذا جاءت شخصيته مسالمة، ومحايده تجاه السلطة «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». في حين يرد عليهم المؤمنون بأن المسيحية لم تكن فكرة رومانية؛ ولم تكن الرسالة المسيحية في صالح روما.. صحيح أن المسيح وأتباعه لم يدعوا لمقاومة السلطة الرومانية، لكنهم رفضوا عبادة الإمبراطور. بينما يقول آخرون أن سبعة أشخاص على الأقل ظهروا في تلك الفترة يزعم كل منهم أنه المسيا المنتظر.

يقول المشككون بوجود المسيح أن أغلب المعلومات التاريخية، إن لم نقل كلها، عن يسوع، وصلتنا من طريق الأناجيل ورجال الكنيسة، الأمر الذي يضعف صحة هذه الروايات طالما يحكمها الطابع الديني.. وأنهم حاولوا البحث عن يسوع التاريخي، كيف ولد؟ وأين عاش؟ وماذا فعل؟ ولكن دون طائل، حيث لا وجود لأدلة أركيولوجية على وجوده. ويضيفون بأن الأبحاث التاريخية، خارج روايات الأناجيل، زادت المسألة تعقيدا بدل حلها، وازدادت حياة يسوع غموضا، خاصة مع عدم وجود مراجع تاريخية محايدة معاصرة ليسوع، تفيدنا في تقصي ولو خيط ضئيل عن حياته، ناهيك عن شح المراجع الأركيولوجية.

ويستند هؤلاء في أطروحتهم لوجود أكثر من مؤرخ روماني ويهودي معاصرا لتلك الفترة، لم يتحدث أي منهم ولو بكلمة عن يسوع، كأنهم لا يعلمون شيئا عن ولادته المعجزة، وعن تعاليمه التي أسست ديانة عالمية، وعن قصة صلبه ثم قيامته من بين الأموات، فهذا الصمت المريب لهؤلاء المؤرخين دفع عديد الباحثين إلى إنكار وجود يسوع واعتباره صناعة مسيحية متأخرة قائمة على رؤية دينية تؤسس للخلاص والفداء باعتماد شخصية وهمية<sup>٦</sup>.

ويذكرون عددا من المؤرخين المعاصرين ليسوع، أو الذين جاؤوا بعده مباشرة، ولم يذكروا قصته ولو عرضا: منهم المؤرخ الروماني فاليريوس ماكسيموس، والكاتب الروماني بيترون، والفيلسوف اليهودي فيلون الكسندري، والشاعر اللاتيني بيرسيه، والكاتب الروماني سينيكيوه، والشاعر الروماني لوسيان، والموسوعي الروماني بيلين أنسين، ورجل البلاغة اليوناني ديون كريستوم، والشاعر الروماني ستيس، والشاعر الروماني فلاكيويس، والفيلسوف اليوناني بلوتاركيو.

ويضيف هؤلاء: بالنسبة لشهادة المؤرخ يوسيفوس فلافيوس، فقد أتت في سطرين يتيمين ضمن ثلاثين مجلدا. أما رسالة «مارا بن سيرايون»، والتي كتبت بالسريانية، فقد جاء فيها جملة «ملكهم الحكيم» في الإشارة لمن قتله اليهود ولكن دون ذكر اسمه الصريح (المسيح)<sup>٧</sup>.

كما أن مخطوطات قمران والتي يعود تاريخ كتابتها إلى الفترة ما بين ١٥٠ ق.م إلى ٧٠ ميلادي لم تتضمن ذكرا للمسيح، أو المسيحية. مع أن هذا الدليل ليس دامغا، فمعظم اللغائف كُتبت قبل الميلاد، وما كتب بعدها لم يذكر وجود شخصيات ثبت وجودها تاريخيا مثل بولس، ولم تأت على ذكر الأناجيل التي كتبت بعد سنة ٧٠ م.

٥ ابرام لويس حنا، تحليل للأدلة المستخدمة مصدر سبق ذكره.

٦ ابرام لويس، تحليل للأدلة المستخدمة. مصدر سبق ذكره.

٧ ابرام لويس حنا، تحليل للأدلة المستخدمة. مصدر سبق ذكره.

على أية حال، المقال لا يحاول تفنيد حجج أي من الفريقين حول تاريخانية المسيح، بقدر ما يهتم بنشوء المسيحية، والفرق «المهرطقة» التي انبثقت عنها.. وهذه حقائق تاريخية لا تقبل الشك.. ولكن، حول هذه الحقائق يعود الانقسام في الرأي مجدداً؛ إذ يقول المؤمنون بأن وجود تلاميذ للمسيح، وأتباع، وفرق، وتزايد أعدادهم بشكل مضطرب يؤكد على تاريخية المسيح، ووجوده كشخصية حقيقية، فلا يعقل أن هؤلاء جاؤوا من العدم، أو من تلقاء أنفسهم.. فيما يرد عليهم الرأي المعارض بأن الزيادة المضطربة في أعداد المسيحيين تعود إلى الرسول بولس ورسائله، ومن ثم في مرحلة لاحقة إلى اعتناق الإمبراطور قسطنطين للمسيحية، وأنه خلال وبعد تلك المرحلة تم كتابة المسيحية، وقصة المسيح بأثر رجعي.

### بولس الرسول

يعد القديس بولس الرسول (١٠-٦٧ م) أحد أبرز الشخصيات المسيحية الأولى، كان يدعى شاول، قبل بدئه بالتبشير بالدعوة المسيحية. ظهر أولاً على مسرح التاريخ بوصفه مضطهداً للمسيحيين، وفي سنة ٣٤ اعتنق المسيحية، ولم يكن واحداً من الحواريين الاثني عشر، لكنه صار رمزاً في تاريخ الدعوة المسيحية وحاملاً للوائها. أسس العديد من الكنائس والأديرة التي انتشرت في آسيا وجنوب شرقي أوروبا، وأسهم في اتساع الديانة المسيحية وامتدادها إلى العالم الغربي. أرسل عدداً من الرسائل الإنجيلية إلى أتباعه، وهذه الرسائل الرسمية شكلت جزءاً أساسياً من العهد الجديد (أعمال الرسل)، وهي من أقدم وأهم الكتابات المسيحية.<sup>٨</sup>

اختلفت آراء الباحثين حول صحة هذه الرسائل، وتعد أعمال الرسل التي كتبها لوقا الإنجيلي، رفيق بولس، المصدر الرئيس وربما الوحيد لسيرة بولس الرسول، متضمنة حياته المبكرة، ورواية اعتناقه المسيحية ورحلاته التبشيرية. ولد بولس في طرسوس جنوب تركيا، في عائلة يهودية، حصل في بلده على الثقافة اليونانية، ثم أرسل في شبابه إلى القدس، ليتلقن اللاهوت اليهودي، فجمع في شخصيته ثلاثة جوانب: نشأته اليهودية، ومواطنيته الطرسوسية، ورعويته الرومانية.

بدأ رحلاته التبشيرية في آسيا الصغرى سنة ٤٥م، ووصل سورية ومكدونيا وفرنجة واليونان وأنطاكية وأفسس في الأناضول، حتى عاد إلى روما، حيث اعتقل وحكم عليه بالإعدام.. ساهم في تشكل اللاهوت المسيحي، وإقامة دين شامل ومستقل، وتحرير المسيحية من الموسوية (إلغاء الختان). استمر تأثير بولس بعد وفاته، فجمعت رسائله لتكون جزءاً أساسياً من العهد الجديد، وصارت مرجعاً للكتابات المسيحية، حتى أن الكثير من الجمعيات المسيحية تعتبره مؤسساً حقيقياً للمسيحية.<sup>٩</sup>

كما رأى باحثون كثير، ومنهم «شارل جينبير» في كتابه المسيحية العتيقة (١٩٢١)، والذي نشره عبد الحليم محمود، شيخ الأزهر الأسبق، أن بولس هو مؤسس الديانة المسيحية؛ والسبب أن تأثير العقائد السائدة في الأمم السابقة مثل عقائد القبالة والغنوصية والرواقية المؤمنة بألهة وثنية لم يكن لأيٍّ من الرُّسل الأحد عشر الآخرين ليحدثه.<sup>١٠</sup> ومن أهم ما فعله بولس هو التأكيد على عقيدة الثالوث المقدس، وربوبية يسوع، والترويج لفكرة أن الخلاص يأتي عبر الإيمان بيسوع «المسيا»، وليس عبر الالتزام بشرية موسى (كما تقول اليهودية)، وبذلك هو فعليا من حرر المسيحية من اليهودية.

كما اعتبر بعض المفكرين بأن المؤسس الحقيقي للمسيحية هو بولس وليس يسوع. منهم «فرويد» في كتابه «مستقبل وهم»، والمؤرخ «أدولف فون هارناك» في كتابه «جوهر المسيحية». والباحث «كوراو أوجاس»، وحسب رأي الفاتيكان فإن

٨ سوسن بيطار، بولس الرسول، الموسوعة العربية، المجلد الخامس، ص ٥٧٩-٥٨٥.

٩ سوسن بيطار، بولس الرسول، مصدر سبق ذكره.

١٠ د. محمد عبد المحسن، بولس الرسول، رائد دعوة التبشير، منتدى العلماء، ١٥-٢٠٢١. <https://www.msf-online.com>

تلك الكتب تفتقر لمنهج البحث العلمي المتين، وتنطلق من حكم مسبق وإيديولوجية معادية للمسيحية<sup>١١</sup>. وفي كلمة لقداسة البابا «بندكتس السادس عشر» عن علاقة بولس الرسول بالجماعة الرسولية الأولى، دحض هذه النظريات، وقال إنها لا ركيزة حقيقية لها، وأن رسائل القديس بولس نفسها تشهد أن بولس الرسول إنما نقل إلى الآخرين ما سبق وتلقاه هو بدوره ممن سبقوه وكانوا شهود عيان لحياة يسوع الناصري ولأقواله وتعاليمه، وأن علاقة القديس بولس بالرسول الذين سبقوه في إتباع المسيح كانت علاقة احترام وتقدير.

وذكر البابا أن لقاء بولس بكيفا (بطرس) في أورشليم لقاءً فريداً: فقد بقي بولس عنده مدة ١٥ يوماً ليستشيريه، ولذا يمكننا أن نستخلص أن بولس كان حريصاً جداً على أن يحصل على معلوماته حول يسوع المسيح من المصادر الموثوقة، أي الرسل الأولين، لكي لا يبني إيمانه على حكمة بشرية أو على خرافات، «أنقل لكم ما قد تلقيته بدوري». ويضيف البابا: «لا يمكننا أن ننكر عبقرية بولس في نقل المسيحية، ولكن رسائله التي أوكلمها إليه يسوع عملت على تثبيت وضمانة ألا يخرج التلاميذ عن التعليم الذي تلقوه من الرب يسوع، وأسهمت في إيصاله إلى الشعوب الوثنية بلغتها، تلك اللغة التي كان بولس ضليعاً فيها نحواً وفلسفة وثقافة<sup>١٢</sup>.

وأيضاً اعتبر بعض الباحثين الإسلاميين أن بولس الرسول هو المؤسس الأول للمسيحية، ولكنها من وجهة نظرهم مسيحية غير صحيحة، ومحرفة، وتختلف عن دين المسيح الصحيح، لكونه أدخل عليها فكرة ألوهية المسيح والثالث وغيرها من الأمور التي يعتبرونها في معتقداتهم شرك، ومن هذا المنطلق يهاجمونه بشدة.

والمقال هنا لا يناقش الفروقات المفترضة بين رسائل بولس وتعاليم المسيح الأولى، وهل حُرف بولس المسيحية أم لا.. ما يعيننا هنا أن أعداد من آمن بالمسيح واتبعه أثناء حياته كانت قليلة جداً، وربما كانوا في طريقهم للتحويل إلى طائفة أقلية، لولا رسائل بولس والجهد الذي بذله في الدعوة للمسيحية، وإقامته للأديرة والكنائس.

### الفرق المهرطقة المبكرة

«المهرطقة» كلمة يونانية، وتعني أن شخصاً اختار رأياً أفضل من رأي آخر. ثم أطلقت الكنيسة تعبير مهرطق على أي شخص يؤمن بفكرة تختلف عن أفكار الكنيسة، أو اعتناق أفكار مغايرة للعقيدة الصحيحة، ومن وجهة نظر الكنيسة فإن المهرطقة أضرت بوحدة المؤمنين وقسمتهم وأصلتهم، ولأنها شككت بتعاليم المسيح فقد عملت على تعطيل رسالته. ومن هنا حاربت الكنيسة بقوة كل الفرق «المهرطقة».

ويمكن إرجاع ظهور المهرطقات إلى عدة أسباب، منها دخول أعداد كبيرة من الأمم إلى المسيحية، بما يحملون من ثقافات وفلسفات يونانية وغنوصية ومحاولاتهم الدمج بين هذه الفلسفات والإيمان المسيحي، ومحاوله بعضهم إيجاد طريق وسط بما لا يتعارض مع مبادئ الديانة اليهودية ولا ينكر المسيحية، ومحاوله آخرين الوصول إلى تحليل عقلي للإيمان بالمسيحية.. بيد أن الخلاف على طبيعة المسيح، ومفهوم الخلاص كان المحور الذي تعددت حوله الآراء، وبالتالي تعدد واختلاف الفرق التي اعتبرتها الكنيسة مهرطقة، حيث تبنت كل فرقة وجهة نظر مختلفة سواء بشأن طبيعة المسيح، أم عن مفهوم الخلاص، أو حول التمسك بالناموس.

وفيما يلي سنحاول التعرف بإيجاز شديد على أهم الفرق التي اتهمت بالمهرطقة، أي التي ظهرت قبل مؤتمر نيقية:

### ١. الغنوصية

الغنوصية كلمة يونانية، وتعني المعرفة، أو العلوم الخاصة بالأمور الروحية أو الإلهية. وهي خليط من الأفكار الفلسفية

١١ روبر شعيب، بندكتس السادس عشر يدحض بعض الآراء الشائعة، رد الفاتيكان، في ٢٤-٩-٢٠٠٨. <https://ar.zenit.org> ٢٤/٠٩/٢٠٠٨

١٢ روبر شعيب، بندكتس السادس عشر، مصدر سبق ذكره.

الدينية الهلينية، والثنائية الفارسية، واليهودية، والمسيحية.

بدأت الغنوصية المسيحية في القرن الأول الميلادي، ولكنها ازدهرت وانتشرت في القرن الثاني، ومن آباء الغنوصية «فالتينوس» المولود في الإسكندرية عام ١٠٠ م، وأيضا السوري باسيليدس، والذي أكد على عدم صلب المسيح، وأنه رُفِع إلى السماء.. ويعتبر «سيمون» الوارد ذكره في سفر أعمال الرسل، هو أبو الغنوصيين حسب رأي بعض المؤرخين.

حاولت الغنوصية المسيحية شرح أصل ومصير الروح، بإسقاطها إلى عالم المادة، واعتبارها سجينه الجسد الحسي، الأمر الذي أدى لتأثر الإله الأعظم بسقوطها، فأرسل المخلص لكي يخلصها من هذا السجن، واتخذ هذا المخلص مظهر إنسان لأن الإله لا يمكن أن يتحد بالمادة المرئية، واستطاع بهذه الطريقة أن يعلن للعارفين (الغنوصيين) أصلهم، أي أنهم من عالم سماوي<sup>١٣</sup>.

وبالرغم من تنوع مذاهب الغنوصية إلا إنها تشترك في أن المعرفة تأتي عن طريق الإلهام، وبهذه المعرفة فقط نستطيع الوصول إلى إدراك وفهم من نحن، وما هو مصدرنا وأصلنا، وما هي الغاية التي نسعى إليها، وبهذه المعرفة نستطيع الوصول إلى الخلاص من الأشياء الحسية التي تربطنا بالمادة. وبالتالي لا يصل الإنسان إلى الخلاص عن طريق الإيمان الذي يمنحه الله إياه في المسيح، بل عن طريق المعرفة التي تنير وترشد إلى الطريق الحقيقي، فلا خلاص عن طريق الإيمان.

وتؤمن الغنوصية بثنائية الخير والشر وبالتالي ترى وجود سلطتين أو مملكتين: مملكة النور: يحكمها ويسيطر عليها الإله السامي غير المعروف (الإله الأعلى)، وهناك إله ثانٍ أدنى درجة هو من خلق البشر، وقد خرجت من الإله الأعلى آلهة متنوعة الدرجات، وآخر إله خرج منه هو إله اليهود «يهوة». وكما خرجت عنه مملكة الظلام أو المادة، والتي يحكمها إبليس، وتعاونه في الحكم جماعة متنوعة من الشياطين متعددة الدرجات<sup>١٤</sup>.

كما رفضت الغنوصية عقيدة الصليب باعتبارها لا تتفق مع لاهوت المسيح، ويقولون أن من صُلب هو سمعان القيرواني الذي شُبِّه لليهود<sup>١٥</sup>.

تمكنت الكنيسة الرسمية من القضاء على الغنوصية وإتلاف كتبهم وأناجيلهم المنحولة، بيد أنه في العام ١٩٤٥ عثر عن طريق الصدفة على مخطوطات غنوصية مسيحية في «نجع حمادي» في صعيد مصر، تضم أناجيل منحولة، وحكم وقصص وتعاليم غنوصية، وكتب ابوكريفا<sup>١٦</sup>.

## ٢. الماركونية

تعتبر الماركونية من الفرق الغنوصية، أسسها ماركيون المولود حوالي عام ١٢٠م في مدينة سينوب على البحر الأسود، من أسرة مسيحية وهو من تلاميذ بولس وإن لم يعاصره، ويتفق مع بولس على نقد العهد القديم ونبذ الناموس، وكان أبوه أسقفاً للمدينة. لكنه كان على خلاف مع والده، مما جعل الأخير يقوم بحرمانه من الكنيسة، سافر إلى روما عام ١٤٠م وانضم لكنيستها، ولكنه اختلف معها مما دفع بالكنيسة لحرمانه عام ١٤٤م، ويعتبر هذا أول انشقاق لجماعة من جسد الكنيسة. على إثر حرمانه قام بتأسيس كنيسة، وجعل فيها نفس الرتب الكهنوتية، وانضم إليه عدد كبير من الأتباع بسبب نشاطه، واستخدام أمواله في استقطاب الأتباع.

١٣ البدع والهراطقات في القرون المسيحية الأولى، كنيسة الإسكندرية للأقباط الكاثوليك بمصر، ٢٤-٤-٢٠١٣. <https://coptcatholic.net>

١٤ البدع والهراطقات في القرون المسيحية الأولى، كنيسة الإسكندرية للأقباط الكاثوليك بمصر، ٢٤-٤-٢٠١٣. <https://coptcatholic.net>

١٥ تاريخ الفكر المسيحي، المجلد الأول، الجزء الأول، د. القس حنا جرجس الخضري، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١، ص ١١٥.

١٦ أبوكريفاً Apocrypha كلمة يونانية قديمة تعني «أشياء تم إخفاءها»، وترجم إلى الكتب المنحولة أيضاً، وفي السياق الديني مصطلح أبوكريفا يستعمل

اليوم حصراً للإشارة إلى نصوص دينية تعتبر غير موثقة ومعترفة بها من قبل الأثرية الدينية، وتدرجياً اصطبغ المصطلح بمعاني سلبية مرادفة للتحريف، في المسيحية

تطلق أبوكريفا على أسفار من الكتاب المقدس تم نبذها لأنه لم يتم إقرارها والموافقة عليها من قبل مجامع كنسية مختلفة. (عن الويكيبيديا).



خلت تعاليم ماركيون من الثنائية التي تكلم عنها فلاسفة اليونان، ولكنه نادى بنوع آخر من الثنائية تعلم بوجود إلهين: الإله العظيم السامي المحب، وهذا الإله غير معروف ومخفي، ولا صلة له بالعالم وليس هو الخالق. والإله الثاني، وهو أقل درجة من الإله الأول، ولا يعتبر إلهاً شريراً ولكنه عادل وسريع الغضب ومنتقم، يحارب ويسفك دماء أعدائه بلا رحمة، وهو الذي قام بعملية الخلق، وأوجد العالم، ثم اختار شعباً ليكون شاهداً له وهو الشعب اليهودي الذي أعطاه الناموس، وترك بقية الشعوب فريسة للمادة والوثنية.

يعتقد ماركيون أن المسيح ليس هو المسيا الذي تنبأ به العهد القديم، وأن المسيح الحقيقي هو الذي ظهر في عهد طيباريوس قيصر، كذلك يعتقد ماركيون أن الإله السامي المحب قد أظهر نفسه في يسوع المسيا في وقت العماد وهذا هو التجسد، وهدف التجسد هو تحرير البشر من ناموس الإله الأدنى مرتبة، الذي ثار وهيج اليهود على المسيح فقتلوه. تمسك ماركيون بعشر رسائل فقط من رسائل القديس بولس وبأجزاء من إنجيل القديس لوقا، أما باقي العهد الجديد فأنكره، وحذف منه أيضاً كل الاستشهادات المأخوذة من العهد القديم.<sup>١٧</sup>

### ٣. البنيويون

يؤمن البنيويون بأن يسوع لم يكن ابن الله بالطبيعة بل بالتبني، وأنه مولود من عذراء، لكنهم يرفضون أزليته. (أنت ابني وأنا اليوم ولدتك) (المزمور ٧: ٢٠)<sup>١٨</sup>. ومن مؤسسي هذه الفرقة ثيودوثيوس، وكان يُلقب بالدباغ، وكان مثقفاً ثقافة مسيحية ومتأثراً بالفلسفة اليونانية، جاء إلى روما في نهاية القرن الثاني بعد ماركيون مباشرة، لذا وجد بيئة خصبة لنشر تعاليمه، ولكنه اختلف معه في تمسكه بكلا العهدين ومحاولته إثبات صحة تعاليمه من خلالهما. حكم فيكتور أسقف روما سنة ١٩٢م بضلالة هذه التعاليم وأدان ثيودوثيوس، ولكن هذا الحكم لم يستطع أن يوقف سريان هذه التعاليم وانتشارها في روما وخارجها.<sup>١٩</sup>

### ٤. الانتحالية

نشر بعض المعلمين الأوائل تعاليم جديدة سُميت «موداليسم» حوالي عام ١٨٠م، منهم نوتوس المسميري، والكاهن سايلبيوس، وبولس السميساطي، ولوقيانوس السميساطي<sup>٢٠</sup>، وانتشر هذا المذهب في روما في أيام البابا زفيرنوس (٢٠٢-٢١٧)، رأى هؤلاء أن عقيدة الثالوث في الله الواحد عقيدة صعبة وغير مقبولة ومرفوضة من اليهود والوثنيين، لذا حاولوا شرح هذه العقيدة بنظرية مبسطة، مفادها: أن الله الأزلي الذي خلق العالم وكل ما فيه خرج عن صمته وعن راحته بمخلق هذا العالم، وعندما خلقه أصبح الله الأب الخالق جوهرًا واحدًا وشخصاً واحداً، ووحدة واحدة وهو نفس الشخص من الخلق إلى التجسد. أي أن الإله الذي تجسد في يسوع الناصري ليس الابن أو اللوغوس بل هو الله نفسه، أي أن الأب أصبح ابناً وهو الذي صُلب وتألّم ومات. رفضت الكنيسة الرسمية هذه الدعوة، وقام البابا كاليستوس بإصدار حرمان ضد سايلبيوس وأتباعه عام ٢٢٠م.<sup>٢١</sup>

١٧ البدع والهرطقات في القرون المسيحية الأولى، كنيسة الإسكندرية للأقباط الكاثوليك بمصر، ٢٤-٤-٢٠١٣. <https://coptcatholic.net>

١٨ حمد شاهين التابع، الهرطقات في فترة ما قبل نيقية، قناة الدعوة، ١٧-١٠-٢٠١٨، <https://www.youtube.com/watch?v=XozhLUJhpjg>

١٩ البدع والهرطقات في القرون المسيحية الأولى، مصدر سبق ذكره.

٢٠ د. القس حنا جرجس الخضري، تاريخ الفكر المسيحي، المجلد الأول، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١، ص ١١٥، ٣٠١.

٢١ البدع والهرطقات في القرون المسيحية الأولى، مصدر سبق ذكره.

## ٥. الأريوسية

ولد أريوس عام ٢٥٠ م في ليبيا، وترأس كنيسة الإسكندرية عام ٣١٠ م، تعلم في أنطاكية جنوب تركيا على يد لوقيانوس السميساطي. وهناك أنشأ الأريوسية، التي انتقلت إلى الإسكندرية<sup>٢٢</sup>. تتخلص «بدعة» أريوس في أنه فصل بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح، وعارض عقيدة الثالوث المقدس، وعارض ألوهية المسيح<sup>٢٣</sup>، بسبب سرعة انتشار الأريوسية وما شكلته من خطر على الكنيسة الأرثوذكسية، التي رأت أنها تهدد العقيدة المسيحية، بينما رأى الإمبراطور قسطنطين أنها تهدد وحدة واستقرار الإمبراطورية.. لذا عُقد مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ م، وهناك لعب الشماس السكندري أثناسيوس دورا هاما في محاربة الأريوسية، ما أدى في النهاية إلى حرمان أريوس، وإدانة افكاره، ونفيه.. ولكن ومع ذلك واصلت الأريوسية انتشارها في مختلف العالم المسيحي. وهناك أيضا من الفرق المهرطقة: السيموساطية، اللوشيانوسية، وغيرها من الفرق التي كان سبب انشقاقها عن الكنيسة حول مفهوم الرب وطبيعة يسوع، وفي العموم نبذت الكنيسة الرسمية كل هذه الفرق، وحرمتها، ولم يعد لها من إتباع في الوقت الحاضر سوى أعداد قليلة جدا<sup>٢٤</sup>. معظم الفرق «المهرطقة» نشأت في روما، أو عاشت خارج المنطقة العربية، باستثناء الأبيونية التي خرجت من فلسطين، لذا سنسلط الضوء على «الأبيونية»، ولما لها من علاقة غير مباشرة بظهور الإسلام.

## ٦. الأبيونية

الأبيونيون هم جماعة خرجت من كنيسة «أورشليم» (٥٠ م)، والأصح وصفهم بالاتجاه المسيحي ذو الأفكار المتعددة والمتنوعة الذي آمن بيسوع كمخلص. وقد رفضت الأبيونية تصديق رسائل بولس، وكانت تنادي في الكنائس المسيحية بالعودة إلى الناموس (شريعة موسى). يُرجع البعض اسمهم إلى مؤسسهم الذي يدعى أبيون؛ ولكن الرأي الأرجح أن كلمة أبيون تعني في العبرية (فقير) وجمعها أبيونيم أي فقراء. ظهرت هذه الفرقة أثناء حياة القديس يوحنا، وحسب المؤرخ «لايت فوت» فقد ظهوروا في أيام حكم تراجان (٥٢ إلى ١١٧ م). ومعتقداتهم مزيج من اليهودية والنصرانية. فهم ولدوا يهوداً ثم صاروا مسيحيين، وحافظوا على شريعة موسى (الختان، السبت، الكوشير، تحريم الخمر والخنزير، الغسل من الجنابة، والصلاة والصيام..)، ويؤمنون بأن يسوع هو المسيا، لكنهم يرفضون تأليهه. لا يؤمنون بالأناجيل الأربعة، بل بتعاليم يعقوب الذي صار رأس تلاميذ يسوع بعد موته، ويؤمنون بإنجيل متى باستثناء الإصحاحين الأول والثاني، ويسمونهم إنجيل الناصريين، أو إنجيل العبرانيين (كُتب بالآرامية)<sup>٢٥</sup>. يؤمن الأبيونيون بأن يسوع هو مختار الله، وهو النبي الحقيقي، ولكنهم يرفضون ميلاده العذروي ويقولون أنه ابن يوسف النجار ومريم، يرفضون وجود المسيح السابق قبل التجسد، وبناء على ذلك فهو لم يولد من الروح القدس ولا من الله، بل خُلِق كما خُلقت الملائكة، أي أنهم يعترفون بناسوت المسيح ولكنهم ينكرون لاهوته. ويتحدث العلامة «أوريجانوس» عن طائفتين من الأبيونيين إحداهما تنكر الحمل العذروي بالمسيح، بينما تؤيد ذلك الطائفة الأخرى. واتخذوا لهم لقب الناصريين، وكانوا يتحدثون بالآرامية، وكان لهم إنجيلهم الخاص، وهو إنجيل متى. (موسوعة آباء الكنيسة- المجلد الأول المهرطات التابعة من اليهودية أولا الأبيونيون والناصريين)<sup>٢٦</sup>.

٢٢ تاريخ الفكر المسيحي، المجلد الأول، الجزء الأول، د. القس حنا جرجس الخصري، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١. ص ٤٥٥.

٢٣ د. فاضل سليمان، رئيس جمعية جسور للتعريف بالإسلام، الأريوسية، ٢٥-٣-٢٠١١. <https://www.youtube.com/watch?v=mUexLFbMJsg>

٢٤ البدع والمهرطات في القرون المسيحية الأولى، مصدر سبق ذكره.

٢٥ محمد المسيح، التاريخ المبكر للإسلام، الأبيونية. ١٩-٩-٢٠١٩. <https://www.youtube.com/watch?v=yVgyz2>

٢٦ لطيف شاكر، النصرانية ليست مسيحية، الحوار المثمن، العدد ٢٩٣٤، ٤-٣-٢٠١٠.

يخلط الكثيرون بين المسيحية والنصرانية، حيث أطلق قديماً اسم النصارى على الأبيونيين فقط دون الطوائف الأخرى، وقد انتهت هذه الطائفة، وصارت تراثاً ثقافياً. وقد تحدث القرآن الكريم عن النصارى (الأبيونيين) وعقيدتهم، دون الإشارة إلى المسيحية، فقد ذكر القرآن فئة النصارى واليهود والصابئة ولم يذكر اسم المسيحيين، علماً بأن المسيحيين كانوا منتشرين في معظم العالم القديم، وكانوا أكثر عدداً من (النصارى/ الأبيونيين)، فكان منهم الروم (البيزنطيين)، والرومان، والأريوسيين، والأقباط.. وكان النبي محمد على معرفة بالطوائف الأخرى، فمثلاً في الرسالة التي أرسلها إلى هرقل يدعوه فيها إلى الإسلام ذكر طائفة تعتبرها الكنيسة خارجة عن المسيحية، وهم الأريوسيين، ولم يطلق محمد اسم النصارى على الأقباط، بل دعاهم القبط (أخرج ابن عبد الحكم، عن مسلم بن يسار، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: استوصوا بالقبط خيراً، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم). فلماذا لم يسمهم نصارى مصر؟ في حين استخدم وصف نصارى نجران ونصارى العراق ونصارى الشام، حيث كان المذهب النصراني موجوداً في هذه البقاع<sup>٢٧</sup>. يحمل الأبيونيون فكراً متميزاً، اعتبر خارجاً عن الإيمان المسيحي السائد آنذاك. ويتسم الأبيونيون بالالتزم النصي والحفظ الحرفي، ويدعون للتمسك بالشرعة القديمة والعودة للجذور، بعقلية أصولية، والملتزمون منهم يحترمون السبت، ويحفظون الناموس الموسوي حرفياً، وينادون بأن الختان ضروري للخلاص، وأن الناموس القديم فرض على جميع المسيحيين ويجب عليهم إتباعه.. لذلك نظروا إلى المؤمنين من الأمم الذين رفضوا الخضوع للناموس القديم على أنهم نجسون. ويعتقدون بإنجيل متى فقط، ويرون الأناجيل الأخرى محرفة، وقد رفضوا رسائل بولس، ويصف الأناجيل غريغوريوس مدى كره الأبيونيين لبولس فيقول: «وأنهم إتهموه بإتهامات مرة وقاسية، ووصفوه بالمتنرد والمارق عن الناموس، وأنكروا سلطانه ورفضوا رسائله»<sup>٢٨</sup>.

ويرفض الأبيونيون لاهوت المسيح، فالمسيح عندهم نبي ورسول، ويؤمنون بالمعجزات التي تمت علي يديه، ويرفضون تعرض المسيح للموت والألم، ويرفضون الصلب، ويعتقدون بأنه رفع إلى السماء، بل ويرفضون قضية الفداء بمجملها، كما أنهم يؤمنون بأن المسيح سيعود آخر الزمان ليحكم لمدة ألف سنة. (موسوعة آباء الكنيسة، المجلد الأول، الهراطقات النابعة من اليهودية أولاً الأبيونيون والناصريون).

والبعض يصنف الأبيونيين كطائفة يهودية أكثر من كونها مسيحية، أو كمجموعة من الأسينيين بدؤوا يميلوا إلى المسيحية عقب سقوط أورشليم (٧٠ م)، أو ربما لحق بهم بعض الأسينيين فيما بعد، وهذا يفسر وجود أفكار وممارسات أسينية لدى بعض الإبيونيين، فهم لم يتحولوا إلى المسيحية إنما ظلوا يهوداً بعناصر مسيحية، حيث أخذوا بعضاً مما سمعوه عن المسيح وخلطوه مع فكرهم اليهودي، فمثلاً وصفهم بوضوح القديس ايبفانيوس بأنهم يهود تقليديين منحرفين عن الإيمان والممارسات اليهودية، وقد كانوا يسمون الأماكن التي يجتمعون فيها مجامع لا كنائس. وربما يكون وصف الأبيونيين باليهود وصفاً مضللاً، ذلك لأن المسيحية خلال النصف الأول من القرن الأول كانت امتداداً لليهودية، ولم تنفصل عنها إلا بعد ذلك.

وقد قال عنهم ارينيؤوس تلميذ بوليكار يوس تلميذ يوحنا تلميذ يسوع قال إنهم ليسوا مسيحيين: «ماذا أقول عن الأبيونيين؟ الذين يدعون أنهم مسيحيون، إنهم أرادوا أن يكونوا يهوداً ومسيحيين في وقت واحد وما استطاعوا أن يكونوا يهوداً أو مسيحيين». (يوسابيوس، تاريخ الكنيسة، كتاب ٣ فصل ٢٧ فقرة ٥).

٢٧ لطيف شاكر، النصرانية ليست مسيحية، الحوار المتمدن، العدد ٢٩٣٤، ٣-٤-٢٠١٠.

٢٨ الأب حوزيف قسي، أبو موسى الحريري، قس ونبي، بحث في نشأة الإسلام، دون ذكر دار النشر، ١٩٧٩.

## مجمع نيقية

كان الإمبراطور قسطنطين (٢٧٢-٣٣٧ م) أول إمبراطور بينزنطي يعتنق المسيحية، وحدث ذلك في أواخر عهده، لكنه بدءاً من العام ٣١٣ م سمح بحرية العقيدة، ورفع الحظر عن المسيحية، واعتبرها ديانة الإمبراطورية، اعتقاداً منه بأن ذلك سيخدم الإمبراطورية، وسيعمل على توحيدها، ويؤمن استقرارها، وسيمكنه من فرض حكمه على أطرافها المترامية.. ولكن بعد نشوب الخلافات العميقة بين المذاهب المسيحية، وخاصة بين الكنيسة الأرثوذكسية وبين أريوس، شعر بأن هذه الخلافات ستؤثر سلباً على أمن واستقرار الإمبراطورية، وقد تؤدي إلى انشقاقات وتصدعات خطيرة، فسارع وبطلب البابا الكسندروس إلى عقد مجمع كنسي عام، لحسم الخلافات، وتوحيد الكنائس، وقطع الطريق على أية تطورات مستقبلية خطيرة قد تؤثر على وحدة البلاد..

وهكذا عقد مجمع نيقية عام ٣٢٥ م، وهو المجمع المسكوني (العالمي) الأول، حضره ٣١٨ أسقفاً من كل العالم المسيحي، بحضور البابا الكسندروس، والشماس أثناسيوس، وقد افتتحه الإمبراطور شخصياً، كما حضره القس أريوس وأتباعه، واستمر انعقاده ثلاثة أشهر، حتى انتهى بإقرار قانون الإيمان، وإدانة أريوس، واعتباره مهرطقاً، والحكم عليه بالحرمان والنفي، والإقرار بالهوية المسيح، وأنه ابن الله، أي توحيد الجوهر بين الأب والابن.. وهذه مسائل كانت محل خلاف بين الفرق المسيحية الأولى، لكن مجمع نيقية حسمها<sup>٢٩</sup>.

لكن الأريوسية بعد ذلك لم تنته، بل انتشرت في عموم العالم المسيحي. كما أن مجمع نيقية لم يحسم الخلافات نهائياً، بل افتتح موجة جديدة من المجامع المسكونية، أدت إلى نشوء العديد من الانشقاقات، وظهور العديد من الفرق «المهرطقة»، واحتدام الصراع بين الأريوسيين والأرثوذكس.

وفي عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير عقد المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية (٣٨١ م) الذي اعترف بالمسيحية ديانة رسمية وحيدة للإمبراطورية، وأن الإيمان المسيحي الحقيقي هو ما قرره مجمع نيقية. الفرق المهرطقة المتأخرة (بعد نيقية)

## ١. النسطورية

تأسست النسطورية على يد البطريرك السوري نسطور بطريرك القسطنطينية منذ ٤٢٨ م، الذي رفض طبيعة المسيح الواحدة حسب المعتقد الأرثوذكسي، وقال أن له طبيعتين ابن الله وابن مريم، أي أنه رفض الثالوث.. جوبهت دعوته برفض الأكليريوس، ثم عقد مجمعاً كنسياً عام ٤٢٩ م حرم بموجبه كل من يرفض دعوته.. على إثر ذلك عقد البابا كليريوس الكبير بابا الإسكندرية مجمع الإسكندرية الذي أدان فيه نسطور وشجب تعاليمه، ودعا للتمسك بقانون الإيمان، وأكد على أن العذراء هي والدة الإله، الأمر الذي أيدته كنيسة روما.

رفض نسطور قرارات مجمع الإسكندرية، وقد انضم إليه أساقفة أنطاكية والرها وكورش (في سورية)، ثم حرض الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني على البابا كليريوس. لكن بابا الإسكندرية سارع إلى عقد المجمع المسكوني الثالث في أفيغوس سنة ٤٣١ م، والذي قرر حرمان نسطور وعزله، ثم نفيه بأمر الإمبراطور إلى البتراء، ثم إلى أحميم في صعيد مصر<sup>٣٠</sup>. لكن النسطورية لم تنته، بل انتشرت في سورية وبلاد الرافدين، ثم امتدت شرقاً حتى صارت في القرنين العاشر والحادي عشر من أكبر كنائس العالم، ذلك بعد أن تلقت دعم القُرس، الذين كانوا يناصرون البيزنطيين العداء، وأرادوا من خلال النسطورية تقويض وحدة المسيحيين في بيزنطة، كما حظيوا بدعم الخلفاء العباسيين فيما بعد. وكما واصلت النسطورية انتشارها في الهلال الخصيب، واصلت الأريوسية انتشارها في مصر وشمال أفريقيا وإسبانيا.

٢٩ محمد شاهين التابع، عصر المجامع - الجزء الأول - مجمع نيقية، قناة الدعوة، ٢٠١٨-١٢-١٠. <https://www.youtube.com/watch?v=zyfnyUMLz10>

٣٠ أمير نصر، النسطورية تاريخياً، مركز البابا ديسقورس، الإسكندرية، ٢٠٢١-٣-٢٣. <https://www.youtube.com/watch?v=i-pXwszoFpI>

رفضت اليعقوبية الإيمان بطبيعتين للمسيح (لاهوت وناسوت) وقالت بطبيعة واحدة، أي أن المسيح هو الله، أو أن الله تجسد في المسيح، وأن الكلمة «اللوعوس» انقلبت إلى دم ولحم وتجسدت في شخص المسيح.. كان المطران السرياني يعقوب البرادعي المتوفي سنة ٥٧٨ م، هو من أسس الكنيسة اليعقوبية الشرقية، التي انتشرت في الشام ومصر والحبشة ونجران<sup>٣</sup>.

### خلاصة

منذ وقت مبكر من نشأة المسيحية بدأت الخلافات تظهر بين المسيحيين أنفسهم، والتي تركزت على مفهوم طبيعة المسيح، هل هو إله متجسد في شخص المسيح؟ هل المسيح موجود منذ الأزل؟ أم ولد بشرا ثم صار إلهًا؟ أم هو ذو طبيعتين لاهوتية وناسوتية؟ أم هو مجرد بشر لكنه عبد الله ورسوله؟ ثم الخلاف على الثالوث المقدس، فضلا عن الخلاف على مفهوم الخلاص «المسيا»، والفداء.

وهكذا تأسست الكنيسة، وظهرت الفرق والمذاهب، وانعقدت المجامع الكنسية (المحلية والمسكونية) والتي صارت تعتبر كل من يخرج عن تعاليمها، أو يأتي بأفكار لا تتفق معها تعتبره مهرطقا، يتوجب حرمانه ونفيه.. بدأت بالأيونية، ثم ظهرت الغنوصية، والانتحالية، والماركونية، والأريوسية، وهذه الأخيرة كادت (لولا مجمع نيقية) أن تصبح الطائفة الرسمية لعموم المسيحيين.

وقد أخفق مجمع نيقية في توحيد كلمة المسيحيين، أو القضاء على الأريوسيين، بل إنه افتتح موجة جديدة من المجامع المسكونية، التي بدورها ولدت مزيدا من الانشقاقات، حيث ظهر النساطرة واليعاقبة وغيرهم.. في القرون الأربعة الأولى من عمر المسيحية كان جميع المسيحيون في العالم يطلقون على أنفسهم أرثوذكس، وتعني لغويا الطريق الصحيح، أو الإيمان السليم، مقابل تسمية الهرطقة على كل مذهب يخرج عن تعاليم وأفكار الكنيسة الرسمية، وكانت الكنيسة تسمي نفسها الكنيسة الجامعة لكل المؤمنين، أي الكاثوليكية، ولم تكن تلك التسميات تدل على أي فرق بين المسيحيين، أو على انشقاق مذهبي فيما بينهم.. ولكن في مجمع خلقدونيا عام ٤٥١ م، انشقت الكنيسة إلى شرقية أطلقت على نفسها اسم الأرثوذكسية ومرجعيتها القسطنطينية، وإلى غربية أطلقت على نفسها الكاثوليكية ومرجعيتها روما. وفي القرن السادس عشر دعا مارتن لوثر لثورة إصلاحية احتجاجا على الكنيسة الكاثوليكية في روما، ما أدى إلى نشوب موجة من الحروب الدينية ونشوء المذهب البروتستانتي في ألمانيا بداية، ثم انتقاله إلى بريطانيا وأمريكا، وتعني كلمة بروتستانتي الاحتجاج.

أخفقت المجامع المسكونية لأن شبح السلطة السياسية (الرومانية، وغيرها) كان في خلفية المسرح، وكان لاعبا أساسيا، ولأن ذهنية التكفير والحرمان كانت هي السائدة، ولأن الحوار كان يفتقد لأهم شروطه: قبول الآخر، وعدم الادعاء باحتكار الحقيقة.

ومما يؤسف له أن هذه الانشقاقات والمهرطقات والمحاكم قد جلبت معها الويلات والآلام للمسيحيين قبل غيرهم، فطالما ترافق معها أحكام الحرمان والنفي، والاضطهاد، والتعذيب، فضلا عن الاقتتال الداخلي والحروب الدينية، بكل ما تجرّه وراءها من خراب ودمار، ومن خسائر فادحة للإنسانية جمعاء.. حيث تقول المصادر التاريخية أنه في ثلاث سنوات فقط قُتل من المسيحيين على يد إخوانهم المسيحيين ما فاق من قُتلوا طوال فترة الاضطهاد الروماني.. بل إنه في موجة الحروب الدينية التي أعقبت ثورة مارتن لوثر الإصلاحية قتل ملايين المسيحيين بسبب التعصب المذهبي.



اليوم، ولحسن الحظ، بل ومنذ وقت ليس بالقصير توقفت الحروب الدينية، وهذا لم يحدث بسبب الصدفة السعيدة، والنوايا الطيبة، بل لأن التجربة المسيحية تطورت ونضجت، وتعلمت من دروس التاريخ الكثير، وقد أيقن المسيحيون في ربوع الأرض أن التعصب المذهبي لا يجر إلا الخراب والحروب، وأن التسامح والتعددية وقبول الآخر هو السلوك الإنساني الصحيح، بل هو جوهر رسالة المسيح.. وهذا يعني أن تطور الأديان هو جزء أساسي من تطور المجتمعات الإنسانية، وهو الذي يمكّنها من المضي قدماً نحو المستقبل.

بفضل هذا التطور والنضوج، لم تعد هناك حملات صليبية، ولا حروب دينية داخلية، ولم نعد نسمع عن صكوك غفران، ولا عن مجمع مسكوني يقرر حرمان مفكر، أو كنيسة تعدم مبدع.. تطور الفكر المسيحي بعد أن تخلص من كنيسة العصور الوسطى، ومن هيمنتها الاستبدادية على المؤمنين.

اليوم، ومنذ وقت ليس بالقصير نرى المسيحيين من كل الطوائف يعيشون معا بسلام وطمأنينة، وبكل محبة.. كما يتعايشون مع إخوتهم المسلمين، ومع كل المؤمنين من كافة الأديان، بل مع البشرية جمعاء.. وعلى أمل التخلص من بقايا اليمين المتطرف، ومن أفكار المسيحية الصهيونية الخرافية.

وكل ما نرجوه أن نتعلم من التجربة المسيحية في نبذها الكراهية والتعصب والعنف، وأن تسود أجواء التعايش والمحبة بين عموم البشر، وأن تنعم الأرض بالسلام. وهذه روح المسيحية الحقّة.

#### المصادر

- د. القس حنا جرجس الخضري، تاريخ الفكر المسيحي، المجلد الأول، الجزء الأول، دار الثقافة، القاهرة، ١٩٨١.
- الأب حوزيف قزي، أبو موسى الحريري، قس ونبي، بحث في نشأة الإسلام، دون ذكر دار النشر، ١٩٧٩.
- الملل والنحل للشهرستاني، الجزء الأول، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٤.
- القس عماد ميخائيل، هل كان يسوع شخصية تاريخية؟ فريق الدفاع اللاهوتي، <https://www.difa3iat.com/about-us/>
- ابرام لويس حنا، تحليل للأدلة المستخدمة في إثبات وجود المسيح تاريخياً، الحوار المتمدن، العدد ٦١٩٧، 10-4-2019.
- هل هناك أدلة تاريخية على وجود يسوع المسيح؟ ترجمة: علي محمد رجاي، مراجعة: مصطفى شهباز، المشروع العراقي للترجمة / 2017-12-30.
- سوسن بيطار، بولس الرسول، الموسوعة العربية، المجلد الخامس.
- البدع والهرطقات في القرون المسيحية الأولى، كنيسة الإسكندرية للأقباط الكاثوليك بمصر، 24-4-2013. <https://copticatholic.net/>
- د. محمد عبد المحسن، بولس الرسول، رائد دعوة التبشير، منتدى العلماء، 15-1-2021. <https://www.msf-online.com/>



- روبر شعيب، بندكتس السادس عشر يدحض بعض الآراء الشائعة، رد الفاتيكان، في 24-9-2008. <https://www.zenit.org/ar/24/09/2008/>

- محمد شاهين التابع، الهرطقات في فترة ما قبل نيقية، قناة الدعوة، 17-10-2018، <https://www.youtube.com/watch?v=XozhLUJhpjg>

- د. فاضل سليمان، رئيس جمعية جسور للتعريف بالإسلام، الأريوسية، 25-3-2011، <https://www.youtube.com/watch?v=mUexLFbMJsg>

- محمد المسيح، التاريخ المبكر للإسلام، الأبيونية. 19-9-2019، [https://www.youtube.com/watch?v=yVgyz2418s=1Doo&t\\_watch](https://www.youtube.com/watch?v=yVgyz2418s=1Doo&t_watch)

- لطيف شاكر، النصرانية ليست مسيحية، الحوار المتمدن، العدد 2934، 4-3-2010.

- أمير نصر، النسطورية تاريخياً، مركز البابا ديسقورس، الإسكندرية، 23-3-2021، <https://www.youtube.com/watch?v=i-pXwszoFpI>



## الفصل الثاني: المسيحية وظهور الإسلام



## المسيحية في فلسطين: من الحقبة البيزنطية حتى مجيء الإسلام

فلسطين تحت الحكم الروماني

لقد بدأ الحكم (أو بالأحرى الاحتلال) الروماني في فلسطين عام ٦٣ ق.م على يد القائد الروماني بومبي الذي أنهى حكم الفترة الهلنستية التي امتدت من عام ٣٣٢ ق.م حتى ذلك التاريخ. ويتفق المؤرخون على تقسيم العصر الروماني في فلسطين إلى ثلاث حقبات زمنية وهي:

١. العصر الروماني المبكر (٦٣ ق.م - ١٣٥ م): وهذا العصر يمتد منذ بداية الاحتلال الروماني وحتى القضاء على الثورة اليهودية بقيادة باركوخبا التي وقعت في الفترة ١٣٢-١٣٥ م وكان القائد الروماني الذي قضى على تلك الثورة هو هادريان الذي منع اليهود من دخول القدس من جهة وحاول طمس المعالم المسيحية خاصة كنيسة المهد والقيامة من ناحية أخرى. فقد أقام نصباً فوق مغارة الميلاد للإله تموز وفوق الجلجثة مكان الصليب للإله أدونيس. ولم يكن يدري أنه بذلك العمل قد قام بحفظ المكانين التي ستبني عليها القديسة هيلانة بعد حوالي ٢٠٠ عام كنيسة المهد والقيامة.

٢. العصر الروماني الوسيط: وهو يمثل بالفترة الزمنية ١٣٥-٢٥٠ م التي تميزت بالأزمة الاقتصادية والفضى اللتان أصبحت تعاني منهما الامبراطورية الرومانية. وقد تميزت تلك الفترة باضطهاد المسيحيين على يد الأباطرة الرومان كالإمبراطور ديسيوس (٢٤٩-٢٥١ م) والإمبراطور فاليريان (٢٥٣-٢٦٠ م) الذي كان أول إمبراطور روماني لا بل الوحيد، الذي يقع في الأسر على أيدي الفرس إثر معركة الرها.

٣. العصر الروماني المتأخر (٢٥٠-٣٣٠ م): وقد بلغ اضطهاد المسيحيين أوجه في بداية تلك الفترة خاصة على يد الإمبراطور ديوقليسيانوس (٢٨٤-٣٠٥ م) إلا أن نهاية تلك الفترة كانت قد تميزت بالتسامح الديني إثر إعلان مرسوم ميلانو عام ٣١٣ م من قبل الإمبراطور قسطنطين الأول الذي أرسى التعددية الدينية مما أدى إلى السماح بحرية العبادة والتبشير للمسيحيين بعد أن تم اضطهادهم خلال الثلاث قرون التي سبقت ذلك المرسوم.

نشوء الإمبراطورية البيزنطية

تعتبر الإمبراطورية البيزنطية امتداداً للإمبراطورية الرومانية التي كانت عاصمتها روما، حيث كانت تدعى أيضاً بالإمبراطورية الرومانية الشرقية. وقد اتخذ الإمبراطور قسطنطين الأول القسطنطينية عاصمة له بدلاً من روما لأسباب استراتيجية وسياسية ودينية. فقد شيدت المدينة على مثلث شبه جزيرة يحيطه بحر مرمرية ومضيق وخليج البوسفور بالإضافة لإحاطتها بأسوار منيعة من البر والماء من الجهة الأخرى مما جعلها حصناً منيعاً لصد كل الهجمات التي تأتي من الخارج.

أما السبب السياسي والعسكري فقد تمثل في التصدي لهجمات البرابرة والجرمان في مناطق الدانوب والبلقان وكذلك مواجهة الخطر الفارسي الساساني من الشرق.

أما السبب الثالث وهو الديني فقد رأى قسطنطين أن يبني عاصمة جديدة ذات طابع مسيحي لأنه لم يعد يرى في روما الوثنية عاصمة للسكان المسيحيين، علماً أن المسيحية لم تعلن الدين الرسمي للإمبراطورية الرومانية إلا في العام ٣٨٠ م من قبل الإمبراطور ثيودوسيوس الأول. والسبب الأخير في اختيار العاصمة القسطنطينية كان اقتصادياً حيث كان الشرق غني بثرواته الاجتماعية بالإضافة إلى أن المقاطعات الشرقية من الإمبراطورية كانت تؤدي ضرائب مالية أكثر من مقاطعتها الغربية. فلسطين تحت الحكم البيزنطي (٣٣٠-٦٣٨ م):

بدأ الحكم البيزنطي في فلسطين الذي اتسم بالطابع المسيحي كامتداد وبديل للحكم الروماني الوثني. إلا أنه وكما أسلفنا فإنه بالرغم من اعتناق الكثيرين الديانة المسيحية واعتناق الإمبراطورة هيلانة والدة قسطنطين المسيحية، إلا أن الإمبراطورية الرومانية لم تعلن عن المسيحية كدين رسمي لها إلا عام ٣٨٠ م، أي بعد وفاة قسطنطين الذي اختلفت الروايات حول اعتناقه المسيحية. يؤكد بعض المؤرخين على أنه اعتنق المسيحية أثناء حياته متأثراً بأمه هيلانة، بينما يقول آخرون أنه اعتنقها وهو على فراش الموت. وكما هو معلوم، فقد جاءت الإمبراطورة أو القديسة هيلانة فيما بعد عام ٣٢٦ لتشيّد كنائس عديدة كان أهمها كنيسة المهد في بيت لحم، وكنيسة القيامة في القدس.

ولم تمض سنوات قليلة على إعلان المرسوم آنف الذكر إلا وقد تفجرت الخلافات بين الجماعات المسيحية حول بعض القضايا العقائدية وطبيعتي المسيح اللاهوتية والناسوتية، مما اضطر الإمبراطور قسطنطين أن يجمعهم في المجمع المسكوني الأول في نيقية (من أعمال تركيا اليوم) عام ٣٢٥ م، وسيتم البحث لاحقاً في الجدالات الدينية التي دارت بين الجماعات المسيحية حتى المجمع المسكوني السابع والأخير الذي عقد أيضاً في نيقية عام ٧٨٧ م.

أما في فلسطين فقد انتعشت حركة التبشير والإقبال على اعتناق الديانة الجديدة مما أدى إلى نشوء الحركة الرهبانية والنسكية حيث شيّد القديس هيلاريون أول دير في فلسطين في تل إم عامر (في منطقة مخيم النصيرات حوالي ٨ كم جنوب مدينة غزة) عام ٣٢٩ م. بعد ما حدث الانقسام السياسي بين شطري الإمبراطورية الرومانية (أي الشرقي البيزنطي والغربي الروماني) عام ٣٩٥ م إثر وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول أصبحت فلسطين تابعة للإمبراطورية الشرقية البيزنطية. وبالرغم من الانقسام السياسي بين شطري الإمبراطورية إلا أنهما بقيا متحدان كنسياً حتى حدوث الانشقاق الكبير عام ١٠٥٤ م وانقسام الكنيسة إلى شرقية أورثوذكسية بيزنطية وأخرى كاثوليكية غربية، نتيجة تراكم الخلافات السياسة والدينية أهمها: الخلاف حول من يستحق رئاسة المرجعية الكنسية العليا، وقضية تبجيل الأيقونات وزواج رجال الدين ومسألة انبثاق الروح القدس (حيث تصر الكنيسة الشرقية على أنه منبثق من الآب فقط وليس من الآب والابن).

في القرن الخامس الميلادي ازدهرت الحركة الرهبانية في فلسطين كما نشطت حركة بناء الأديرة. والجدير بالذكر أن الحركة الرهبانية كانت تقسم إلى قسمين: أولاً الرهبنة الجماعية Coenobitic أي العيش ضمن الجماعة حيث يتقاسم العيش الزهيد مجموعة من الرهبان في دير يصلون فيه ويتقاسمون وظائف الحياة اليومية. وثانياً الرهبنة النسكية الفردانية Eremitic التي فيها كان راهب واحد يتنسك في مغارة منفرداً بعيداً عن الناس وحياتهم الدنيوية.



حظيت بيت لحم في القرن الخامس الميلادي بأوائل وأهم الأديرة التي شيدت في فلسطين. فقد بنى القديس ثيودوسيوس (عطالله) عام ٤٦٥ م وعلى بعد عشر كيلومترات شرقي بيت ساحور ديراً يحمل اسمه أو يدعى أيضاً دير ابن عبيد وإليها تنسب قرية العبيدية التي يتواجد الدير على أراضيها. وقد تم تشييد ذلك الدير فوق المغارة التي يعتقد أن المجوس الحكماء الثلاثة الذين قدموا لمشاهدة الطفل الرضيع يسوع قد استراحوا فيها قبل هروبهم من الملك الطاغية آنذاك هيروودوس الذي طلب منهم إبلاغه عن مكان الطفل يسوع ليقتله.

هناك أيضاً دير مار سابا، نسبة إلى القديس سابا (٤٣٩-٥٣٢ م) الذي كان يتعبد في كهف يبعد حوالي ١٥ كم جنوب شرق القدس يطل على «وادي قدرون» الذي يطلق عليه حالياً «بوادي النار». لقد شرع القديس سابا وعدد من الرهبان ببناء ذلك الدير عام ٤٨٣ م الذي أضحي من أعظم الأديرة في فلسطين على الإطلاق. وقد أقام في ذلك الدير عدد كبير من الرهبان الذين تم قتل معظمهم من قبل الفرس الساسانيين عندما غزوا فلسطين وهزموا البيزنطيين عام ٦١٤ م وقاموا بسرقة الصليب المقدس الذي يعتقد أن تم تعليق وموت السيد المسيح عليه. إلا أن الإمبراطور البيزنطي فلافيوس أغسطس هرقل الذي ينتمي إلى الأسرة الهرقلية (٥٧٥-٦٤١ م) كان قد هزم الفرس وتمكن من دحرهم عام ٦٢٨ م (أي قبل ١٠ أعوام من مجيء الإسلام، وفتح مدينة القدس عام ٦٣٨ م) واسترجاع الصليب المقدس.

سكن دير مار سابا العديد من الرهبان خاصة الباحثين والمترجمين منهم لاحتوائه على مكتبة قلّ نظيرها في تلك الفترة. كان يوحنا الدمشقي (٦٧٦-٧٤٩ م) أحد الرهبان المتميزين الذين سكنوا دير مار سابا وانكبوا على الترجمة والأبحاث فيه. فقد ولد القديس يوحنا واسمه الأصلي «منصور بن سرجون الدمشقي» في مدينة دمشق من عائلة سورية عربية مسيحية. وقد عرفت عائلته العريقة والغنية بمكانتها السياسية والاجتماعية الفضيلة وحب الحكمة والعلم، إذ أن سرجون والدي يوحنا وجدّه منصور الأول كانا يعملان لدى الخلفاء الأمويين في إدارة الأموال وجمع الخراج من المسيحيين. لقد أتقن القديس يوحنا اليونانية كأقرانه من كبار المعلمين والمثقفين في تلك الفترة، إذ استمر استخدامها كلغة رسمية ولغة المثقفين في بلاد الشام قاطبة منذ بدء الفترة الهلنستية عام ٣٣١ ق.م مروراً بالحقبة الرومانية ثم البيزنطية إلى بداية الخلافة الأموية وبالتحديد في عهد الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان (٦٨٥-٧٠٥ م) الذي قام بتعريب دواوين الدولة وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية بدل اليونانية.

ولكن وبالرغم من أن اللغة الرسمية والعلمية ولغة الثقافة كانت اليونانية أثناء الحكم البيزنطي لفلسطين، إلا أن اللغة الآرامية أي اللغة السريانية القديمة هي اللغة التي كانت لغة الشعب بشكل عام، وهي اللغة التي كانت متداولة أيام السيد المسيح الذي هو نفسه كان يستخدمها، ثم أصبحت اللغة المستخدمة في الليتورجيا أي الطقوس الكنسية.

على الصعيد السياسي، وتحديدًا بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول عام ٣٩٥ م انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شرقية وغربية، تولى ابنه هونوريوس الإمبراطورية الغربية وعاصمتها روما واتخذ من ميلانو مقراً له، أما ابنه أركاريوس فقد تولى حكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية أي الإمبراطورية البيزنطية حيث أصبحت بلاد الشام بما فيها فلسطين تابعة لها كما أسلفنا.

بعد ذلك بسنوات قليلة، وتحديدًا في الفترة ما بين ٣٩٧-٤٠٠ م، تم تقسيم فلسطين إلى ثلاث مناطق إدارية وهي: فلسطين الأولى Palaestina Prima وعاصمتها قيسارية، وفلسطين الثانية Palaestina Secunda

وعاصمتها بيسان، وفلسطين الثالثة Palaestina Tertia وعاصمتها البتراء، حيث كان ذلك التقسيم عرضياً مع شرقي الأردن وليس طويلاً.

ثورات السامريين في فلسطين الأولى (٤٨٤-٥٧٣ م):

كانت أعداد السامريين في القرنين الخامس والسادس الميلادي تتجاوز المليون نسمة، حيث كانوا يشكلون قوة ذات تأثير ولا بأس بها. وقد قاموا بمضايقة المسيحيين في مدينة نابلس والتنكيل بالعديد منهم. فما كان من الإمبراطور البيزنطي زينو (٤٧٤-٤٩١ م) إلا الذهاب إلى المدينة وجمع زعماءهم وطلب منهم اعتناق الديانة المسيحية. وعندما رفضوا قام بقتل العديد منهم وتشتيتهم من المدينة وحول معبدهم إلى كنيسة. وقد قام السامريون إثر ذلك بثورتهم الأولى ضد الحكم البيزنطي بقيادة ملكهم يوستوس Justus عام ٤٨٤ م واقتحموا نابلس وقتلوا المسيحيين الذين كانوا داخل الكنيسة وقاموا بقطع أصابع الأسقف تريبينثاس Terebinthus. ثم انتقل ملكهم إلى مقره الجديد في قيسارية حيث قتلوا عدداً من المسيحيين هناك ودمروا كنيسة القديس بركوبوس. وقد احتفل يوستوس بذلك الانتصار بعرض ألعاب بهلوانية في حلبة السيرك<sup>٢</sup>.

ثم قام السامريون ثانية بشن حرب سميت أحياناً بالثورة السامرية الأخيرة بقيادة يوليانس بن سابار Julianus ben Sabar وذلك بهدف إقامة دولتهم المستقلة عام ٥٢٩ م، قاموا على أثرها بحرق كنيسة المهدي. ويصفها المؤرخون بأنها الأعنف بين الثورات العديدة التي قام بها السامريون. إلا أن الإمبراطور جوستينيان أخمد ثورتهم واستتب الأمن بعد ذلك. أما الأسقف سيرل أسقف بيسان آنذاك فقد أشار إلى أن السبب الرئيسي لتلك الثورة كان التوتر الذي ساد في العلاقات بين المسيحيين والسامريين<sup>٤</sup>.

وأعاد الإمبراطور يوستينيانوس (٥٢٧-٥٦٥ م) بناء كنيسة المهدي بشكلها الحالي عام ٥٤٠ م لأنها كانت صغيرة كما يقول بطريك الاسكندرية<sup>٥</sup>. كانت الكنيسة الأصلية مئمنة الشكل (أي على شكل ثمان أضلاع)، إلا أن يوستينيانوس لم يعد بناءها حسب التصميم الأصلي ولم تعد مئمنة الشكل، بل أضاف لها ثلاث حنيات apse لتكون على شكل صليب، وعمل مدخلين جانبيين للمغارة بدل مدخل الوسط ودعم أساس المغارة بالحجارة. وأصبحت الكنيسة تدعى باسم «كنيسة يوستينيانس» أو «كنيسة المهدي» وحافظت الكنيسة على شكل البناء الخارجي مع بعض التصليحات الداخلية لسقف الكنيسة وللنقوش والفسيفساء الموجودة على الأرضية والجدران. وجاء وصف هذه الكنيسة في خارطة مادبا من القرن السادس، وقد تغنى بها البطريرك صفرونيوس (٥٨٠-٦٣٨ م) في شعره ذاكراً رواقها وأعمدتها والمغارة والمذود والأسرجة<sup>٦</sup>.

ولما اجتاح الفرس الساسانيون فلسطين عام ٦١٤ وقعت أبصارهم على الفسيفساء الذي وضعها الإمبراطور يوستينيانوس في واجهة الكنيسة من الخارج التي يظهر فيها المجوس بملابسهم الفارسية ساجدين للطفل يسوع دهشوا من رؤية صور مواطنيهم، فأعرضوا عن تدمير الكنيسة احتراماً لأجدادهم الذين كانوا يبجلونهم أعظم تبجيل<sup>٧</sup>.

٣ Kohen, Eli (2007), «History of Byzantine Jews: A microcosmos in the Thousand Year Empire». University of America, pp. 26-30.

٤ Alan David Crown, Reinhard Pummer, Abraham Tal. "A Comparison to Samaritan Studies" Mohr Siebeck. Page 140

٥ Eutychi, Annales PG 111, col 10170; Baldus, Enchiridion Locorum Sanctorum, Jerusalem 1982, no. 118

٦ Anacreontica 119, PG 87/3, 3811

٧ ربنا مايسترمن، الدليل على مزارات اليهودية والجليل، ترجمة كميل مارون، أورشليم ١٩١١، ٢٠٥.

لقد قام يهود منطقة الجليل بمساعدة الفرس في احتلال فلسطين، بحيث أمدهم بأكثر من عشرين ألف مقاتل. وكاد بطريك القدس آنذاك زكريا (٦٠٩-٦٣٢ م) أن يقبل بشروط الاستسلام التي عرضت عليه من قبل الفرس، إلا أن سكان المدينة أصروا على المقاومة. سحق الفرس تلك المقاومة واحتلوا المدينة بقوة السلاح، وحرقوا العديد من الكنائس والأديرة، وقتلوا الآلاف من السكان المسيحيين ورؤسائهم. وكما أسلفنا انتصر الإمبراطور البيزنطي هرقل على الفرس في معركة حاسمة قرب نينوى بالعراق عام ٦٢٨ م، بمساندة حلفائه الغساسنة، استعاد على إثرها مدينة القدس واسترجع الصليب المقدس وأدخله كنيسة القيامة باحتفال مهيب. ومنذ ذلك الحين يحتفل المسيحيون إلى يومنا هذا بعيد «ارتفاع الصليب» الذي تعود جذوره إلى ذلك الحدث.

وتشير الآيات الثلاث الأولى في سورة الروم في القرآن الكريم إلى أنه وبالرغم من هزيمة الروم إلا أنهم سينتصرون لاحقاً على الفرس ويؤمنذ يفرح المؤمنون. تقول تلك الآيات: «غُلِبَتِ الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غَلْبِهِمْ سيَغْلِبُونَ في بضع سنينَ لله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ويومئذٍ يفرح المؤمنون»<sup>٨</sup>. وإن دَلَّ ذلك على شيء فهو يدل على أن المسلمين وبالرغم من حروبهم مع الروم، فهم يشعرون أنهم أقرب إليهم من الفرس الوثنيين، وأنه إذا ما تحارب الفرس والروم فإنهم بالتأكيد سيصطفون مع الروم الكتابيين ضد الفرس الوثنيين.

### المجامع المسكونية

يرتكز الإيمان المسيحي على الثالوث الأقدس الآب (الله) والابن (المسيح الإله) والروح القدس الذي ينبثق من الآب ويحل على المؤمنين وتدعى في المسيحية بالأقانيم الثلاثة. وقد أثار ذلك أسئلة كثيرة ومواقف خلافية حادة حول تلك الأقانيم مع بعضها البعض وحول شخصيتي المسيح اللاهوتية والناسوتية. وبالتالي فقد تم عقد سبع مجامع مسكونية (أي تشمل جميع ممثلي الكنائس شرقاً وغرباً) للبحث في الأمور الدينية والعقائدية ومحاربة الهرطقات التي برزت خلال مسيرة الكنيسة.

في واقع الأمر، فإن كل تلك المجامع تم عقدها في مدن تقع في أراضي تركيا الحديثة، وهذه المجامع هي:

١. مجمع نيقية الأول: ونيقية تدعى حالياً إزنيق. تم عقد ذلك المجمع عام ٣٢٥ م بأمر من الإمبراطور قسطنطين الأول وذلك للرد على أفكار أريوس التي اعتبرت أفكاراً هرطوقية. كان أريوس قساً في الإسكندرية وأنكر ألوهية المسيح واستخدم آيات تشير إلى إنسانيته، كما أنكر ألوهية الروح القدس. وبالتالي تم اعتباره خارج عن الجماعة المسيحية وهرطوقاً وتم حرمانه من الكنيسة.

٢. مجمع القسطنطينية: وهي مدينة اسطنبول الحالية. تم عقد ذلك المجمع عام ٣٨١ م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الكبير، وكان ذلك للرد على أفكار مقدونيوس. وكان هذا الأخير بطريراً للقسطنطينية وقد أنكر ألوهية الروح القدس ولكنه لم ينكر ألوهية المسيح. وقد حكم عليه في ذلك المجمع وعلى تعاليمه بالهرطقة.

٣. مجمع أفسس: ومعناها بالإغريقية «المرغوبة» وتقع في منطقة ليدا في تركيا الحالية. تم عقده عام ٤٣١ م في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الصغير وذلك للرد على أفكار نسطوريوس. كان هذا الأخير بطريراً للقسطنطينية وقال أن للمسيح شخصين وطبيعتين منفصلتين. فهو حين يصنع المعجزات يكون

ابن الله، وحين يتألم ويجوع ويعطش ويموت يكون الإنسان ابن مريم. ونتيجة لفصل نسطور طبيعة السيد المسيحي اللاهوتية عن طبيعته الناسوتية قال أنه لا يجب تسمية السيدة العذراء مريم بوالدة الإله بل أنها أم يسوع الإنسان، وبالتالي يجب أن ندعوها أم يسوع «الجسداني» وليس أم الله. وقد هاجم ملوك الفرس الثلاث (المجوس) بأن سجدوا لطفل ابن بضعة شهور، فقد كان نسطور متأثر بمدرسة أنطاكية اللاهوتية مقابل مدرسة الإسكندرية. ففي أنطاكية كان اللاهوتيون والمفسرون أكثر ميلاً إلى النظرة الأرسطوطالية عن المسيح التي كانت تؤمن بالحقائق الملموسة والمرئية، وفي إقراهم بألوهية المسيح كانوا ينظرون إلى حياته الإنسانية الأرضية. أما مدرسة الإسكندرية، فكانت أكثر ميلاً إلى الافلاطونية والتفسير التأويلي الرمزي للأموار. وبالتالي فقد كانت مدرسة الإسكندرية وعلى النقيض من المدرسة الأنطاكية كانت ترى في لاهوت المسيح أكثر من ناسوته. لقد انتشرت تعاليم نسطور في بلاد فارس ما بين النهرين وكذلك في الجزيرة العربية، مما جعل الإسلام في نظره إلى المسيحية هو ذلك المتأثر بالتعاليم النسطورية.

٤. مجمع خلقدونية: وخلقدونية الآن هي حي من أحياء اسطنبول باسم قاضي كوي. وتعتبر أهم تلك المجمع على الإطلاق إذ تم عقده عام ٤٥١ م في عهد الإمبراطور ماركانئوس وذلك للرد على رئيس أحد الأديرة في القسطنطينية أوطيخا. فقد بدأ هذا الأخير مكفراً لتعاليم نسطور ومناقضاً له، إذ دافع عن عقيدة الطبيعة الواحدة وذلك أن للمسيح طبيعة واحدة بعد التجسد بحيث يتلاشى ناسوت المسيح في ألوهيته. وبالتالي يكون قد أفرغ مفهوم التجسد، الذي هو من أركان المسيحية من معناه، أي أن ناسوت المسيح يكون قد ذاب في ألوهيته. ومن هنا جاءت تسمية مونوفيزيت monophysite أي «الطبيعة الوحيدة». لقد أدى ذلك المجمع إلى انقسام الكنائس المسيحية إلى قسمين حيث مثل القسم الأول الكنائس الأرثوذكسية والكاثوليكية فيما بعد التي رفضت تعاليم أوطيخا ونادت بالطبيعتين للسيد المسيح وسموا بالخلقدونيين. أما القسم الثاني من الكنائس فقد شمل الكنيسة القبطية والحبشية والأرمنية والسريانية والذين تبنا أفكار أوطيخا وسموا بالالخلقدونيين. وبطبيعة الحال انعكس ذلك الانقسام على كنائس الشرق الأوسط وفلسطين وهو ما زال ماثلاً أمامنا حتى اليوم. الجدير بالذكر أن أرمنييا تحت حكم تيريدات الثالث أو تيريدات العظيم كانت أول دولة أعلنت اعتناقها للمسيحية وإعلانها ديناً للدولة عام ٣٠١ م، في حين أن مرسوم ميلانو للحرية الدينية في الإمبراطورية الرومانية صدر عام ٣١٣ م كما أسلفنا.

٥. مجمع القسطنطينية الثاني: تم عقده عام ٥٥٣ م في عهد الإمبراطور يوستينيانس (جوستنيان) الذي أعاد بناء كنيسة المهد عام ٥٤٠ بعد إحراقها من قبل السامريين، وأيضاً شيد قلعة تحمل اسمه خارج أسوار دير مار سابا الذي تم ذكره سابقاً. التئم ذلك المجمع للرد على الذين كانوا يؤيدون أفكار نسطور يوس. ٦. مجمع القسطنطينية الثالث: تم عقده عام ٦٨٠ م في عهد الإمبراطور بوجوناتيس وذلك للرد على أصحاب آراء المشيئة الواحدة (monotheletism) أو الفعل الواحد. فقد أعلن ذلك بشكل رسمي رفضه للمشيئة الواحدة وأعلن عقيدة المشيئتين في المسيح، إذ أن مشيئته البشرية تخضع بدون مقاومة أو تلكؤ للمشيئة الإلهية الكلية القدرة. أما القول بالمشيئة الواحدة أو الفعل الواحد معناه إنكار الطبيعتين البشرية والإلهية في المسيح.

٧. مجمع نيقية الثاني: تم عقده عام ٧٨٧ م في عهد الإمبراطورة إيريني وذلك للرد على الذين حاربوا الأيقونات وحاولوا تحريمها. لقد تم حظر عبادة الأيقونات من قبل الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس، كونها شبيهة بعبادة الأصنام، إلا أن ذلك المجمع أعاد الاعتبار للأيقونات وأجاز تكريمها.

وعودة على المجمع المسكوني الرابع وهو مجمع خلقدونية، وإثر انشقاق الكنيسة القبطية والحبشية والأرمنية والسريانية كما أسلفنا، حدث اختلاف في الكنيسة السريانية نفسها. فقد تأسست كنيسة نسطورية شرقية انتشرت في شرق الأناضول وكردستان وبلاد ما بين النهرين وفي بلاد فارس وسميت فيما بعد بالكنيسة الآشورية. أما الكنيسة السريانية الغربية فقد انتشرت غربي تلك المناطق وفي البلاد السورية وبين التجمعات العربية البدوية. وقد سميت فيما بعد بكنيسة اليعاقبة نسبة إلى اسقف الرها يعقوب البرادعي (٥٠٥-٥٧٨).

وقد قام هذا الأخير برسامة الكثيرين من الكهنة والأساقفة بمن فيهم العديد من العرب. لقد قام الملك الغساني الحارث بن جبلة ومن بعده ابنه المنذر بتوفير الحماية والمساعدة للأسقف البرادعي. والجدير بالذكر أن اليعاقبة لم ينكروا طبيعتي المسيح، إلا أنهم غلبوا الطبيعة الالهية على الإنسانية وبالتالي سمو بأصحاب الطبيعة الواحدة المونوفيزيين<sup>٩</sup>.

بعد اعتناق الامبراطورية الرومانية المسيحية، أصبحت المدن المركزية فيها إدارياً واقتصادياً وعسكرياً هي نفسها مراكز للأسقفيات والبطريشيات، وبالتالي تداخلت المراكز الكنسية مع المراكز الإدارية. انطلقت الكنيسة الأولى من القدس كون السيد المسيح ولد في بيت لحم وعاش وبشر في الناصرة وصلب ومات وقام من بين الأموات في أورشليم القدس. وفيها استشهد القديس يعقوب الرسول أول رئيس لأول كنيسة. ووصل عدد الأسقفيات (الأبرشيات) في فلسطين في أواسط القرن الخامس ٦٠ أسقفية، وفي سوريا أكثر من مئة أبرشية، ثم أصبحت كل من الإسكندرية وأنطاكية (وليس روما والقسطنطينية) أول وأكبر مركزين للمسيحية بعد انطلاقها من القدس. إلا أن ترتيب بطريركية القدس جاء الخامس بعد البطريركيات آنفة الذكر. فقد نالت بطريركية روما شرف الترتيب الأول بين البطريركيات الخمس بحكم كونها عاصمة الإمبراطورية وأن كنيستها كان قد أسسها الرسول بطرس وبولس واستشهدا فيها. ثم قرر مجمع القسطنطينية الأول عام ٣٨١ بمنح بطريركية القسطنطينية المرتبة الثانية. أما بالنسبة لبطريركيات الشرق فقد احتلت أنطاكية المرتبة الثالثة والاسكندرية الرابعة، أما أورشليم فكانت البطريركية الخامسة.

#### الممالك المسيحية في فلسطين والمناطق المجاورة

شهدت البلاد السورية التي كانت تضم سوريا وفلسطين وشرق الأردن ولبنان نشوء مملكتين انتشرت فيهما الديانة المسيحية، هما مملكة الأنباط ومملكة تدمر. الأنباط هم بالأصل قبائل بدوية عربية يرجع تاريخهم إلى القرن السادس قبل الميلاد. وقد أسسوا مملكتهم في الفترة ١٦٩ ق.م - ١٠٩ م. وقد وصلت تلك المملكة أوجها في عهد ملكها الحارث الرابع (٩ ق.م - ٤٠ م) واتسعت حتى أن أصبحت دمشق جزءاً من مملكة الأنباط.

اعتنق الأنباط المسيحية في القرون الميلادية الأولى حتى أنهم أرسلوا خمس أساقفة مندوبين إلى مجمع نيقية الأول عام ٣٢٥ م، كما أصبحت البتراء عاصمة لفلسطين الثالثة في القرن الرابع ميلادي، حتى أنه يؤكد بعض المؤرخين أن المجوس الذين أتوا من الشرق وقدموا الهدايا للطفل يسوع عند ولادته كانوا من العرب الأنباط وليسوا من بلاد فارس. كما أن بولس الرسول كان قد اختبأ عندهم هرباً من الملاحقة في

٩ سميح غنادري. «المهد العربي-المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام والعلاقة المتبادلة مع الإسلام»، مطبعة كل شيء - حيفا. الطبعة الثالثة



دمشق. كما كانت لغتهم مزيجاً من العربية المحلية والآرامية. في النهاية قضى الإمبراطور الروماني تراجان على مملكة الأنباط عام ١٠٥ م وألحقهم بإمبراطورتيه واستخدمهم في صراعه مع الفرس<sup>١٠</sup>. أما مملكة تدمر، فقد قامت في أعقاب انهيار مملكة الأنباط، في الصحراء السورية وعلى تخوم الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية. كان الملك أذينة الملقب بـ «ملك العرب» أشهر ملوك مملكة تدمر وكان بشكل عام حليفاً للإمبراطورية الرومانية ضد أعدائها الفرس. إلا أن ذلك لم يمنعه من محاربة الرومان في بعض الأحيان. بعد مقتل أذينة عام ٢٦٧، استلمت الحكم من بعده زوجته زنوبيا وانقلبت على الرومان لصالح الفرس، فما كان من الإمبراطور أورليانس (٢٧٠-٢٧٥) أن هزم الملكة زنوبيا عام ٢٧٢ م وأخذها أسيرة. وعندما ثارت تدمر على أسر ملكتهم تم قمعهم واحراق مدينتهم. زنوبيا لم تعتنق المسيحية، ولكنها كانت تؤمن بالتعددية الدينية وكانت تحمي المسيحيين وتأويهم من الاضطهاد الروماني. وخلاصة القول فإن مملكتي الأنباط وتدمر أعطتا في القرون الأولى للميلاد زخماً كبيراً للوجود المسيحي في بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين، والذي مهّد الطريق لإعلان مرسوم ميلانو للحريات الدينية عام ٣١٣ م.

### القديسون الأوائل في فلسطين

كان القديس يعقوب الملقب بـ يعقوب البار أول أسقف في أورشليم ومؤسس الكنيسة الأولى فيها. وقد لُقّب بالبار لما عرف عنه وعن تقشفه في الحياة. تنحدر أصول القديس يعقوب من أسرة يهودية، وكان له الدور الأبرز في مقررات مجمع الرسل الأول الذي عقد في القدس عام ٥١ م، حيث كان أحد المواضيع المطروحة للجدل فيما إذا كان يجب على معتنقي الديانة المسيحية من غير اليهود الالتزام بشريعة موسى اليهودية أم لا، إلا أن يعقوب نفسه حسم الأمر بأن لا يثقل عليهم بل يتوجب عليهم فقط أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام، والزنا، والمخنوق والدم<sup>١١</sup>. وكان ليعقوب البار مكانة كبيرة في القدس بحيث قام بزيارته بولس الرسول ليحدثه عن أعماله التبشيرية بحضور مشايخ الكنيسة<sup>١٢</sup>. كما وصفه بولس الرسول في إحدى رسائله أنه أحد أعمدة الكنيسة مع بطرس ويوحنا<sup>١٣</sup>. لقد خدم يعقوب استقفاً للقدس مدة ثلاثين عاماً، ثم ثارت عليه مجموعة من المتشددین اليهود وحاولوا إجباره على القول أن يسوع ليس «المسيح» إلا أنه رفض ذلك، فرموه من أعلى سور الهيكل ثم ضربوه على رأسه بخشبة حتى مات.

### القديس بطرس الرسول

هو سمعان بطرس وأحد تلاميذ (حواريي) المسيح الإثنا عشر، حيث كان يحبه جداً ويفضله عن باقي التلاميذ. كما كان له شأن كبير في الكنيسة ونال تبحر واحترام الكثيرين. عمل بالتبشير مدة طويلة ثم ذهب إلى روما يبشر هناك وحكم عليه بالموت على الصليب، وقد نفذ فيه الحكم بالصلب بشكل

١٠ نفس المصدر، ص ١٦٦-١٦٧.

١١ أعمال الرسل ١٥:٢٠.

١٢ نفس المصدر ٢١: ١٨-٢٠.

١٣ غلاطية ٢:٩.



مقلوب أي رأسه إلى الأسفل وقدماه للأعلى في روما عام ٦٤ م.

### القديس بولس الرسول

القديس بولس يدعى أيضاً ببولس الطرسوسي نسبة إلى طرسوس مسقط رأسه في آسيا الصغرى. وقد ولد لأسرة يهودية إذ كان يهودي الديانة روماني المواطنة. ويعتبر بولس من أهم الشخصيات في العصر الرسولي، وقد أسس ما بين الأعوام ٣٠-٥٠ م العديد من الكنائس في آسيا الصغرى وأوروبا. لقد بدأ حياته مضطهداً للمسيحيين، ثم حدثت معه معجزة وهو في طريقه إلى دمشق جعلته يعتنق المسيحية ويصبح أشد المدافعين عنها.

قام بولس الرسول بثلاث رحلات تبشيرية، وقد انطلق في رحلته الثانية من قيسارية على الساحل الفلسطيني إلى أنطاكية ثم اليونان. وقد تنقل عدة مرات بين مدن في أوروبا والقدس. وقد اعتقل في القدس وأرسل إلى روما لمحاكمته هناك. وقد تم اعدامه بقطع الرأس عام ٦٧ م هناك بأمر من نيرون الذي قام بحرق روما عام ٦٤ م واتهم المسيحيين بالقيام بذلك العمل. وبشهادة الكثيرين من المؤرخين والكتّاب يعتبر بولس الرسول مؤسس المسيحية في كل من الشرق والغرب.

ولا أريد هنا الخوض في تفاصيل عن حياة العديد من الأتقياء والقديسين إضافة لما ذكرناهم، لكن لا يمكن أن ننسى أسقف قيسارية يوسابيوس القيصري (٢٦٥-٣٣٩ م) الذي يعتبر أبو التاريخ الكنسي بسبب أعماله في تسجيل تاريخ الكنيسة المسيحية وكذلك وقائع التاريخ الكنسي.

ولا نستطيع أن نختتم الحديث عن الأساقفة والقديسين الذين عاشوا في فلسطين في القرون المسيحية الأولى دون أن نسلط الضوء على من يعتبره البعض أول مترجم عرفه التاريخ، ألا وهو القديس جيروم ويدعى أيضاً إيرونيموس (٣٤٠-٤٢٠ م). فقد ولد في بلاد دلماسيا في ما يعرف الآن باسم يوغوسلافيا، وكلفه البابا آنذاك بترجمة الأناجيل من اليونانية والعبرية إلى اللاتينية. فحضر إلى بيت لحم وانكب على الترجمة وعاش في قبو يقع حالياً تحت كنيسة المهدي. وسميت ترجمته بالفولجاتا Vulgata أي الشعبية وهي الترجمة التي تم اعتمادها من قبل الكنيسة الكاثوليكية على مدى عشرة قرون من الزمن.

### مجيء الإسلام إلى فلسطين:

نستطيع القول أن معركة أجنادين التي وقعت بين المسلمين والبيزنطيين عام ٦٣٤ م وانتصار المسلمين فيها كانت البداية الحقيقية للوجود الإسلامي في فلسطين. وقعت أحداث تلك المعركة في فلسطين بالقرب من مدينة الرملة، حيث تمركز المسلمون في قرية عجور شمال غرب مدينة الخليل، في حين تمركز جيش الروم في قرية بيت جبرين. وقد بدأ المسلمون بعد تلك المعركة بالسيطرة على أراضي فلسطين إلى أن استولوا على مدينة القدس عام ٦٣٨ م، وانتزعوها من البيزنطيين.

وكما هو معروف فقد امتنع بطريرك القدس صفرونيوس تسليم مفاتيح المدينة إلا للخليفة عمر بن الخطاب الذي حضر بنفسه من الجزيرة العربية لاستلامها. ولا داعي للخوض في تفاصيل العهدة العمرية التي كانت بمثابة وثيقة أمان اعتبرت من الوثائق الفريدة في ذلك الوقت. فقد أعطت تلك الوثيقة أماناً للمسيحيين وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، ومن خرج منها أو أقام فيها منهم فهو آمن. وقد شهد على ذلك كل من خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان. وإثر ذلك

فقد أضحت ولاية فلسطين البيزنطية ولاية إدارية وعسكرية عربية واتخذت تسمية جند فلسطين منذ ذلك الوقت.

توالت انتصارات المسلمين في بلاد الشام بما فيها فلسطين إلى أن أصبحت منطقة بلاد الشام تحت الحكم العربي الإسلامي. ولعلّ تلك الانتصارات العديدة والتوسعات الجغرافية المتسارعة كانت لسببين، أحدهما ذاتي وهو قوة العقيدة الجديدة المشبعة بالإيمان، وثانيهما موضوعي وهو الفراغ السياسي والعسكري الذي ساد نتيجة الاقتتال الدائم بين الفرس والروم بحيث أنهكا بعضهما البعض ووفروا التربة الخصبة لظهور الدولة العربية الإسلامية. فاستطاع العرب آنذاك التخلص من بقايا الفرس في ديارهم ودفع الروم بعيداً عن تخومهم. كما ساهمت الخلافات والانقسامات المسيحية حول طبيعة السيد المسيح في تشويه صورة الكنيسة الأولى. بالإضافة إلى ذلك فقد كان السريان والعرب المونوفيزيت (أي أصحاب فكرة الطبيعة الواحدة للمسيح كما أسفلنا) يبغضون البيزنطيين واعتبروه احتلالاً قام باضطهادهم بسبب الخلافات العقائدية معهم وفرض الضرائب الباهظة عليهم. وكانت أتباع الدعوة المحمدية آنذاك يدركون جيداً ما يجري في المقاطعات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ولذلك استثمروا جيداً في أعداء البيزنطيين بمن فيهم العرب المسيحيين. إذ كان من الطبيعي أن يهزم جيش عربي لم يتجاوز تعداده الثلاثين ألفاً وغير منظم القوات البيزنطية، وبالتالي لم يلقي الفتح العربي الإسلامي لبلاد الشام مقاومة قوية لأن المناخ كان مؤاتياً للسيادة العربية.

كما ساهم العرب المسيحيون المشرقون في تثبيت الدين الجديد وكذلك في مساعدة الجيش العربي الإسلامي في فتوحاته. فنجد مثلاً منصور بين سرجون وهو جدّ القديس يوحنا الدمشقي الذي يحمل نفس الاسم يساعد مع أقرانه المسيحيين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد وأبي عبيدة الجراح بفتح دمشق وكذلك في تسليم البطريك القديس صفرونيوس مفاتيح القدس سلماً ودون قتال إلى الخليفة عمر بن الخطاب<sup>1</sup>.

## الآثار البيزنطية في فلسطين قطاع غزة أنموذجاً

المقدمة:

غزة من أعرق مدن العالم، تعتبر موقع هام بين القارات وتشرف على طريق عالمي منذ القدم وهو طريق حورس (أيام الفراعنة) وطريق البحر طيلة العصر (اليوناني-الروماني-البيزنطي). وتمتاز بموقعها الجغرافي الاستراتيجي الهام حيث أنها أصبحت بوابة آسيا ومدخل أفريقيا، واعتبرت من مدن الحضارات لكثرة ما تعاقب عليها من حضارات هذا كله أدى وساهم في التطور الحضاري وتطور الطابع المعماري لمواقع المدينة.

تتناول هذه الدراسة تسليط الضوء على أهم المواقع والمباني الأثرية (العصر البيزنطي) في مدينة غزة والتكوينات الجمالية ذات القيمة الفنية والحضارية والعناصر المعمارية، حيث تم اختيار أهم المواقع الأثرية التي تم انشائها في الفترة البيزنطية وتحديد العناصر المعمارية.

المصطلحات:

الدير: مكان اختلاء الرهبان، وعادة ما يكون بعيد عن الزحمة وبه كنيس.  
الساقية: عجلة كبيرة يبلغ طول قطرها أحياناً أربعين قدماً تعلق عليها دلاء غير مشدودة على حافتها الخارجية وهناك نمطان من السواقي إما عمودية أو أفقية.  
الكنيسة: مكان لعبادة المسيحيين.  
عبسان: بلدة في المنطقة الشرقية إلى الجنوب الشرقي من مدينة خانينوس.  
هيلاريون/ايلاريون: ولد عام ٢٠٩م في تاباثة وهي خربة أم التوت في جنوب وادي غزة، ولد لأبوين وثنيين، تنصر وهو ابن الخامسة عشر.

أهداف وأهمية البحث:

- تقديم صورة واضحة ومتكاملة عن هذه المواقع (البيزنطية).
- الوقوف على أهم العناصر المعمارية في هذه المواقع.
- وقد شملت هذه الدراسة المواقع الأثرية في الفترة البيزنطية في مدينة غزة لعدة أسباب:
- أن المباني التي تعود للفترة البيزنطية غنية جداً بالعناصر المعمارية والفنية والتكوينات الجمالية.
- أن معظم المباني والمواقع البيزنطية في مدينة غزة ما زالت قائمة مما يسهل عملية البحث والتحليل.

اشكالية البحث:

تمثل في قلة المصادر والمراجع فما تحمله هذه المواقع من عناصر معمارية وفنية.

## قطاع غزة:

الموقع: يقع قطاع غزة في الجزء الجنوبي من الساحل الشرقي للبحر المتوسط، حيث أن موقعه يأتي عند التقاء إقليم البحر المتوسط المعتدل وتربته الخصبية والإقليم الصحراوي الجاف وتربته الرملية، عبارة عن شريط حدودي تغطي الرمال ثلث مساحته البالغة ٣٦٠ كيلومتر مربع، معظم سكانه من اللاجئين<sup>٢</sup>.

اسمائه ومعناه: غزة مدينة تاريخية قديمة، لا بل أنها من أقدم المدن التي عرفها التاريخ، اسمها يتبدل كما الأمم تتبدل على أرض غزة، كان يسميها العبرانيون باسم (غزة) أما الكنعانيون (هزاني) المصريون (غازاتو) والآشوريون (عزاتي) أما العرب أسموها (غزة أو غزة هاشم)، الإنجليز (Gaza)، أما بالنسبة لمعنى كلمة غزة كانت هناك آراء كثيرة: يقول المؤرخ اوسابيوس أنها مشتقة من المنعة والقوة، أما المتروبوليت صفرونيوس يقول أنها يعني الخزينة أو الثروة<sup>٣</sup>.

## تاريخ وآثار الفترة البيزنطية (قطاع غزة):

تعرضت الإمبراطورية الرومانية للإنتقسام عام ٣٧٩م. تبعت فلسطين وبلاد الشام للدولة البيزنطية الشرقية، تم تقسيم فلسطين إدارياً لثلاث أقسام:

فلسطين الأولى: نابلس والقدس والجليل والسهل الساحلي حتى رفح وعاصمتها قيسارية  
فلسطين الثانية: طبرية والجليل وقلعة الحصن وعاصمتها بيسان  
فلسطين الثالثة: بلاد الأنباط وبئر السبع وعاصمتها البتراء

## مدينة غزة تلتحق ضمن منطقة فلسطين الأولى إدارياً<sup>٤</sup>.

ازدهرت مدينة غزة في القرنين السادس والسابع، في التجارة والزراعة وإقامة السدود وحفر الآبار، كما واشتهرت بصناعاتها المتنوعة، منها صناعة الفخار المشهور المعروف باسم فخار غزة، وكانت أواني النبيذ (حيث أن تجارة النبيذ كانت على رأس قائمة الصادرات الغزية التي حلت محل البخور خاصة بداية العصر البيزنطي) المشهور في الميناء، كذلك الحبوب والزيت، و صناعة البخور والصابون ونسج القطن والكتان والصوف والحري<sup>٦</sup>. كان لغزة في هذا العصر ثلاث بلديات منها بلدية غزة، أنثيدون، قسطنديا، المؤسسات الاجتماعية المستقلة والقومية تشكلت في هذه الفترة من السكان الأصليين ويطلقون على هذه المؤسسات اسم حيث ذكرت هذه الكلمة بشكل كبير على النقود الغزية. في غزة دار لسك النقود بدأت أيام الفارسيين ونشطت في العصر اليوناني والروماني وأيضاً استمرت دور السك للفترة البيزنطية ووضحت العلاقة التجارية بين غزة والاسكندرية وقوتها، والتي كانت تتحدث عن الحياة الاجتماعية والثقافية في المدينة<sup>٧</sup>.

من أجاد وصف غزة ومينائها دوني DOWNEY في الفترة البيزنطية «أنها مملوءة بالسفن المتنوعة التجارية منها وسفن الصيد والسفن العسكرية للإمبراطورية ذات الألوان البيضاء والزرقاء والمطلية باللون الذهبي رمز البحرية...»<sup>٨</sup>

١ أمينة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، الجزء الثاني، ص ٦٦٦

٢ صلاح الصوياني، أوضاع مخيمات قطاع غزة ومشروع التوطين، صامد الاقتصادي، العدد ٨٤، ١٩٩١م، ص ١٤٢

٣ عارف العارف، تاريخ غزة، مطبعة دار الأيتام، بيت المقدس، ١٩٤٣م، ص ٧٨

٤ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١م، ص ٣٠٩

٥ سليم المبيض، غزة وقطاعها، ص ١٤٤.

٦ ترجمة من كتاب تاريخ مدينة غزة، مارتن أمير، ص ١٦٤

٧ سليم المبيض، غزة وقطاعها، ص ١٤٧

٨ داوئي، غزة بدايات القرن السادس، ص ٩



ستيفان البيزنطي يسميها مدينة فينيقية، ويقول أنها كانت تنتمي إلى فلسطين، على الرغم من أنها كانت سابقا جزءا من مصر<sup>١١</sup>.  
العديد من الأماكن الأثرية، منها الكنائس التلال وأرضيات الفسيفساء والمقابر أنشأها البيزنطيون في مدينة غزة من أهم هذه المواقع:

كنيسة القديسة إيرين:  
في مدينة غزة وهي أول كنيسة بنيت في غزة قام ببنائها إيرينيوس (٣٦٣-٣٩٣)<sup>١٢</sup>.

كنيسة عيسان:

تم العثور على أرضية من الفسيفساء عام ١٩٦٥، وهي تقع على تلة مرتفعة، الكتابات التي تحتوي عليها تشير إلى أنه تم تأسيس هذه الكنيسة عام ٦٠٦ م في منطقة عيسان<sup>١٣</sup>.

كنيسة أصلان:

موقع أصلان الأثرى تبلغ مساحتها ٢م، وتعتبر من المواقع الأثرية الهامة والتاريخية التي يتم اكتشافها لأول مرة في مدينة بيت لاهيا، وهي عبارة عن أرضيات فسيفسائية وجدان أثرية تعود للعصر البيزنطي، ولقد تم البدء بأعمال



### فسيفساء كنيسة عيسان

التنقيب فيه بداية سبتمبر ٢٠١٢ ولم تنتهي حتى الآن<sup>١٤</sup>.

١١ سليم المبيض، النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ١٨٧

١٢ وزارة السياحة والآثار.

### كنيسة المخيتم:

تقع الكنيسة البيزنطية في جباليا غرب شارع صلاح الدين يعود تاريخ أقدم نص وجد في الكنيسة لعام ٤٤٤م زمن الإمبراطور ثيودوسيوس الثاني وآخر نص وجد يعود لعام ٧٨٠م عصر الإمبراطور ليو الثالث وقسطنطين الثالث وتعد من أهم الكنائس في بلاد الشام، تم بناؤها على الطراز البازليكي تتألف من ثلاثة أروقة أوسطها وأعلاها وأطولها الرواق الأوسط وتفصل بين الأروقة أعمدة من الرخام .

مساحة الكنيسة ٨٠٠ متر مربع، ترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي ٥٢متر، مدخل الكنيسة يحتل الجهة الغربية ومنطقة قدس الأقداس تحتل الجهة الشرقية، أكبر عدد من النصوص التأسيسية الكتابية التي احتوت عليها أرضيات الفسيفساء ، حيث احتوت كنيسة جباليا على خمسة عشر نص تأسيسي وهذا العدد من النصوص لا يوجد له مثل في أي كنيسة حول العالم .

وتحتوي على لوحات الفسيفساء الرائعة التي تزينها حيث أن بعض اللوحات تحتوي على رسومات لبعض الأطعمة منها الخرشوف والأسماك خبز باقة من الزهور وبعض السلال التي تحتوي على بيض الحمام وعناقيد العنب وغيرها من الأطعمة .

وهناك زخارف للوحات الفسيفساء تحتوي على مناظر ريفية وأدمية أدوات الطبخ والزخارف الهندسية والحيوانية ولكن معظم هذه الزخارف دمرت زمن حرب الأيقونات..

وتحتوي الكنيسة أيضاً على حوض التعميد الذي

كان مغطى بقبة تركز عقودها على ثمانية أعمدة أربع منها من الحجر الرملي في الزوايا الأربعة وأربعة أعمدة أخرى رخامية وزعت في وسط المسافة بين الزوايا الأربعة<sup>١٣</sup>.

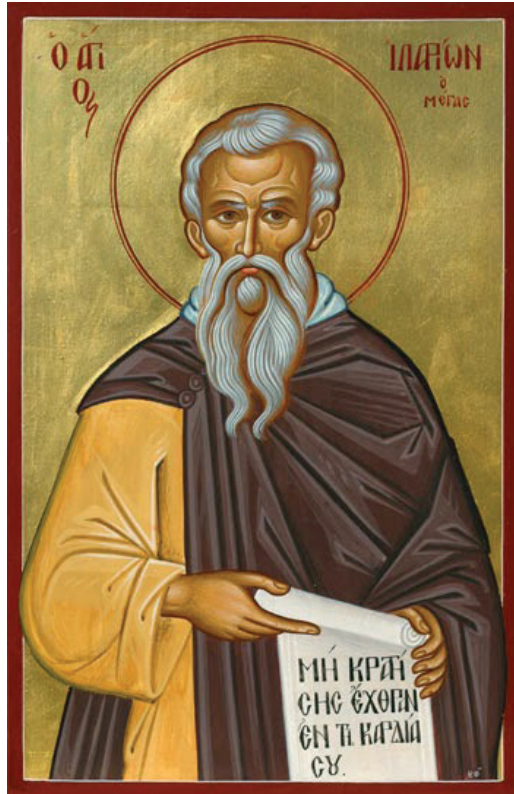
### كنيسة القديس برفيريوس:

١٣ سليم المبيض، النصرانية وآثارها في قطاع غزة وما حولها، ص١٤٨، ١٤٧). وأيضاً: وزارة السياحة والآثار. وأيضاً



القديس برفيريوس ولد في مدينة سالونيك باليونان سنة ٢٤٧م، ونزل إلى غزة عام ٢٩٥م، يرافقه الشماس مرقص الذي كتب تاريخ هذا القديس. استغرق بناء هذه الكنيسة خمس سنوات وتم تدشينها في عام ٤٠٧م وتسمى كنيسة المقبرة<sup>١٠</sup>. تقع كنيسة برفيريوس في أحد الأحياء القديمة بغزة حي الزيتون، تقدر مساحتها بـ ٢١ متر مربع، يعود تاريخ بنائها إلى القرن الخامس الميلادي أما أبنيتها الحالية فتعود إلى القرن ١٢م. سميت بهذا الاسم نسبة إلى القديس الذي دفن فيها في الزاوية الشمالية الشرقية للكنيسة وهي تنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية.

لوحاتها رخامية، حجارتها رملية يزيد عمرها عن مئات الأعوام في شكل هندسي دائري داخل الكنيسة. تتزين الجدران بلوحات، رسمها فنانون قداما من اليونان إلى غزة، وتلك اللوحات تذكر المسيحيين بقصص من الإنجيل لولادة المسيح والبشرى التي تلقتها السيدة مريم عليهم السلام. الكتابة التي وجدت على البلاطة فوق الباب والتي ذكرتها في الأسطر المتقدمة فإنها لم تكتب في حياة برفيريوس ولا في عصره بل كتبت عندما درى غ صلاحها في عهد البطريرك الأورشليمي كرامبوس، وبمساعي الأسقف فليموس. تم ترميم هذه الكنيسة سنة ١٨٥٦م وزالت زخارفها أثناء الحرب الكبرى ١٩١٧م بسبب القنابل التي كانت تقذفها مدافع الإنجليز من البر والبحر على المدينة المثري الكبير جروج بك أيوب هو من أعاد تلك الزخارف وأنفق على ذلك ١٨٠٠ جنيتها فلسطينياً، فهي ذات تخطيط مستطيل وتمتاز بالأعمدة الرخامية والجرانيتية وأيضا العقود المصلبة والقباب وغيرها<sup>١٠</sup>.



#### موقع دير القديس هيلاريون:

يعد من أكبر الأديرة وأقدمها في فلسطين وبلاد الشام، كانت تل أم عامر/خربة أم التوت في (Tabatha) هي مسقط رأس القديس إيلاريون/Hilarion ٢٩٠م، هو أول من أدخل نظام الرهبنة في بلاد الشام بعد تتلمذه على أيدي Antunius المؤسس الحقيقي لنظام الرهبانية في مصر<sup>١١</sup>. أسس ديره المسمى باسمه في عام ٣٢٩م عندما وضع أول صومعة له في موقع خربة أم التوت في مدينة غزة، ٤٠٠ شماس بدأوا بتنظيم بعض العمائر الخفية حول الكنيسة وفي عام ٣٦٢م كان وصول الإمبراطور Julian للعرش سببا في إجبار هيلاريون على الهرب وتدميره<sup>١٢</sup> دير هو في عام ٣٧١م توفي هيلاريون في قبرص ثم قام تلميذه Hizikhius بنقل جثمانه إلى غزة ودفنه في نفس المكان الذي بنى فيه صومعته الأولى<sup>١٣</sup>.

في نهاية القرن الخامس في عهد الإمبراطور Anastasius الأول (٤٩٢-٥١٨م) شهد الدير إعادة بناء وإعمار توسعة كنسية الدير

- |    |   |
|----|---|
| ١٤ | ثيودور إدوارد دولينج، تمت الترجمة من كتاب غزة مدينة عديدة الحروب، ص ٥٠  |
| ١٥ | قاجة، جمعة، غزة خمسة آلاف عام حضور وحضارة، ص ٢٩٤ وأيضاً المبيض، سليم، النصرانية وآثارها في غز وما حولها، ٩٤، ٩٣، ٩٥ وكذلك أيضاً العارف، عارف، تاريخ غزة، ص ٩٦، ٩٧ |
| ١٦ | مصطفى الدباغ، بلادنا فلسطين، دار الطليعة بيروت ١٩٦٦، ص ١٣٣  |
| ١٧ | عثمان الطباع، اتحاد الأعمدة في تاريخ غزة، مكتبة البازجي غزة، ص ١٥١.   |
| ١٨ | مارتن أمير، تاريخ مدينة غزة من أقدم العصور للوقت الحاضر، ص ٩٥   |



لازدياد عدد المتعبدين وتم العثور على اسم الامبراطور هيلاريون مدون في نص تأسيسى على أرضية فسيفساء مذبح الكنيسة بعد التوسعة الثانية الذي جرى لها.

أما في القرن السادس حدث تطوير لكل منشآت الدير على الأغلب أن يكون الأسقف Marcianus قد ساهم بشكل كبير في هذا التطور ومصاحباً للنهضة المعمارية التي تبناها الإمبراطور Justinian (٥٢٨-٥٦٥م) وهذه المرة الثالثة تم توسيع الكنيسة وهي التوسعة الموجودة حالياً المرتبطة مع قبو الدير الذي يحتوي على تابوت به رفات القديس.

استمر هذا الدير عامراً حتى منتصف القرن الثامن الميلادي إذ أن الهزة الأرضية القوية التي ضربت غزة عام ٧٤٧م كانت سبباً رئيسياً في تدمير الدير والهجر النهائي للمكان<sup>١٩</sup>.

يحتوي موقع دير القديس هيلاريون على كنيستين وقبو الدير الكنسي به تابوت عثر على جزء من غطاءه كان بداخله رفات هيلاريون، وحوض التعميد، ومعصرة زيتون، وقاعات للرهبان مبلطة بالفسيفساء الملونة زخرفة نباتية وأخرى

رسم لأحد أنهار الجنة الأربعة المذكورة بالكتاب المقدس وما به من أسماك، وغرف طعام بالإضافة لذلك تم تجهيز الدير بمحطات تتكون من ثلاث غرف الساخنة والفاترة والباردة.

تم تزويد الدير بمرافق بنية تحتية جيدة، بما في ذلك خزانات المياه والأفران الفخارية وقنوات الصرف. أرضياته مرصوفة جزئياً بالحجر الجيري والبلاط الرخامي والفسيفساء الملون المزين بمناظر نباتية وحيوانية. وتم وضع فسيفساء كبيرة من القرن الخامس على أرضية كنيسة صغيرة، تحتوي الأرضيات أيضاً على نقش يوناني مزين بزخارف دائرية.

#### الختامة:

استوطن في مدينة غزة العديد من الحضارات ، التي أقامت القرى المدن المقابر الكنائس وغيرها ، هدفت هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أهم المواقع والمباني الأثرية البيزنطية في مدينة غزة ، بعد الدراسة السابقة يمكن الخروج بعدد من النتائج :

- دراسة المواقع الأثرية خلال فترة الحكم البيزنطي في مدينة غزة.
- لا يوجد دليل كافي وشامل للمواقع الأثرية الموجودة في قطاع غزة.
- ضعف الإمكانيات المادية والبشرية لدى المؤسسات المعنية بالآثار في قطاع غزة.

#### التوصيات:

تشجيع الدراسات والأبحاث العلمية خاصة في مجال الآثار البيزنطية والحفاظ على المباني والمواقع الأثرية. تطوير المناهج الدراسية والعلمية لطلاب المدارس والجامعات والتأكيد على المواد التي تبحث في التراث الثقافي والمواقع الأثرية لقطاع غزة وأساليب وطرق الحفاظ عليه. توثيق المباني والمواقع الأثرية بشكل كامل وشامل واستخدام التقنيات الحديثة في التوثيق. إعداد دليل وطني شامل لعمليات الترميم الخاصة بالمباني الأثرية في قطاع غزة.

#### قائمة المصادر والمراجع

١. أمنة أبو حجر، موسوعة المدن والقرى الفلسطينية، الجزء الثاني، دار أسامة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣.
٢. جمعة أحمد قاجة ، غزة خمسة آلاف عام حضور وحضارة، دار العلوم العربية للطباعة والنشر .
٣. رائد أحمد صالح، مدينة غزة دراسة في جغرافية، ١٩٩٤م، جامعة الدول العربية.
٤. دليل وزارة السياحة والآثار في قطاع غزة .
٥. سليم عرفات المبيض، النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، مكتبة اليازجي ١٩٩٨م
٦. سليم عرفات المبيض، غزة وقطاعها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٨.
٧. عارف العارف، تاريخ غزة، مطبعة دار الأيتام الإسلامية في بيت المقدس، ١٩٤٣م
٨. عثمان مصطفى الطباع، تحاف غزة في تاريخ الأعزة، المجلد الأول (١٨٨٢-١٩٥٠م)
٩. مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين الطبعة الجديدة ١٩٩١م دار الهدى كفر قرع.
١٠. مروان أبو سويرح، الأرض والإنسان في الزوايدة. دار المقداد للطباعة ٢٠٠٤.
١١. <https://www.antiochpatriarchate.org/ar/page/813>



## مسيرة الملكة هيلانة وقسطنطين في فلسطين

القديسة هيلانة هي والدة الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير

نشأتها

وُلدت القديسة (هيلانة) (حوالي ٢٥٠-٣٢٧ م) بمدينة الرُّها من أبوين مسيحيين نحو سنة ٢٤٧ م، فربّياها تربية مسيحية وأدبها بالآداب الدينية. وكانت حسنة الصورة جميلة النفس، واتفق لُقنسطنس ملك بيزنطية أن نزل بمدينة الرُّها وسمع بخبر هذه القديسة وجمال منظرها، فطلبها وتزوجها حوالي عام ٢٧٠ م. فرزقت منه بقسطنطين فرثته أحسن تربية وعلمته الحكمة والآداب. وفي عام ٢٩٣ م التزم قُنسطنس بأن يطلقها لكي يرتبط بقراة مع الإمبراطور الأكبر في الغرب أوغسطس مكسيميان، بزواجه من ابنة له من زواج سابق تُدعى ثيودورا. استمرت هيلانة مرتبطة بابنها، أما الثلاثين عام التالية فلا نعرف الكثير عنها. في ظروف حرجة عاد لهيلانة مكانتها العظمى عندما ملك قسطنطين. نُصرتة على ليسينيوس Licinius عام ٣٢٤ م جعلته الحاكم الوحيد على الإمبراطورية الرومانية، والصراع الخطير داخل الأسرة المالكة أدى إلى استبعاد الزوجة الثانية فوستا Fausta وابنه كريسپوس Crispus.

هيلانة كإمبراطورة، أم للملك و Augusta صاحبة سلطان لها اعتبارها ودورها في التاريخ: الملكة هيلانة وإيمان ابنها قسطنطين هيأت الملكة هيلانة قلب ابنها قسطنطين ليقبل الإيمان بالسيد المسيح. وفي الوقت المعين ظهرت له علامة الصليب في السماء وقد نُقش تحتها «بهذا تغلب». بالفعل انتصر، وآمن بالمصلوب، وصار أول إمبراطور روماني مسيحي. البحث عن الصليب المجيد وإقامة مبانٍ كنسية اشتركت مع قسطنطين بخصوص إقامة مبانٍ كنسية في بيت لحم وأورشليم، واكتشافها للصليب المقدس سبب حركة إحياء لأورشليم وشجع على السياحة إليها، رأت القديسة في الليل من يقول لها: «امضِ إلى أورشليم وافحصي بتدقيق عن الصليب المجيد والمواضع المقدسة». وإذ أعلمت ابنها بذلك أرسلها مع حاشية من الجند إلى أورشليم، فبحثت عن عود الصليب المجيد حتى وجدته، كما وجدت الصليبين الآخرين الذين صلب عليهما اللسان. فقصدت أن تعرف أيهما هو صليب السيد المسيح، فأعلمها القديس مقاريوس أسقف كرسي أورشليم بأنه هو الصليب المكتوب أعلاه: «هذا هو يسوع ملك اليهود». ثم سألته أن ترى آية ليطمئن قلبها، فاتفق بتدبير السيد المسيح مرور قوم بجزازة ميت في ذلك الحين، فوضعت كلاً من الصليبين على الميت فلم يقم، ولما وضعت الصليب الثالث قام الميت في الحال، فازداد إيمانها وعظم سرورها.

بعد ذلك شرعت في بناء الكنائس، وبعد ما سلمت للأب مقاريوس المال اللازم لعملية البناء أخذت الصليب المجيد والمسامير وعادت إلى ابنها الملك البار قسطنطين، فقَبِل الصليب ووضعه في غلاف من ذهب مرصع بالجواهر الكريمة، ووضع في خوذته بعض المسامير التي كانت به. صارت هيلانة مثلاً حياً للإمبراطورة المسيحية التي تساهم في جعل الإمبراطورية الرومانية مسيحية. سارت هذه القديسة سيرة مرضية ورتبت أوقافاً كثيرة على الكنائس والأديرة والفقراء. ثم تنيحت عام ٣٢٧ م وهي قرابة الثمانين.

## قسطنطين الملك البار

كان أغلب القادة الكنسيين معجبين بشخصية الإمبراطور قسطنطين الكبير (حوالي 285-337 م) وأمه هيلانة الملكة، يتطلعون إليهما كشخصين بارين قاما بدورٍ عظيم في تاريخ الكنيسة الأولى. مع أنه لم ينل العماد إلا في السنة الأخيرة من حياته على يدي الأسقف الأريوسي يوسابيوس النيقوميدي إلا أنه يتحدث عن نفسه كمسيحي غيور، جعل من المسيحية الديانة الرسمية للدولة الرومانية، وأمر بحفظ يوم الأحد، وصادر المعابد الوثنية وحول الكثير منها إلى كنائس، وعفا رجال الدين المسيحي من الضرائب، كما تدخل وللأسف في المشاكل الكنسية. وهو الذي دعا إلى عقد أول مجمع مسكوني في العالم في نيقية عام ٣٢٥ م. عشقه يوسابيوس القيصري، وسجل لنا تاريخه، كما مدحه المدافع لاكتانتوس، وقال عنه هوسوس أسقف كوردونا Hosius of Cordon بأسبانيا أنه صنع عجائب في الكنيسة.

## نشأته

اسم أبيه قسطنطيوس الأول Chlorus Constantius I وأمه هيلانه، وكان أبوه ملكاً على بيزنطة ومكسيميانوس ملكاً على رومه ودقديانوس على إنطاكية ومصر. وكان قونسطا وثنياً، إلا أنه كان صالحاً محباً للخير رحوماً شفوفاً. واتفق أنه مضى إلى الرها وهناك رأى هيلانة وأعجب بها فتزوجها، وكانت مسيحية فحملت منه بقسطنطين. ثم تركها في الرها وعاد إلى بيزنطية، فولدت قسطنطين وربته تربية حسنة وأدبته بكل أدب، وكانت تبث في قلبه الرحمة والشفقة على المسيحيين. ولكنها لم تجسر أن تعمده ولا تُعلمه أنها مسيحية، فكبر وأصبح فارساً وذهب إلى أبيه الذي فرح به لما رأى فيه الحكمة والمعرفة والفروسية. صار شريكاً في والده في الإمبراطورية.

## اتساع مملكته

يحدثنا يوسابيوس القيصري عن نصراته الفائقة التي بلغت أقاصي المسكونة في ذلك الحين، فبلغ في الغرب بريطانيا وما حولها، وفي الشمال غلب مملكة السكيثيين مع أنها كانت قبائل متوحشة لا يمكن حصر تعدادها، وفي الجنوب بلغ إلى الأثيوبيين والبلبيين Blemmyans، وفي الشرق بلغ إلى الهند وما حولها. وقد رحب الكل به باغتناب، مقدمين له هدايا، طالبين صداقته، وأقاموا تماثيل وصوراً له في بلادهم.

## قسطنطيوس

لم يكن ممكناً ليوسابيوس أن يؤرخ لقسطنطين الكبير دون الإشارة إلى والده قسطنطيوس. فقد كان أحد أربعة أباطرة يشتركون معاً في إدارة الإمبراطورية الرومانية في وقتٍ واحدٍ، وهم دقديانوس ومكسيميانوس وجاليريوس (غالوريوس) وقسطنطيوس. أبي الأخير أن يقتدي بالثلاثة الآخرين خاصة في اضطهاد المسيحيين، مع أنه لم يكن مسيحياً.

## ذكر يوسابيوس أمثلة رائعة تكشف عن سمو شخصيته:

١- أرسل إليه الإمبراطور، غالباً مكسيميانوس، يلومه على لطفه الزائد وتقواه واهتمامه بالشعب، مقدماً برهاناً على ذلك أن خزائنه قد صارت فارغة. للحال استدعى قسطنطيوس أغنى رعاياه في كل الأمم الخاضعة له وأخبرهم بأنه محتاج إلى مالٍ. تسابق الكل في العطايا بسخاء عجيب، حتى إذ جاء رُسل الإمبراطور ذهلوا من كثرة ما لديه. وإذ رجع

الرسول أصراً أن يرد لكل شخص ما قدمه بعد أن شكرهم على محبتهم وإخلاصهم وسخائهم.

٢- أما المثل الآخر العجيب فقد أصدر بين رجال الدولة أمراً بأن يختار كل منهم أحد أمرين: إما تقديم ذبائح للأرواح الشريرة أو ترك الخدمة في القصر. وهنا وافق البعض على تقديم ذبائح للأرواح الشريرة، ورفض الفريق الآخر ذلك وإن كلفهم الأمر طردهم من خدمة الملك. وإذ عرف الملك ما في قلوبهم اختار الفريق الثاني مادحاً إيَّاهم حاسباً أن من كان أميناً لله يُخلص في عمله، أما من يخون الله فكيف يمكن أن يثق فيه؟ وقد كافأه الله بأن صار فيما بعد هو وحده أوغسطس الرئيسي، وتفوّق على كل الأباطرة، حتى بلغ شيخوخة سعيدة وسلّم الملك لابنه قسطنطين.

### شخصية قسطنطين الشاب

في شبابه رافق قسطنطين دقلديانوس وغالوريوس في بعض الرحلات والحملات. اتسم عن أقرانه بقوة الشخصية وبرز في مواهبه العقلية، كما في قوته البدنية، محباً للعلم، وكان ذا ذكاء خارق وحكمة إلهية. حاول دقلديانوس التخلص منه بدافع الحسد والخوف منه، فاتهمه باتهامات أخلاقية، لكنه هرب منه وذهب إلى أبيه. كان والده مشرفاً على الموت عندما وجد قسطنطين قد جاء إليه على غير موعد، فقفز وعانقه بحرارة، وتنازل له عن الملك ثم أسلم الروح.

### ظهور الصليب المقدس

#### هيلانة

بعد وفاة أبيه تسلّم الملكة ونشر العدل والإنصاف ومنع المظالم، فخضع الكل له وأحبّوه، ووصل عدله إلى سائر البلاد، فأرسل إليه أكابر روما طالبين أن ينقذهم من ظلم مكسيميانوس فزحف بجنده إلى إنقاذهم. وفي أثناء الحرب رأى في السماء في نصف النهار صليباً مكوّناً من كواكب مكتوباً عليه باليونانية الذي تفسيره «بهذا تغلب»، وكان ضياؤه يشع أكثر من نور الشمس، فأراه لوزرائه وكبراء مملكته فقرؤوا ما هو مكتوب ولم يدركوا السبب الموجب لظهوره. وفي تلك الليلة ظهر له ملاك الرب في رؤيا وقال له: «اعمل مثال العلامة التي رأيتها وبها تغلب أعداءك». ففي الصباح جهّز علماً كبيراً ورسم عليه علامة الصليب، كما رسمها أيضاً على جميع الأسلحة، واشتبك مع مكسيميانوس في حرب دارت رحاها على الأخير الذي ارتد هارباً، وعند عبوره جسر نهر التير سقط به فهلك هو وأغلب جنوده. ودخل قسطنطين رومه فاستقبله أهلها بالفرح والتهليل، وكان شعراؤها يمدحون الصليب وينعتونه بمخلص مدينتهم ثم عيّدوا للصليب سبعة أيام، وأصبح قسطنطين ملكاً على الشرق والغرب.

### اكتشاف الصليب المقدس

أصدر أمراً إلى سائر أنحاء المملكة بإطلاق المعتقلين، وأمر ألا يشتغل أحد في أسبوع الآلام كأوامر الرسل، وأرسل هيلانة إلى بيت المقدس فاكتشفت الصليب المقدس. وفي السنة السابعة عشرة من ملكه اجتمع المجمع المسكوني الأول بنيقية في عام ٣٢٥ م.

وحول بناء كنيسة القيامة وتأسيسها فإن كتب التاريخ المسيحي تذكر أن الملكة هيلانة أم الملك قسطنطين حضرت إلى القدس في الثلث الأول من القرن الرابع للميلاد - والتي كانت تعرف آنذاك بأورشليم- وقد تجاوز سنها الثمانين، وكانت القدس آنذاك خربة وكان الوثنيون قد أقاموا في الجدلجة-مكان الكنيسة اليوم- هيكلًا للمشتري وتمثالًا للزهرة، فأمرت الملكة بهدم هذه التماثيل، وأمرت بالتنقيب في المكان بحثاً عن الصليبان، وبعد عناء تم العثور على ثلاثة



صلبان، يعود اثنان منهما للصليبين اللذين "صلبا" مع السيد المسيح، أما الأخير فهو صليب المسيح، وتقرر الشروع في بناء كنيسة في هذا المكان، وقد عهد قسطنطين بالإشراف على بناء كنيسة القيامة إلى الوالي "دريشليانوس"، وأعطى إدارتها إلى كاهن من القسطنطينية يدعى "أوستاط".

وبدء بناء الكنيسة سنة ٣٢٦م، وانتهى سنة ٣٣٥م، وقد تعرضت الكنيسة بعد ذلك لعدة حوادث وعمليات حرق وهدم وتخريب، حيث دمرها الفرس بتدمير القدس سنة ٦١٤م، وأحرقت قبتها سنة ٩٦٥م، وهدمت بأمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله سنة ١٠٠٩م، كما كانت ايضا ضحية الحريق الذي شب سنة ١٨٠٨م، حيث سقطت القبة وتلفت أجزاء كبيرة منها.

ومنذ البداية كان البناء الأساسي لهذه الكنيسة يتكون من ثلاث كنائس متجاورة، وهي كنيسة الجلجلة في مكان الصلب- حسب المعتقد المسيحي-، وتقع اليوم على يمين الداخل إلى كنيسة القيامة، وكنيسة مجاورة شملت في وسطها القبر المقدس، وكنيسة فوق البئر التي وجدت فيها الصلبان الثلاثة، هكذا كانت صورة هذه البقعة إلى أن احتل الصليبيون القدس سنة ١٠٩٩م، فقاموا بتوحيد هذه الكنائس الثلاث، على شكل صليب، وتحت سقف واحد، وأصبحت الكنائس المنفصلة كنيسة واحدة كبيرة، حيث أصبح القبر المقدس حرما مقدسا تحيط به الأعمدة الحجرية الضخمة على شكل دائري ترتفع فوقها القبة، وأصبح سطح المبنى الكامل يضم قبتين واحدة سوداء وأخرى بيضاء.

#### القيامة في دورها الأول (العهد الروماني الوثني)

تأسست أول كنيسة في العالم في اورشليم يوم حلول الروح القدس على التلاميذ، وكان عدد المؤمنين قبل الحادث قليلاً جداً، الا ان هذا الحادث العظيم الذي شهدته الألوف من الناس المختلفي اللغات والأجناس والأديان كان سبباً لإنتشار المسيحية إنتشاراً عجبياً، وأول أسقف نصب على الكنيسة الاورشليمية كان يعقوب الذي استشهد سنة ٦٢م، وقد بقي المسيحيون مع إقامتهم الصلاة في بيت أم يوحنا مرقس وغيره من الكهوف يترددون الى الجلجلة والقبر للتبرك بزيارته، حتى شق اليهود عصا الطاعة على الحكومة الرومانية، ولما دوت في آذان المسيحيين جلبه جيوش الرومان التي جاءت لإخضاع اليهود وإخماد نيران الثورة، علموا أن الوقت قد حان لإكمال نبوة السيد المسيح عن خراب المدينة والهيكل، فغادروا اورشليم هاربين الى مدينة "بلا" الواقعة في شرقي الاردن بالقرب من بيسان مع اسقفهم سمعان البار، فجاء تيطس وحاصر اورشليم حصاراً شديداً وأفتتحها عنوة سنة ٧٠م ودمر المدينة تدميراً هائلاً، وقد سلم القبر والجلجلة من التدمير لأنهما لم يكونا في حالة تشرعي الانتباه.

#### المسلمون حراس القيامة:

والمسلمون لم يكونوا بمنأى أو بمعزل عن كنيسة القيامة، حيث تولى المسلمون حراسة ابواب الكنيسة، ومسؤولية مفاتيحها، وهناك عائلتان مقدسيتان تقومان بهذه المهمة التاريخية، هما: آل جودة، وآل نسيبة. وقد اختلف المؤرخون في تحديد البداية التاريخية لهذه المسؤولية، فهناك قول يؤيد آل نسيبة يرى ان هذه الوظيفة بدأت منذ فتح عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) للقدس سنة ٦٣٦م، وأن أول من تسلم مفاتيح الكنيسة كان هو جدهم عبد الله بن امرأة من الخزرج تدعى (نسيبة)، وكان لها ولدان، حامد وعبد الله، حيث يرى هؤلاء ان صفرونيوس بطيريك القدس سلم مفاتيح القيامة لعمر بن الخطاب، الذي قام بدوره بدفع المفاتيح الى عبد الله بن نسيبة، لزهده وأمانته، ومنذ ذلك الحين وهم يتوارثون هذه المهمة،... وهناك قول آخر يؤيده آل جودة، يرى أنهم أمناء مفاتيح القيامة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي (١١٨٧م)، وأن آل نسيبة يقومون بمهمة الفتح منذ ذلك العهد أيضاً، وهناك رأي آخر يعتقد أن هذه المهمة مناطة بهذه

الأسر المسلمة منذ عهد المماليك.

ومهما يكن الأمر فإن مفاتيح كنيسة القيامة هي منذ قرون طويلة من الزمن في عهدة المسلمين المقدسيين، وهم الذين يتولون الإشراف عليها، حيث تقوم أسرة آل جودة بالاحتفاظ بالمفاتيح، في حين تقوم أسرة آل نسيبة بمهمة فتح الكنيسة في مواعيدها المقررة، وتعتبر هذه التجربة التاريخية نموذجاً على التعاون والتسامح بين المسلمين والمسيحيين في القدس.

### كَنِيسَةُ الْمَهْدِ

هي الكنيسة التي ولد يسوع المسيح في موقعها، وهي تقع في بيت لحم جنوب الضفة الغربية على بعد أربعة كيلومترات من قصر مؤتمرات بيت لحم. بناها الإمبراطور قسطنطين عام ٣٣٥. وفي عام ٣٣٦ م زارت الملكة هيلانة فلسطين، لمشاهدة الأماكن التي عاش فيها السيد المسيح، والمواقع الهامة التي شهدت مراحل حياته، مثل موضع ولادته وأماكن ترحاله والمواقع التي ارتادها في الأيام الأخيرة له في الأرض المقدسة، والمكان الذي يظنون أنه دُفن فيه.. وفي بيت لحم، على بعد عشرة كيلومترات من القدس، زارت مغارة ذكر المسيحيون في المدينة، أنها شهدت مولد المسيح.

الروايات التي في الأناجيل ذكرت أن المسيح تمت ولادته في مغارة وأنه حين ولادته جاء مجوس من المشرق إلى القدس يسألون عنه ويقولون أنهم رأوا نجمة في المشرق تدل عليه فجاءوا ليسجدوا له. ثم ساروا نحو بيت لحم خلف النجم الذي تراءى لهم وتوقف حيث المسيح وأمه ففتحوا كنوزهم وقدموا له ذهباً ولباناً ومرأاً. وفي الموضوع ذاته أمر قسطنطين ببناء كنيسة المهد ٣٣٥ م وكان البناء مثنياً، فيه فتحة تؤدي إلى المغارة وهو البناء الأول للكنيسة.

«بئر الملكة هيلانة» إحدى عجائب القدس القديمة

«بئر الملكة هيلانة» إحدى الظواهر الطبيعية الأثرية في القدس القديمة، وتقع في باطن الأرض أسفل بطيركية الأقباط الأرثوذكس.

عند بلوغ المرحلة التاسعة من مراحل درب الآلام وفي المكان الذي سقط به المسيح عليه السلام على الأرض وهو يحمل الصليب للمرة الثالثة قبيل دخوله كنيسة القيامة حسب المعتقد المسيحي، يقف السياح طويلاً لأداء تراتيل دينية وهم يحملون الصليب، ثم يكملون مسيرة الآلام باتجاه الكنيسة، لكن منهم من يدخل «كنيسة الملكة هيلانة» الواقعة على يمينهم ويندهش لوجود سلالم ضيقة جداً تؤدي إلى بئر كبيرة تجتمع فيها مياه الأمطار منذ قرون طويلة. ترتبط هذه البئر بالملكة هيلانة التي ولدت لأبوين مسيحيين عام ٢٤٧ ميلادية، وكان لها تأثير خاص في اعتناق ابنها الإمبراطور قسطنطين الكبير للديانة المسيحية، وفي جعل الإمبراطورية الرومانية تعتنقها أيضاً.

وخلال السطور التالية ننشر أبرز المعلومات عن القديسة هيلانة.

١. ولدت بمدينة الرها من أبوين مسيحيين سنة ٢٤٧ م، فرَبَّيَها تربية مسيحية وأدَّبَها بالآداب الدينية.
٢. نزل قُنسطنس ملك بيزنطية بمدينة الرها وسمع بخبر هذه القديسة وجمال منظرها، فطلبها وتزوجها حوالي عام

٣. بعد زواجها رزقت بقسطنطين فرّته أفضل تربية وعلمته الحكمة والآداب.
٤. هيأت الملكة هيلانة قلب ابنها قسطنطين ليقبل الإيمان بالسيّد المسيح، وفي الوقت المعين ظهرت له علامة الصليب في السماء وقد نُقش تحته «بهذا تغلب».
٥. صار أول إمبراطور روماني مسيحي فالبحت عن الصليب المجيد وإقامة مبانٍ كنسية اشتركت مع قسطنطين بخصوص إقامة مبانٍ كنسية في بيت لحم وأورشليم.
٦. جاء اكتشافها للصليب المقدس بسبب حركة إحياء لأورشليم وشجع على السياحة إليها.
٧. رأت القديسة في الليل من يقول لها: «امضِ إلى أورشليم وافحصي بتدقيق عن الصليب المجيد والمواضع المقدسة»، وإذ أعلمت ابنها بذلك أرسلها مع حاشية من الجند إلى أورشليم، فبحثت عن عود الصليب المجيد حتى وجدته، كما وجدت الصليبين الآخرين اللّي صلب عليهما اللسان.
٨. بعد اكتشاف الصليب شرعت في بناء الكنائس، وبعد ما سلمت للأب مقاريوس المال اللازم لعميلة البناء أخذت الصليب المجيد والمسامير وعادت إلى ابنها الملك البار قسطنطين.
٩. سارت هذه القديسة سيرة مرضية ورتبت أوقافا كثيرة على الكنائس والأديرة والفقراء، ثم توفيت سنة ٣٢٧ م وهي قرابة الثمانين.

#### نفق هيلانة في غزة

سُمّي هذا النفق بـ«نفق هيلانة» نسبة للملكة هيلانة التي كانت توصف بالمرأة القوية وصاحبة العقلية الراجحة والفذة، وحسنة الصورة، جميلة النفس. وهيلانة هي والدة الإمبراطور الروماني قسطنطين الكبير

#### المسجد العُمري في قطاع غزة

يعتبر المسجد العُمري من أقدم وأعرق المساجد في قطاع غزة ويقع في قلب البلدة القديمة بحي الدرج ويتميز بجمال عمارته.

كان المسجد في البداية معبدا وثنيا ثم تحول الى كنيسة في فترة حكم الملكة هيلانة، وبعد ذلك صار المسجد بأسم العُمري نسبة الى الخليفة عمر بن الخطاب الذي دخلت هذه المنطقة الاسلام في عهده. وأصبحت برفيريوس الكنيسة الأم في قطاع غزة، بعد أن تحولت الكنيسة الأم الأولى «مار يوحنا» إلى الجامع العمري الكبير بعد الفتوحات الإسلامية

ويعتبر المسجد أقدم مكان في قطاع غزة وكان موقعا للعبادة الوثنية التي تبدأ طقوسها بدخول أشعة الشمس من خلال النوافذ مرورا بهيمنة الديانة المسيحية وتحويل البناء إلى كنيسة ملحق بها صف من الغرف الصغيرة لبيع الشموع والبخور، ثم تحول المكان إلى مسجد يعتبر من أقدم وأكبر المساجد في غزة وأما الغرف الصغيرة فقد أصبحت سوقا للذهب.

## قائمة المصادر والمراجع

١. العنوان : Елена святая — نشر في: Brockhaus and Efron Encyclopedic Dictionary. Volume XIa, 1894
٢. المؤلف: Alexander Lovyagin — العنوان : Константин Великий — نشر في: Brockhaus and Efron Encyclopedic Dictionary. Volume XVI, 1895
٣. ياقوت الحموي. معجم البلدان. مادة «رُصَافَةُ الشَّامِ».
٤. The Rough Guide To Cyprus. Rough Guide. (2009) Dubin, Marc. صفحات 135-136.
٥. Geograph Britain and Ireland – photograph :: Colchester Town Hall:: OS grid TL9925 .every grid square!». Geograph.org.uk. مؤرشف من الأصل في 17 يونيو 2018. اطلع عليه بتاريخ ٢٦ مارس ٢٠١٣.
٦. المبيض، سليم عرفات، البنايات الأثرية الإسلامية في غزة و قطاعها، 1969، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٧. قاجة، جمعة، غزة خمسة آلاف عام حضور و حضارة، الناشر: دار العلوم العربية للطباعة والنشر.
٨. دليل الأثري، غزة بوابة الشام، ٢٠١٢.

## أوضاع المسيحية في فلسطين منذ العصر الأموي حتى نهاية العصر الفاطمي (٥٦٧هـ/٦٦١-١١٧١م)

### ملخص الدراسة:

تدور هذه الدراسة حول أوضاع المسيحية في فلسطين منذ عصر الأموي إلى نهاية العصر الفاطمي (٥٦٧هـ-١١٧١م)، وتضمنت الدراسة ثلاثة محاور، بالإضافة للتمهيد، فتناول المحور الأول: أوضاع المسيحية خلال العصر الأموي، وتطرق المحاور الثاني إلى: أوضاع المسيحية خلال العصر العباسي، أما المحور الثالث فتناول أوضاع المسيحية في العصر الفاطمي، وانتهت الدراسة بمجموعة من النتائج أهمها، أنه كان للنصارى حضورهم في المجتمع الإسلامي ككل، وفلسطين بشكل خاص، وتمتعوا بحقوقهم التي أقرتها لهم الشريعة الإسلامية، ومارسوا حياتهم بشكل طبيعي، وشاركوا في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعلى الرغم من تعرضهم لبعض المضايقات في بعض الأحيان، وسادت علاقة بين المسيحيين والمسلمين تميزت بالهدوء والتعاون، تبادل الزيارات والمعاهدات في أعيادهم الدينية.

### مشكلة الدراسة:

تدور الدراسة حول تساؤل رئيس، كيف كانت أوضاع المسيحية في فلسطين منذ العصر الأموي وحتى نهاية العصر الفاطمي، وتنبتق عنه مجموعة من التساؤلات:

- ١- هل تبدلت أوضاع المسيحية في العصر الأموي؟
- ٢- كيف كانت أوضاع المسيحية في العصر العباسي؟
- ٣- ماذا عن المسيحية في العصر الفاطمي؟

### أهداف الدراسة:

تهدف الدراسة إلى:

- ١- التعرف على أوضاع المسيحية في العصر الأموي
- ٢- دراسة تطور أوضاع المسيحية في العصر العباسي.
- ٣- بيان ظروف المسيحية في العصر الفاطمي.

### حدود الدراسة:

- أ- الحد الموضوعي: أوضاع المسيحية في فلسطين.
- ب- الحد الزمني: تمتد فترة الدراسة من العصر الأموي حتى نهاية العصر الفاطمي (٥٦٧هـ/٦٦١-١١٧١م).
- ج- الحد المكاني: يتركز الحد المكاني للدراسة حول المسيحية في فلسطين فقط.

## منهجية الدراسة:

اعتمدت الدراسة على مناهج علمية، وهي:

١. المنهج التاريخي: اتبعت الدراسة المنهج البحثي التاريخي للتأصيل، والبحث عن أوضاع المسيحية، إذ يعتمد هذا المنهج على تفسير الحوادث التاريخية
٢. المنهج الوصفي والتحليلي: وهو أسلوب من أساليب التحليل المركز على معلومات كافية ودقيقة وموضوعية عن الموضوع المراد البحث فيه، ومن ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، بما ينسجم مع المعطيات الفعلية لموضوع الدراسة، مع تحليل مضمونها، التي تؤسس لمفهوم اتصال التاريخ الماضي بالواقع الحاضر. تنقسم هذه الدراسة إلى ثلاثة محاور، وتمهيد على النحو التالي:

## تمهيد

تعد فلسطين أرض الديانات السماوية، وأحد أهم مواطن بلاد الشام الهامة؛ نظراً لموقعها الجغرافي والديني والاجتماعي والثقافي، فقد شكلت المسيحية والمسيحيين جزءاً لا يتجزأ من المجتمع الفلسطيني؛ ليصبحوا قوة لا يستهان بها بالرغم من تناقص عددهم بالمجتمع الفلسطيني ككل، فقد رحبت أرض فلسطين بمن وطأ ثراها سواء كان مسيحياً أو مسلماً أو عابراً سبيل، لتشكل المسيحية موضع قراءة تاريخية على مر التاريخ، وللكشف عن ذلك التاريخ الذي مرت به المسيحية في فلسطين وأوضاعهم، لا بد أن نستعرض المحاور التالية:

الوجود المسيحي في فلسطين:

يعد الوجود المسيحي في فلسطين وجوداً راسخاً في تاريخها، حيث ينظر المسيحيون إلى فلسطين ومدنها، على أنها المركز المسيحي الأول والأهم في العالم، وهو ما يؤكد وجود الكنائس والأديرة الموجودة في المدينة، ولا سيما كنيسة القيامة في البلدة القديمة، ولقربها من مدينة بيت لحم مهد المسيح، التي تشكل محجة للمسيحيين من كافة أنحاء العالم، ومنها انطلقت البشارة الأولى للعالم، أقدس المدن في العالم المسيحي على الإطلاق<sup>١</sup>.

يعود وجود النصارى في فلسطين إلى ما قبل الفتح الإسلامي، فقد سكنوا في الأماكن المقدسة لديهم مثل: بيت المقدس<sup>٢</sup>، وبيت لحم، والناصرية، وقيسارية<sup>٣</sup>. وقد أدت بلاد الشام وفلسطين دوراً حاسماً في تشكيل بناء الديانة المسيحية بإحكام وإتقان، وفي الربع الثاني من القرن السابع الميلادي انتشر الإسلام، وارتفعت فوق الطوائف المسيحية المتصارعة، فقد كان الإسلام متسامحاً مع المسيحيين الشرقيين الذين يقطنون بلاد الشام وتحديداً فلسطين، في الوقت الذي كانت الكنيسة البيزنطية، أكثر تعسفاً مع هؤلاء المسيحيين الشرقيين المقيمين في الأراضي المقدسة، بالإضافة إلى باقي سكان هذه المناطق من السامرة واليهود، ونتيجة للمعاملة الحسنة التي لقيها النصارى من المسلمين، فقد دخلت أعداد كبيرة من نصارى بيت المقدس إلى الدين الإسلامي، خاصة في نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي، ورغم ذلك فقد ظل النصارى يشكلون أعداداً كبيرة في بيت المقدس<sup>٤</sup>.

١ درزي، براءة: الوجود المسيحي في القدس تحت الاحتلال، مؤسسة القدس الدولية، ٢٠١٩م، ص ٣.

٢ أبو جابر، رؤوف: الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م، ص ١.

٣ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي(ت١٣٨٦/٧٧٤م): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ج٧، ١٩٦٦م، ص ٥٧.

٤ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، مصر، ج١، ١٩٤٨م، ص ٢١.

٥ المرجع السابق.

٦ الادريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت١٢٠هـ/٧٢٠م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، ج ١، ١٩٨٩م، ص ٣٥٦.

٧ الحلاق، حازم: الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية الاقتصادية والسياسة للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية(٣٣٤-٤٩٠هـ/٩٤٥-١٠٩٧م)، رسالة



ومن ثم تحول كل من تبقى في فلسطين إلى المسيحية خلال القرن الأول الميلادي وحتى الرابع، إلا طائفة صغيرة من اليهود، الذين بقوا على دينهم الذي كان ولا يزال معادياً للمسيحية، ورفضاً الاعتراف بها كدين سماوي. ومن الدلائل المشيرة إلى انتشار المسيحية في فلسطين أن عدداً كبيراً من القرى الفلسطينية التي يعود تاريخها إلى ما قبل الإسلام تبدأ أسماءها بكلمة «دير»، مثل دير غزالة شمال شرق جنين، ودير غسانة شمال غرب رام الله، ودير الهوا غرب القدس، ودير حنا شمال الناصرة، ودير الأسد شرق عكا<sup>٨</sup>.

تلازم وجود النصارى في فلسطين مع ظهور السيد المسيح عليه السلام على أرض فلسطين أي أن وجود النصارى في فلسطين سبق الفتح الإسلامي بقرون عدة، فكان معظم سكان فلسطين إبان الفتح الإسلامي من المسيحيين سواء كانوا عرباً أو عجماء، ولكن الغالبية منهم كانت من العرب لذلك أبدوا ترحيباً بالفتاحين المسلمين من أبناء عموماتهم، وتركز وجود النصارى بعد الفتح الإسلامي في معظم مدن الفلسطينية، وكان لهم تواجدهم في غزة وعسقلان أيضاً، وقد ذكر البلاذري أن عسقلان من المدن التي بها عدد وافر من النصارى<sup>٩</sup>، وأنهم نقضوا عهدهم فأعاد معاوية فتحها ثم نقضت عهدها في خلافة عبد الملك بن مروان، فأعيد فتحها مرة ثالثة فقام بترميم حصونها ومسجدها، وأنزلها خلقاً من العرب وأقطعهم القطائع، وقد أثر ذلك على تركيب السكان فيها، حيث كان عبد الملك بن مروان على أثر ذلك بإجلاء معظم سكانها من النصارى الروم، فأصبح بذلك معظم السكان من المسلمين<sup>١٠</sup>.

شكل معظم سكان غزة وعسقلان من المسيحيين، وقد تحول عدد كبير منهم إلى الإسلام في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، ويدل ذلك أن أكبر مساجد غزة هو المسجد العمري قد بني على أنقاض كنيسة قديمة بطلب من النصارى الذين دخلوا الإسلام<sup>١١</sup>.

انقسم النصارى في فلسطين، إلى وافدين غرباء عن فلسطين ومحليين، فالوافدين هم الجند الذين قدموا إلى فلسطين من أوروبا، وهؤلاء خرج أكثرهم مع هرقل في حرب الفتوح وبعيد معركة اليرموك<sup>١٢</sup>، فلم يخرج من فلسطين مع مقدمة الفتح سوى المستوطنين القدامى والمحتلين الإغريق، وعلى الأغلب أنهم المرتزقة الذين ذكرهم في كتابه فتوح البلدان عندما فتح معاوية بن أبي سفيان قيسارية عام ١٩٩هـ<sup>١٣</sup>.

يبدو أن العرب القاطنين في فلسطين كانوا يقسمون العرب إلى قسمين العرب المستنصرة ويدعون نصارى مع غيرهم ممن يدينون بالنصرانية، والعرب الذين لا يدينون بالنصرانية ويدعون عرب، ومن ذلك جاء قول الحميري عن مدينة عكا «كانت تشكل ملتقى للتجار العرب والنصارى»، وإليهم أشار خسرو أنه وجد في بيت لحم الكثير من النصارى ويقصدها حجاجهم من كل مكان، وكان هناك أعداد كبيرة من النصارى في جبل الجليل.

خلاصة لما سبق: إن الوجود المسيحي في فلسطين ومدنها وجود متجذر ومتأصل، وهو ما يشهده الواقع والأحداث التاريخية التي رصدت لنا طبيعة الوجود المسيحي في فلسطين، فقد شكل المسيحيون نسيج المجتمع الفلسطيني خلال

ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠١٤م، ص ٦٦.

٨ مرادة، تمارة: سيكولوجية بعض المسيحيين في منطقة بيت لحم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، فلسطين، ٢٠١٢م، ص ٤٧.

٩ البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٠م): فتوح البلدان، مراجعة وتدقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م، ص ١٨٧.

١٠ أبو رحمة، زهير: الحياة العلمية في غزة وعسقلان منذ بداية العصر العباسي حتى الغزو الصليبي ١٣٢-٤٩١هـ رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٦م، ص ٧٣.

١١ المرجع السابق، ص ٢٤.

١٢ الحلاق، حازم: الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية الاقتصادية والسياسة للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية (٣٣٤-٤٩٠هـ/٩٤٥-١٠٩٧م)، ص ٢٠-٢١.

١٣ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٧م،

العصور المتتالية، مكونة طبقات وفتات المجتمع الفلسطيني، وعليه يمكننا الجزم بأن المسيحيين كانوا وما زالوا جزءاً أصيلاً من سكان فلسطين ومدنها خلال كافة الأزمنة والعصور والخلافات التي توالى على حكم فلسطين.

### المحور الأول أوضاع المسيحية في فلسطين خلال العصر الأموي ٤١-١٣٢هـ/٦٦١-٧٥٠م:

تمتع النصارى في فلسطين، منذ الفتح الإسلامي لبيت المقدس ٦٣٦م/١٥هـ، بالحرية التامة في أمورهم الدينية، كما شهدت فلسطين حالة من الاستقرار السياسي والديني خلال الخلافة الأموية، الذين منحوا النصارى العديد من الامتيازات، التي نستطيع من خلالها التعرف على طبيعة الأوضاع السائدة للمسيحيين في فلسطين خلال الحكم الأموي.

#### أ. الأوضاع الدينية للمسيحيين في العصر الأموي:

تمتع النصارى في فلسطين في ظل الخلافة الأموية بحريتهم الدينية، ذلك الحق الذي كفله الإسلام لأهل الكتاب، إذ منحتهم الآية الكريمة: «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من البغي»<sup>١٤</sup>، حصانة من أن تمس عقائدهم، ووفرت لهم الحرية الكاملة في ممارسة شعائهم في ظل حماية الدولة الأموية<sup>١٥</sup>.

فقد عامل المسلمون أهل الذمة<sup>١٦</sup> معاملة حسنة، ووفروا لهم الرعاية، والحماية منذ قيام الدولة الإسلامية، وكان النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يدعو إلى الرفق بهم، وألا يكلفوا فوق طاقتهم، وألا يظلم أحد منهم، فقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من ظلم معاهداً أو خلفه فوق طاقتة فأنا حجيجه»، وفي رواية أخرى أنه قال: «ألا من ظلم معاهداً أو كلفه فوق طاقتة أو انتقضه، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه يوم القيامة»<sup>١٧</sup>.

ولا يغيب عن أذهاننا من صور التسامح في أهل الذمة، ما أعطاه عمر بن الخطاب لأهل إيلياء العهد مع الفتح الإسلامي، المعروف بالعهد العمرية، التي جاء فيها «هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقمها وبرئتها وسائر ملتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم...»<sup>١٨</sup>، إذ يقول المؤرخ توماس أرنولد: «لم نسمع عن أي محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو أي اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي»<sup>١٩</sup>، مما عزز الحرية الدينية التي تمتعت بها الطوائف غير المسلمة، في ظل الدولة الإسلامية ما أعطاه النبي محمد صلى الله عليه وسلم؛ لنصارى نجران جوار الله وذمة الله ورسوله على أموالهم وملتهم وبيعهم وهو ما فعله عمر بن الخطاب<sup>٢٠</sup>.

ومع ذلك وقعت في التاريخ الإسلامي بعض صور الاعتداء على الحرية الدينية في تاريخ الدولة الإسلامية الأموية،

١٤ سورة البقرة: ٢٥٦.

١٥ بدوي، عبد المجيد: سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة في الشام والعراق في عهد الراشدين وبنو أموية، جامعة المنصورة، كلية الآداب، ١٩٨٨م.

ص ١١٠.

١٦ أهل الذمة: هو لفظ يطلق على غير المسلمين الذين يقيمون في الدولة الإسلامية ويلتزمون بدفع الجزية، وهم المعاهدون من اليهود والنصارى من أهل الكتاب ويقرون بالولاء والطاعة مقابل دفع الجزية. دويدار، حسين: أهل الذمة في العصر الأموي، ص ١٦٦.

١٧ الطروانة، محمد؛ المجالي، سحر: أحوال أهل الذمة في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٣٦، ٢٠٠٩م،

ص ٧٩٧

١٨ الطبري، أبو جعفر جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج ٣، ١٩٧٠م، ص ٦٠٩.

١٩ الزعيم، إبراهيم: التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين في بيت المقدس ما بين ١٨٩٧-١٩٩٤م، ص ٣٧.

٢٠ قريشي، عمر بن عبد العزيز: سماحة الإسلام، تقديم: عبد الرحمن العشماوي وعاض القرني، مكتبة الأديب، الذهبية للنشر والترجمة، مصر، ط ٣، ٢٠٠٦م،

والعباسية، والفاطمية، ولكنها لم تدم طويلاً فقد تصدى العلماء والفقهاء والخلفاء لمثل تلك المحاولات لإنصاف أهل الذمة، وأولئك المعتدين لم يمثلوا تياراً في مجتمع الدولة الإسلامية، كما وحافظ المسلمون على حقوق النصارى في بيت المقدس، حتى أنهم خافوا على كنائس النصارى من أن تؤخذ من أهلها في المستقبل، فعندما زار عمر بن الخطاب كنيسة القيامة حان موعد الصلاة، فأشار البطريك صفرونيوس أن يصلي داخل الكنيسة قائلاً:

صلّ مكانك، ولكنه أبى وخرج من الكنيسة، وصلّى في مكان قريب منها للجهة الجنوبية، وحينما فرغ من الصلاة قاله للبطريك «أياذن لي أيها الشيخ أنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة، لوضع المسلمين عليها الأيدي من بعدي في حجة إقامة الصلاة فيها، وإني أن أمهد السبيل لحرمانكم منها، وانتم أحق وأولى»<sup>٢١</sup>.

سار خلفاء الدولة الأموية على سيرة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم، في الرفق بأهل الذمة وحسن التعامل معهم، ولم يعرف عن المسلمين أنهم ضيقوا على أهل الذمة، فعاشوا بين المسلمين أمنين، وشكلوا فئة من فئات المجتمع الإسلامي، بحيث حصلوا على حقوقهم كاملة غير منقوصة، ولم يجبروا على ترك دينهم أو التحول عنه، ولم يعرف التاريخ أنه ألزم أحد منهم على اعتناق الإسلام بغير رضاه<sup>٢٢</sup>.

استهل الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان خلافته بسياسة تميزت بمعاملته ورعايته للمسيحيين معاملة طيبة فقد نودي معاوية خليفة في القدس «إيلياء»، أوائل عام ٤١هـ / ٦٦١م، واختار دمشق عاصمة لخلافته، فسكن العرب في المدن الكبرى، واختلطوا بالمسيحيين، حتى قيل بأنهم كانوا يؤدون فرائضهم الدينية في مواطن كثيرة تحت سقف واحد<sup>٢٣</sup>.

ذكر ول ديورانت: «لقد كان أهل الذمة المسيحيون والزردهشتيون واليهود والصائبون ينعمون في ظل الحكم الأموي بدرجة التسامح، لا نجد لها نظيراً في البلاد المسيحية في تلك الأيام، فلقد كانوا أحراراً في ممارسة شعائر دينهم، واحتفظوا بكنائسهم، ومعابدهم، ولم يفرض عليهم أكثر من أداء ضريبة من كل شخص تختلف باختلاف دخله...»<sup>٢٤</sup>.

فلا عجب عندما نقول بأن النصارى في فلسطين، عاشوا بأمان واطمئنان في كنف الدولة الإسلامية، ولم يفرض عليهم دخول الإسلام بل مارسوا شعائرهم بكل حرية، مقابل دفع ما عليهم من جزية، وألا يخونوا المسلمين، ولا يكونوا عوناً عليهم، وألا يتعاونوا مع أعدائهم، أي المحافظة على قوانين، ومبادئ الدولة الإسلامية العامة والالتزام بها<sup>٢٥</sup>، وما يدل على ذلك أن كنائس النصارى قديماً وحديثاً غالبيتها بجوار مساجد المسلمين، وتسمى بعضهم بأسماء المسلمين كالحسن، والحسين، والعباس، والفضل، وعلي وتكنوا بكنى المسلمين، وذلك أدى لاستقرار الدولة الإسلامية، وعدم حدوث فتن داخلية، أو اضطرابات مما ساعد على ازدهار الدولة وتقدمها، وبالتالي نمو الحركة العلمية؛ كما أدى إلى التسامح لدخول عدد كبير منهم إلى الإسلام، ومع ذلك حدثت بعض الأعمال الشاذة التي تعكّر صفو هذا التسامح؛ لأنها كانت حالة نادرة وقليلة<sup>٢٦</sup>.

ومن مظاهر التسامح الإسلامي مع المسيحيين في العصر الأموي مواصلة المسيحيين في بناء كنائسهم، وهو ما يدل عليه الدلالات التاريخية والأثرية المتمثلة بالنقوش الفسيفسائية الموجودة على أرضية الكنائس المتعددة مثل: كنيسة العذراء مريم، التي يرجع تاريخها إلى عام ٦٦٢-٦٦٣م، كما وأضيفت زمن الأمويين كنيسة العذراء إلى كنيسة الجلجلة في

٢١ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، مطبعة العارف، القدس ط٥، ج١، ١٩٩٩م، ص ٦٩-٩٨.

٢٢ الطروانة، محمد: مرجع سابق، ص ٧٩٧.

٢٣ تايه، راشد: المسيحية في الشام في العصر الأموي، مجلة الرسالة، معهد اعداد المعلمين العرب، كلية بيت بيرل، ع ١١٤-١٢، ٢٠٠٣م، ص ١٨٧-١٨٨.

٢٤ ديورانت، ول وإبريل: قصة الحضارة نشأة الحضارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجبل للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ج ١٣، ١٩٦٤م،

ص ١٣٠.

٢٥ الحمارنة، صالح: المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية،

ط ١٩٧٤م، ص ٥٥٣.

٢٦ أبو رحمة، زهير: الحياة العلمية في غزة وعسقلان منذ بداية العصر العباسي حتى الغزو الصليبي ١٣٢-٤٩١هـ ص ٧٣.

لم تقع حوادث في تاريخ الفتوحات الإسلامية والخلافة الأموية تشير إلى اضطهاد المسيحيين، أو إجبارهم على ترك دينهم، والدخول في الإسلام، أو هدم شيء من كنائسهم وأديرتهم، أو انتقضوا منها، وقد جاءت الجهود التي منحها القادة الفاتحين لأهل الذمة كافة لا تقتصر على تأمينهم على أنفسهم وأموالهم فقط، وإنما تشمل ديانتهم وعبادتهم أيضاً<sup>٢٨</sup>.  
نجح الأمويون في زعزعة الوحدة التاريخية القديمة للبحر المتوسط، وحولوه من بحيرة رومانية بيزنطية إلى بحيرة إسلامية، وبالتالي بدأ الناس في ممارسة طقوسهم الدينية خاصة، وقد بدت صورة بعض الكنائس في غزة وميماس على أرضية فسيفساء كنيسة الأكروبوليس، وهو مما يؤكد على سماحة الإسلام في العصر الأموي، يؤكد ذلك ما قاله القديس ويليبالد St. Willibald الذي زار غزة في أعوام ٧٢٣-٧٢٦ م، أي في ظل حكم الخليفة هشام بن عبد الملك قائلاً عنها: «إن النصرانيين ما زالوا يحتفظون ببيوتهم وأماكن عبادتهم وأنه سمع عن كنيسة القديس ماتياس Church of St. Mattias لكنه لم يذكر لنا متى بنيت هذه الكنيسة في غزة وأين تقع داخل المدينة»<sup>٢٩</sup>.

إضافة إلى ذلك نجد أن النصارى العرب في بلاد الشام قاطبة، ومنها كغزة لم يروا بعد في الإسلام خطراً روحياً عليهم، فالقديس يوحنا الدمشقي المتوفى عام ٧٥٠ م، كتب له دراساته، التي تعتبر وبحق من أبكر الدراسات النصرانية الشرقية عن الإسلام، وذلك الرجل حفيد منصور بن سرجون السابق الذكر، الذي عمل في عهد معاوية بن أبي سفيان كرئيس ديوان المالية فقد أجاد يوحنا اللغة العربية، واطلع على القرآن الكريم، والكثير من الأحاديث النبوية وتميز بمجادلاته مع الإسلام التي غالباً ما لبست طابعاً لاهوتياً صرفاً، وابتعدت عن الطابع السياسي، ويعود ذلك، وقبل كل شيء إلى أنه لم تحدث تحولات جماهيرية في عهد الخلفاء الأمويين<sup>٣٠</sup>.

وبالرغم من كل تلك الجهود والأعمال الحسنة التي قام بها الخلفاء الأمويين تجاه المسيحيين، إلا أن تاريخ الخلافة الأموية يذكر بعض الحوادث، التي لا تعتبر شائعة في المجتمع الأموي بل فردية نذكر منها:

عندما تسلم عبد الملك بن مروان الخلافة ٦٥هـ/٦٨٥ م، أراد أن يبني مسجداً في مكة، فقرر أن يأخذ لمشروعه هذا أعمدة كنيسة الجسمانية، فقام سرجوس محاسب فلسطين العام، وكان صديقاً لعبد الملك، بمساعدة رفيقة بطريكوس، وجماعة من أصحاب النفوذ من مسيحيي فلسطين، وتمكن بسلاح النفوذ والصلة من جعل الخليفة يعدل عن رغبته، حيث وعده أن يأتي له بالأعمدة المطلوبة من ملك يوستينيانوس ملك القسطنطينية، وكان له ذلك<sup>٣١</sup>.

تدل تلك الحادثة على محاولة الخليفة عبد الملك مضايقة الرعايا المسيحيين دينياً والاعتداء على الأماكن المقدسة، إضافة إلى استخدام المسيحيين نفوذهم لإبطال مشروع الخليفة الهادف إلى هدم إحدى مقدساتهم. ولكن الخليفة عبد الملك لم يتراجع عن مضايقة المسيحيين والاعتداء على كنائسهم، وقيل إنه دعا نصاري دمشق، وطلب منهم أن يتخلوا عن كنيسة مار يوحنا، وكانت بجانب المسجد الجامع، فأحضروا له كتاب خالد بن الوليد الذي يمنحهم التمسك بمقدساتهم، فعرض عليهم مالا كثيراً من أجل بناء كنيسة مثلها في أية ناحية يختارونها من نواحي دمشق، فأبوا العرض فتركهم<sup>٣٢</sup>.

على الرغم من إن الخليفة عبد الملك لم ينجح في اختراق نفوذ النصارى ليمس حقوقهم الدينية، ولكنه قلص

٢٧ الحمارنة، صالح: المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، ص ٥٥٧.

٢٨ دويدار، حسين: أهل الذمة في العصر الأموي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات، ١٩٩٢م، ص ١٧٦.

٢٩ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، غزة، فلسطين، ١٩٩٨م، ص ٢٠٧.

٣٠ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢٠٧-٢٠٨.

٣١ تابه، راشد: المسيحية في الشام في العصر الأموي، ص ١٩٠.

٣٢ المرجع السابق.



كثيراً من الحريات التي منحت لهم سابقاً، من أجل تعزيز وحدة الخلافة الإسلامية ومناعتها، ببيع الوليد بن عبد الملك عام ٧٠٥هـ/ ٧٠٥م، وبتسلمه دفة الخلافة برزت محاولة الإساءة إلى النصارى، حيث عمل على إقصائهم عن الجهاز الإداري تدريجياً، واستغنى نهائياً عن خدمات أسرة سرجون بن منصور، التي كانت تدير الشؤون المالية منذ عهد معاوية الأول، وقتل أمير تغلب عندما رفض اعتناق الإسلام، ولما شاد بيت المقدس، وجعل الصخرة الشريفة في وسطه، وبني حولها ورحمها، قلع قبة كنيسة بعلبك، وكانت من النحاس مطلية بالذهب، وأقامها على مسجد الصخرة<sup>٣٣</sup>.

ومن الحوادث التي وقعت زمن الخليفة سليمان بن عبد الملك ولى أخوه الوليد والياً على فلسطين، والذي جعل الرملة مركزه، ومن أعماله أنه أستولى على أعمدة الكنيسة المسيحية في اللد، واستعملها في بناء الجامع المشهور في الرملة، ومن الغريب في هذا الحادث أن الذي حرصه على هذا العمل كاتبه زياد المسيحي، وذلك انتقاماً من أهل اللد المسيحيين الذين أبوا أن يعطوه محلاً للسكنى قرب الكنيسة.

كما شهد زمن خلافة الوليد تمت معاملة المسيحيين في سوريا وفلسطين، بالقسوة لعدم تأييدهم العرب في الهجوم على القسطنطينية، ووضعت الجزية على الرهبان، وجعلت اللغة العربية اجبارية، وأسلم كثير من المسيحيين تخلصاً من العذاب.

نستطيع القول بأن: النصارى في فلسطين ومدنها قد تمتعوا خلال الخلافة الأموي بالعديد من المزايا والحقوق، التي من ضمنها حق ممارسة الشعائر الدينية بكل حرية دون تقييد أو عقوبة، وهذا إن دل يدل على سماحة الإسلام ومبادئه، التي قد سار على دربها الأمويون في خلافتهم وحكمهم للمسيحيين في فلسطين.

#### ب. الأوضاع الاقتصادية والإدارية للمسيحيين في العصر الأموي:

شارك أهل الذمة في الحياة الاقتصادية، ومارسوا كافة أعمالهم بحرية، وتمتعوا بحريتهم في ممارسة الأعمال والحرف المختلفة، فليس هناك مانع ما في التشريع الإسلامي يمنع أهل الذمة من احتراف، وممارسة المهن المختلفة، كالصرافة والصبغة، فضلاً عن ممارسة التطبيب والصيدلية<sup>٣٤</sup>، فقد كفل الإسلام لهم حرية العمل ومباشرة الأنشطة الاقتصادية، التي يرغبون فيها شريطة ألا تكون مخالفة للنظم والقوانين في الدولة الإسلامية الأموية، وقد اشتغل النصارى بالكثير من الحرف والصناعات التي تدر أرباحاً كالمنسوجات والملابس، والبسط، وصناعة العطور، والأسلحة والسفن، والصبغة والديباغة، إلى جانب ممارسة أنواع كثيرة من التجارات والصيرفة<sup>٣٥</sup>.

ومقارنة بأوضاع المسيحيين من أهل الذمة كان المسلمين يتوجب عليهم دفع الزكاة على حرفهم وتجارتهم وممتلكاتهم، لم يكن المسيحيين يدفعون إلا الجزية فقط، ولذلك الكثير منهم أغنياء وذوي الثروات، كما اشتغل الكثير منهم بفلاحة الأرض وخاصة في مصر وبلاد الشام، التي دفعوا عنها ضريبة الخراج<sup>٣٦</sup>.

ومن مظاهر التسامح والمساواة التي حظى النصارى فيها في فلسطين خلال الحكم الأموي، الاستعانة بالعمال والصناع من أهل الذمة في تشييد المساجد وتزيينها، ومن الأمثلة على ذلك ما فعله الخليفة الأموي عبد الملك في جامع دمشق، والمدينة، وبيت المقدس<sup>٣٧</sup>.

وهو ما يؤكد قول المستشرق لي سترانج أن: «معظم الحرفيين والصناع كانوا من غير العرب، من الموالي أو

٣٣ تابه، راشد: المسيحية في الشام في العصر الأموي، ص ١٩٠.

٣٤ بدوي، عبد المجيد: سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة في الشام والعراق في عهد الراشدين وبني أموية، ص ١٣١.

٣٥ دويدار، حسين: أهل الذمة في العصر الأموي، ص ١٧٢.

٣٦ المرجع السابق.

٣٧ المرجع السابق، ص ١٧٣.

من أهل الذمة، وأكثر الذين يتعاملون بالنقد كانوا من اليهود، ومعظم الأطباء والكتاب كانوا من النصارى»، وهذا يؤكد على احترام المسلمين لذوى الحرف سواء كانوا من المسلمين أو من غير المسلمين<sup>٣٨</sup>.

فقد اعتمد الخلفاء الأمويون الأوائل كمعاوية بن أبي سفيان وولده يزيد على نصارى الشام من كلب، وتغلب، وغسان، ولخم وغيرهم، بل النصارى من غير العرب أيضاً اعتماداً كبيراً وواضحاً، فقد توسع معاوية في الحاق المسيحيين بخدمته، وحذا حذوه من البيت الأموي المالك آخرون<sup>٣٩</sup>.

فقد عاش أهل الذمة في العصر الأموي، ينعمون بالتسامح مراعاة لحفظ الحقوق، وإقرار العدل بينهم، ويعترف ذلك بعض المستشرقين بذلك فيذكر رنسيان<sup>٤٠</sup> أن عهد الأمويين كان فترة رخاء لسورية، وأن الخلفاء اشتهروا بالكفاءة النادرة والتسامح الديني الشديد، وأنه قد دخل القدس مسيحيون يتحدثون اليونانية...« ويضيف «إن المسيحيين لم يكن لديهم ما يأسفون عليه نتيجة انتصار الإسلام، فعلى الرغم من المضايقات التي كانت تجري لفترة قصيرة من حين لآخر فقد أصابوا من الثراء ما يزيد على ما كانوا عليه أيام أباطرة المسيحيين، الذين كانوا مهرطقين ظالمين للأرثوذكسيين، ولذلك ازدادت سعادة المسيحيين الأتقياء في ظل الحكم الإسلامي<sup>٤١</sup>».

يمكن القول: أن المسيحيين في فلسطين قد شملهم التسامح الإسلامي، وحرص الأمراء الأمويين في التعامل مع أهل الذمة، فمارسوا كافة أنشطتهم، وحرفهم التجارية، والاقتصادية بحرية مقابل دفع الجزية، وما يوضح ذلك حالة الثراء التي تمتع به المسيحيين في فلسطين وبلاد الشام خلال الحكم الأموي.

#### ت. أوضاع المسيحيين الإدارية والتنظيمية في فلسطين:

فرض المسلمون على أهل الذمة ضريبة الجزية، وهي: مقدار من المال يؤخذ من غير المسلمين الذين قبلوا العيش في ظل الدولة الإسلامية، مقابل إعفائهم من الجهاد والزكاة وتقديم كافة الخدمات لهم كالتعليم والرعاية الصحية. ولا تؤخذ الجزية من الفقراء أو النساء والأطفال والشيوخ ولا أصحاب العاهات ولا الطاعنين في السن إلا إذا كانوا أغنياء، فالتشريع الإسلامي أقر الجزية حسب المقدرة، فالجزية المفروضة على الأغنياء مقدارها أربعة دنانير في السنة، وعلى الطبقة الوسطى ديناران ولا يدفع الفقراء أكثر من دينار واحد، وقد فرض يزيد بن أبي سفيان الجزية على أهل فلسطين أربعة دنانير، فما فعله يزيد بن سفيان تنفيذاً لكتاب ورد إليه من الخليفة عمر بن الخطاب، الذي فرض الجزية على أهل الشام أربع دنانير حسب رواية الصولي<sup>٤٢</sup>.

تلك المقادير لا تعني عدم الخروج عنها بعض الأحيان، فقد فرض أبو عبيدة الجراح الجزية على يهود السامرة خمسة دنانير، وأعفاهم من دفع الخراج على أرضهم مقابل تقديمهم بعض الخدمات للمسلمين بأن يكونوا عيوناً لهم على أعدائهم وأدلاء، وبقي الأمر كذلك إلى خلافة يزيد بن معاوية الذي أوقف اتفاق أبو عبيدة، وأمرهم بدفع الخراج إلى جانب الجزية. وحول الجزية التي فرضها العرب على الأمم يقول غوستاف لوبون، أنهم لم يأخذوا من الأمم المغلوبة إلا جزية زهيدة تقل عما كانت تدفعه لساداتها السابقين من الضرائب وذلك مقابل حمايتهم<sup>٤٣</sup>.

هكذا تميزت الجزية بالبساطة، فلم تكن ثابتة بأوامر صارمة دائمة، وإنما كانت مرنة تراعي ظروف الناس الحياتية، وإمكاناتهم المادية، فما دفعه أهل الذمة للمسلمين يقل بكثير عما دفعوه من ضرائب للروم، فالجزية كانت على

٣٨ البدر، سليمان: فلسطين في العهد الأموي (الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية)، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٤م، ص ١٠٩.

٣٩ الحمارنة، صالح: المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، ص ٥٥٦.

٤٠ رنسيان، ستيفن: الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج ١، ١٩٨١م، ص ٤٤.

٤١ المرجع السابق، ص ١٦٤.

٤٢ دويدار، حسين: أهل الذمة في العصر الأموي، ص ١٦٥.



الرجال دون النساء والأطفال وكبار السن وعلى القادرين دون العجزة، وعلى الأغنياء دون الفقراء، وعلى المدنيين دون رجال الدين.<sup>٤٣</sup>

فليس على عبد جزية على ما يقول الصولي، ومن صور المرونة التي أبدتها الأمويون تجاه السكان في جباية أموال الجزية، أنها كانت تؤخذ من صاحب المال مالاً ومن صاحب الثياب ثياباً ومن صاحب البربرا ومن صاحب الحبال حبالاً. خلف الوليد بن عبد الملك أخاه سليمان سنة ٧١٥هـ/٧١٥م، واتخذ مقره الرملة بفلسطين حيث كان يعيش فيها قبل أن يولي أمر المسلمين، وحين اكتسب محبة العرب وولاءهم، وكان في مدة حكمه جابي الأموال رجل قاس اسمه عصام بن يزيد، لقد أوقع عصام هذا الفطائع بالمسيحيين ما يفوق الوصف لتحصيل الأموال منهم، واستنكف من تقييد أسمائهم في دفاتر الجباية، وكان يحمي الحديد، ويرسم به على أيديهم اشارات معلومة تدل على المبالغ المطلوبة منهم، وكان يقبض على من لم يكن متسماً بهذه العلامات فتقطع يده أولاً ثم يقطع راسه، وقد دفعت هذه المعاملة الشعب إلى الهياج، وكادت تقوم ضده ثورة.<sup>٤٤</sup>

ولما أخذ سليمان في إنشاء مدينة الرملة أثناء ولايته على فلسطين في خلافة أخيه الوليد أسند أمر الإنفاق على مرافقها من شق القنوات، وحفر الآبار، وبناء المسجد الجامع بها إلى كاتب نصراني من أهل فلسطين يدعى بطريق الفكاه.<sup>٤٥</sup> كما ويذكر الجهشتاري أن أحد المواطنين من أهل الزمة النصارى ويدعى ابن بطريق، هو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك ببناء الرملة.<sup>٤٦</sup>

استناداً لما سبق: نستطيع القول بأن الأوضاع الإدارية والتنظيمية لمسيحيين فلسطين خلال الحكم الأموي، اتسم بالتسامح والأخوة والتعاون، هو ذاته المنطق في كافة الأمصار العربية فقد تمتع مسيحيو فلسطين بذات المعاملة من حيث التنظيم والإدارة و الأمور شبه محددة وواضحة لأهل الزمة بشكل كامل.

### المحور الثاني: أوضاع المسيحية في فلسطين خلال العصر العباسي (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٥٠-١٢٥٨م)

شهد القرن الثامن الميلادي إعلان الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي، وقيام الدولة الكارولنجية في فرنسا، وتخلله توطيد العلاقات السياسية بين الكارولنجيين والعباسيين، ونمت العلاقات الثقافية والحضارية والتجارية بين الطرفين، وتلقي المصادر التاريخية أضواء على العلاقات في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، والامبراطور الفرنجي شارلمان حتى ذكر بعضها أن الرشيد أعطى شارلمان حق الإشراف على بيت المقدس وحمايتها، مقابل أن يحاول شارلمان الاستيلاء على الأندلس باسم العباسيين، وعلى الرغم من اتفاق المؤرخين على أسطورية هذه الروايات المفعمة بالخيال والغموض، إلا أنها تؤكد في جانب من جوانبها على تقارب الشرق الإسلامي مع الغرب المسيحي في تلك الفترة ولو جزئياً، كما تظهر في ذات الوقت مدى الاهتمام والرعاية الكبيرة من جميع الأطراف تجاه مدينة القدس؛ باعتبارها المدينة المقدسة للمسلمين والمسيحيين.<sup>٤٧</sup>

سكن النصارى في ظل الخلافة العباسية في فلسطين في أماكن محددة، فتحدثت المصادر عن أن مدينة القدس من المدن التي شهدت اكتظاظاً بالنصارى، حيث قيل أنها كانت قليلة العلماء كثيرة النصارى في العصر العباسي، كما كثر الرهبان في جبال الجليل، وفي بيت لحم التي شهدت مولد السيد المسيح، فأغلب سكانها كانوا من النصارى، وبيت جالا

٤٣ عطا، زبيدة: عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٦٩.

٤٤ تايه، راشد: المسيحية في الشام في العصر الأموي، ص ١٩١.

٤٥ بدوي، عبد المجيد: سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل الزمة في الشام والعراق في عهد الراشدين وبنو أموية، ص ١٣٠.

٤٦ البدور، سليمان: فلسطين في العهد الأموي (الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية)، ص ١١٣.

٤٧ الشرعة، عودة: الحج المسيحي من البلقان إلى فلسطين في العصر الوسيط: البعد السياسي والبعد الثقافي، ص ٤٦.

أصحاب من الزنار الذين يزرعون الكرمة، وقرية شرافات قرب بيت المقدس أهلها كلهم نصارى ليس فيها مسلم، وحرقة أهل القرية عصر العنب وبيعه<sup>٤٨</sup>.

ومن صور التعايش في العهد العباسي، ارتفاع شأن عدد من النصارى عند الخلفاء، فمن هؤلاء جرجيس بن بختيشوع، الذي كان أحد أطباء الخليفة المنصور، فأمر الخليفة بأن يجاب إلى كل ما سأل بعد أن نجح في علاجه من مرض ألم به. وقد كانت له زوجة كبيرة ضعيفة، فأرسل له المنصور ثلاث جوارى لخدمته مع ثلاثة آلاف دينار، فلم يقبل الجوارى؛ لأن دينه لا يجيز له الزواج بأكثر من واحدة، فعظمت مكانته عند الخليفة المنصور<sup>٤٩</sup>.

#### أ. الأوضاع الدينية للمسيحيين في العصر العباسي:

وضع المسلمون منذ بداية العصر العباسي، للنصارى شروطهم للصلح نصت على ألا يتحدثوا من الكنائس شيئاً، ولا يجددوا ما خرب منها، وأن لا تهدم بيعهم ولا كنائسهم داخل المدن، ولا خارجها التي صولحوا عليها، وكذلك بيوت النار، وأن كل ما يحدث من بناء أو بيعة أو كنيسة فإن يهدم، وإن حاول بعض الحكام هدم بعض البيع أو الكنائس لسبب أو لآخر فإن سكانها كانوا يحتجون بالعهود التي حصلوا عليها خلال الفتح الإسلامي، فيرجع أولئك عن رأيهم لأن الصلح والعهد نافذان إلى يوم القيامة<sup>٥٠</sup>.

إذ تعد شروط عهود الصلح هي الفيصل في الأمصار، التي فتحتها المسلمون ووجب عليهم الوفاء بعهودهم، وألا يعتدى عليهم بالهدم أو الخراب، ولا يحق لأهل الذمة أن يبنوا في الأماكن التي مصرها المسلمون دوراً جديداً لعباداتهم، حيث سئل ابن عباس رضي الله عنه عن جواز انشاء الكنائس والبيع في أمصار المسلمين فقال: «أما مصر مصرته العرب فليس لهم أن يحدثوا فيه بناء بيعة، ولا كنيسة وكل مصر كانت عجم مصرته، ففتحها الله على العرب، فنزلوا على حكمهم فللعجم ما في عهدهم على العرب أن يعرفوا ذلك»<sup>٥١</sup>.

على الرغم من وضوح النصوص، وشروط عهود الصلح بين المسلمين، وأهل الذمة، إلا أنه بقي بناء الكنائس في العصر العباسي بحرية تامة، وكانت تجدد وتشيّد بمواقفه السلطة وأصحاب الأمر والنهي، وكثيراً ما كان القضاة يقفون إلى جانب أهل الذمة في انصافهم، وإعادة الحق إليهم، فقد رفع النصارى دمشق كتاباً إلى الأمير محمد بن إبراهيم بن محمد العباسي، يقولون فيه أن شجاراً وقع بينهم وبين رئيسهم في دينهم وجماعتهم من أهل القرى، وعتاقه العرب والغرباء، وأنهم غلبوهم على كنائسهم، وسألوه النصفة لهم منهم، والوفاء لهم بما عهدهم وكتابهم الذي كتبه خالد بن الوليد عند فتح مدينتهم، واجتمعوا عنده وتناصبوا الخصومة بين يده فأحال الأمر للأمير يحيى بن حمزة القاضي للنظر في أمرهم<sup>٥٢</sup>.

بقي الخلفاء العباسيين على تسامحهم مع المسيحيين، ومساعدتهم في ترميم كنائسهم، ودور عباداتهم ففي عهد الخليفة المأمون عام ٢٠٤هـ، رمت قبة كنيسة القيامة بالقدس بعد أن اعتلت وكادت أن تسقط، فقد وقع في فلسطين وبيت المقدس جوع شديد، وجراد كثير؛ وأدى ذلك لوفاة الناس من الجوع، وهرب المسلمون من بيت المقدس، ولم يتبق فيها من المسلمين إلا نفر يسير، فاستغل البطريرك توماس الأول بطريرك القدس، ويسمى ابن البطريق (تمريق) ١٩٢-٢٠٥هـ خلو المدينة من سكانه، وتوجه إلى قبرص، وأحضر أخشاب الأرز، والصنوبر وحملها لبيت المقدس؛ لترميم قبة كنيسة

٤٨ حجازي، فائزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٠م، ص ١٠٩.

٤٩ الزعيم، إبراهيم: التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين في بيت المقدس ما بين ١٨٩٧-١٩٩٤م، إصدارات دار إي- كنب، لندن، ٢٠١٩م، ص ٤٤.

٥٠ أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م): الخراج، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ص ١٢٧-١٣٨.

٥١ أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م): الخراج، ص ١٤٩.

٥٢ حجازي، فائزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٩٦.

القيامة، كما تبرع رجل من أغنياء بورة في مصر<sup>٥٣</sup>، بتقديم ما يلزم من مال في سبيل اصلاح القبة، وكان توما البطريك يهدم من القبة شيئاً ويدخل جذوع الأشجار ويبني فوقها فأدخل في القبة أربعين جذعاً، ولما تم له إصلاح القبة بالجذوع بنى فوق القبة الخشبية قبة أخرى بينها قدر ما يمشي فيه إنسان وحرص فوقها بالحرص<sup>٥٤</sup>.

وحينما رجع عبد الله بن ظاهر، من مصر قابله مسلمو بيت المقدس، وشكوا له مجاوزة النصارى حدهم، واقترافهم ما هو محرم عليهم، فأقر ابن طاهر بسجن البطريك، وبعض رفاقه حتى تتضح الحقيقة فجاء أحد المسلمين إلى المحبوسين، «قال للبطريك أنا أعلمك حجة تتخلص منها أنت وأصحابك إلى الأبد علي أن تعطيني ألف دينار، وتجري علي وعلى ذريتي أرزاقاً مدى الحياة فوعده البطريك، وأكد علي ذلك بخط يده، فقال له: إذا أحضروك وشهدوا عليك فقل لهم إنما رمت موضع القبة، ولم أهدم شيئاً ولا زدت، وليسأل الأمير هؤلاء كم كان سمك القبة الصغيرة، التي هدمتها كما زعموا، وكم هو سمك القبة التي بنيتها، ففعل البطريك ذلك عندما أحضر للشهادة، وعجز مناهضوه عن الإجابة فأطلق الأمير سراحه وسراح رفاقه، ودفع البطريك للشيخ المسلم ألف دينار، ولم يزل يجري عليه الأرزاق، وعلى ولده من بعده حتى لم يبق منهم أحداً»<sup>٥٥</sup>.

أما في عهد الخليفة المنتصر ٢٤٧-٢٤٨هـ، وفي أثناء إقامة أحمد ابن المدبر فلسطين وكان الخليفة المتوكل قد أرسله للشام للتعديل فأذاق أهلها صعوبات وبلايا، واعتدى على الكنائس والأديرة، وفي خلافة المستعين ٢٤٨-٢٥٢هـ، وبعد عزل ابن المدبر سمح للنصارى بأن يبنوا البيع، وأثبت لهم ذلك في السجل الرسمي، وعندما تولى الخليفة المعتز الحكم ٢٥٢-٢٥٥هـ، أظهر النصارى السجل الذي كتبه لهم المستعين فأمر الخليفة أن يكشف عليه في الديوان فكشف وأحضره إليه، وسمح بإتمامه، وأمر أن يعاد إليهم جميع ما كان قد اغتصب من البيع والديارات من آنية وغيرها، وظهرت الرهبان وعمرؤا بيعهم ودياراتهم في مصر والشام<sup>٥٦</sup>.

ثار المسلمون في الرملة في عام ٣١١هـ، وهدموا كنيستين للملكيين كنيسة مارقزماس وكنيسة ماركورقس كما هدموا كنيسة عسقلان وقيسارية فرفع النصارى ذلك إلى الخليفة المقتدر ٢٩٥-٣٢٠هـ فأمرهم أن يبنوا ما تهدم لهم<sup>٥٧</sup>، بينما شهد سنة ٣٥٦-٩٦٦م حالات ترميم للكنائس المسيحية في فلسطين، فقد رمت كنيسة القيامة وشرع في عماراتها بأمر من كافور الاخشيدي بعد أن خربت نتيجة الاضطرابات التي قامت في القدس<sup>٥٨</sup>.

نرى من خلال ذلك أن سماحة المسلمين مع أهل الذمة، وخاصة النصارى في فلسطين خلال العصر العباسي لها أوجه متعددة، وخاصة في الناحية الدينية فقد تمتع النصارى بممارسة شعائهم الدينية، دون معارضة تذكر على القيام بالصلاة وغيرها، ولكن يمكننا القول بأن العباسيين كانوا متشددين إلى حد ما في بعض النقاط الدينية رغم العلاقات التي جمعت العباسيين بالمسيحيين، ومنها التشديدات في بناء الكنائس، وذلك أمر وارد في كل خلافة وعصر تبعاً لطبيعة الولاة والخلفاء في المنطقة.

٥٣ المرجع السابق، ص ١٠١.

٥٤ ابن البطريق، سعيد (ت ٣٢٨/٩٤٠م): كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م، ص ٥٥-٥٦.

٥٥ ابن البطريق، سعيد (ت ٣٢٨/٩٤٠م): كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص ٥٦-٥٧.

٥٦ ابن المقفع، سايروس (ت ٤٤هـ/ ١٠م) تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروفة بسيرة البيعة المقدسة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، القاهرة، مصر، مج ٢، ج ١، ١٩٤٣م، ص ٢٤.

٥٧ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٠٢.

٥٨ ابن البطريق، سعيد (ت ٣٢٨/٩٤٠م): كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، ص ٨٢.

٥٩ الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٧م): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخا، تحقيق عمر عبد السلام تجمري، طرابلس، جروسي برس، ١٩٩٠م.

ب. الأوضاع المالية للمسيحيين في زمن العباسيين:

أقرت الخلافة العباسية لبلاد الشام، وغيرها من البقاع التابعة للدولة الإسلامية، عدداً من الالتزامات المالية التي حددها الإسلام أولاً في تعامله مع غير المسلمين من أهل الذمة، فقد اتبع خلفاء الدولة العباسية سياسة مالية وفقاً للالتزامات الشريعة الإسلامية، تمثلت في:

#### ١. الجزية:

سادت جباية الضرائب في بلاد الشام في العصر العباسي على سنة عمر بن الخطاب، وقد أولى هارون الرشيد ١٧٠-١٩٣هـ/٧٨٦-٨٠٨م، مسألة تنظيم الضرائب عناية خاصة، وأوكل إلى أبي يوسف القاضي القضاة أن يضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج، والعشور والصدقات، وغير ذلك من الأمور الواجب النظر فيها، والعمل بها لإصلاح أمر الرعية، ورفع الظلم عنها، فوضع له كتاباً في الخراج واحكامه<sup>٦٠</sup>.

دفعت الجزية في العصر العباسي على قدر دخل الفرد وكسبه، وكان يدفعها الرجل القادر على العمل والكسب كما كان يسمح بدفع الجزية عيناً، كما كان يعفى من الجزية الشيوخ والأطفال، والنساء، والعجزة، ورجال الدين المساكين، الذين ليسوا من أهل اليسار، وإذا أسلم الذي بعد خروج السنة، وجبت عليه الجزية، وإن أسلم قبل تمام السنة بيوم أو يومين أو شهر أو شهرين أو أكثر أو أقل لم يؤخذ بشيء من الجزية، وإذا مات الذي قبل أن تؤخذ منه لم يؤخذ بذلك ورثته ولم تؤخذ من تركته<sup>٦١</sup>.

أما مسألة ختم رقاب أهل الذمة فقد أشار إليها أبو يوسف بقوله «ينبغي أن تختم رقابهم في وقت جباية جزية رؤوسهم حتى يفرغ من عرضهم ثم تكسر الخواتيم كما فعل عثمان بن حنيف حينما سأله كسرهما<sup>٦٢</sup>»، وعلق آدم متر على ما يعييه بعض المستشرقين على المسلمين من أنهم كانوا يختمون على رقاب أهل الذمة عند دفع الجزية فيقول، «يظهر أن هذا الأمر نادراً ما كان يقع، وهذه العادة قديمة ترجع إلى عصر الآشوريين الذين كانوا يعلقون في رقاب العبيد قطعة من القماش اسطوانية مكتوبة عليها اسم العبد وسيدته، كما أن اليهود في عهد التلمود كانوا يعملون عبيدهم بالختم على الرقبة والثوب<sup>٦٣</sup>».

وذكر ثيوفانس بأن المنصور عند زيارته القدس سنة ١٥٥ هـ/ ٧٧٢م أمر اليهود والنصارى بكتابة أسمائهم وشماً على أيديهم لأغراض الجزية، فهاجر عدد من النصارى عن طريق البحر إلى رومانيا<sup>٦٤</sup>.

كان هذا الأسلوب في احصاء أهل الذمة يدفع بهم إلى هجران مناطقهم، ولهذا بادرت الدولة إلى ارجاع «كل هارب إلى قريته، وكان العمال بعد الوشم إن قبضوا عليه وقد ترك قريته، يذيقونه من العذاب ويغرمونه مالا كثيراً، ويغرمون من أواه في داره أو قريته وقبض على رؤسائهم وكبدوهم عذاباً شديداً دون رأفة، وعين المشرف على أمور الجلاء رجلاً فارسياً اسمه كليل بن زادن، وكان عندما يؤتى إليه بأحدهم يخلق رأسه ولحيته ويضع على رأسه طوقاً من عجين ويقعده بالشمس ويسكب فوق رأسه زيتاً فيسيل الزيت شيئاً فشيئاً على عينيه<sup>٦٥</sup>».

أوصى الفقهاء الخلفاء بالرفق بأهل الذمة وعدم ايدائهم عند الجباية الأموال منهم، ولا يضرب أحد من أهل الذمة

٦٠ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٤٨.

٦١ المرجع السابق، ص ٤٩.

٦٢ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٥٠.

٦٣ متر، آدم: الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، مكتبة الخابخي، القاهرة، ط ٤، مج ١، ١٩٦٧م، ص ٥٢.

٦٤ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٥٢.

٦٥ المرجع السابق، ص ٥٣.



في استيادتهم الجزية، ولا يقاموا في الشمس، ولا غيرها، ولا يحصل عليهم في ابدانهم شيء من المكاره، ولكن يرفق بهم ويجبسون حتى يؤدوا ما عليهم ولا يخرجوا من الحبس حتى تستوفي منهم الجزية<sup>٦٦</sup>.

## ٢. الخراج:

تعد ضريبة الخراج أثقل الضرائب الزراعية على الفلاحين من العرب وأهل النمة، وكثيراً ما قامت الثورات نتيجة تعدي عمال الخراج، ويبدو أنه كان لدى المنصور توجه واضح منذ البداية إلى منع التجاوزات على حقوق بيت المال، وتثبيت وضع الأراضي الخراجية، كما أرادها عمر بن عبد العزيز والتمييز بين أرض الخراج وأرض العشر، وعليه فقد أرسل المعدلين إلى كور الشام سنة ١٤٠-١٤١هـ/ ٧٥٧-٧٥٨م، لتعديل الأثرية، التي تمت في عهد عبد الملك والوليد وسليمان، والتي أصبحت تؤدي العشر ولا جزية عليها<sup>٦٧</sup>.

أجرى المنصور تعديلات على دفع الجزية على أساس كل ثلاثين مداً (المد الشرعي في فجر الاسلام كان يساوي ٤/١ صاع ويساوي ٨١٢,٥ غم<sup>٦٨</sup>، بدينار، وكان أداء الناس على ذلك ثم قال بعض الولاة نجعل على الدينار نصف دينار للكتب والرسل، ثم قال غير بعده وطبق ذلك في الغوطة، حيث كانت الدولة تفضل أن تتقاضى الخراج والجزية والعشر نقداً لا عيناً، وذلك ما كان يسبب للمزارعين ارهاقاً كونهم لم يكونوا يملك النقد، وقلة النقد المتداول بين الناس<sup>٦٩</sup>.

ويشير التلمحري إلى اجراءات التعديل أيضاً في مدن الجزيرة الفراتية ومدينة القدس ١٤٤ هـ، وما رافقها من تعسف العمال بقول» لم يكن نيته المنصور من وراء هذا التعديل إنصاف الناس أو إقرار السلام، بل كان يسعى إلى اخضاع أكبر عدد ممكن من السكان الجزية، وإرهاق الأرض بمزيد من الخراج «ولعل ذلك راجع إلى استغلال عمال الجباية لوظائفهم فيما بعد ومبالغتهم في التقدير<sup>٧٠</sup>.

لخص المنبجي ما حدث في الجزيرة وفلسطين أيام المنصور:» ثم أن المنصور مضى بجيوشه كلها وسار إلى الجزيرة، وأقام أياماً ثم عبر الفرات، وسار إلى فلسطين فعسف الناس جميعاً في الجزيرة والشام، وألزمهم نواب وكلفاً لم يتقدمه فيها أحد من الملوك وضيق عليهم تضييقاً شديداً، حتى لم يبق انسان من صانع، ولا طواف ولا حمال ولا حفار القبور، ولا فلاح ولا متصدق، ولا صنف من صنوف الناس حتى ألزمهم الخراج وأخذ أموالهم، واشتد بالناس البلاء وفنيت الدراهم من أيدي الناس، ولحقهم من البلاء ما لا يوصف، وبينما هم في هذا الجهد إذ توفي المنصور بعد أن ملك إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر ونصف<sup>٧١</sup>.

علاوة على ذلك فقد أشر ثيوفانس إلى ذلك بقوله عام ١٥٦هـ: «سار المنصور إلى القدس بعد انتهاء شهر الصيام، وختم على أيدي النصارى واليهود من أجل أغراض الضرائب، وهاجر عدد كبير من النصارى إلى رومانيا عن طريق البحر من جراء هذه الإجراءات»، ويبدو أن الجور والعسف الذي لحق بالفلاحين كان وليد جشع الولاة وعمال الخراج، وليس كما وصفت المصادر المسيحية الخليفة المنصور، إذ يشيد معظم المؤرخين المسلمين بحسن سياسة المنصور، وعدله فعندما توالى الضائقة بأهل الجزيرة سنتين متتاليتين، أرسل أبو جعفر مولى له اسمه رزين لاستطلاع الأحوال، وحين اكتشف رزين مساوئ كثيرة للأوضاع الخراجية، أدرك أن الفساد لم يكن مقصوراً على عمال الخراج بل أن بعض الأغنياء

٦٦ أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م): الخراج ، ص ١٢٣

٦٧ البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي(ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م): تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج ١٠، د.ت، ص ١٩٦.

٦٨ حجازي، فايزة : أهل النمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٥٧.

٦٩ ابن عساکر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله(ت ٤٩٩هـ / ٥٧١م): تاريخ دمشق ، دار الفكر، ج ٢، ١٩٩٥ م ، ص ٢٩٩-٣٠٠.

٧٠ التلمحري، ديونيسيوس (ت ٢٣١هـ / ٨٤٥م): التاريخ المنحول، ترجمة: يوسف بن اسحق، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م، ص ١٨٠.

٧١ المنبجي، أغابوس بن قسطنطين(ت ٤٤هـ / ١٠م): المنتخب من تاريخ المنبجي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار المنصور، طرابلس، ١٩٨٦م، ص ١٣٠.



يستفيدون من تردي الأحوال، وأشاروا على رزين بدفع الأموال له وغض الطرف عنهم في الجزيرة<sup>٧٢</sup>. أما في فلسطين فهو خير دليل على سياسة المنصور في مراقبة الولاة والعمال، وإن كانوا من أهل بيته، وهذا المثل متصل بفلسطين أيام، وإليها عبد الوهاب بن إبراهيم، وكان عسف بأهلها، وكان إبراهيم بن أبي عبلة كاتب هشام مقيماً بها فاستحضره المنصور فلما وصل إليه قال له:

ابن أبي عبلة ما وراءك؟ فقال: يا أمير المؤمنين قد قرأت عهود الخلفاء الذين ولد عبد الملك إليك، فما سمعت عهداً قط أجمع من عهد قرأه علينا عبد الوهاب منك، ثم عهد إلى جميع ما أمرته به فاجتنبه، وما نهيته من شيء فارتكبه، وكان ابن مجير من أهل فلسطين قد حضر مع ابن عبلة، ورحل إلى المنصور فقال ما رأيك يا ابن مجير؟ فأخرج له طائراً من كمة قد نتفه حتى لم يبق عليه ريشة واحدة، فقال له فارقت البلد يا أمير المؤمنين، وقد نتفه ابن اخيك حتى تركه كما تركت هذا الطائر، فأظهر الخليفة إنكاراً شديداً وعزله، كما اعتمد المنصور في تقدير الضرائب في الشام والجزيرة على القضاة، وذلك لغايات الدقة والعدل<sup>٧٣</sup>.

وواجه الرشيد في بداية خلافته أن جلا بعض الناس عن أراضيهم في فلسطين، ويبدو أن ذلك كان ناشئاً عن ثقل الضرائب فوجه الرشيد هرثمة بن أعين، لعمارة تلك الأرض المهجورة فدعا قوماً من مزارعيها وأكرتها إلى الرجوع، ووعدهم بتخفيف الخراج عنهم، ولين معاملتهم فعادوا إلى أراضيهم وسموا أصحاب التخفيف، وهناك فريق آخر من الفلاحين أن يعودوا إلى فلاحه أرضهم دون شروط على أن يدفعوا عنها قيمة الخراج السابق فأذن لهم بذلك وردت اليهم أرضهم فأصبحوا يسموا أصحاب الردود<sup>٧٤</sup>.

ومن الثورات التي اندلعت بلاد الشام بسبب استمرار العمال في الإساءة إلى الأهالي ففي ٢٤٠هـ، ثار أهل حمص على عامل المعونة فأخرجوه وصاحب الخراج في مدينتهم، وبعد القضاء على الثورة بدأت الدولة اجراءات التعديل في الشام، وحول أسباب الثورة ذكر أن الخليفة المتوكل أخرج أحمد ابن المدبر<sup>٧٥</sup> إلى بلاد الشام، وأقام في فلسطين، وأذاق أهل تلك البلاد صعوبة وبلايا وطالب الرهبان بالجزية والخراج، ومسح أراضيها، كما أشار ابن عساكر «أن المتوكل أرسل أحمد بن محمد المدبر الكاتب إلى دمشق وغيرها سنة ٢٤١هـ لمساحة الأراضي فيها»... حيث جمع ابن المدبر المشيخة العارفين بشؤون الأرض تاريخياً واحكامها فقهيًا<sup>٧٦</sup>، وبعد انتهاء المسح تظلم أصحاب الأرض، مما أجراه ابن المدبر الذين قدموا شكوهم للخليفة المتوكل الذي طلبه إلى جامع دمشق للنظر فيما يتظلم منه الناس، حيث أسقطت عن بعضهم الخراج<sup>٧٧</sup>، ومن ثم تلاشت بالتدريج طرق الجباية بواسطة موظفين خاصين وخلفها طريقة الضمان، فقد عقد أبو المسك كافور لمن يضمن أجناد فلسطين، والأردن، ودمشق في السنوات ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩، فيقول ابن حوقل «وقد عقدت على خزرون فلسطين والأردن، وكذلك جند دمشق عقد على خزرون، وعلي بن الحسن علي بن محمد، وعلي بن مالك، فكانت تكون في يد كل واحد منهم سنين بمجمائة ألف دينار»، كما ذكر أن الجزيرة الفراتية كانت تتضمن إلى سنة ٣٣٠هـ بمائة ألف دينار<sup>٧٨</sup>. كما أن بعض الولاة يدفع مبلغ الضمان في السنة الأولى مقدماً عند اصدار تعيينه ثم يوالي ارسال المبلغ الذي

٧٢ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٦١.

٧٣ التلمحري، ديونيسيوس (ت ٨٤٥م): التاريخ المنحول، ص ٢٣٤.

٧٤ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٦٣.

٧٥ أحمد ابن المدبر: هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبدالله الكاتب، تقلد ديوان الخراج والضياع مجموعين للخليفة المتوكل وتملاً عليه الكتاب، فأخرجه الخليفة للشام للتعديل سنة ٢٤١هـ/٨٥٥م، فكسب مالاً كثيراً ثم حسبه أحمد بن طولون ومات في الحبس. التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م):

الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود التالجي، دار صادر، بيروت، لبنان، ج ١، ١٩٧٨م، ص ٢٤٧.

٧٦ ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٤٩٩هـ/٥٧١م): تاريخ دمشق، ج ٥، ص ٣٩٠.

٧٧ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٦٨.

٧٨ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م): صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص ١٩٣.

قو طع عليه سنوياً عن ولايته، ولم يكن هناك محاسبة للأسلوب الذي يتبعونه في الحماية أو المبالغ الإضافية التي يجبرونها، طالما أنهم يقدمون له مبلغاً من المال على سبيل القرض أولاً ثم بقية المبلغ المقرر عليهم<sup>٧٩</sup>.

فخلال العهد العباسي أصبح الخراج قضية يحاول المنظرون اقتراح الحلول لها، ووضع مرجع مكتوب لتفسير مقادير الخراج ليكون مرجعاً للحياة. مع ملاحظة أن الخزينة بيت المال كانت دائماً تتعرض لمصاعب جادة، ومن ذلك عدم التطابق بين التقويم السنة الهلالية، وتقويم السنة الشمسية الوحيد المأخوذ به في الزراعة، فالجزية ظلت تجبي حسب التقويم في حين أن كل ما له صلة بالأرض ارتبط بالتقويم الشمسي، وهو أيضاً عرضة للخلل، فقد وصل للمتوكل «أن هذا قد أضر بالناس فهم يقترضون ويتسلفون وينجلون عن أوطانهم وكثرت شكاياتهم وظلمهم»<sup>٨٠</sup>.

### ت. الأوضاع الاقتصادية للمسيحيين في العصر العباسي:

مارس أهل الذمة في بلاد الشام المجالات الاقتصادية كافة، ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يمنعهم من ممارسة أي عمل يريدونه سوى أنهم منعوا من بيع الخمر والخنزير في أسواق المسلمين، أو ادخالها أمصارهم على وجه الشهرة والظهور، وإن كان لهم بيعها في أمصارهم وقراهم أو في موضع ليس من أمصار المسلمين، ولو كان فيه مسلمون<sup>٨١</sup>، ومارسوا النشاطات الاقتصادية الزراعية والتجارية والحرفية. وكانت لهم غلبة على المناطق الريفية فقد أشار الرحالة الجغرافيون إلى كثرة الأراضي الزراعية والبساتين، التي كانت في حوزة الكنائس والأديرة ومن أمثلة ذلك في بلاد الشام، دير الطور أو التجلي وهو بين طبرية واللجون مشرف على الغور ومرج اللجون وفيه عين ماء تنبع بماء غزير كثير... وحوله كروم يعترضونها والشراب عندهم كثير<sup>٨٢</sup>.

وفي مدينة الخليل كروم محيطة بها من كل اتجاه وفيها أنواع الفواكه وأعظمها العنب، وسمي جبل القدس وهو زيتا بجبل الخمر؛ لكثرة ما يزرع فيها من الكروم، واشتد إعجاب المقدسي بأعناب القدس فقال: عنبها خثير وليس لمعتقتها نظير<sup>٨٣</sup>. وبالقرب من الرملة قرية شهيرة تسمى قرى العنب، والفرازية قرية كبيرة باللجون وبها معدن الأعناب والكروم، وبيت جالا أهلها من أصحاب الزنار يزرعون الكرمة<sup>٨٤</sup>، فغزة بساحلها البساتين الكثيرة وأجمل فاكهتها العنب والتين<sup>٨٥</sup>، وقد حرص الرهبان على زراعة الكروم في بساتين أديرتهم، فلا يكاد بستان دير من أديرة النصارى يخلو من أشجار الكروم<sup>٨٥</sup>، وذلك لسد حاجاتهم منه سواء للأكل أو تصنيعه خمرًا أو زبيبا<sup>٨٦</sup>.

كما اهتم النصارى بزراعة اشجار الزيتون لما فيها من فائدة وخير كثير اذ شجع قسطنطوس المزارعين على زراعة الزيتون، والعناية به، وحرص أهل الذمة على زراعته في أراضيهم فعلى سبيل المثال اشتهرت مدينة نابلس بكثرة الزيتون، وكانوا يسمونها دمشق الصغرى، وبيت لحم كانت كثيفة الأشجار من الزيتون والتين والعنب والجميز<sup>٨٧</sup>.

٧٩ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م): صورة الأرض، ص ١٦٠.

٨٠ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٧٠.

٨١ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٧٧.

٨٢ الحموي، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ/١٢٤٣م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج ٢، ١٩٩٣م، ص ٥١٩.

٨٣ المقدسي، محمد بن أحمد أبي بكر البشاري (ت ٣٠٨هـ/١٠٣٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩١م، ص ١٦٨.

٨٤ المقدسي، محمد بن أحمد أبي بكر البشاري (ت ٣٠٨هـ/١٠٣٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٦٣.

٨٥ الحموي، ياقوت بن عبدالله: معجم البلدان، ج ٣، ٤٣٨.

٨٦ الزيات، حبيب: الديارات النصرانية في الإسلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م، ص ٣٢٠.

٨٧ البعلبكي، قسطنطوس بن لوقا: الفلاحة الرومية، تحقيق: وائل عبد الرحيم اعبيد، دار البشير للثقافة والعلوم، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٠م، ص ٩٩، ابن تيمية،

أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني (ت ٤٠١هـ/١٠١٠م): الفلاحة النبطية ابن وحشية، تحقيق: توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ج ١،

كما اهتم أهل الذمة بزراعة قصب السكر في أراضيهم حيث كثرت زراعته في المناطق التي يقيم فيها النصارى، فكثرت زراعته في طبريا حسب المقدسي، حيث أشار أنهم عراة من شد الحر يمضون القصب السكر، واشتهرت زراعته في أريحا أيضاً، وفي المناطق الممتدة من بحيرة طبريا شمالاً إلى البحر الميت جنوباً، كما اهتم الرهبان بزراعة الورد والرياحين في الأديرة في بيت المقدس<sup>٨٨</sup>.

كما عانى الفلاحون في بلاد الشام من مسلمين وأهل ذمة، النزاعات القبلية المستمرة والاعتداء على قرى الأطراف المتنازعة، مما كان يؤثر سلباً على حياة الفلاح وعلى الزراعة، كثرة أبي الهيثام عامر بن عمارة بن حزيم المري في غوطة دمشق، إذ امتدت تلك الثورة إلى فلسطين، وقد عانى منها النصارى في القدس، وبيت لحم، وغزة، وعسقلان، وبيت كفرين من اعتداءات الجنود على ممتلكاتهم، وأديرتهم من أجل الحصول على الكنوز والأموال وللتخفيف على الفلاحين، فقد أعفى المأمون الفلاحين عن واجب إيواء العساكر في منازلهم فصار النصارى يدعون له ليلاً ونهاراً<sup>٨٩</sup>.

كما اختص النصارى كاليهود بالصيرفة؛ بسبب تحريم الاسلام للربا وابتعاد المسلمين عن التعامل بمثل هذه المهن، ومن الصناعات التي اختص بها أهل الذمة المسيحيين في فلسطين صناعة الزجاج<sup>٩٠</sup>، وكذلك اهتموا بصناعة الخمر، واشتهرت عسقلان بقزها الفائق، وخيرها الدافق، وازدهرت صناعة الحرير في باقي مدن الساحل مثل غزة<sup>٩١</sup>.

اشتهرت طبريا بزراعة القطن والحولة كانت معدن الأقطان والأزهار، وزرع الكتان في سهول فلسطين، واشتهرت طبرية بشقاق المطارح والبز<sup>٩٢</sup>، وانتشرت مهنة الصياغة في العصر العباسي بين طائفة النصارى بشكل أساسي، واشتد الطلب على صناعتهم من الخلفاء، والحكام<sup>٩٣</sup>، وامتلأت الكنائس والأديرة بالأواني المعدنية النفيسة، التي صنعت لأداء الطقوس الدينية وغالبيتها من الفضيات والمذهبات، ففي عهد الخليفة المنصور أمر بجمع الباب الذهبي الذي عمله قسطنطين لكنيسة القيامة وحمله لبيت المال وصادر كنوزهم<sup>٩٤</sup>.

وعلى الرغم من ذلك الوضع والنشاط الاقتصادي للمسيحيين، فقد ساد فلسطين خلال القرنين التاسع والعاشر فوضى سياسية، ناجمة على نشوب الاقتتال بين الأمويين والعباسيين، أصابت الزراعة والصناعة بضربات قاتلة، أضحت معه بالكاد تسد حاجة الاستهلاك المحلي، والاكتفاء الذاتي في البلاد، ومما أنهك الدولة العباسية، خاصة مع ظهور الأسر الصغيرة المتنفذة التي استولت على بعض الولايات النائية عن العاصمة بغداد، وإعلان الاستقلال عنها فكانت مصر من أول هذه الولايات عندما قام أحمد بن طولون (٨٦٨-٨٨٤)، بالاستيلاء على فلسطين وسوريا سنة ٨٧٧ م، فقام بتعيين حاكماً نصرانياً على القدس. وكذلك ما فعله الإخشيدون بقيادة محمد بن ضحج الإخشيد ٩٣٥-٩٤٦ م، عندما أقام دولة له امتدت مقدراتها على فلسطين وسوريا والأردن والحجاز<sup>٩٥</sup>.

بوجه عام كانت دولتا الطولونيين والإخشيديين لهما عناية واضحة بأرض الشام، وبعض موانئها حيث أنشأ أحمد

٨٨ ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٥٦هـ / ٩٦٧م): صورة الأرض، ص ١٦١. المقدسي، محمد بن أحمد أبي بكر البشاري (ت ٣٠٨هـ / ١٠٣٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٣.

٨٩ الطبري، أبو جعفر جرير (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، ج ٨، ص ٢١١؛ ابن الأثير، محمد بن محمد عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م): الكامل في

التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف دقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٧، ١٩٨٧م، ص ٢٩٦.

٩٠ المقدسي، محمد بن أحمد أبي بكر البشاري (ت ٣٠٨هـ / ١٠٣٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٣.

٩١ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ / ٧٤٩-٩٤٤م، ص ٢٠٧.

٩٢ الادريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٦٦هـ / ١٢م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص ٦٤٥.

٩٣ ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق (ت ٧٥هـ / ١٣م): الحوادث الجامعة والتجارب الناصعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر،

بيروت، لبنان، ١٩٨٧م، ص ٣٨.

٩٤ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ / ٧٤٩-٩٤٤م، ص ٢٠٩.

٩٥ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ص ٢١٢-٢١٣.

بن طولون قاعدة بحرية في عكا، وحصنها بسور حيث أفاد المقدسي بأن جده كان له دوره في بناء هذا المرفأ. لكن الحقيقة كان هدفها ينصب نحو البر أكثر منه في اتجاه البحر، أي أنهما كانتا تريدان أرض الشام لا سواحل الشام، ومن جراء هذا كانت غزة بحكم موقعها كبوابة بين مصر وبلاد الشام، منطقة ارتطام وميدان الاقتتال بين القوى المتصارعة، حقا لقد أصبحت بلاد الشام منذ عام ٢٦٤ هـ في قبضة ابن طولون فعلاً وفي يد بني العباس اسماً<sup>٩٦</sup>.

كذلك تضاعف نشاط غزة وقراها في الأعوام ٣١٦-٣٥٦ هـ، أي في العام الذي هدد فيه البابا يوحنا الرابع بيزنطة بالاستيلاء على فلسطين عام ٩٣٨ م، مما أثار حفيظة المسلمين فقاموا بثورة عارمة هاجموا فيها المواقع المسيحية فأحرقوها وأحرقوا البطريك، مما دفع الإخشيد الاعتراف للإمبراطور البيزنطي معلنا استعدادة لبناء ما تم تدميره من أبنية، إلا أن الإمبراطور عسوقاً ومتجبهاً «إن القدس سيعاد بناؤها مجد السيف»<sup>٩٧</sup>.

ازدادت الأمور تدهوراً وانغلاق الطرق البحرية عبر البحر المتوسط حيث أصبح معه أشبه ببحيرة مغلقة تحكمت فيه قراصنة البيزنطيين من منتصف القرن التاسع حتى منتصف القرن العاشر تقريباً، مما حدا بمخطوط الملاحة البحرية الانتقال نحو الشمال عبر البحر الأسود ونهر الدانوب حيث القوى البيزنطية، وعليه انكفأت موانئ ساحل الشام، وأصبح ميناء غزة في عداد الرباطات الصغيرة كما وصفه المقدسي، ليس له أي دور تجاري حيوي على الإطلاق خاصة وأن ظهره، وسنده في مدينة غزة قد أصابها التدهور فلم تعد قادرة على تمويله، وإمداده، وعليه بدأت موانئها السابقة مثل انثيدون أو تيدا، وكذلك ميماس أشبه بالحزب والإطلال أكثر منها موانئ ومدن زاهرة. وأخذت نحو الانزواء تعاني من الهجر خاصة، وأن فعالية المدن الساحلية بوجه عام بدأت تستبدل في هذه الحقبة بمدن الداخل، وبدأ التوجه العربي في إحلال مدينة كالملة بدلا من عسقلان، وغزة، وتبدل صور بدمشق، كما أخذ مقدار التنافس بين الأديان والطوائف في مدينة القدس في التعمق والازدياد، وقد اتخذ التدخل الأوروبي، كما سبق ذكره في ازدياد حجم البناءات الدينية، حتى كادت تصبح رمزا لتواجدهم، وأصبح هناك تلازماً طردياً من تطاولها، وقوة كل طائفة دينية حتى ازدادت معه مظاهر الاحتفالات والعروض؛ مما أصبح يمثل تهديدا للمسلمين وبشكل واضح بخاصة نهاية الدولة العباسية وتداعيتها<sup>٩٨</sup>.

هذا التدهور الاقتصادي والسياسي مع ما لازمه أحياناً من كوارث طبيعية كالزلازل ٧٤٦ م، والجفاف، إلى جانب الأطماع الأوروبية الصليبية المتربصة بالمنطقة طمعا في خيراتها وموقعها، هذا على الرغم من تزايد إقبال الحجاج الأوربيين لفلسطين، خاصة عندما أرسى الكنيسة الكاثوليكية الاعتقاد بأن رحلات الحج هي طريق الخلاص، مما دفع العديد منهم في القرن العاشر الميلادي فصاعداً، القيام بعدة رحلات رجالا ونساء للأراضي المقدسة بسبب رسوخ مفاهيم التوبة والغفران، سجلهم استقرار حوض البحر المتوسط، والعلاقات التجارية بين الإمبراطورية البيزنطية، والشام ومصر وما فرضته من ضرورات السلام والهدوء، حيث تنقل الحجاج في أرجاء فلسطين بحرية؛ لأن السلطات الإسلامية سواء في العهد العباسي أو الإخشيدي أو الفاطمي كانت ترحب بهم<sup>٩٩</sup>.

خلاصة لما سبق: تأثر المسيحيين في فلسطين خلال الحكم العباسي بالاضطرابات السياسية بين المسلمين والبيزنطيين، وهو ما انعكس على الوضع والنشاط الاقتصادي لديهم في أماكن سكنهم في فلسطين سواء في القدس أو غزة وغيرها.

٩٦ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ص ٢١٣.

٩٧ نصر، فاطمة: القدس المكانة العقيدة الأسطورة، مجلة سطور، ٢٤، ١٩٩٧ م، ص ٩.

٩٨ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ص ٢١٤.

٩٩ قاسم، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة ١٤٩، الكويت، ١٩٩٠ م، ص ٢٤.



ث. العلاقات الاجتماعية العباسية المسيحية في فلسطين:

عاش أفراد المجتمع الشامي في العصور الإسلامية بشكل عام في حالة ارتباط ووفاق، ولم يكن هناك أي انعزال بين الجماعات ككل بغض النظر عن معتقداتهم الدينية، فقد شهد الواقع الاجتماعي في العصر العباسي هذا الارتباط، ولعل التسامح الديني هو الذي ساعد على إضفاء هذا الجو، وهذا التفاعل فيما بينهم لدرجة أن كل طائفة، قد تأثرت بعبادات وتقاليد الطائفة الأخرى، والمشاركة في احتفالاتهم وأعيادهم<sup>١٠٠</sup>.

فقد سادت العلاقات الاجتماعية والمناقشات بين المسيحيين والمسلمين في العصر العباسي، كما واستمرت المجادلات في العصر العباسي بن الرهبان المسيحيين والفقهاء من المسلمين، ومنهم الراهب الملكي إبراهيم الطبراني وأصله من طبريا، الذي لبي دعوة والي بيت المقدس عبد الرحمن بن عبد الملك بن صالح الهاشمي ١٧٤-١٩٤هـ لمجادلة فقه مسلم، حول الشرك، أبوة الله، ولادة الابن يسمح الله أن يصلب ابن المهدى، الوضوء، عبادة الصليب وغيرها<sup>١٠١</sup>.

ومن ضمن سياسة الخلفاء العباسيين مع النصارى، فلم يمنع الخلفاء البطارقة من تلقي التبرعات من الدول المسيحية، فوصل في عهد البطريرك ثوذوسيوس تبرعات عديدة من الفرنجة، إذ كتب إلى جميع النبلاء مقاطعات الفرنج، يطلب مساعدات من أجل إعادة بناء وترميم الكنائس في القدس، وقام الفرنج بجمع التبرعات من أجل ذلك حتى أنهم قاموا برهن أراضي، وممتلكات الكنائس والحقول وكروم الزيتون من أجل زيادة كمية التبرعات واستمرت التبرعات تقدم من الفرنج، وقد زادت في نهاية القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي حتى وصلت التبرعات من أبعد المناطق الفرنجية<sup>١٠٢</sup>.

قدم البطارقة الهدايا، والأموال، والمناسبات، والأعياد إلى الولاة والحكام في سبيل كسب رضاء الوالي، وابقائهم على كرسي البطريركية، ففي عهد الوالي محمد بن إسماعيل الصناجي حاكم بيت المقدس اعتاد بطريرك المدينة يوحنا ٣٥٣-٣٥٦هـ، دفع الأموال له؛ إلا أن الوالي ظل يطالبه بأكثر مما أعطاه فتوجه البطريرك إلى مصر وشكاه إلى كافور الإخشيدي، وشكا قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة، وسمع كافور شكواه، وأصبحه برسالة توجيهه إلى حاكم القدس بعدم اقلاق راحة البطريرك، إلا أن الحاكم استمر في طلب الأموال<sup>١٠٣</sup>، فالتجأ البطريرك إلى حاكم الرملة فسخط عليه الصناجي وطلب مقابله، فأبى ذلك فذهب الصناجي إلى البطريركية يبتعه عدد كبير من المسلمين واليهود وهرب البطريرك إلى كنيسة القيامة، واختبأ في أحد صهاريج الزيت فاهتدى إليه مطاردوه بعدما أحرقوا الكنيسة القيامة، وكنيسة صهيون وقتلوا البطريرك داخل الكنيسة سنة ٣٥٥هـ<sup>١٠٤</sup>.

رجعت تلك الشدة الإسلامية في التعامل مع البطريرك، إلى أن بلاد الشام كانت تشهد هجمات من البيزنطيين بشكل متكرر، وخاصة في مناطق الثغور، ومراسلة البطريرك للبيزنطيين فعلى سبيل المثال، في عام ٣٥٤هـ، سار ملك الروم نقفور إلى المصيصة، وفتحها بالسيف فقتل خلقاً كثيراً من سكانها ثم سار إلى طرسوس، وأعطى أهلها الأمان، وجعل جامعها اصطبلًا لدوابه ونقل ما فيه من القناديل إلى بلده وسار إلى طرابلس وعزم على قصد القدس<sup>١٠٥</sup>.

علق رنسيان على تلك الأحداث بقوله: «ولتحول هذا الموقف إلى جانب البيزنطيين نهض كل الشرق المسيحي، وأدرك أن وقت الخلاص، قد حان وكتب إليه بطريرك بيت المقدس يحثه بالإسراع في القدوم إلى القدس، وهذه الخيانة

١٠٠ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٣١.

١٠١ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٤١.

١٠٢ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٨٨.

١٠٣ الأنطاكي، يحيى بن سعيد (٤٥٨هـ/١٠٦٧م): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخا، ص ١١٠.

١٠٤ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٨٨؛ جوده، صادق: مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ،

مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٣٩.

١٠٥ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٨٩. ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر (٥٨١هـ/٦٥٤م): مرآة

الزمان في تواريخ الأعيان، الرسالة العالمية، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ج ١، ٢٠١٣م، ص ١٤٤، ١٣٣.



بلغت من الشدة استنفذت صبر المسلمين، فتقرر إلقاء القبض على يوحنا وحرقة، وحرقت كنيسة القيامة، فكتب كافور إلى ملك الروم بأنه ناهض لعمارتها وأنه سوف يرد البيعة إلى أفضل ما كانت، فرد عليه بأنه سوف يبنيها في السيف<sup>١٦</sup>، ونصب بطريكاً جديداً من أهل قيسارية يسمى حبيب<sup>١٧</sup> خريستوذوس الثاني ٣٥٦-٣٥٩هـ، فأقام البطريك أبواب كنيسة القيامة، ورمم المذبح، وشرع في عمارتها إلا أن الموت عاجله فجاء من بعده توما الثاني ٣٥٩-٣٦٨هـ وأعاد ما تم تخريبه بالتجديد<sup>١٨</sup>. وكانت تشوب بعض العلاقات المسيحية بعض المشاحنات والخلافات، التي تعكر صفوها فتقع فتن بين الطرفين، وكثيراً ما كانت فترات الفوضى<sup>١٩</sup> وعجز الدولة عن ضبط الأمور، تفتح مجالاً للتعدي على الذميين في الأقاليم، والاعتداء على كنائسهم، وأديرتهم طمعاً بأموالهم وثوراتهم أو من باب الغيرة على الدين الإسلامي، وقد عانى النصارى في بلاد الشام من تلك الاعتداءات لقربها من تخوم الدولة البيزنطية، واتهامهم بالتجسس لصالح البيزنطيين، ففي عهد الخليفة هارون الرشيد تعرضت الكنائس والأديرة في فلسطين للتدمير والتخريب من قبل الأعراب<sup>٢٠</sup>؛ نتيجة الاضطرابات التي أحدثتها ثورة أبي الهيثام ١٧٠-١٧٧هـ، وعانت السامرة في فلسطين من ثورة أبو النداء ١٩٠هـ، التي امتدت آثارها إلى الأردن فأحرق الأعراب كنائس لهم في زيتا وأرسوف، وفي عام ١٩٤هـ، وقعت القلاقل والاضطرابات في أنطاكية والقدس وسارع المسلمون بالتنكيل بالنصارى والاعتداء على أديرتهم وكنائسهم وغنموا أموالاً كثيرة؛ وذلك بسبب الاتهامات التي وجهت إلى بطريك أنطاكية اليعقوبي قرياقس ١٧٦-٢٠٢هـ، بأنه يكاتب الروم ويبتني البيع في بلادهم<sup>٢١</sup>، كما حاول بطريك مدينة القدس الاتصال بالروم وحثهم على القدوم إلى القدس<sup>٢٢</sup>.

كثيراً ما وقعت اشتباكات بين الطوائف المسيحية ففي عام ١٩٢-١٩٤هـ، في كنيسة المهدي في بيت لحم، وداخل كنيسة القيامة في مدينة القدس مع رهبان الفرنج، وأعلن الرهبان الفرنج اعتراضهم، ولعنتمهم الدينية لكل هرطقة وطالبوا بجرمان كل الذين سيدانون بالمروق على قداسة عرش روما، وراسل كل الطرفين البابا ليو الثالث ٧٨٥-٨١٦م، للاتصال بشارلمان والتدخل في أمر هذا الخلاف<sup>٢٣</sup>، ويبدو أن العداوة كانت شديدة بين طوائف النصارى داخل كنيسة القيامة حتى قال أحد الكتاب «إن السلام الذي بشر به السيد المسيح يكون ظاهراً في أي مكان إلا بين جدران كنيسة القيامة»<sup>٢٤</sup>.

لا غرابة من توتر العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فتلك العصور، حيث اتسمت بتغليب النزعة الدينية على شعوبها، سواء كان ذلك في الشرق أو الغرب، بالإضافة إلى استمرار الحروب ما بين المسلمين والبيزنطيين، واعتداءاتهم على المدن الإسلامية، وتعرض أهلها لسبي والحرق والتدمير مما كان يؤثر على العلاقات الداخلية في البلاد خاصة، وأن بعض الطوائف النصرانية حاولت الاتصال بهم ومد يد العون إليهم، مما شحن المسلمون ضدتهم واضطربت أحوال الطوائف النصرانية وساءت العلاقة بينهم، إلا أنه سرعان ما كانت تعود العلاقة إلى سابق عهدها ويعيش الجميع بأمان، واطمئنان، وتسامح<sup>٢٥</sup>.

في ضوء التوترات الطائفية التي شهدتها التاريخ الإسلامي في العلاقات الاجتماعية والمعاملة بين العباسيين والمسيحيين، يرجع المؤرخ المسيحي اللبناني جورج قرم، أسبابها إلى عدة عوامل من بينها المزاج الشاذ لبعض الحكام، الذين

١٠٦ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ٩٠.

١٠٧ الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٧م): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتيا، ص ١١٠، ١٢٥.

١٠٨ فيه، جان موريس: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، مجلة الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ٢٨٤، ١٩٩٥م، ص ٢٢٢.

١٠٩ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٤١.

١١٠ فيه، جان موريس: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة: حسن زينة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٠م، ص ٩٠.

١١١ بارتولد، ف: دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى، ترجمة: عزيز حداد، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، تقديم: فاروق عمر فوزي،

مقدمة كتاب دور فلسطين في العلاقات بين الشرق والغرب في العصر العباسي، ١٩٧٣م، ص ١٦٠-١٦١.

١١٢ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٤٨.

١١٣ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٤٨.

اضطهدوا الأقليات كجزء من اضطهادهم العام للرعية كلها، وتسلسل الوزراء، والحجابه، والقادة غير المسلمين، وظلمهم واضطهادهم لعامة الفقراء المسلمين؛ الأمر ولد ردود أفعال طائفية لم تقف عند الذين ظلموا من أبناء الأقليات بل شملت جميع الأقليات، علاوة على ذلك غواية الاستعمار الأجنبي الصليبي أو الانجليزي والفرنسي، لقطاعات من أبناء الأقليات، كي تخون أمتها ووطنها؛ مما أدى إلى ردود فعل غاضبة ضد أبناء الأقليات<sup>١١٤</sup>.

نال نصارى القدس معاملة حسنة، وذلك لعلاقة الصداقة التي كانت بين هارون الرشيد وبين شارلمان ١٥٥-١٩٩هـ، وقد أسفرت هذه الصداقة بالسماح لهم بإقامة مؤسسات دينية واجتماعية لهم في القدس كالنزل «الفندق» الذي أقامه شارلمان لإقامة الزوار الفرنج ودير اللاتين على جبل الزيتون ومكتبة ومستشفى أقيم للحجاج والراهبات اللواتي يعملن بالفندق، وهو ما ذكره برنادر الحكيم الذي زار القدس عام ٢٥٣هـ.

أما قضية منح مفاتيح القبر المقدس من هارون الرشيد لشارلمان، التي ذكرها اينهارد عام ٢٠٥هـ، لم تذكرها لمصادر التاريخية في الاسلامية، فمن المعروف أن المسلمون ظلوا يحتفظون بمفاتيح كنيسة القيامة طيلة العصور الإسلامية، بدليل ما أشار إليه الرحالة، الذين زاروا القدس في فترات متأخرة ففي زيارة للقدس يشير الرحالة فريسكوبلدي عام ٧٨٦م، حينما وصف كنيسة القيامة... ثم ندخل كنيسة القبرة المقدس، التي لها ثلاثة مفاتيح واحد يحتفظ به أحد ممثلي السلطان، والثاني لنائب القدس، والأخر بيد أحد رجال الدين...<sup>١١٥</sup>.

كما أشار الرحالة غربي آخر فيلكس فابري الذي زار القدس عام ٨٨٨م، حيث قال: «إن مفاتيح كنيسة القيامة يحتفظ بها أفراد من زعماء المسلمين»<sup>١١٦</sup>، ولكن زعم اينهارد بأن الرشيد منح مكان القبر لشارلمان، لا ينسجم مع روح ذلك العصر، ولا يتفق عما عرف عن هارون الرشيد من حرص شديد على المصالح العليا للمسلمين السياسية منها والدينية، وسياسة الرشيد لا تسمح لنا بالاستنتاج بأنه على استعداد لمنح الفرنجة حقاً أو امتيازاً على فلسطين، ولا يستبعد أن يكون الرشيد اشتهر بتسامحه مع المسيحيين في البلاد، مما سمح لشارلمان بإرسال التبرعات والمساعدات، والصدقات، وإنشاء المؤسسات الدينية لخدمة الحجاج والتجار<sup>١١٧</sup>.

ومن الحقائق التي أثبتتها التاريخ الإسلامي في طبيعة العلاقة السائدة بين المسيحيين والعباسيين في فلسطين والشام بأسرها، أن الكنائس كانت ترمم وتشيّد بموافقة الخلافة الإسلامية من أصحاب الأمر والنهي وأحياناً بمساعدتهم، وكثيراً ما وقف الخلفاء إلى جانب أهل الذمة في سبيل إنصافهم والسماح لهم بإعادة ترميم ما تهدم من كنائسهم وأديرتهم، كما كانت الكنائس تتعرض للنهب والتخريب؛ تبعاً للظروف والأحداث ولا غرابة أن يكون الخطر في أثناء الاضطرابات والفوضى السياسية<sup>١١٨</sup>.

فعندما اشتدت الهجمات البيزنطية على الدول الإسلامية، فلم يجد الخلفاء من وسيلة للتخفيف من الشر الواقع على رعاياهم، إلا بالضغط على النصارى في ديارهم، وضرب البيزنطيين في كنائس مقدسة لديهم في القدس وغيرها، وانتقاماً منهم لما فعلوه في مساجد المسلمين وانتهاك حرمااتهم وحرقتها وتدميرها في معظم المدن التي كانوا يدخلونها؛ لذلك أرسل كافور الإخشيدى رسالة إلى الإمبراطور البيزنطي رومانوس الثاني ٣٤٨-٣٥٢هـ، عندما كان قائده نقفور يجول في البلاد الإسلامية يقتل، ويأسر، ويدمر المساجد، ويحرق مصاحفها أرسل إليه رسالة يقول له فيها «بأنه يفخر بأنه حاكم فلسطين التي بها المسجد الأقصى ومركز البطريركية المسيحية... ومكان حج المسيحيين واليهود، والمكان الذي ولد فيه السيد المسيح

١١٤ الزعيم، إبراهيم: التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين في بيت المقدس ما بين ١٨٩٧-١٩٩٤م، ص ٣٦.

١١٥ اينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م، ص ١٠٥.

١١٦ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٠٠.

١١٧ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٠٠.

١١٨ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٠٧.

والمكان الذي توجد به كنيسة القيامة»؛ وذلك من أجل تذكيره وتحذيره من أجل التخفيف من اعتداءاتهم على المدن الإسلامية، وعلى الرغم من حدوث مثل تلك الاعتداءات إلا أنها تبقى محدودة قياساً<sup>١١١</sup>.

من خلال ما سبق نرى بأن طبيعة العلاقات السائدة بين النصارى والخلافة العباسية في بلاد الشام وفلسطين هي علاقة خلفاء ورعايا، من خلال احترام القوانين والحريات، ولكن يتخللها وجود السلطة المطلقة للخلفاء العباسيين على رعاياهم من جميع الفئات، وخاصة المسيحيين الذي سمحت لهم الظروف بأن يتم استخدامهم للضغط على رؤساءهم من البيزنطيين من أجل أغراض سياسية وأمنية، ودون تلك الحوادث، كانت هناك علاقات طيبة جمعت ما بين الخلفاء العباسيين والمسيحيين.

#### رابعاً: أوضاع المسيحية في فلسطين خلال العصر الفاطمي ٩٦٩/١١٧١م:

أسس الفاطميون خلافتهم بعد أن قضوا على الإخشيديين ٩٦٩م، وفي عام ٩٧٧م، هزم الفاطميون بمدينة الرملة التحالف الذي كان قائماً بين الأتراك والقرامطة، حيث كانت غزة وقراها ما زالت تعيش في حالة الانكفاء والضمور والتدهور يزيد بها بؤساً انقراض العديد من القبائل البدوية عليها، وقطاع الطرق، واللصوص، لعيشها في حالة من الركود السياسي وغياب السلطة الفاعلة التي كانت بين مد وجزر، إلا أن معظم سكانها كانوا من النصارى، فقد أفاد المقدسي عند نهاية القرن العاشر الميلادي وبالتحديد في عام ٩٨٥م قائلاً: «بأن معظم المدن الفلسطينية سكانها من المسيحيين عدا مدينة الرملة<sup>١١٢</sup>، وذلك في عهد الخليفة العزيز ٩٧٥-٩٩٦ ميلادية حيث وسع ملكه في فلسطين وسوريا، لا سيما المنطقة الساحلية وكان الروم (الملكيين) مقربين لديه أكثر من الأقباط، وكانت له جارية امرأة نصرانية ملكية عين أحد أخويها بطريكاً للقدس، والآخر بطريكاً للإسكندرية، وكان وزيره نصرانياً يدعى عيسى بن نظوريوس<sup>١١٣</sup>.

أحكم الفاطميون سيطرتهم على سواحل الشام من انطاكية حتى الإسكندرية، فتمت بذلك سيطرتهم على حوض البحر المتوسط الشرقي سيطرة تامة، استطاعت معه توفير أكبر قدر من الاستقرار والأمن في مياحه واقتصرت نشاطهم البحري والعسكري على الدفاع لا الغزو؛ فازدهرت على أثره العديد من الموانئ ازدهارا باهرا لم تضاهيها، إلا الحقة الأموية فاستعت على أثره موانئ عسقلان، وطرابلس، وانطاكية ونشطت تجارتها، وقد كان للقتلشندي رأيه في هذا الموضوع حيث قال: «أما اهتمامهم بالأساطيل، وحفظ الثغور، واعتنائهم بأمر الجهاد، فكان ذلك من أهم أمورهم، وأجل ما وقع الاعتناء به عندهم. وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية، ودمياط في الديار المصرية، وعسقلان، وعكا، وصور، وغيرها من سواحل الشام حيث كانت بأيديهم قبل أن يغلبهم عليها الإفرنج، وعليه لم يأت ذكر لا لمدينة، ولا إلى مينائها تيدا أو ميماس، وإن ورد ذكرها فكان عرضاً لما أصابها من اضطرابات، بحكم ما تعرضت له من اقتتال بين الجيوش، وما لازم ذلك من نهب وسلب وخراب سيطر على حياتها، وأضحت معه أشبه بقريّة صغيرة تابعة لمدينة الرملة التي أخذت مكانة العاصمة في زمن الفاطميين. خاصة في بلاد الشام في نهاية عهد العزيز ٩٧٥-٩٩٦م؛ نتيجة لما حل من اضطراب في الحياة السياسية<sup>١١٤</sup>.

استمرت حركة الحج المسيحي إلى فلسطين في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي، وإن تذبذبت بعض الوقت فيما بعد؛ بسبب الاقتتال بين الفاطميين والسلاجقة والتركمان ويعزى التزايد المستمر في حركة الحج إلى أن البابوية ومن خلفها دير كلوني، أسهمت في تفخيم ظاهرة الحج إلى بيت المقدس بحيث أصبح ظاهرة جماعية يخرج فيها

١١٩ حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ/٧٤٩-٩٤٤م، ص ١٠٧.

١٢٠ المقدسي، محمد بن أحمد أبي بكر البشاري (ت ٣٠٨هـ/١٠٣٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٥.

١٢١ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢١٥.

١٢٢ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢١٥.

الآلاف من المسيحيين، وظهر بعض كبار رجال الدين مثل «الحج الكبير» في ألمانيا، والذي قاده رئيس أساقفة مينز «Mainz» في عام ١٠٦٥هـ/١٠٦٥م وبلغ عدد المشتركين فيه حوالي عشرة آلاف حاج، وفي سنة ١٠٨٨هـ/١٠٨٨م جاءت حملة حج بقيادة روبرت الفلاندرزي (Robert of flander) واشتركت فيه أعداد هائلة من النبلاء والفرسان إلى جانب العامة، ثم شهدت فترة الحروب الصليبية قدوم العديد من الحجاج والرحالة الغربيين وقد دونت هذه الرحلات وأهمها رحلة الحاج سايولف Saewulf في الفترة الواقعة ٤٩٥-٤٩٦هـ/١١٠٢-١١٠٣م، «ورحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الفترة ٥٠٠-٥٠١هـ/١١٠٦-١١٠٧م»، ورحلة الحاج يوحنا فوقاس سنة ٥٥٨١/١١٨٥م، وغيرهم<sup>١٢٢</sup>.

#### أ. الأوضاع الدينية للمسيحيين في العصر الفاطمي:

سيطر الفاطميون على بيت المقدس عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م، وخلال تلك الفترة تعرض نصارى القدس للاضطهاد، وكانت أكثر المضايقات في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي ٩٩٦-١٠٢٠م حيث أمر بهدم كنيسة القيامة سنة ١٠٠٩م، كما اتبع ضدهم سياسة التشديد، مما أدى إلى هجرة بعضهم إلى بلاد الروم، ولكن لم تكن تلك قاعدة ثابتة بدليل أنه تراجع عنها، وسمح لهم بإعادة أعمار كنيسة القيامة، ورد اليهم أديرتهم وكنائسهم<sup>١٢٣</sup>.

أما سياسة الفاطميين، ومواقفهم تجاه القوى البيزنطية فقد سادها جو من المهادنة والمصالحة، والاعتراف الضمني بسيادتهم على حوض البحر المتوسط<sup>١٢٤</sup>. لذا نعم سكان فلسطين من النصرانيين بمجو من السماحة، والرحمة في ظل حكم الفاطميين فقد «استمتعت فيه الطوائف النصرانية بحرية واسعة في ممارسة شعائر دينها، إذا ما استثنينا بعض الفترات القصيرة القليلة، وبخاصة تلك الفترة التي عاشها الشاعر العربي الفلسطيني سليمان الغزي الواقعة ما بين عام ٩٥٠ - ١٠٢٧م على أقل تقدير، أي ما بين القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين. فقد ولد في غزة وعاش فيها متنقلاً بين المدن الفلسطينية حتى وصل إلى درجة الأسقفية وهو ابن الثمانين من عمره<sup>١٢٥</sup>.

كما شهدت فلسطين عامة، ومدينة غزة بصفة خاصة فترة من عدم الاستقرار والاضطراب، سادها جو من التعصب الديني، ومورست الضغوط على النصارى من أبناء، كما أفصحت عنه العديد من أبيات أشعاره، التي طفحت بالحزن والأسى العميق من مشكلات المجتمع. فكما هو معلوم فقد سبق وأن تم إحراق كنيسة عسقلان عام ٩٤٠م، وكانت تعرف بكنيسة مريم الخضراء على يد اليهود، الذين كانوا يشعلون النار في الحطب، ويقذفونه على سطحها حتى يحرقوه وينحل الرصاص فتقع على أعمدها<sup>١٢٦</sup>.

وفي عصر الحاكم بأمره، جاءت أقوى وأصعب الإجراءات ضد أهل الذمة، فقد أصدر أمر بإحراق كنائس النصارى وبيعهم، والسماح للعامة بحمل ما فيها من آنية الذهب والفضة والأموال والأمتعة، فبدأ أمره بتخريب كنيسة القيامة في مدينة القدس، عندما أخبره ختكين الضيف العضدي أحد قواده عما يفعله النصارى في هذه الكنيسة يوم فصحهم<sup>١٢٨</sup>.

كما جاء في شعر سليمان الغزي أحرقت كنيسة القيامة في ٢٦ مايو ٩٦٦ م، كما أجرى على النصرانيين واليهود

١٢٣ الشريعة، عودة: الحج المسيحي من البلقان إلى فلسطين في العصر الوسيط: البعد السياسي والبعد الثقافي، مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، ع ١٧، ٢٠١٧م، ص ٤٧.

١٢٤ العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، ص ٦٢؛ الزعيم، إبراهيم: التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين في بيت المقدس ما بين ١٨٩٧-١٩٩٤م، ص ٦٧.

١٢٥ مؤنس، حسين: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٩٣م، ص ٦٥.

١٢٦ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢١٦.

١٢٧ ادلبي، المطران ناوفيطوس: سليمان الغزي، سلسلة التراث العربي المسيحي ٧، المكتبة البوليسية، بيروت، ج ١، ١٩٨٤م، ص ٧٩.

١٢٨ الطراونة، محمد: المجالي، سحر: أحوال أهل الذمة في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ/١٠٢٠-١٠٣٦م)، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، ص ٣، ٢٠٠٩م، ص ٧٩٩.



بعض القيود كالتقييد بملابس معينة تمييزاً لهم، وأن يلبسوا الزنانير في أوساطهم والعمائم السود على رؤوسهم، وفي عام ١٠٠٤م، أمر الحاكم بأمره بأن يضعوا في أعناقهم صلبانا زنة الواحد منها خمسة أرتال (كيلوجرامين)، وأن يرسلوها متدلية على صدورهم<sup>١٢٩</sup>.

وتم هدمت كنيسة القيامة بالقدس في ٢٨/سبتمبر/١٠٠٩م، كما تم هدم العديد من الكنائس في مصر في كل من، دمياط، والقلمز «السويس»، ودير القصير بالقلعة في عام ١٠٠٩م، والعديد من الكنائس الأخرى. فجاء في شعره أن قبر المسيح كان خراباً حيث قال: في المسيح الذي كان الخلاص لنا بجسمه من ضريح دارس الطفل، أي أصبح ضريح السيد المسيح أطلالا دراسة. كما ويكشف لنا بوضوح ظلم الحاكم بأمره عندما يقول<sup>١٣٠</sup>:

وأصبح الناس بعد الخوف في دعة .... من السرور الذي أعطاه وهاب.

لم يبق فيهم مليك فعله سميح .... ولا تحكم حكم الجور مرتاب.

وبعد ذلك هدأت الحالة قليلاً فقام أحد شيوخ العرب، ويدعى المفرج بن الجراح تحذوه النخوة العربية الإسلامية التقنية، فساعد إخوته العرب النصارى في عام ١٠١٠ م، على إعادة بناء كنيسة القيامة، وترميمها وعاضده في ذلك البطريك ثاوفيلس بطريك بيت المقدس، وربما شاهد شاعرنا نهاية أعمال الترميم، الذي أتم عام ١٠٢٧م، وفي هذا المقام يفيد ول ديورانت قائلاً: «نعم إن الحاكم بأمر الله الخليفة الظالم دمر كنيسة الضريح المقدس سنة ١٠١٠م، لكن المسلمون أنفسهم قدموا المال الكثير لإعادة بنائها»<sup>١٣١</sup>. وبناء عليه قام الحاكم بأمر الله في عام ١٠١٤م، بجشد الجيوش ضد الشيخ المفرج بن الجراح، الذي استطاع أن يحكم بلاد الشام مدة عامين ونصف تقريباً. وقبل أن تلتقي الجيوش مات الشيخ المفرج وهرب أولاده من مدينة الرملة إلى البادية، ودخلت جيوش الحاكم الرملة<sup>١٣٢</sup>.

ومع تلك الاضطرابات، ونتيجة لما رافقها من أزمت نزع العديد من النصارى إلى بلاد الروم شمالاً بأهلها، وجميع أموالهم دون أن يعترض سبيلهم أحد عام ١٠١٤م، وبالتالي أصبح عدد العرب النصارى في فلسطين وسوريا، وحتى مصر في عهد الحاكم لا يزال متساوياً لعدد المسلمين إن لم يفهم، أخذ في التناقص<sup>١٣٣</sup>.

كان الخلفاء الفاطميون يتدخلون في اختيار، وتعيين بطاركة النصارى في مصر، وفي الولايات التابعة للدولة الفاطمية كفلسطين، كما حدث عندما قام العزيز بالله باختيار بطيركين أحدهما لمدينة القدس، ويذكر ساويرس بن المقفع أن أم الحاكم بأمر الله، زوجة الخليفة العزيز بأمر الله، وهي جارية رومية كان لها أخ اسمه أترساني فجعلته بطريكاً للملكية، وكذلك قام الخليفة الحاكم بأمر الله بإصدار مرسوم عام ١٠٢٠هـ/١٠٣٠م يتضمن تولي القس نقفور بطيركية مدينة القدس. أما الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله فكان له رأي مخالف في هذا الموضوع، ولم يتدخل في شؤون الكنيسة الداخلية، واعتبر هذا الأمر خاصاً بالنصارى<sup>١٣٤</sup>.

بعد عام ١٠١٧م زال ذلك الكلبوس عن العرب النصارى، وعندما استلم مقاليد الحكم الخليفة الظاهر في عام ١٠٢١م، ساد جو من الهدوء والطمأنينة حيث منح العرب النصارى حرية ممارسة شعائرهم الدينية، وعقد مع البيزنطيين في عام ١٠٢٧م، معاهدة سمح بموجبها بترميم جميع الأماكن المقدسة على يد عمال وفنيين بيزنطيين الذين بدورهم أنهوا جميع هذه الترميمات، وبخاصة كنيسة القيامة في عام ١٠٤٨م في زمن ملكهم قسطنطين التاسع<sup>١٣٥</sup>. وإجمالاً يمكن القول

١٢٩ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢١٧.

١٣٠ المرجع السابق، ص ٢١٨.

١٣١ ديورانت، ول وإبريل: قصة الحضارة نشأة الحضارة، ص ١٢.

١٣٢ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢١٨.

١٣٣ حتى، فليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ج ٥، ص ٢٢٢.

١٣٤ الطراونة، محمد: المجالي، سحر: أحوال أهل الذمة في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٦م)، ص ٨٠١.

١٣٥ الطراونة، محمد: المجالي، سحر: أحوال أهل الذمة في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٦م)، ص ٨٠٠.



بأن الكنيسة النصرانية في مدينة غزة «كنيسة الروم الأرثوذكس»، أو كنيسة بيرفير يوس كانت في أيام شاعرنا ابن عزة، وكما جاء في دعاء له ذكره الأب لويس شيخو قائلاً:

«قليلة العدد، مائلة الأوز»، أي أن أعداد أبنائها أخذ في النقصان والقلّة من حيث العدد مع ما لازم ذلك من نقص وانخفاض في المستوى الاقتصادي والمعيشي<sup>١٣٦</sup>.

قام الأتراك السلاجقة عام ١٠٧١م، بالاستيلاء على مناطق واسعة من آسيا الصغرى، واستمروا في اجتياحهم حتى استولوا على فلسطين، وما إن جاء عام ١٠٧٣م، حتى أحكموا السيطرة على مدينة القدس. وهكذا مهد هذا التشرذم وشدة الاقتتال، وتوالي الحروب على أرض فلسطين، وما تعرضت له المدينة المقدسة من أحداث قام باستغلالها الأوربيون الفرنجة، بالرغم من تسامح المسلمين واهتمامهم الفعلي بالمقدسات النصرانية متخذين ومستغلين هذه الأوضاع للانقضاض عليها بأبشع حملة تاريخية متخذين الصليب شعاراً لهم<sup>١٣٧</sup>.

### ب. الأوضاع الاجتماعية للمسيحيين في العصر الفاطمي:

تنوعت الأوضاع الاجتماعية للمسيحيين في فلسطين خلال العصر الفاطمي والتي تمثلت تلك الأوضاع بأشكال

متنوعة ومن بينها ما يلي:

#### ١. المأكّل:

تعددت ألوان الطعام والشراب التي عرفها أهل فلسطين، وقدم أهل الذمة في الشام وفلسطين للمسلمين الذين مروا بهم كحق ضيافة لهم كما نصت عليه معاهداتهم مع المسلمين، «من وسط ما يأكلون خبزاً وعصيدة وأداماً وزيتاً، أو لبناً وسمناً، وبقولاً مطبوخاً، أو حيتاناً أو لحماً أو غيره، والسخينة والخزيرة»<sup>١٣٨</sup>.

كما وكانت لأهل الذمة وخاصة المسيحيين في فلسطين أكالاتهم الخاصة بهم، فكانوا يصنعون الفطير في أيام عيد الفصح السبعة، التي لا يجوز لهم فيها أكل خبز الخمير حسب معتقداتهم الدينية، وكان النصارى يحضرون الأصناف والأكلات من البطيخ والرمان وعناقيد الموز، وأقفاص التمر، وأقفاص السفرجل، والهريسة المعمولة من لحم الدجاج، ومن لحم الضأن البقر، والكشك المصنوع من القمح والشعير واللبن، وفي عهد الخلافة الفاطمية كانت توزع الحلوة، التي فيها السميد والجلاب والزينة والبوري على أرباب الرسوم والعامّة من الناس، وكانت تنصب الأسمطة<sup>١٣٩</sup>.

كانت مدينة الخليل السباقة لغوث المحتاجين والمسافرين والضيوف وأبناء السبيل، تقدم لهم وجبات مجانية على مدار السنة<sup>١٤٠</sup>، وتداولت بعض الأطعمة بين فئات المجتمع من المسلمين وأهل الذمة، كما وكان المسلمون يتهدون مع جيرانهم من أهل الذمة، وخاصة المسيحيين الهدايا في الأعياد والمناسبات، من كعك وفطير وبعض الأكلات الشعبية الأخرى<sup>١٤١</sup>.

نرى من خلال ما سبق أن الفاطميين والمسيحيين في فلسطين كان لديهم حياتهم الاجتماعية الطيبة، كما

وأن المسيحيين تمتعوا بأكلات خاصة بهم وشارك المسلمين في فلسطين والفاطميين في طبيعة الحياة الاجتماعية المتمثلة

١٣٦ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢٢٠.

١٣٧ المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، ص ٢٢٠.

١٣٨ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ١٠٧.

١٣٩ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ١٠٨-١٠٩.

١٤٠ أبو المحاسن، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردى الاتابكي (ت ٨٧٤هـ/١٤٨٦م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية

العامّة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، ج ٣، ١٩٦٣م، ص ٥٨، الدباغ، مصطفى: الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين، منشورات اليسار،

ط ٣، ١٩٨٨م، ص ١٥٣.

١٤١ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ١٠٩.

بطبيعة المأكّل، وهو ما يجعلنا نقول أن المسيحيين كان لهم طقوس وأكلات خاصة تميزوا فيها عن باقي فئات المجتمع.  
٢. الأعياد:

تمتع أهل الذمة بحرية الاحتفال بأعيادهم الدينية، ومنهم النصارى، فقد كان الخلفاء الفاطميين مهتمين بشكل كبير في بالأعياد الإسلامية، وهي يوم الفطر، ويوم الأضحى، وكانت الدويلات الإسلامية تعتنى بهذه الأعياد، ثم ازداد عدد الأعياد والمواسم والاحتفال بها في عهد الخلافة الفاطمية، التي أصبحت من المناسبات الرسمية في مصر وبلاد الشام وفلسطين، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد وخميس العدس، وأيام الركوبات<sup>١٤٢</sup>.

ربط أهل فلسطين أعياد النصارى بالمواسم السنوية، وضربوا بها الأمثال الشعبية، التي أصبحت متداولة بين الناس وتحتهم على أخذ الحذر من البرد القارس والحر، فارتبط عيد الفصح بالنيروز وفصل الربيع، وارتبط عيد العنصرة بالصيف، وارتبط عيد بربرة بالشتاء وكذلك القلندس ارتبط بالبرد، واحتفل النصارى بعيد الميلاد، وهو اليوم الذي ولد فيه المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام بالقرب من القدس في بيت لحم، في ليلة الرابع والعشرين من كانون أول، كما واحتفل النصارى بعيد الفصح بمدينة القدس، وأطلق عليه عيد كنيسة القيامة أو عيد النور، فاستقطب العيد الحجاج المسيحيين للاحتفال به، فوفدوا إلى المدينة المقدسة من بلادهم، لمشاهدة النار التي تنزل من السماء، فتضاء المصابيح من غير أن تمسها النار، ويصفها الجاحظ (ت ٨٧١/هـ ٢٥٥ م) بأنها نار الاحتفال، وعندما اكتشف الحاكم بأمر الله الفاطمي سر هذه الخديعة قرر هدم كنيسة القيامة سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م<sup>١٤٣</sup>.

شارك المسلمون النصارى في فلسطين في الاحتفال بعيد الفصح، فكان والي المدينة المسلم يشارك، ومعه حاشيته وبعض من عامة الناس، ومن أعياد النصارى في فلسطين سبت النور، الذي يسبق عيد الفصح بيوم<sup>١٤٤</sup>.

شارك نصارى فلسطين بعيد الصليب، بعد العثور على خشبة الصليب الحقيقي، الذي أخفاه اليهود، وعيد الشعانين أو السعانين، ويسمى عيد الزيتون، ويكون سابع يوم ركب فيه المسيح في بيت المقدس ودخله إلى صهيون، فيحتفل في ذكره نصارى بيت المقدس، ويحملوا فيه شجرة زيتون، وتسمع فيه الأجراس المختلطة بالصلوات والترانيم والأدعية، حتى يصل الموكب إلى باحة كنيسة القيامة، وعيد القلندس أو رأس السنة الميلادية، الذي يصادف ١ يناير من كل سنة، فيحتفل فيه نصارى فلسطين بإيقاد النيران، وتخرج مواكب الناس على أضواء المشاعل والشموع في شوارع المدن، ويطوف الأطفال في الشوارع مرددين كلمة الندس بصوت عال، فتوزع عليهم الحلوى والشراب<sup>١٤٥</sup>.

يحتفل النصارى في مصر بالخميس المقدس أو خميس العدس ويسمى في الشام بخميس البيض، ويلبس فيه اللون الأزرق من الثياب في فلسطين خاصة فيقضي اليوم في الصلاة والدعاء والاحتفال، ويهدي فيه النصارى للمسلمين السمك مع العدس المصفي والبيض المصبوغ، وعيد العنصرة، أو عيد السنابل، أو عيد العنب، ويكون بعد خمسين يوماً من عيد كنيسة القيامة، أي في السادس والعشرين من بشنس<sup>١٤٦</sup>، وهو عد موسم، وتقدم فيه الهدايا للسلطين والولاية والقضاة وغيرهم من أركان الدولة<sup>١٤٧</sup>.

١٤٢ المقريزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي العبيدي المقرئ (ت ٨٤٢هـ/١٤٩٧م): الخطط المقرئية أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،

تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشراوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ج ٢، ١٩٩٨م، ص ٣٦١.

١٤٣ الكردي، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ٩٩-١٠٠.

١٤٤ محمود، سلام: أهل الذمة في مصر العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٥م، ص ١٩٧.

١٤٥ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٣، ص ٤٠٦.

١٤٦ بشنس: وهو من أشهر النصارى والأقباط، وهي بالترتيب، الشهر الأول توق يقابل شهر أغسطس، الشهر الثاني بابه، الشهر الثالث هتور، كيهك، طوبة،

أمشير، برمها، برمودة، بشنس، بؤنه، أبيب، مسرى. القلقشندي، أبو العباس بن علي (ت ٨٢١هـ/١٤٢٣م): صح الأعشى في صناعة الانشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج ٢، ص ٤١٠-٤١٨.

١٤٧ الكردي، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ١٠١.

كما احتفل نصاري فلسطين بعيد الأحد للقديسين المسيحيين، المسمى «مار سرجس»، وله مزار في مدينة اللد، ويحتفل عنده مسيحيو فلسطين، ويشاركهم في الاحتفال المسلمين، وتختلط فيه النساء بالرجال، وقد ذكره المقدسي البشاري في كتابه بعيد لد، وعيد البشارة يكون في اليوم التاسع والعشرين من شهر برمهاث، وأصله بشارة جبريل عليه السلام لمريم بميلاد المسيح عليه السلام، وعيد الأربعين ويعرف عند أهل الشام بالسلاق، أو عيد الصعود وهو في الثامن والأربعين من الفطر، وعيد التجلي، ويكون أوله في الثالث عشر من مسرى، وآخره السابع والعشرين منه، وعيد الصليب في السابع عشر من توت، وعيد الغطاس ويعمل في اليوم الحادي عشر من شهر طوبه، الختان، يزعمون أن المسيح ختن فيه وهو الثامن من الميلاد<sup>١٤٨</sup>.

نستنتج مما سبق: رغم تشدد الخلفاء الفاطميين كالحاكم بأمر الله في معاملة المسيحيين في فلسطين وبلاد الشام؛ إلا أن أنهم تمتعوا بحرياتهم الاجتماعية، واحتفالاتهم الدينية والمناسبة دون معارضة، بل شاركهم القادة والخلفاء والولاة أعيادهم، وهو ما يدل على حسن معاملة الفاطميين للمسيحيين في فلسطين.

### ت. الأوضاع الاقتصادية للمسيحيين في العصر الفاطمي:

ساعت الأوضاع الاقتصادية للمسيحيين خلال العصر الفاطمي عام ٣٥٩هـ/٩٦٩م، الذين استمروا في تأدية الإلتزامات المالية المترتبة عليهم، واهملت الزراعة في بيت جبرين والرملة، سلبت أموال المزارعين في العصر الفاطمي، فتأخرت الزراعة، وقل الإنتاج وعم الفقر والفساد، وكانت البلاد قد خرجت مع ابن الجراح حتى كان الإنسان يدخل الرملة فيطلب شيئاً يأكله فلا يجده، وانتشر التسول بين الفلاحين في الأسواق العامة<sup>١٤٩</sup>.

ومن الدلائل الهامة على الأوضاع الاقتصادية في العصر الفاطمي في فلسطين، فقد ضربت النقود في فلسطين في العهد الفاطمي عندما سيطروا عليها، فضربت النقود في مدن الجنوب، وكانت دنانيرهم تحمل عبارات التمجيد للإمام، وكانت الأشكال الدائرية تزين هذه الدنانير، وكانت تحيط بهذه الدوائر حلقات من خطوط بارزة على وجهي الدينار، أما في عصر الحاكم بأمر الله أصبحت الدراهم الفضية نقداً قانونياً، وصنعت النقود من الذهب والفضة فقط، واختلف الفاطميون عما سبقهم من الطولونيين والإخشيديين فقد سكوا أجزاءً من الدينار، كالنصف والربع والثلث، كتب عليها «بسم الله الرحمن الرحيم هذا الفلوس بالرملة»<sup>١٥٠</sup>.

من خلال ما سبق: تبدو لنا أهمية فلسطين في الاقتصاد الإسلامي، وذلك من خلال تعدد سكة النقود فيها، مثل الرملة واللد وطبرية، التي سكت فيها الدنانير الذهبية والدراهم الفضية، كما وضربت النقود في فلسطين في عهد الولاية الفاطمية على المسيحيين والمسلمين معاً، وتعددت أشكالها، واختلفت من عهد إلى آخر في بعض مدن فلسطين، وهو ما يشير إلى أن النقود التي ضربت في فلسطين أكبر الأثر في تطوير التبادل التجاري بين الولايات الإسلامية، والدول الأخرى المجاورة لها، فنشطت التجارة وتطورت وازدهرت الحياة الاقتصادية داخلها بما يشمل ذلك المسلمين والمسيحيين المقيمين فيها.

### نتائج الدراسة:

١٤٨ الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية (٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ١٠١-١٠٢.

١٤٩ ابن الاثير، محمد بن محمد عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، ج ٦، ص ٧٠: الكرد، عودة: فلسطين في عصر الدويلات الإسلامية

(٢٦٤-٤٩٢هـ/٨٧٧-١٠٩٩م)، ص ١١٦.

١٥٠ المبيض، سليم: النقود العربية الفلسطينية وسكنها المدنية والأجنبية من القرن السادي قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

١٩٨٩م، ص ١٦٨-١٧٣.

- توصلت الدراسة إلى عدة نتائج والتي تمثلت في النقاط التالية:
١. لقد كان للنصارى حضورهم في المجتمع الإسلامي، كيف لا وهم يتمتعون بحقوقهم التي أفرتها لهم الشريعة الإسلامية. فلا تكاد مدينة إسلامية في بلاد الشام ومصر وفلسطين تخلو منهم.
  ٢. صان الإسلام والمسلمين حقوق النصارى في البلاد، وتعاملوا معهم كأصحاب الذمة، وساروا على نهج رسول الله في معاملة أصحاب الكتاب.
  ٣. تمتع النصارى في فلسطين بالعديد من الامتيازات والحقوق كممارسة الشعائر الدينية بحرية، وهو ما أكده عدد كبير من الخلفاء خلال العصر الأموي، والعباسي والفاطمي.
  ٤. مارس النصارى في فلسطين العديد من الأنشطة الاقتصادية، وقد كانوا بارعين بالتجارة والصناعة، وهو ما انعكس على املاكهم الأموال الكثيرة والغني.
  ٥. ضربت النقود في فلسطين في العهد الفاطمي عندما سيطروا عليها، فضربت النقود في مدن الجنوب، وكانت دنانيرهم تحمل عبارات التمجيد للإمام.
  ٦. أما عن العلاقات بين المسلمين والمسيحيين في فلسطين فقد كانت سادت علاقة هادئة وتعاونية فيما بينهم، وقد شارك المسلمون المسيحيين في مناسباتهم وأعيادهم الدينية.
  ٧. عانى النصارى في فلسطين من الضغوط المفروضة عليهم بناءً وتبعاً لسياسة الولاة، إذ تشير بعض الروايات التاريخية أن تلك الضغوط تتبع للوشاية من المسيحيين أنفسهم إلى الخلفاء نظراً لأسباب عداة أو خصومة.
  ٨. تعرض أهل الذمة لمضايقات، واستخدم المسلمون النصارى كورقة ضغط على البيزنطيين أثناء الصراع الإسلامي البيزنطي.
  ٩. تمتع النصارى في غالب الأوقات حسن المعاملة من الخلافت الإسلامية المتتالية.

## قائمة المصادر والمراجع

- أولاً: القرآن الكريم.  
ثانياً: المصادر العربية:
- الأنطاكي، يحيى بن سعيد (ت ٤٥٨هـ/١٠٦٧م): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أوتبخا، تحقيق عمر عبد السلام تجمري، طرابلس، جروسي برس، ١٩٩٠م.
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ١٢هـ/١٢م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، ج ٢، ١٩٨٩م.
- البلاذري، أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود (ت ٢٧٩هـ/٨٩٠م): فتوح البلدان، مراجعة وتدقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٨م.
- ابن الاثير، محمد بن محمد عبد الكريم (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف دقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٧، ١٩٨٧م.
- ابن البطريق، سعيد (ت ٣٢٨هـ/٩٤٠م): كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٠٩م.
- ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر (ت ٥٨١هـ/٦٥٤م): مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، الرسالة العالمية، دمشق، الجمهورية العربية السورية، ج ١، ٢٠١٣م.
- ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٥٦هـ/٩٦٧م): صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
- الحموي، ياقوت بن عبد الله (ت ٦٢٦هـ/١٢٤٣م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، ج ٢، ١٩٩٣م.
- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٤٩٩هـ/١٠٥٧م): تاريخ دمشق، دار الفكر، ج ٢، ١٩٩٥م.
- ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): تاريخ الزمان، دار المشرق، بيروت، ١٩٩١م.
- البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي (ت ٤٦٣هـ/١٠٧٠م): تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ج ١٠، د.ت.
- التلمحري، ديونيسيوس (ت ٢٣١هـ/٨٤٥م): التاريخ المنحول، ترجمة: يوسف بن اسحق، الجامعة الأمريكية، بيروت، لبنان، ١٩٧٩م.
- ابن تيمية، أبو بكر أحمد بن علي بن قيس الكسداني (ت ٤٤٠هـ/١٠٠٠م): الفلاحة النبطية ابن وحشية، تحقيق: توفيق فهد، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ج ١، ١٩٩٣م.
- التنوخي، أبو علي المحسن بن علي (ت ٣٨٤هـ/٩٩٤م): الفرج بعد الشدة، تحقيق: عبود الثالجي، دار صادر، بيروت، لبنان، ج ١، ١٩٧٨م.
- الطبري، أبو جعفر جرير (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، مصر، ج ٣، ١٩٧٠م.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت ٧٧٤هـ/١٣٨٦م): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، لبنان، ج ٧، ١٩٦٦م.
- ابن المقفع، سايروس (ت ٤هـ/١٠م): تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية المعروفة بسيرة البيعة المقدسة، مطبوعات جمعية الآثار القبطية، القاهرة، مصر، مج ٢، ج ١، ١٩٤٣م.
- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: محمد محي



- الدين عبد الحميد، القاهرة، مصر، ج ١٩٤٨م.
- المقدسي، محمد بن أحمد أبي بكر البشاري (ت ٣٠٨هـ / ١٠٣٠م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط ٣، ١٩٩١م.
- المقرزي، تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي العبيدي المقرزي (ت ٨٤٢هـ / ١٤٩٧م): الخطط المقرزية أو المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة، مصر، ج ٢، ١٩٩٨م.
- المنبجي، أغايوس بن قسطنطين (ت ٤٤هـ / ١٠م): المنتخب من تاريخ المنبجي، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار المنصور، طرابلس، ١٩٨٦م.
- أبو المحاسن، جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغرى بردي الاتابكي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٨٦م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، ج ٣، ١٩٦٣م.
- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق (ت ٧٧هـ / ١٣م): الحوادث الجامعة والتجارب الناصعة في المائة السابعة، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧م.
- القلقشندي، أبو العباس بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤٣٣م): صبح الأعشى في صناعة الانشاء، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج ٢، د.ت.
- أبو يوسف، يعقوب بن إبراهيم (ت ١٨٢هـ / ٧٩٨م): الخراج، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
- ثالثاً: الرسائل الجامعية والأوراق العلمية:
- الحلاق، حازم: الأوضاع الاجتماعية والعلمية والدينية الاقتصادية والسياسة للمشرق الإسلامي قبيل الحروب الصليبية (٣٣٤-٤٩٠هـ / ٩٤٥-١٠٩٧م)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠١٤م.
- الحمارنة، صالح: المسيحية في أرض الشام في أوائل الحكم الإسلامي، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ط ١، ١٩٧٤م.
- حجازي، فايزة: أهل الذمة في بلاد الشام في العصر العباسي ١٢٣-٣٣٤هـ / ٧٤٩-٩٤٤م، رسالة دكتوراه غير منشورة، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٠م.
- أبو رحمة، زهير: الحياة العلمية في غزة وعسقلان منذ بداية العصر العباسي حتى الغزو الصليبي ١٣٢-٤٩١هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، ٢٠٠٦م.
- مرادة، تمار: سيكولوجية بعض المسيحيين في منطقة بيت لحم، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، فلسطين، ٢٠١٢م.
- رابعاً: الكتب العربية:
- اينهارد: سيرة شارلمان، ترجمة: عادل زيتون، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ١٩٨٩م.
- ادلبي، المطران ناويفيطوس: سليمان الغزي، سلسلة التراث العربي المسيحي ٧، المكتبة البوليسية، بيروت، ج ١، ١٩٨٤م.
- البدور، سليمان: فلسطين في العهد الأموي (الحياة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية)، عمان، المملكة الأردنية الهاشمية، ٢٠٠٤م.
- البعلبكي، قسطوس بن لوقا: الفلاحة الرومية، تحقيق: وائل عبد الرحيم اعبيد، دار البشير للثقافة والعلوم، عمان، الأردن، ط ١، ١٩٩٠م.
- الدباغ، مصطفى: الموجز في تاريخ الدول العربية وعهودها في بلادنا فلسطين، منشورات اليسار، ط ٣، ١٩٨٨م.

- الزعيم، إبراهيم: التعايش السلمي بين المسلمين والمسيحيين في بيت المقدس ما بين ١٨٩٧-١٩٩٤م، إصدارات دار إي- كتب، لندن، ٢٠١٩م.
- الزيات، حبيب: الديارات النصرانية في الإسلام، دار المشرق، بيروت، لبنان، ١٩٧٠م.
- المبيض، سليم: النصرانية وآثارها في غزة وما حولها، غزة، فلسطين، ١٩٩٨م.
- المبيض، سليم: النقود العربية الفلسطينية وسكاتها المدنية والأجنبية من القرن السادي قبل الميلاد وحتى عام ١٩٤٦م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م.
- العارف، عارف: المفصل في تاريخ القدس، مطبعة العارف، القدس ط ٥٥، ج ١، ١٩٩٩م.
- بدوي، عبد المجيد: سياسة الدولة الإسلامية تجاه أهل الذمة في الشام والعراق في عهد الراشدين وبنو أموية، جامعة المنصورة، كلية الآداب، ١٩٨٨م.
- بارتولد، ف: دراسات في تاريخ فلسطين في العصور الوسطى، ترجمة: عزيز حداد، مركز الدراسات الفلسطينية، جامعة بغداد، تقديم: فاروق عمر فوزي، مقدمة كتاب دور فلسطين في العلاقات بين الشرق والغرب في العصر العباسي، ١٩٧٣م.
- أبو جابر، رؤوف: الوجود المسيحي في القدس خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٤م.
- جودة، صادق: مدينة الرملة منذ نشأتها حتى عام ٤٩٢هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦م.
- حتى، فليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، دار الثقافة، بيروت، ط ١، ج ١، د.ت.
- درزي، براءة: الوجود المسيحي في القدس تحت الاحتلال، مؤسسة القدس الدولية، ٢٠١٩م.
- ديورانت، ول وإيريل: قصة الحضارة نشأة الحضارة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع، ط ٢، ج ١٣، ١٩٦٤م.
- رنسيان، ستيفن: الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العربي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج ١، ١٩٨١م.
- فييه، جان موريس: أحوال النصارى في خلافة بني العباس، ترجمة: حسن زينة، دار المشرق، بيروت، ١٩٩٠م.
- قريشي، عمر بن عبد العزيز: سماحة الإسلام، تقديم: عبد الرحمن العشماوي وعاض القرني، مكتبة الأديب، الذهبية للنشر والترجمة، مصر، ط ٣، ٢٠٠٦م.
- فاسم، قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة ١٤٩، الكويت، ١٩٩٠م.
- متز، آدم: الحضارة العربية الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريده، مكتبة الخابخي، القاهرة، ط ٤، مج ١، ١٩٦٧م.
- مؤنس، حسين: تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، ط ٢، ١٩٩٣م.
- محمود، سلام: أهل الذمة في مصر العصر الفاطمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٥م.
- خامساً: الدوريات:
- تايه، راشد: المسيحية في الشام في العصر الأموي، مجلة الرسالة، معهد اعداد المعلمين العرب، كلية بيت بيرل، ١١٤-١٢، ٢٠٠٣م.
- دويدار، حسين: أهل الذمة في العصر الأموي، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية، الإمارات، ع ١٩٩٢، ٥٥م.
- الشرعة، عودة: الحج المسيحي من البلقان إلى فلسطين في العصر الوسيط: البعد السياسي والبعد الثقافي، مجلة

- الدراسات التاريخية والاجتماعية، جامعة نواكشوط، ع ١٧، ٢٠١٧م.
- الطراونة، محمد؛ المجالي، سحر: أحوال أهل الذمة في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٣٦، ٢٠٠٩م.
- الطراونة، محمد؛ المجالي، سحر: أحوال أهل الذمة في خلافة الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي (٤١١-٤٢٧هـ/ ١٠٢٠-١٠٣٦م)، مجلة دراسات، العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٣، ٢٠٠٩م.
- عطاء، زبيدة: عروبة القدس من واقع وثائق الأوقاف المقدسية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ط ١، ٢٠٠٧م.
- فييه، جان موريس: أحوال النصارى في خلافة بنى العباس، مجلة الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، لبنان، ع ٢٨٤، ١٩٩٥م.
- نصر، فاطمة: القدس المكانة العقيدة الأسطورة، مجلة سطور، ع ٢٤، ١٩٩٧م.

## العلاقة المسيحية الإسلامية في مدينة القدس

تناولت هذه الدراسة حقبة مهمة من تاريخ مدينة القدس بدأ من عام ٦٣٧م تاريخ دخول المسلمين الى المدينة على يد الخليفة عمر بن الخطاب الذي تسلم المدينة صلحا دون قتال من بطيريك المدينة صفرونيوس وانتهاء الى عام ١٩١٧م تاريخ الاحتلال الإنجليزي للمدينة وزوال الحكم العثماني الذي استمر زهاء أربعة قرون، وتحديث الدراسة عن طبيعة العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في مدينة القدس خلال تلك الفترة الزمنية وركزت على العهد العثماني الذي انتهى باحتلال إنكلترا لفلسطين.

### المقدمة:

إن ما تتمتع به مدينة القدس من قدسية لدى أتباع الأديان السماوية جعل كل الأديان حريصة على وجودها في المدينة، فالمسلمون اهتموا بها لوجود المسجد الأقصى، ولكونها قبلة المسلمين الأولى وحدثت فيها حادثة الإسراء والمعراج، لذلك تجد مسلمين من مختلف البلدان الإسلامية سكنوا وعاشوا في هذه المدينة، أما المسيحيين فاهتموا بها وسخروا كل جهد؛ من أجل البقاء فيها والاستحواذ على أكبر قدر منها بسبب وجود كنيسة القيامة، ولقد اهتمت كل طائفة نصرانية بأن يكون لها وجود ديني فيها، ولذلك لا تكاد تجد طائفة نصرانية إلا ولها كنيسة أو دير في المدينة.

وقد تميزت مدينة القدس بتنوع ثقافي وديني: فمكانتها الدينية عند الأديان السماوية الثلاثة جعلتها محط الأنظار والأطماع؛ لأن كل الحروب التي حدثت في المنطقة بين المسلمين والصلبيين كانت المدينة سبب رئيس في هذه الحروب، فبعد الفتح الإسلامي للمدينة وتسليم مفاتيح المدينة للخليفة عمر بن الخطاب واشترط المسيحيين عليه ألا يسكن معهم أحد من اليهود.

وشهدت المدينة تعايشا دينيا كان المسلمون رعاته، واستمر هذا الأمر إلى احتلال الصليبيين للمدينة وارتكابهم الإبادة بحق سكان المدينة المسلمين واليهود حيث أحلوا مكانهم نصارى أوروبيون وبقي هذا الحال إلى أن أعاد صلاح الدين الأيوبي المدينة للحكم الإسلامي فظل التعايش والتنوع الديني إلى نهاية الحكم العثماني الذي استمر إلى عام ١٩١٧م، حيث جاء الاحتلال الإنجليزي الذي مهد الطريق وساهم بشكل أساسي في تمكين اليهود من المدينة حيث أصبحوا لأول مرة منذ آلاف السنين أغلبية السكان.

### الطوائف والأديان

كانت مدينة القدس مدينة مسيحية خالصة ولم يوجد فيها أي دين آخر وبقي هذا الأمر حتى عام ٦٣٦م تاريخ دخول المسلمين الى بلاد الشام حيث انتصروا في معركة اليرموك وأصبحت الطريق سالكة الى القدس بعد هزيمة البيزنطيين وتحلي الغساسنة عن الحلف مع الإمبراطورية البيزنطية، وفي عام ٦٣٧م عسكر الجيش الاسلامي خارج أسوار مدينة القدس ونظم البطريرك صفرونيوس خطوط الدفاع حول المدينة بمساعدة حامية بيزنطية بقيت تدافع عن المدينة مدة أربعة اشهر

لقي المسلمون خلالها مشقة عظيمة بسبب أحوال الطقس وضراوة المعارك التي كانت تحصل بين الطرفين، بعد هروب هرقل وتركه بلاد الشام حصلت مفاوضات بين صفرونيوس وقادة الجيش الإسلامي افضت الى تسليم المدينة للمسلمين بشرط حضور الخليفة عمر بن الخطاب<sup>٢</sup> هذا التسليم حيث حضر بصورة شخصية لأهمية هذا الحدث كون مدينة القدس كانت القبلة الأولى وفيها المسجد الأقصى وحدثت فيها حادثة الاسراء والمعراج.

دخل عمر بن الخطاب المدينة بثياب بسيطة برفقة البطريرك صفرونيوس وكان في استقباله قادة المدينة من أساقفة ورهبان وشمامسة يحملون الصليب المقدس وكانوا يرتدون الملابس الفاخرة وبعد حديث دار بين عمر بن الخطاب و صفرونيوس تم كتابة معاهدة بين المسيحيين والمسلمين عرفت فيما بعد بالعهد العمرية وتنص هذه المعاهدة على ما يلي: (١) بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها.. أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخْرِجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم<sup>٤</sup>.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. كتب وحضر سنة خمس عشرة هجرية. شهد على ذلك: خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان<sup>٥</sup>.

جرى دخول المدينة بكل سلاسة وبدون إراقة قطرة دم واحدة وفي وصف ما جرى بعد دخول عمر المدينة تقول الكاتبة كارين ارموسنرج في كتابها مدينة واحدة وثلاث اديان» عبر عمر أيضا عن مبدأ التراحم التوحيدى أكثر من أي ممن فتحوا المدينة قبله، ربما باستثناء الملك داوود، فقد أشرف على أكثر غزوي في المدينة سلاما ودون إراقة للدماء، لقد كان فتحا لما تشهد المدينة مثله في تاريخها الطويل والمساوي في غالب الأحوال، فمجرد ان استسلم المسيحيون لم يحدث قتل او تدمير للممتلكات او احراق للرموز الدينية المنافسة، وأيضا لم يكن هناك طرد للسكان او نزع للملكية او محاولة لإجبار السكان على اعتناق الإسلام، ولو أخذنا احترام سكان المدينة السابقين معيارا لسلامة وقوة العقيدة التوحيدية، يمكننا القول هنا ان الإسلام قد بدأ ولايته الطويلة بداية حسنة جدا<sup>٦</sup>.

قام عمر بزيارة كنيسة القيامة برفقة البطريرك صفرونيوس وأعجب بأسلوب بنائها وجمال زخرفها، وعندما حان وقت الصلاة دعاه البطريرك الى الصلاة داخل الكنيسة ولكن عمر رفض هذا الامر وصلى خارج الكنيسة على مقربة منها وعلل عمر هذا الامر بانه لو صلى داخل الكنيسة لوضع المسلمون يدهم عليها بحجة صلاتي فيها، وبعدها قام عمر بزيارة الصخرة التي كانت تستخدم كمكب للقذارة وكان هذا الامر نكايه في اليهود ومن اجل اغاظتهم، وعندما رأى عمر

٢ الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، ط١، القاهرة: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ص١، ٢٢٦.

٣ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٩٧م، ٦٠/٧.

٤ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ط٢، بيروت: دار التراث، ١٩٦٧، ٦٠٩/٣.

٥ الطبري، تاريخ الطبري، مرجع سابق، ٦٠٩ /٣.

٦ أرمسترونج. كارين. القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث. ط١. القاهرة: سطو، ١٩٩٨م. ٣٨٦.



هذا الامر بدأ بإزالة القذارة بيده<sup>٧</sup> وعمل المسلمين على هذا الامر حتى ازالوا القذارة منها، وبعدها امر عمر بن الخطاب ببناء المسجد الأقصى من الخشب حيث كان يتسع لحوالي ٣٠٠٠ مصلاً<sup>٨</sup>.  
عين عمر بن الخطاب يزيد ابن ابي سفيان عاملاً على المدينة تحت امره أبو عبيدة عامر بن الجراح وسلامة بن قيسر اماماً للصلاة وعلقمة بن مجزز قائداً عسكرياً في المدينة وبعدها رجع الى المدينة المنورة.

#### ١- المسلمون:

دخل الإسلام المدينة منذ الفتح الإسلامي، وبسبب وجود المسجد الأقصى فيها انتقل إليها عدد كبير من العلماء، حيث أصبحت منارة للعلم والعلماء وسكنها عدد من الصحابة<sup>٩</sup>، ونزلها اخرون للعبادة او التبرك، او لزيارة مقدساتها والتعرف على معالمها، وكان المسلمون يحرصون على بداية منسك الحج منها وكانوا يلبسون مآزر الأحرار منها قبل دخولهم مكة، وفي أحيان أخرى كانوا يأتون الى زيارتها بعد أدائهم فريضة الحج حيث اعتبره البعض كحج إضافي.  
أصبحت تعرف المدينة في العهد الإسلامي باسم بيت المقدس والقدس وكان اهل الشام يطلقوا عليها ايلياء، ولم يجبر أحد من المسيحيين على دخول الإسلام وبقيت المدينة تمتاز بالصبغة المسيحية حتى القرن الثامن الميلادي حيث ان اعتناق الأهالي الإسلام لم يلق تشجيعاً من السكان<sup>١٠</sup>، وبقي يسكن المدينة خليط من السكان كما كان دائماً، وسكن المسلمون في مكان منعزل عن السكان بمجمعات عسكرية ولم يحاولوا السكن في المناطق المعتدلة في مدينة القدس والتي كانت تضم المناطق المسيحية<sup>١١</sup>.

وخلال المراحل اللاحقة في الفترة الاموية والعباسية كان المسلمون اقلية سكانية في المدينة<sup>١٢</sup>، وبقي الحال كما هو عليه حتى الهجوم الصليبي على المدينة والذي أدى الى القضاء على المسلمين بشكل كامل<sup>١٣</sup>، وأصبح المسلمون يشكلون الكتلة الأكبر من السكان في مراحل لاحقة خلال الحكم المملوكي والعثماني الذي استمر حتى عام ١٩١٧م. وعاش الجميع جنباً الى جنب في علاقة يسودها الود والاحترام، ولم يعكر هذا التعايش إلا الاحتلال الإنجليزي للمدينة وتمكين اليهود من السيطرة عليها.

وخلال الحكم العثماني كان المسلمون جميعاً من أهل السنة والجماعة<sup>١٤</sup> وحصل تواجد للمذاهب الأربعة في المدينة<sup>١٥</sup>: الشافعي حيث يوجد مفتٍ للشافعية في المدينة، والمالكي، والحنبلي<sup>١٦</sup> والحنفي<sup>١٧</sup> حيث وجد إمام للمذهب الحنفي، وكان مذهب الدولة الرسمي، واعتمد القضاء عليه في الأحكام والقضايا الفقهية<sup>١٨</sup>. وانتشرت الطرق الصوفية في المدينة التي صبغتها بصبغة صوفية تجلت في الزوايا المنتشرة في جميع أنحاء المدينة، وكانت هذه الزوايا مدعومة من قبل الدولة العثمانية

٧ ابن كثير، البداية والنهاية، مرجع سابق، ٦١/٧.

٨ الدباغ، مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. ط٢. كفر قرع، دار الهدى، ١٩٩١م، ٩٥/٩.

٩ الدباغ. بلادنا فلسطين، مرجع سابق، ١٠٣/٩.

١٠ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٣٩٠.

١١ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٣٩.

١٢ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٠٣.

١٣ الداوداري، أبو بكر بن عبد الله، كنز الدرر وجامع الغرر، ط١، عيسى الباني، ١٩٨٢، ٨٥/٧.

١٤ الكيالي، عبد الوهاب. تاريخ فلسطين الحديث. ط١٠. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠م. ٣٨.

١٥ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٩٥. القدس: المحكمة الشرعية. ١٢٣.

١٦ الطراونة، فاطمة. الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوربي فيها في العصر الحديث والمعاصر. ط١. عمان، ٢٠٠٠م. ٨.

١٧ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٩٥. مرجع سابق. ١٠٩.

١٨ دروزة، محمد عزة. خمسة وتسعون عاماً في الحياة ومذكرات وتسجيلات. ط٢. القدس: الملتقى الفكري العربي، ١٩٩٣م. ١، ٢٢.

التي شجعت أصحاب الطرق الصوفية وخصصت لهم الرواتب والأوقاف التي كانوا ينفقون على أتباعهم من خلالها<sup>١٩</sup>. وسكن المسلمون في معظم حارات المدينة مثل حارات: المغاربة<sup>٢٠</sup> وباب السلسلة<sup>٢١</sup> والواد<sup>٢٢</sup> والشرف<sup>٢٣</sup> وباب حطة<sup>٢٤</sup> وباب العامود<sup>٢٥</sup> وسيدنا داوود عليه السلام<sup>٢٦</sup>، وسكنت معهم بعض العائلات النصرانية واليهودية<sup>٢٧</sup>، وأما في حارات المسيحيين واليهود والأرمن فسكنتها بعض عائلات المسلمين بتباين من حارة إلى أخرى<sup>٢٨</sup>. وجد في كل حارة إمام لها يتولى الأمور الدينية للسكان وتزكية الشهود<sup>٢٩</sup>، وعمل المسلمون في الوظائف الحكومية المختلفة حيث تنافست العائلات في المدينة على شغل هذه المناصب ووجد تنافس كبير في بين عائلات الجاني والحسيني والنمري والعلمي والشهابي والخالدي وتنافسوا على تولية الوظائف الدينية كإمامة المسجد الأقصى وقبة الصخرة والإفتاء والتدريس والأشراف على الأوقاف، وعملوا في التجارة والصناعة والزراعة.

## ٢- المسيحيون:

يرجع الوجود المسيحي في المدينة إلى ما قبل الفتح الإسلامي، وظلت مدينة القدس مدينة يسكنها اغلبية مسيحية<sup>٣٠</sup>، حيث استمر هذا الوجود بنسب متفاوتة إلى نهاية الحكم العثماني، وكان المسيحيون يتبعون الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية ومركزها القسطنطينية، برعاية الدولة البيزنطية<sup>٣١</sup>. وبقي هذا الأمر إلى الحروب الصليبية التي أسست بطيركية لاتينية وضعف دورهم كثيرا مع هزيمة الصليبيين في معركة حطين.

ونظرا لأهمية المدينة الدينية ووجود أهم الأماكن الدينية لهم فيها، فقد شهدت المدينة صراعات كثيرة حول حدود كل طائفة داخل كنيسة القيامة والأولوية في أداء بعض الطقوس، مثل غسل القيامة وكذلك الاختلاف في توقيت الأعياد والمناسبات الدينية، وتطور هذا النزاع بين الطوائف المسيحية المختلفة إلى قتال مرير سقط فيه قتلى وجرحى بسبب تقاسم النفوذ على الأماكن المقدسة<sup>٣٢</sup>، ونظرا لعدم الثقة بين مختلف الطوائف النصرانية اتفقوا على إيداع مفتاح باب كنيسة القيامة إلى المسلمين، وأصبحوا يشرفون على فتحها وإغلاقها. وهناك عائلات مسلمة تولت هذا الأمر ومنهم آل غضية «جودة» التي تحتفظ بالمفتاح وتعطيه لآل نسبية الذين يقوم أحدهم بفتح باب الكنيسة<sup>٣٣</sup>.

وقامت الدولة العثمانية، وبسبب تكرار هذه الأحداث عشرات المرات، بإصدار تشريعات حددت من خلالها حقوق جميع الطوائف المسيحية فيما يخص سلطتها على الأماكن المقدسة وهذا النزاع ليس نزاعا محليا فقط يخص

- |    |  |
|----|--|
| ١٩ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٤٠٧. مرجع سابق. ٨١.  |
| ٢٠ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٣. مرجع سابق. ٢٠.  |
| ٢١ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٤. مرجع سابق. ٤٣.  |
| ٢٢ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٣. مرجع سابق. ١٣.  |
| ٢٣ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٩٧. مرجع سابق. ٧١.  |
| ٢٤ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦١. مرجع سابق. ٢٨٢.   |
| ٢٥ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٢. مرجع سابق. ١٣٣. سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٢. مرجع سابق. ١٣٣.                  |
| ٢٦ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٤٠٩. مرجع سابق. ١٠٠.   |
| ٢٧ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٩٣. مرجع سابق. ١٠٤.   |
| ٢٨ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٤٠٢. مرجع سابق. ٧٨.  |
| ٢٩ | سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٩٧. مرجع سابق. ١٠٨.   |
| ٣٠ | أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٣٩١.   |
| ٣١ | الطراونة. الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوربي فيها في العصر الحديث والمعاصر. مرجع سابق. ١٠. |
| ٣٢ | العارف. عارف باشا. المفصل في تاريخ القدس. ط٢. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤م. ٣٦٣.  |
| ٣٣ | الدباغ، مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. ط٢. كفر قرع، دار الهدى، ١٩٩١م، ١٠، ١٤٥.   |

مسيحي المدينة، ولكن امتد إلى الدول الراحية للطوائف المختلفة، ففرنسا كانت تعتبر نفسها حامية لطائفة اللاتين فعمدت إلى عقد اتفاقيات مع الدولة العثمانية من أجل الحصول على امتيازات دينية في الأماكن المقدسة، وتبعها روسيا التي كانت تعتبر نفسها راعية للطائفة الأرثوذكسية في العالم حيث وقعت على اتفاقيات مع الدولة العثمانية للحصول على امتيازات في الأماكن المقدسة<sup>٣٤</sup>.

### العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في القدس

شكل الفتح الإسلامي للمدينة صفحة جديدة في تاريخها الدامي الذي عاشته على مر العصور، فبعد أن كانت مدينة لدين واحد متحكم في كل نواحيها أصبحت مدينة متنوعة الأديان، فقد بقي المسيحيون فيها يمارسون حريتهم الدينية، وظلت أماكنهم الدينية ملكاً لهم، أما اليهود فقد كانت عداوتهم التاريخية سبباً في طلب المسيحيين من عمر بن الخطاب أن لا يسكن المدينة أحد من اليهود، ولكن المسلمين تساهلوا مع اليهود الذين سكنوا المدينة وأعتبر بعض المؤرخين أن هذا الشرط لم يكن موجوداً في الوثيقة الأصلية لأن الواقع لم يكن يشير إلى خلو المدينة من اليهود في أي فترة زمنية من فترات وجود المسلمين في المدينة، وفي الحروب الصليبية وذبح الصليبيين للمسلمين واليهود عادت المدينة إلى سابق عهدها حيث الدين الواحد المصير، ولكن استرجاع صلاح الدين لها أعادها إلى سابق عهدها في مربع التعايش وتعدد الأديان حيث سمح للمسيحيين العرب بسكن المدينة وعاد اليهود إلى السكن فيها بعد أن منعهم الصليبيون من ذلك، وبقي هذا الأمر حتى مجيء الدولة العثمانية.

### صدر الإسلام:

بعد دخول عمر بن الخطاب إلى المدينة بدأت مرحلة جديدة من تاريخ المدينة حيث كان دخول المسلمين إلى المدينة دخول منظم وهادئ تم دون إراقة الدماء واحترام المسلمون بنود الصلح بشكل كامل ولم يحدث قتل أو تدمير للممتلكات أو هدم لدور العبادة الخاصة بالمسيحيين وبقي السكان في أماكن سكنهم ولم يتم إجبار أحد على اعتناق الإسلام<sup>٣٥</sup>. اصطحب البطريق صفرونيوس عمر بن الخطاب لزيارة المدينة والأماكن المقدسة للمسيحيين وحثهم على الصلاة وهم في كنيسة القيامة وطلب البطريق من عمر أن يصلي داخل الكنيسة<sup>٣٦</sup>، ولكن عمر رفض ذلك خشية من أن يتخذها المسلمون مكان خاص بالعبادة اقتداء بما فعله<sup>٣٧</sup>.

ظل مسيحيو مدينة القدس يشكلون أغلبية السكان وفرض عليهم دفع الجزية مقابل الحماية العسكرية، وسمح للحجاج المسيحيين بدخول المدينة من خارج مناطق الدولة الإسلامية، وطراً تطور لافت على الحرية الدينية التي كانت تشهد اضطهاد للمخالفين من المسيحيين واليهود.

### العصر الأموي:

بدأ المسلمون في العهد الأموي بالاهتمام في مدينة القدس بشكل كبير حيث قام الخليفة عبد الملك بن مروان بإصلاح أسوار وبوابات المدينة وبنى دار الإمامة قرب المسجد الأقصى وقبة الصخرة التي أمر بتشييدها عام ٦٨٨ م وحرص

٣٤ كتن، هنري. القدس. ط١. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩٧م. ٢٦.

٣٥ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق ٢٨٦.

٣٦ ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ بن خلدون، ط٢، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨، ٢ / ٢٦٨.

٣٧ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق ٢٨٧.

على ان تكون متقنة البناء جميلة المظهر ووظف من اجل هذا الامر حرفيين ومهندسين من بيزنطة<sup>٣٨</sup>، وفي عهد الوليد بن عبد الملك بني المصلى القبلي، وفكر سليمان بن الوليد ان يجعل المدينة عاصمة للدولة الإسلامية وان يعيش فيها ويجلب عدداً كبيراً من السكان للعيش فيها، ولكن بسبب موقع المدينة وبناء مدينة الرملة التي استحوذت على جزء كبير من قوة وازدهار مدينة القدس، وهناك امر اخر منع الامويين من اتخاذ القدس عاصمة لدولتهم هو ان اغلبية السكان في المدينة كانت من المسيحيين الذين بقوا على دينهم منذ دخول المسلمين المدينة في عهد عمر بن الخطاب، وكان هناك اتجاه عام عند المسلمين بعدم إقامة عواصمهم في المدن التي توجد فيها الأماكن الدينية<sup>٣٩</sup>.

شهدت المدينة تعايش بين السكان في العهد الأموي وبسبب بناء الامويين مدينة الرملة واتخاذها كمركز لهم فقدت المدينة جزء من اهتمام الامويين فيها وأدى الامر الى تراجع في عدد السكان الذين فضلوا السكن في مدينة الرملة.

### الخلافة العباسية:

وفي العهد العباسي ازداد التوتر بين المسيحيين واليهود وخاصة حول مكانة مدينة القدس حيث اعتقد كل طرف بخطأ الطرف الاخر، وأدى نقل عاصمة الدولة الاسلامية من دمشق الى بغداد الى زيادة التوتر في المدينة بين مختلف الأديان والطوائف حيث قل اهتمام العباسيين بها مقارنة بالأمويين الذي اولوها اهتماما خاصا، وادى انتشار الطاعون الى القضاء على عدد كبير من السكان، وحدثت هجمات من البدو على المسيحيين في مدينة القدس وما حولها وكان البدو يخدمون في الدولة الاموية ولكن العباسيين استثنوهم من الخدمة العسكرية مما أدى الى حدوث حالة من التمرد لديهم وخصوصا مع الوضع الاقتصادي السيء الذي كانوا يعيشون فيه في مناطق فلسطين.

ساهمت العلاقة الجيدة بين الخليفة العباسي هارون الرشيد وبين ملك الفرنجة شارلمان الى تعزيز وجود الأخير في المدينة حيث تبادل الهدايا مع هارون الرشيد<sup>٤٠</sup>، وأرسل له مفتاح كنيسة القيامة وسمح له ببناء نزل ديني قبالة كنيسة القيامة وبني كنيسة ومكتبة فخمة وبني مبنى يضم ١٢ غرفة من اجل مبيت الحجاج<sup>٤١</sup>.

حدث زلزال قوي دمر قبة كنيسة القيامة على أثره، وحدث أيضا ان هاجمت اسراب الحراد مزروعات الفلاحين في المناطق القريبة من القدس، وحدثت ثورة من الفلاحين في فلسطين في عام ٨٤١م بقيادة تميم أبو حرب حيث أعلن انه سوف يعيد حكم الامويين، فهاجم مدينة القدس وفر جميع سكانها المسيحيين واليهود والمسيحيين وهاجم الأماكن الدينية فيها واستطاع بطريك المدينة ان يحمي كنيسة القيامة من التدمير بعد أن قدم رشوة كبيرة لزعيم الفلاحين<sup>٤٢</sup>.

### الدولة الطولونية:

وساهمت الدولة الطولونية التي استولت على السلطة في مصر عام ٨٦٨م وأصبحت سوريا وفلسطين تحت سيطرتها وتمكنت من فرض القانون وتحسن الاقتصاد وانتعاش التجارة في مدينة القدس، وتعاملت مع المسيحيين واليهود بشكل مميز حيث عينت حاكما مسيحيا على مدينة القدس وقامت بإعمار ما تهدم من الكنائس والاديرة<sup>٤٣</sup>.

لقد تقبل المسلمون فكرة وجود اغلبية مسيحية في مدينة القدس، وكانوا يشاركونهم في احتفالاتهم بأعيادهم

٣٨ الاسيوطي، شمس الدين بن محمد، اتحاف الأخصا بفنائل المسجد الأقصى، ط١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتب، ١٩٨٤، ٢٤٢/١.

٣٩ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق ٤٠٨.

٤٠ ديورانت، ويليام جيمس، قصة الحضارة، ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨، ٩٤/١٤.

٤١ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٢٠.

٤٢ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤١٩.

٤٣ موسوعة سفير، ٣/٣٦٣.

المختلفة مثل بدء حصاد الكروم وعيد القديسة باربرا، وادت الحرب التي اعلنها اليونانيون على المسلمين في اسيا الصغرى وقبرص الى تنامي العداء بينهم، ونمت فكرة إعادة احتلال مدينة القدس حيث دعا البطريك جون الرابع الإمبراطور البيزنطي الى إعادة احتلال المدينة، وحدث اثر ذلك مواجهات بين المسلمين والمسيحيين في المدينة أدت الى اشعال النار في أجزاء من كنيسة القيامة، وقام المسلمون ببناء مسجد عمر بالقرب من كنيسة القيامة حيث كان اول بناء إسلامي في المنطقة المسيحية<sup>٤٤</sup>.

### الحكم الفاطمي:

وبعد سيطرة الفاطميين على المدينة، كان موقف المسلمين والقبائل العربية موقف حذر حيث كانت القبائل العربية التي كانت تسكن بجوار المدينة دائمة العصيان والتمرد، واما اليهود فقد قدموا لهم كل اشكال الدعم والمساندة، وساعد المسيحيين على تقوية وضعهم قيام الخليفة الفاطمي بتوقيع معاهدة صلح مع الدولة البيزنطية وهذا الامر ساهم في اتخاذ الإجراءات اللازمة للبدء بإعادة تعمير كنيسة القيامة وساهم أيضا في استقرار الأوضاع داخل المدينة وخفت حدة التوتر بين مختلف الأديان، وبعد تولى الخليفة الفاطمي الحاكم لأمر الله الحكم بنفس المسيحيين الصعداء حيث انه كان معروف عنه التزامه بمبدأ العدالة الاجتماعية الشيعي وكانت امه أيضا مسيحية، فقام بتعيين خاله بطيركا على المدينة وابدى رغبة في تقوية العلاقة مع مسيحيي المدينة وشهدت بداية حكمه تقاربا مع الدولة البيزنطية وهذا الامر ترك اثرا في المدينة وفي العالم.

غير ان هذا الامر لم يستمر كثير حيث كان معروفا عنه تقلباته الكثيرة وقسوته بسبب تعصبه المذهبي، فأصدر امرا بهدم كنيسة القديس مورقوريوس في القسطنطينية حيث ادعى انها بنيت دون تصريح، وقام بمصادرة أملاك المسيحيين في مصر وحرق الصلبان، وكان سبب تصرفه هذا ما اشيع عن علاقة مسيحيي القدس وفلسطين بالتمرد الذي قامت به القبائل البدوية وأصبح يشكل تحدياً كبيراً لبقاء الدولة الفاطمية في فلسطين.

وفي تطور مفاجئ أصدر الحاكم لأمر الله امر بهدم كنيسة القيامة وإزالة أساساتها من الأرض<sup>٤٥</sup>، ونفذ حاكم الرملة الامر بدقة كبيرة حيث هدم جميع الكنائس والاديرة في الجلجثة وحطم المقبرة ونقل الأحجار الى خارج المدينة، وكتب ناصر خسرو في كتابه سفر نامه عن الموضوع ما يأتي: «وَقَدْ أَمَرَ الْحَاكِمُ هَذَا بِالْإِغَارَةِ عَلَى الْكَنِيسَةِ فَهَدَمَهَا وَخَرَبَهَا وَظَلَّتْ خَرِبَةً مُدَّةً مِنَ الزَّمَانِ وَبَعْدَ ذَلِكَ بَعَثَ الْقَيْصَرَ إِلَيْهِ رِسَالًا وَقَدَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْهَدَايَا وَالْخِدْمَاتِ وَطَلَبَ الصُّلْحَ وَالشَّفَاعَةَ لِيُؤْذَنَ لَهُ بِإِصْلَاحِ الْكَنِيسَةِ فَقَبِلَ الْحَاكِمُ وَأَعِيدَ تَعْمِيرُهَا»<sup>٤٦</sup>، وأصدرت تعليمات جديدة مخالفة للمعهود من الحكام المسلمين حيث عمل على فصل المسيحيين واليهود عن المسلمين واجبرهم على اعتناق الإسلام وقام بفرض تعليق المسيحيين لصلبان كبيرة على صدورهم واليهود كتل خشبية كبيرة، وهذا الامر اجبر عدد كبير من المسيحيين بالهرب الى خارج حدود سيطرة الدولة الفاطمية، وعن ما فرضه الفاطميين على اهل القدس المسيحيين واليهود يقول... في كتابة مرآة الزمان في تواريخ الاعيان: «مَنْ أَرَادَ الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ دَخَلَ، وَمَنْ أَرَادَ النُّقْلَةَ إِلَى بِلَادِ الرُّومِ كَانَ آمَنًا، وَمَنْ أَقَامَ فَلْيَلْبَسِ الْغِيَارَ، وَيَلْتَزِمَ مَا يَشْتَرِطُ عَلَيْهِ، فَخَافُوا أَنْ يَكُونَ هَذَا خَدِيعَةً لِيُقْتَلُوا، فَأَسْلَمَ أَكْثَرُهُمْ، وَخَرَجَ بَعْضُهُمْ إِلَى الرُّومِ، وَمَنْ كَانَ ثَقِيلَ الظَّهْرِ أَقَامَ، فَشَرَطَ عَلَيْهِمْ تَعْلِيقَ الصُّلْبَانِ فِي صُدُورِهِمْ، وَشَرَطَ عَلَى الْيَهُودِ تَعْلِيقَ تَمَثَالٍ عَلَى هَيْئَةِ رَأْسِ عَجَلٍ، وَمَنْعَهُمْ مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ وَالتَّخْتُمِ فِي الْيَمِينِ، وَرَخَّصَ لَهُمْ فِي رُكُوبِ الْحَمِيرِ وَالبِغَالِ بِالسُّرُوجِ السَّوَادِجِ وَالرُّكُوبِ الْخَشْبِ، وَفِي كُلِّ صَلِيبٍ أَرْبَعَةَ أَرْطَالٍ بِالْبَغْدَادِيِّ، وَالخَشْبَةَ الَّتِي يَعْلقُهَا الْيَهُودِيُّ كَالْمِدْقَةِ، وَزُنْهَا سِتَّةَ أَرْطَالٍ، وَإِذَا دَخَلُوا الْحَمَامَاتِ عُلِّقُوا فِي

٤٤ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٢٦.

٤٥ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٣١.

٤٦ المروزي، ناصر خسرو، سفر نامه، ط٣، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣، ٧٤.



أعناقهم أجراسًا؛ لِيتمَيَّزُوا عن المسلمين»<sup>٤٧</sup>.

أصبحت مدينة القدس كتلة من الخراب وحدثت اضطرابات كثيرة بسبب تصرفاته التي قام بها حيث منع المسلمين من أداء فريضة الحج وصيام رمضان وأعاد للمسيحيين املاكهم التي اخذت منهم، ونجحت قبيلة الجراح بطرد الفاطميين من فلسطين، ولكنهم سرعان ما عادوا في عهد الخليفة الظاهر الذي سمح للمسيحيين بإعادة بناء كنيسة القيامة. كانت علاقة اليهود مع الدولة الفاطمية علاقة مميزة حتى انهم ابقوا على ولائهم في ظل سيطرة قبيلة الجراح على المدينة وتعرضوا بسبب ذلك الى الأذى والاضطهاد، وكان اليهود يعملون في تداول النقود والصباغة ودبغ الجلود، بينما المسيحيين يعملون في الاعمال ذات الشأن العالي والدخل الممتاز. السلاجقة الأتراك:

تمكن السلاجقة الأتراك من الحاق الهزيمة بالدولة الفاطمية وتمكن القائد ارتق بك من دخول المدينة في عام ١٠٧٣م<sup>٤٨</sup>، وأصدر عفوا عاما عن جميع سكان المدينة ومنع جنده من التعرض لاي شخص او مصادرة اية ثروة، وقام بتعيين حراس على الكنائس والاديرة والمساجد، وشهدت المدينة في عهدهم حركة علمية وفكرية وقاموا ببناء المساجد والمدارس، وقد أعجب الرحالة الاندلسي ابن العربي بالوضع في المدينة حيث كان العلماء المسلمون والمسيحيون واليهود يقومون بجوارات يتدارسون من خلالها امور الدين والعلوم المختلفة<sup>٤٩</sup>. أصبحت مدينة القدس في عهد السلاجقة من اهم مدن فلسطين وازدهرت فيها الحياة حيث كان يزورها الاف الحجاج المسيحيين من مختلف مناطق العالم.

#### الصلبيين:

وفي عام ١٠٩٨م تمكن الفاطميون من الاستيلاء على المدينة مرة أخرى بعد حصار استمر ستة شهور، وفي عام ١٠٩٩م تمكن الصليبيون من السيطرة على المدينة وقاموا بمذبحة كبيرة استمرت لمدة ثلاثة أيام قتلوا من جميع من كان في المدينة من المسلمين ولم يبقوا على أحد منهم<sup>٥٠</sup>، وأسفرت عن قتل ٣٠ الفا من سكان المدينة الذين التجأوا الى المسجد الأقصى وقتلوا جميع النساء والأطفال والشيوخ ولم ينج منهم أحد، وهاجموا اليهود واقتلوهم داخل بيوتهم ومعابدهم ولم يتمكن أحد منهم من النجاة، وأصبحت المدينة خالية من غير المسيحيين.

أصدر الصليبيين قررا بمنع المسلمين واليهود من دخول المدينة، وقاموا أيضا بطرد المسيحيين المحليين لأنهم شكوا في تأمرهم مع المسلمين، وكان الصليبيون لا يميزون بين المسلمين والاقباط والمسيحيين السوريين، وأصبحت المدينة قليلة السكان ولم يسكنها الا قلة قليلة من الصليبيين، واستولوا على قبة الصخرة وحولوها الى كنيسة أطلق عليها معبد الرب<sup>٥١</sup>.

#### الدولة الايوبية:

وفي عام ١١٨٧م تمكن صلاح الدين الايوبي من السيطرة على مدينة القدس بعد اتفاق مع الصليبيين يفضي الى دفع ضريبة مقابل تامين خروجهم من المدينة، ولم يقتل أي مسيحي في اثناء الاستيلاء على المدينة، كما انه قام بمساحة من لم يستطع دفع الضريبة وسمح لهم بأخذ أموالهم معهم الى المدن الساحلية، وأما مسيحيي القدس فقد بقوا في المدينة على

٤٧ ابن الجوزي، شمس الدين بن المظفر، مرآة الزمان في تواريخ الاعيان، ط١، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠١٣، ١٨ / ١٧١.

٤٨ ابن تغري ردي، يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: دار الكتب، ١١٥/٥.

٤٩ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٤٦.

٥٠ الداوداري، كنز الدرر وجامع الغرر، مرجع سابق، ٨٥ / ٧.

٥١ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٥٣.

نفس الشروط التي كانت موجودة قبل سيطرة الصليبيين على المدينة، وترك الصليبيين المدينة شبه مدمرة خالية من السكان وعمل صلاح الدين الايوبي منذ اللحظة الأولى على تطهير المسجد الأقصى وإزالة أي زيادات أحدثها الصليبيون في داخل المسجد، ولم يهدم كنيسة القيامة اقتداء بما فعله عمر بن الخطاب<sup>٢٠</sup>، وعمل صلاح الدين الايوبي على تحويل المدينة الى مدينة إسلامية للمرة الأولى في تاريخها منذ أن فتحت في عهد عمر بن الخطاب اول مرة بعد ان كانت مدينة يغلب عليها الطابع المسيحي.

استمر العمل بمبدأ التعايش بين مختلف الأديان الذي كان سائدا قبل هجوم الصليبيين واستلائهم على المدينة، وعاش في المدينة بضعة الاف من المسيحيين السوريين، ومنع الأرثوذكس اليونانيين من السيطرة على كنيسة القيامة، وفي عام ١٢٢٩م وقع السلطان الايوبي الكامل مع فريديريك إمبراطور المانيا معاهدة مدتها عشر سنوات تم من خلالها تسليم مدينة القدس وبين لحم والناصره على ان يتم السماح للمسلمين بالعيش في المدينة وممارسة شعائرهم وعبادتهم دون أي عوائق، ومنع اليهود من السكن داخل المدينة.

#### المماليك:

بعد هزيمة المغول في معركة عين جالوت على يد الظاهر بيبرس خضعت مدينة القدس للدولة المملوكية التي وحدت بلاد الشام ومصر، وكانت المدينة مهمة جدا للسلطين المماليك الذين حرصوا على زيارتها وبناء ابنية عديدة ووقفها<sup>٢١</sup>، وفي عهد الظاهر بيبرس الذي زار المدينة في عام ١٢٦٣م بدأ موسم النبي موسى والنبي صالح والذي كان يتم التجمهر فيه داخل مدينة القدس والمسجد الأقصى ومن ثم تتوجه الجموع الى المقامين في أجواء احتفالية صاخبة، وكان الموسم يتم قبل أسبوع من احتفال المسيحيين بعيد القيامة، وكان الهدف منه ربط المسلمين بالقدس وجعلهم مستعدين للدفاع عنها في أي وقت، وكانت الاحتفالات تتم بهدوء خارج المدينة بينما يحتفل المسيحيين بعيد القيامة بكل اريحية ودون اية منغصات. تمكن السلطان المملوكي خليل بن قلاوون من القضاء نهائيا على الوجود الصليبي بعد ان طردهم من مدينة عكا<sup>٢٢</sup>، وأصبحت فلسطين لأول مرة منذ ٢٠٠ عام خالية من الوجود الصليبي وهذا الامر أدى الى تحسن الوضع في المدينة حيث شعر المسلمين بالأمان وأصبح بإمكانهم العودة الى المدينة دون الخوف من هجمات صليبية<sup>٢٣</sup>.

#### الحكم العثماني:

خلال الحكم العثماني للمدينة ساد التعايش بين مختلف الطوائف، ولم يعكر هذا الجو إلا بعض الخلافات التي كانت تجري بين الطوائف وبين أبناء الطائفة الواحدة، ومما يذكر أن هذا الأمر أدهش الرحالة الأوربيين الذين لم يجدوا هذا الأمر في مدنهم حيث يقول (دافيد داي روس اليهودي) الإيطالي الذي زار المدينة في عام ١٥٣٥م: «لسنا هنا في شتات كما هو الحال في بلدنا...فالقائمون هنا بأمر الجمارك والمكوس هم من اليهود، كما لا توجد ضريبة خاصة تفرض على اليهود»<sup>٢٤</sup>، ومن اللافت للانتباه أن العلاقة بين المسلمين واليهود والمسيحيين كانت أفضل حالا من العلاقة بين اليهود والمسيحيين، أو حتى من العلاقة بين الطوائف النصرانية المختلفة، ووصفت مجلة فرنسية يهودية أوضاع اليهود في الدولة العثمانية في عام ١٨٦٧م بقولها: «يتمتع اليهود في تركيا بقدر من المساواة قل نظيره حتى في أكثر البلاد حضارة ورقيا؛ لأن

٥٢ السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ط١، مطبعة نزار الباز، ٢٠٠٤، ٣٢١.

٥٣ ابن تغري رردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ١٢١٧.

٥٤ ابن تغري رردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مرجع سابق، ٥٨/٥.

٥٥ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٤٩٨.

٥٦ أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، مرجع سابق، ٥٢٨.

جلالة السلطان وحكومة الباب العالي ينتهجان سياسة بالغة في التسامح تجاه اليهود<sup>٥٧</sup>. واستمرت أجواء التسامح بين المسلمين والمسيحيين لفترة جيدة، حتى أن مؤسسة عسكرية بريطانية وصفت الجو السائد في المدينة قبيل الاحتلال الإنجليزي للمدينة: «أن المسلمين من سكان القدس وضواحيها يكونون للمسيحيين العطف والمودة، ولكنهم شديداً للعداء لليهود»<sup>٥٨</sup>، ولم يعكس صفو هذه العلاقة إلا الحركة الصهيونية التي كانت تسعى للسيطرة على فلسطين؛ لإقامة وطن قومي لليهود حيث توترت الأوضاع عندما أحس سكان المدينة بمخطر الاستعمار اليهودي الذي كان يدعمه يهود أوروبا والدول الأوربية، حيث فطن أهالي المدينة إلى هذا الخطر فقاموا برفع عريضة إلى الدولة العثمانية وقعها ٥٠٠ شخص طالبتها بمنع هجرة اليهود وشراهم الأراضي<sup>٥٩</sup>.

ويمكن تقسيم السكان في المدينة إلى قسمين:

١- أهالي المدينة الأصليين حيث كانوا من المسلمين والمسيحيين واليهود، وهؤلاء كانت تسود بينهم علاقات الجوار وحسن المعاملة حيث أن اليهود والمسيحيين<sup>٦٠</sup> كانوا يتحاكمون إلى المحاكم الشرعية في حال حدوث مشاكل فيما بينهم<sup>٦١</sup>، وكانوا يفضلون الذهاب إلى تلك المحاكم في حالات كثيرة وخصوصاً في حالات الميراث؛ وذلك لأن المحاكم الشرعية كانت تنصفهم وتساوي بينهم في الحقوق<sup>٦٢</sup>، وفيما يلي سجل شرعي يتضمن دعوى لدى محكمة القدس الشرعية مرفوعة من قبل نصارى من طائفة اللاتين<sup>٦٣</sup> دفتريته تضمن ضبط ومبيع تركة يوحنا بن كارنة ولد حنا الجلاد اللاتيني من رعايا الدولة العلية المتوفي في السادس عشر من شهر ربيع الثاني سنة ثمان وثمانين ومئتين وألف والمنحصر ارثه الشرعي في زوجته مكله بنت يوسف بن بطرس اللاتيني وفي أولاده وهم كارنه الذي كان غائباً وحضر وأنطوان وحنا وجلستينا وسلطانة وفامينة وجميل ومريم البالغين ويوسف وفريدة وماتيلد القاصرين عن درجة البلوغ انحصاراً شرعياً وذلك بمعرفة وحضور الابن أنطوان المرقوم الأصيل عن نفسه والوكيل الشرعي عن والدته ملكه المرقومة الأصيلة عن نفسها والمنصوبة من قبل مولانا الحاكم الشرعي على أولادها يوسف وفريدة وماتيلد القاصرين المذكورين والمقررة بذلك من جناب سيدنا ومولانا الحاكم الشرعي الحالي الموقع ختمه الكريم فيه والمأذون لها بتعاطي أمور ذلك إذناً شرعياً مقبولاً شرعاً الثابت وكالته عنها بشهادة نسيبها باسكوال بن حنا الجلاد والخواجة يعقوب بن فرنسيس راحيل اللاتيني العارفين بها شرعاً المزكبين سراً وعلناً من الخواجة حبيب بن خليل النحاس اللاتيني ونقولاً بن سمعان قعوار الرومي وحنا بن جريس بن عيسى حنانيا وشحادة بن جريس القرعة الروميان الثبوت الشرعي وبتصديق الابن الثاني كارنه الموجود الآن بالقدس الشريف على ضبط ومبيع التركة المرقومة تصديقاً شرعياً وبمعرفة وحضور الخواجة خليل بن سليم الكاثوليكي الوكيل الشرعي عن زوجته حنة المرقومة الثابت وكالته عنها بشهادة شقيقها أنطوان المذكور وبيسكوال الجلاد المرقوم العارفين بها شرعاً المزكبين سراً وعلناً من المزكبين المذكورين أيضاً الثبوت الشرعي وبمعرفة وحضور بيسكوال الجلاد المذكور الوكيل الشرعي عن زوجته جلستينا المرقومة الثابت وكالته عنها فيما سيذكر فيه بشهادة الحاج أحمد بن حسن المصري وإلياس بن حنا الجلاد العارفين بها شرعاً والمزكبين سراً وعلناً من المزكبين المذكورين الحاج أحمد بن محمد بن موسى البرادعي والحاج محمد بن قدورة وهبة بن عبد الغني الكشميري والحاج محمد بن حسين فصار الثبوت الشرعي وبمعرفة وحضور الخواجة أنطوان

٥٧ كواتر، دونالد. الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م. ط١. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤م. ٣١٣-٣١٤.

٥٨ الدباغ. بلادنا فلسطين. مرجع سابق. ١٠، ١٧٠.

٥٩ الدباغ. بلادنا فلسطين. مرجع سابق. ١٠، ٤٩.

٦٠ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٤. مرجع سابق. ٣٢.

٦١ كواتر. الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م. مرجع سابق. ٣١٢.

٦٢ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦١. مرجع سابق. ١٢٨.

بن مخائيل اللاتيني الوكيل الشرعي عن مريم المرقومة الثابت وكالته عنها فيما سيذكر بشهادة بولص بن بطرس وأنطوان بن توما اللاتيني العارفين بها شرعاً المزكبين سراً وعلناً من المسيحيين المذكورين أولاً المزكبين الثبوت الشرعي وبمعرفة وحضور الخواجة بطرس اللاتيني الوكيل الشرعي عن سلطنة المرقومة الثابت وكالته عنها فيما سيذكر فيه بشهادة الخواجة عيسى بن حنا صافية اللاتيني والخواجة نصري بن عرعور البروتستانتني ومنصور بن داود الكردي اللاتيني العارفين بها شرعاً المزكبين سراً وعلناً من المسيحيين المزكبين المذكورين الثبوت الشرعي وبمعرفة وحضور الخواجة حسين.....». وفي هذا السجل يتبين أن المسيحيين بمختلف طوائفهم كانوا يتوجهون إلى القضاء الشرعي الإسلامي لحل الإشكاليات التي كانت تحدث بينهم على الرغم من وجود القضاء المسيحي وكان الشهود من مختلف الطوائف والأديان يزكون بعضهم، وأحيانا كان المسلمون يولكون يهوديا لينوب عنهم في المحاكم، والمسيحيين كانوا يولكون المسلمين<sup>٦٣</sup>.

وكان اليهود أيضا يتحاكمون في محكمة القدس الشرعية حيث كانوا يسجلون عقود البيع والشراء التي كانت تحصل فيما بينهم او فيما بينهم وبين المسلمين أو المسيحيين وهذا الامر يبين مدى التسامح والمساواة التي كان يسود بين مختلف فئات المجتمع، وكان القضاء العثماني ينصف الجميع بغض النظر عن الدين أو اللغة وفي أحيانا كثيرة كانت المحكمة تصنف اليهود والمسيحيين عندما يكون بينهم وبين المسلمين إشكاليات أو قضايا<sup>٦٤</sup>، وفيما يأتي نموذج من سجلات المحكمة الشرعية يبين وصاية شرعية ليهودي على بنت يهودية» بمجلس الشرع الشريف ومحل الحكم المنيف الازهر المنعقد لدينا بمحكمة القدس الشريف الشرعية أجلها الله تعالى، حضر فيه حاييم داود ولد الياهو ولد حاييمالموسوي العثماني من سكان محلة اليهود احدى محلات القدس الشريف وهو الوصي الشرعي على سلطنة بنت شلومو ولدشلبونسوزين الموسوي العثماني الثابت وصايته عليها بموجب حجة الوصايا الشرعية الصادرة من هذه المحكمة المضية والمختومة منا المؤرخة في اليوم التاسع من جمادي الأولى سنة سبعة عشر وثلاث مائة والف وقرر لدينا طائعا مختارا حال صحته وسلامته ونفاذ تصرفاته الشرعية قائلا في تقريره المرقوم أنه من الجاري بملك وتصرف سلطنة الصغيرة المذكورة جميع الحصة الشائعة وقدرها ثمانية أسهم من أصل مائة واثنين وتسعين سهما في جميع الدار القائمة البنا بالقدس بمحلة الشرف المحدودة قبله الطريق وشرقا دار محمد بيك الصالح وشركائه وشمالا دار الحاج بكر أفندي الداودي وشركائه وغربا دار شاكر الجاعوني وشركائه وآيل اليها ارثا شرعيا عن أبيها شلومو سوزين المذكور المتوفى والمنحصر ارثه الشرعي فيها وفي أختها سمحا وفي أمها سارة بنت شلمون قمحي وفي عمها إسحاق سوزين الثابت ذلك بموجب اعلام الوراثة الشرعي الصادر من هذه المحكمة بمختم صاحب الفضيلة شهري أمين أفندي زادة السيد محمد فؤاد أفندي النائب بالقدس الشريف الأسبق المؤرخ في اليوم الثاني من رجب سنة ستة عشر وثلاث مائة والف والمتصل الى أبيها المذكور بموجب سند أملاك نظام موسوم بعدد ثمانية وعشرين مقيد بدفتر تشرين أول سنة ستة وتسعين....ذلك قبولا شرعيا صدر في اليوم الخامس عشر من شهر رجب سنة سبعة عشر وثلاث مائة وألف»<sup>٦٥</sup>.

وعن الوضع السائد في المدينة في عام ١٩٠٩م يقول يوسف الحكيم في كتابه سورية والعهد العثماني «تسود القدس حياة ديمقراطية، رغم وجود عائلات أرستوقراطية عريقة في الحسب والثراء والقدم، كآل الحسيني والخالدي والداودي والنشاشيبي وجار الله وغيرهم، وذلك بفضل انتشار المدارس الحكومية والأجنبية المختصة بمختلف العلوم والفنون وقد ضمت العدد الكبير من الأوساط الشعبية، مما جعل الشعب قسامين لا ثالث لهما، قسم متعلم راق، وآخر غير متعلم، أسوة بمعظم المدن السورية»<sup>٦٦</sup>.

٦٣ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٤١٢. مرجع سابق. ٦.

٦٤ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٠. مرجع سابق. ١٢٦.

٦٥ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٩٢. مرجع سابق. ٢٨٣.

٦٦ الحكيم. سورية والعهد العثماني. مرجع سابق. ١٩٠.



وعاش الجميع في المدينة التي كانت مهد الأديان السماوية في أمن وأمان وفرته الدولة العثمانية التي كانت حريصة أشد الحرص على الاستقرار الأمني؛ ولذلك كانت تتدخل في حال حدوث أي إشكال بين الطوائف المختلفة وتسقن القوانين والأنظمة التي تحدد العلاقة بين مختلف الطوائف.<sup>٦٧</sup>

وكانت أكثر الإشكاليات حدوثاً في المدينة بين الطوائف النصرانية التي كانت تختلف على تقاسم السلطة والنفوذ على الأماكن المقدسة، وتعتبر كنيسة القيامة أهم معلم نصراني في المدينة، ومن أكثر الأماكن التي تثير الخلاف بينهم، ونظراً لادعاء كل طائفة الحق في نيل النفوذ الأكبر وبسبب عدم الثقة بين مختلف الطوائف اتفقوا على تسليم مفتاح الكنيسة لعائلة مسلمة من سكان المدينة وهذا الأمر مستمر منذ طرد الصليبين من المدينة على يد صلاح الدين الأيوبي.<sup>٦٨</sup> وعن العلاقة بين المسلمين والمسيحيين في المدينة يقول يوسف الحكيم في ذكرياته ومشاهداته التي سطرها في كتابه سوريا والعهد العثماني» ومن نتائج هذا الرقي، بالإضافة إلى الشعور القومي العربي النبيل أن ساد الإخاء والمودة بين المواطنين من مسلمين ومسيحيين، فهم يتبادلون العواطف في كل مناسبة ولا سيما في الأعياد والمواسم على كثرتها، حتى ليعسر على المرء التفريق بينهم لولا بعض الحالات المتعلقة بالألبسة والأسماء الموروثة التي اختص بها فريق دون آخر»<sup>٦٩</sup>.

ويصف الرحالة السويسري فليكس بوفيه الذي زار المدينة في عام ١٨٥٨م الوضع الاجتماعي في المدينة بقوله» من الأمور التي تدعو إلى الاستغراب أنه يوجد حي خاص بالأرمن يتميز عن الحي المسيحي وذلك لكون الأرمن أغراباً ويشكلون في المدينة جالية غنية وكبيرة تتميز عن السكان الآخرين بلغتها وملابسها، في حين أن معظم المسيحيين الآخرين من أرثوذكس وكاثوليك هم من السكان المحليين ولا شيء يميزهم عن المسلمين سوى لون العمامة للذين يلبسونها، فلغتهم واحدة وكذلك أصولهم وصفاتهم وحتى عاداتهم إلى حد كبير.... كما أنه يصعب في القدس تمييز المسلم من المسيحي كما يصعب في الغرب تمييز البروتستانت من الكاثوليك»<sup>٧٠</sup>.

ويمكن القول: إنه خلال الحكم العثماني للمدينة لا يكفي المرء أن يكون مسلماً ليضمن له مكاناً مميّزاً من الناحية القانونية، فهناك عدد كبير من المسيحيين واليهود كانوا يحظون بمكانة اجتماعية وسياسية ويتمتعون بثروات تفوق ثروات الكثير من المسلمين، فالتاجر النصراني الثري كان يتمتع بمكانة أرفع ونفوذ أكبر من الجندي الفقير الذي يدين بالإسلام، ويمكن القول: إن الانتماء الطائفي لم يكن عاملاً فاعلاً في تحديد وضع الفرد من الجهات: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.<sup>٧١</sup>

٢- أما القسم الثاني: فهم ممن قدم إلى المدينة من المسيحيين واليهود الذين جاؤوا لأهداف استعمارية وتبشيرية، وكانت الدول الأوروبية المختلفة تدعمهم وتوفر لهم الغطاء والحماية للقيام بأعمالهم، حيث منحت الدول العثمانية امتيازات للدول الأوروبية وكانت هذه الامتيازات تشمل دورهم في رعاية وحماية الأماكن المقدسة في المدينة،<sup>٧٢</sup> وكان القناصل الأوروبيون يتولون شؤون جالياتهم التي كانت تعيش في المدينة حيث كان يسري عليها قانون دولهم الأصلية<sup>٧٣</sup> وهذا الأمر أحدث كثيراً من الإشكاليات والصدمات بين الطوائف المختلفة التي كانت تتقاسم السيطرة.

ونشب صراع بين طوائف المسيحيين في المدينة حول أولوية الدخول وإقامة الشعائر الدينية في الكنائس والإشراف

٦٧ غوشة. صبحي سعد الدين. الحياة الاجتماعية في القدس في القرن العشرين. ط١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٠م. ٢٩٦.

٦٨ غوشة. الحياة الاجتماعية في القدس. مرجع سابق. ٢٩٧.

٦٩ الحكيم. سوريا والعهد العثماني. مرجع سابق. ١٩١.

٧٠ رافق. عبد الكريم. فلسطين في عهد العثمانيين. ط١. دمشق: مطبعة المهتدين، ١٩٨٤م. ٨٨٠.

٧١ كواترات. الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م. مرجع سابق. ٢٦١.

٧٢ Pamela Ann. Palestine And the Palestinians 1876 - 1983. Asustralia, 2001. 8.Smith

٧٣ المحجوبي، علي. جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين. ط١. تونس: دار سراس للنشر، ١٩٩٠م. ١٣.



عليها، ولقد دخلت طائفة اللاتين في صراع مع بقية الطوائف حيث استغلت الدعم الخارجي والامتيازات من أجل الحصول على السيطرة على الأماكن المقدسة<sup>٧٤</sup>.

ولقد ساهم الاستعمار الصهيوني في نشر العداء بين المسلمين واليهود الذين كانوا يأتون المدينة بدعم خارجي ويشترون البيوت والأراضي؛ لاستجلاب سكان يهود إلى المدينة، وكانت نظرة الفلسطينيين إلى هؤلاء نظرة الكره الشديد حتى وصلت ممارسة الكره من الصبيان، كما يقول الرحالة الياباني الذي زار المدينة في عام ١٩٠٦م «وشاهدت نحو خمسة صبية أو ستة في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمرهم يضعون الطرابيش على رؤوسهم ويعمدون إلى مضايقة اليهود ثم بدأوا يلقون عليهم الحجارة»<sup>٧٥</sup>.

ومما يقوله يوسف الحكيم عن العلاقة بين المسلمين واليهود في مذكراته «ومما يجدر ذكره أن أهل القدس الودعاء كانوا يبادلون مواطنيهم اليهود عواطف المحبة والإخاء، دون أن يخطر لهم بال وهم في عام ١٩١٠م أنه سيأتي يوم يقصدهم عن ديارهم اليهود النازحون من شتى أقطار العالم فيصبح أصحاب البلاد لاجئين في الأقطار العربية»<sup>٧٦</sup>.

حاولت الدولة العثمانية الحد من تأثير ونفوذ هؤلاء وشرعت قوانين وأنظمة من أجل منعهم من مواصلة نشاطهم الاستعماري حيث فرضت عليهم الحصول على رخصة للشراء قبل تنفيذ الأمر والذهاب إلى المحكمة من أجل تسجيل ونفاذ البيع<sup>٧٧</sup>، وكان هذا الأمر يتم طلبه من اليهود الذين هاجروا إلى المدينة من مختلف دول العالم، ومن المسيحيين الذين توطنوا في المدينة وكانوا يحملون جنسيات أجنبية<sup>٧٨</sup> وفي كثير من الأحيان كانوا ينفذون ويساعدون الحركة الصهيونية على شراء البيوت والأراضي من سكان مدينة القدس.

## قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر الأولية:

١- سجلات المحكمة الشرعية القدس.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٦٠، القدس، ١٨٧١-١٨٧٣م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٦١، القدس، ١٨٧٣-١٨٧٤م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٦٢، القدس، ١٨٧٣-١٨٧٦م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٦٣، القدس، ١٨٧٤-١٨٧٥م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٦٤، القدس، ١٨٧٤-١٨٧٥م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٧٠، القدس، ١٨٨١-١٨٨٣م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٨٨، القدس، ١٨٩٥-١٨٩٦م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٩٢، القدس، ١٨٩٨-١٨٩٩م.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٩٣، القدس، ١٨٩٨-١٨٩٩م.

٧٤ القضاة. أحمد حامد. نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية. ط ١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧م. ٤٦٠.

٧٥ كينجيرو، توكوتومي. الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر ١٩٠٦م. ط ١. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م. ٦٢.

٧٦ الحكيم. سوريا والعهد العثماني. مرجع سابق. ٢٠٠.

٧٧ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦٠. مرجع سابق. ٢٨٧.

٧٨ سجلات المحكمة الشرعية. القدس. ٣٦١. مرجع سابق. ١٢.

سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٩٥، القدس، ١٨٩٩-١٩٠١ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٣٩٧، القدس، ١٩٠١-١٩٠٥ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤٠٠، القدس، ١٩٠٥-١٩٠٧ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤٠٢، القدس، ١٩٠٧-١٩٠٨ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤٠٧، القدس، ١٩٠٩-١٩١٢ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤٠٨، القدس، ١٩١٠-١٩١١ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤٠٩، القدس، ١٩١٢-١٩١٣ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤١٢، القدس، ١٩١٣-١٩١٥ م.  
 سجلات المحكمة الشرعية، ع ٤١٣، القدس، ١٩١٤-١٩٢١ م.  
 ب- المصادر والمراجع المنشورة.

ابن الاثير، أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، ط١، بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٩٧ م / ٢ / ٣٤٩.  
 ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، ط١، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والاعلان، ١٩٩٧ م، ٧/٦٠.  
 أرمسترونج. كارين. القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث. ط١. القاهرة: سطو، ١٩٩٨ م.  
 الحكيم. يوسف. سوريا والعهد العثماني. ط١. بيروت: المطبعة الكاثوليكية، ١٩٦٦ م.  
 ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ بن خلدون، ط٢، بيروت: دار الفكر، ١٩٨٨، ٢ / ٢٦٨.  
 الاسيوطي، شمس الدين بن محمد، اتحاف الأخصا بفصائل المسجد الأقصى، ط١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤.

ابن الجوزي، شمس الدين بن المظفر، مرآة الزمان في تواريخ الاعيان، ط١، دمشق: دار الرسالة العالمية، ٢٠١٣.  
 ابن تغري رردي، يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة: دار الكتب.  
 ديورانت، ويليام جيمس، قصة الحضارة، ط١، بيروت: دار الجيل، ١٩٨٨.  
 الدباغ، مصطفى مراد. بلادنا فلسطين. ط٢. كفر قرع، دار الهدى، ١٩٩١ م.  
 دروزة، محمد عزة. خمسة وتسعون عاما في الحياة مذكرات وتسجيلات. ط٢. القدس: الملتقى الفكري العربي، ١٩٩٣ م.

الداوداري، أبو بكر بن عبد الله، كنز الدرر وجامع الغرر، ط١، عيسى البابي، ١٩٨٢.  
 رافق. عبد الكريم. فلسطين في عهد العثمانيين. ط١. دمشق: مطبعة المهتمدين، ١٩٨٤ م.  
 السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، ط١، مطبعة نزار الباز، ٢٠٠٤.  
 الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ط٢، بيروت: دار التراث، ١٩٦٧، ٣ / ٦٠٩.  
 الطراونة، فاطمة. الأهمية الاجتماعية والاقتصادية للقدس العثمانية والتدخل الأوربي فيها في العصر الحديث والمعاصر. ط١. عمان، ٢٠٠٠ م.

العارف. عارف باشا. المفصل في تاريخ القدس. ط٢. القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٤ م.  
 غوشة. صبحي سعد الدين. الحياة الاجتماعية في القدس في القرن العشرين. ط١. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠١٠ م.  
 القضاة. أحمد حامد. نصارى القدس دراسة في ضوء الوثائق العثمانية. ط١. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧ م.

- كتن، هنري. القدس. ط١. دمشق: دار كنعان للدراسات والنشر، ١٩٩٧م.
- كواترت، دونالد. الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م. ط١. الرياض: مكتبة العبيكان، ٢٠٤٤م.
- الكيالي، عبد الوهاب. تاريخ فلسطين الحديث. ط١٠. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠م.
- كينجيرو، توكوتومي. الرحلة اليابانية إلى فلسطين ومصر ١٩٠٦م. ط١. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٤م.
- المحجوبي، علي. جذور الاستعمار الصهيوني بفلسطين. ط١. تونس: دار سراس للنشر، ١٩٩٠م.
- المروزي، ناصر خسرو، سفر نامه، ط٣، بيروت: دار الكتاب الجديد، ١٩٨٣.
- الواقدي، محمد بن عمر، فتوح الشام، ط١، القاهرة: دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- Paamela Ann. Palestine And the Palestinans 1983 – 1876. Asustralia. 8. 2001. Smith

## الفصل الثالث:

# التاريخ المسيحي وحوار المذاهب





## الحروب الصليبية في فلسطين بين الصراع السياسي والتوازن الحضاري

### ملخص البحث

استمرت الحروب الصليبية من ١٠٩٥- إلى ١٢٩١م، شهدت ثماني حملات فرنجية صليبية قادها ملوك أوروبا على عالم الشرق الإسلامي، وعلى بعض الدول والأقاليم المسيحية على السواء. ولم تكن العقيدة المسيحية الحقة ولا المبادئ الإنسانية التي قامت عليها هي الرائد في إدارة الغزوات الفرنجية الصليبية سواء كانت موجهة إلى دولة السلاجقة أم إلى الدولة البيزنطية، أم إلى الدويلات والدول الإسلامية المتنازعة في بلاد الشام ومصر. كما لم تكن المبادئ الدينية الإسلامية هي الفيصل في القرارات السياسية التي كان يتخذها الحكام المسلمون. ومن ثم يمكن القول إن الحروب الصليبية حروب سياسية بامتياز، وأنها جرّت العالمين: الإسلامي والمسيحي إلى مواجهات لا تمت إلى الروح الإنسانية السائدة في مختلف الأديان وتوصل البحث إلى عدة نتائج، منها: أن الصراع العسكري لم ينجح في تحقيق الأهداف السياسية والدينية التي رسمت له. وأن التعايش الحضاري: الديني، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، وتبادل الخبرات الحضارية هو الأبقى على مدار التاريخ، وهو الأكثر نفعاً للمسلمين والمسيحيين على السواء، وأن الحروب الصليبية بدأت بروح عدائية متعصبة، ولكنها انتهت إلى نوع من التعاون الحضاري والتفاهم الاقتصادي وبكثير من روح التسامح الديني الذي سمح بحرية الحج والزيارة وإقامة الشعائر الدينية على حد سواء.

### مقدمة

تعتبر الحروب الفرنجية (الصليبية) الإسلامية من القضايا التاريخية التي شكلت كثيراً من مظاهر سوء الفهم بين المسلمين والمسيحيين. وقد انعكس سوء الفهم التاريخي، وتركيز المؤرخين على الجوانب الصراعية، على فهم الطرفين لطبيعة تلك الحروب، وعلى طبيعة العلاقات التي سادت بين المسلمين وأوروبا، بعد ذلك، وربما إلى اليوم، حيث شعر كثير من الناس أن العلاقات الصراعية وعلاقات العداء الدائم هي سيد الموقف في العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، على وجه العموم، وبين المسلمين والمسيحيين، في الشرق على وجه الخصوص، علماً بأن تلك الحروب قد تمخضت عن تفاهات وعلاقات حضارية شتى، تركت آثاراً إيجابية واضحة على المسلمين والمسيحيين، على السواء وسوف تتناول هذه الدراسة تلك الحروب من خلال التركيز على المظاهر السياسية والدبلوماسية السلمية التي طغت على العلاقات بين الطرفين، والتي انتهت بقناعة تامة لدى الفريقين، بأن الصراع العسكري والسياسي، لم يكن هو الفيصل، في وضع حد لتلك الحروب، حيث انتهى الفريقان إلى أنه لا بد من التعايش الحضاري: الديني، والاقتصادي، والاجتماعي، والثقافي، وأن تبادل الخبرات الحضارية هو الأبقى على مدار التاريخ وهو الأكثر نفعاً للمسلمين والمسيحيين على السواء. ومن هنا ركزت هذه الدراسة على المحاور التالية:

أولاً- التعريف بالحروب الصليبية:

ثانياً- الحروب الصليبية ليست حروباً مسيحية إسلامية

ثالثاً- التركيب السكاني لفلسطين في زمن الحروب الصليبية

رابعاً- الأنشطة الاقتصادية  
خامساً- سيادة روح التسامح الديني  
سادساً- العلاقات الدينية والتفاهم على إدارة الأماكن المقدسة  
سابعاً- النتائج

أولاً- التعريف بالحروب الصليبية:

استمرت الحروب الصليبية من ١٠٩٥- إلى ١٢٩١م، حيث استغرقت (١٩٦عاماً) أي حوالي قرنين من الزمن. وتخللت هذه الفترة ثمان حملات فرنجية صليبية قادها ملوك أوروبا، ولم يكن لمسيحيي الشرق عموماً، ومسيحيي فلسطين أي تدخل عسكري فيها.

وما يعيننا من هذه الحملات الثمانية هو ثلاث حملات فقط، هي الحملات التي توجهت إلى فلسطين، على نحو مباشر، وهي الحملة الفرنجية الصليبية الأولى (١٠٩٥- ١٠٩٩م) التي أمضت سنتين في التأسيس لثلاثة إمارات صليبية بعيدة عن فلسطين، قبل أن تصل إلى بيت المقدس سنة ١٠٩٧م). والحملة الصليبية الفرنجية الثالثة (١١٩٠- ١١٩٢م) التي انتهت بصلح الرملة وبتسوية سياسية، شملت حرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وإقامة الشعائر الدينية فيها. والحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨- ١٢٢٩م) التي انتهت بصلح يافا الذي عزز التفاهات الدينية التي تم إقرارها بين صلاح الدين الأيوبي والملك الإنجليزي ريتشارد قلب الأسد، والتي أدت إلى الاعتراف الصليبي، على نحو قاطع بالسيادة السياسية الإسلامية على الديار المقدسة، لقاء الاعتراف الإسلامي باستقلال العالم المسيحي في إدارة مقدساته الدينية وبحقه في الوصول إليها وأداء شعائره الدينية فيها. أما الحملة الرابعة، فقد كانت وجهتها إلى دمشق، وبهدف الغزو والضم والتوسع، فقط.. ولكن أهميتها تكمن فقط، في أنها فتحت آفاقاً للحوار السياسي، والتسويات الإقليمية، في إطار ما عرف بنظام المناصفات، وإن كانت لم تحقق أي نجاح سياسي يُذكر.

ومن الجدير بالذكر أن هذه الحملات الصليبية الأربع لم تستغرق من عمر الحروب الصليبية التي استمرت نحو قرنين، سوى نحو سبعة أعوام فقط، أما بقية فترة الحروب الصليبية، فقد كان تأثر فلسطين بها هامشياً، لأنها اتجهت إلى أقاليم ودول أخرى، حيث اتجهت الحملة الرابعة إلى القسطنطينية وشهدت صراعاً سياسياً ومذهبياً صليبيّاً- صليبيّاً في قلب أوروبا. في حين اتجهت الحملتان الخامسة والسابعة إلى مصر على نحو مباشر، بينما اتجهت الحملة الثامنة إلى تونس. في حين توجهت حملتان صغيرتان هي الثانية والتاسعة إلى دمشق وطرابلس.

ويمكن القول باطمئنان، إن الحروب الصليبية لم تكن حروباً مسيحية بمعنى الكلمة، ولكنها كانت جزءاً من سلسلة الحروب التي سادت تاريخ العلاقات العدائية بين الفرنجة وعالم الشرق، وأنها مجرد مرحلة من مراحل الصراع الأوربي ضد آسيا الغربية والوسطى. هذا الصراع الذي بدأ بالصراع بين اليونان والفرس، ثم بين روما، وبيزنطة وبين فارس البارثية ثم الساسانية. ثم بدأ الأمر يأخذ طابعاً حضارياً ودينياً مشتركاً، وعلى هيئة صراع بين روما وبيزنطة المسيحية وإيران المزدكية منذ أواخر القرن الرابع الميلادي. وقد بلغ هذا الصراع ذروته فيما بين سنتي ٦١٤ و٦٣٠م، حيث تمحور حول القدس وما كانت تمثله من رمزية دينية بلغت ذروتها في الصليب المقدس. ثم تحول الصراع بين المسلمين في الجزيرة العربية والإمبراطورية البيزنطية فيما بين سنتي ٦٣٤ و٦٤٧م، حيث تمكن المسلمون من فتح القدس وضم بلاد الشام ومصر ومعظم بلاد المغرب على حساب البيزنطيين (غروسية، ٢٠١٤، ص ١٧-١٩).

ثانياً- الحروب الصليبية ليست حروباً مسيحية إسلامية:

لم تكن الحروب الصليبية حروباً مسيحية ضد الإسلام، وإن كان الشعار الغالب على الترويج للحملة الصليبية الأولى هو الشعار الديني المرتبط بحماية المسيحيين وباسترداد الديار المقدسة التي درج عليها السيد المسيح. ويمكن أن نؤكد ذلك من خلال الحديث عن جملة قضايا رئيسة، منها:

١- أن الصراع الصليبي الإسلامي لم يلتزم بالنصوص الدينية:

ومما لا شك فيه أن السلوك الحربي للصليبيين لم يكن يستند إلى الديانة المسيحية على نحو دقيق بقدر ما كان يستثمرها لتحقيق عدد من الأهداف الأخرى. فقد كانت النظرية المسيحية للحروب تقوم على أن استخدام العنف من الكبائر في كل زمان ومكان، وأنه لا يمكن اللجوء إليها إلا وفق ثلاثة مرتكزات رئيسة، هي (سمث، ١٩٩١، ص ٩-١١):

١- وجود قضية عادلة للحالات لا يمكن السكوت عليها، مثل وقوع عدوان قريب أو عدوان ترتب عليه ضرر أو لاسترداد ممتلكات، أو صد هجوم

٢- الخضوع لسلطة شرعية، وقد جرت العادة أن تكون هذه السلطة سلطة مدنية علمانية.

٣- الاستناد إلى هدف أو أهداف نبيلة، لا يمكن تحقيقها إلا بالحرب. ومن هنا لا يصح شن حرب مقدسة إلا إذا ارتبطت المصالح الدنيوية فيها بإرادة الرب ارتباطاً لا انفصام له.

إن المسيحية الحقة لا تعتبر رفض قبول السيطرة المسيحية مبرراً للعدوان والحرب، وهي تؤكد حقوق غير المسيحي، وتتخذ من الإقناع عن طريق الحجة والمنطق سبيلاً للدعوة. وهو ما دفع بعض البابوات إلى محاولة تقديم الأدلة والبراهين على أن من حق المسيحيين تحرير الأرض المقدسة؛ لأنها كانت تحت حكم أجدادهم، وأن من حق المسيحيين السيادة عليها (سمث، ١٩٩١، ص ١٤-١٥). وفي هذا الإطار، تم التركيز على اتهام المسلمين بأنهم « شرعوا في تدمير بقية المدن والقصور والحصون العائدة لشعبنا (١٩٤١، ٦١-٦٣) ، وهم يسيطرون الآن سيطرة كاملة على الشرق، ومن ثم، فإن رعايا المسيح يعانون الآن من محن شديدة بسبب الحروب المستمرة وأعمال الغارة المتكررة (الصوري، ٢٠٠٣، ج١، ص ٧٥٨). والواقع أن أحوال المسلمين لم تكن تؤهلهم للنهوض بهذه الاتهامات، فقد كانوا في هذه الفترة، يعانون من كثير من الصراعات الداخلية والانقسامات، حيث كانوا منقسمين إلى ثلاث خلافت إسلامية متصارعة، هي الخلافة العباسية في بغداد والخاضعة لسيطرة السلاجقة والخلافة الفاطمية في مصر، والتي كانت تعاني هي الأخرى من ظروف اقتصادية قاسية بسبب انتشار المجاعة، وكانت الخلافة الثالثة في قرطبة، وهي على خلاف مع خلافتي القاهرة وبغداد (عباس، ٢٠١٩، ص ١٨٥).

ومن الجدير بالذكر أن القيادات الدينية الصليبية، وعلى رأسها البابا، قد تعاملت مع النصوص الدينية بصورة انتقائية، وعلى نحو يؤيد تخطيطهم للغزو والتوسع الإقليمي. ومن ذلك أنه استخدم عبارات حافلة بالحماس الديني، من مثل «الرب هو الذي يحثكم» (الصوري، ١٩٩٨، ص ١٠٢)، وأن المسيح يأمر بهذا» و«هذا الغفران أمنحه لكل من يذهب بمقتضى السلطة التي أعطاني الرب إياها» (١٩٤١، ٦١-٦٣). و«باسمك ندوس القائمين علينا» (الصوري، ١٩٩٨، ص ١٠٣). و«ومن لا يحمل صليبه، ويأتي ورأي فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً (إنجيل لوقا ١٤: ٢٧).

وكان من أكبر البدع التي صاحبت بدايات الحروب الصليبية ومعظم الحملات اللاحقة أن الحج إلى المزارات المقدسة تحول من ممارسة للتدين الفردي، إلى وسيلة التكفير الجماعي (براور، ٢٠٠١، ص ١٨). ومن هنا نخلص إلى القول بأن الحروب الصليبية اتخذت مظهراً دينياً كان يخفي وراءه الكثير من المطامع المادية، وأن تعاليم الإنجيل الإنسانية التي تقول «أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم»، لا تنطبق على تعاليم وأفكار غزاة الصليبيين الفرنجة التي تدعو إلى البغض والمقت والكره واحتقار الآخر (براور، ٢٠٠١، ص ٦).

وفي المقابل، نجد أن دعوة الإسلام قوامها معرفة الحق والحض على الخير وترك الصراعات والعدوان، ويتضح ذلك من قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ} {المتحنة: ٨، ومن قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ} {النحل: ٩٠. ومن قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ} آل عمران: ٦٤.

والإسلام يدعو إلى احترام وحدة الأصل الإنساني ولا يفضل أحداً على أحد إلا بالتقوى والأعمال الصالحة للبشرية جمعاء، وهو ما يوضحه قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} {الحجرات: ١٣.

ونخلص من ذلك أن الإسلام لم يكن سبباً حقيقياً للتحرك الصليبي نحو الشرق، وأن الاتهامات التي وجهت إليه كانت اتهامات باطلة؛ لأنه في الحقيقة ينطوي على كثير من مبادئ التسامح الإنساني وبخاصة مع أتباع الديانات الأخرى، بل إنه يتكفل بحماية مقدسات تلك الديانات، كما ورد في قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا} {الحج: ٤٠.

٢- أن خط سير الحملات الصليبية وتحركاتها لم تقم على أسس دينية:

لم تكن هذه الحملات ذات طبيعة دينية، ولم تكن استعادة الديار المقدسة هدفها الرئيس أو النهائي، ويتضح ذلك من خلال العرض التالي:

لقد ولدت الحروب الصليبية من رحم الصراعات الإقليمية منذ البدء، فلم تكن تلك الحروب والصراعات تدور حول الديار المقدسة، ولا حول حق السيادة الدينية على الأماكن المقدسة. لقد شهدت بدايات تلك الحروب صراعاً بين البيزنطيين والدول الإسلامية حول قبرص وكيليكية وطرسوس وحمص وطرابلس وأنطاكية وبعلبك في شمال سوريا ومنطقة الرها في شمال العراق (غروسيه، ٢٠١٤، ص ٢٠-٢١). وفي المقابل قاد السلطان السلجوقي ألب أرسلان (١٠٦٣-١٠٧٢) حروباً كثيرة بهدف انتزاع القسم الأعظم من أرمينية من البيزنطيين، وهي الحروب التي اختتمها بانتصار ساحق، في معركة ملازكرد سنة ١٠٧١م، وهو ما أدى إلى تراجع النفوذ البيزنطي في آسيا الصغرى إلى حد كبير، بل إلى سيطرة السلاجقة على كل آسيا الصغرى بين عامي ١٠٧٨ و١٠٨١م. وهكذا أصبح السلاجقة، قبيل بدء الحروب الصليبية، حكاماً على آسيا الصغرى والأناضول ومعظم الأقاليم البيزنطية في شمال سوريا (غروسيه، ٢٠١٤، ص ٢٦-٢٧). وقد كان هذا التحول السياسي من أكبر أسباب التحركات الصليبية الهادفة إلى دعم الإمبراطورية البيزنطية من جهة، وإلى حماية أوروبا الغربية من موجة التوسع السلجوقي السريع الذي بات يهدد مناطق واسعة في أوروبا.

لقد احتشدت في الحملة الصليبية الأولى أربعة جيوش كبيرة تابعة لقيادات مدنية علمانية، حيث كان الجيش الأول يضم النورمان والأنجلو تورمان، بقيادة الدوق روبرت النورماندي، والفلمنكيين بقيادة روبرت الفلاندرز وستيفن كونت بلوا، وضم الجيش الثالث فرساناً من شمال وغرب فرنسا بقيادة جودفري البويوني، بينما كان الجيش الرابع يضم البروفنسال بقيادة ريموند الصنجيلي كونت تولوز، وجيش النورمان الإيطاليين بقيادة بوهمند وتنكرد. وقد وقع الخلاف بين هذه القيادات وتبدلت وجهاتها وأهدافها، منذ البدء، ولم يعد استخلاص الأماكن المقدسة بمثابة الهدف الرئيس (براور، ٢٠٠١، ص ٢٥). ويضاف إلى ذلك أن الإمبراطورية البيزنطية طالبت باستحقاقات إقليمية جيوسياسية تتعلق بأملها السابقة وتمسكت بهذا الشرط نظير تقديمها بعض التسهيلات للحملة. بينما رفضت الجمهوريات الإيطالية تقديم السفن لنقل رجال الحملة إلا بعد موافقة قيادات الحملة على عدد من الامتيازات الاقتصادية والتجارية الخاصة وتحركت هذه الحملة في أغسطس عام ١٠٩٦، حيث نجحت في تشكيل ثلاث إمارات قبل أن تصل إلى القدس،



وهي إمارة الرُّها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس، ثم دخلت القدس في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩م، حيث ارتكب الفرنجة فيها مذبحاً قتلوا فيها خلقاً كثيراً ثم استباحوا مدينة القدس لمدة أسبوع كامل. وقد تعرض المسلمون والمسيحيون والوطنيون، ومسيحيو الشرق عموماً للاضطهاد والتنكيل، وعومل الطرفان معاملة الكافرين أو الخارجين عم الدين الصحيح. ومن الجدير بالذكر أن مسيحيي فلسطين، كغيرهم من مسيحيي الشرق قد تأثروا بهذه المعاملة السيئة، ونحاز كثير منهم، في كثير من المواقف، إلى جانب المسلمين؛ حتى بعد أن تحسنت معاملة الصليبيين الفرنجة لهم بشكل نسبي، فيما بعد. وهكذا يمكن القول إن جهود الحملة الصليبية الفرنجية الأولى قد توزعت في أربعة أقاليم متباعدة ثلاثة منها لا علاقة لها بالأماكن المقدسة وفلسطين، حيث تم تأسيس أربع إمارات فرنجية صليبية، هي إمارة الرُّها وإمارة أنطاكية وإمارة طرابلس، ثم مملكة القدس، التي امتدت حدودها من قرب بيروت الحالية، إلى خليج العقبة، واتخذت من القدس عاصمة لها. ومما يذكر أن مسيحيي الشرق لم يكن لهم أي حظ سياسي في هذه الإمارات الأربع، وأنهم لم يحظوا بأية معاملة تفضيلية عن بقية السكان المحليين إلا حين احتاج ملك بيت المقدس إلى استيراد عناصر سكانية محلية للتخلص من مشكلة العجز الديمغرافي الذي نتج عن عودة أكثر عناصر الحملة إلى مواطنهم الأصلية بعد نهاية الحملة واستقرار المملكة مباشرة.

وإذا أعدنا النظر إلى الحملات الصليبية الأولى والثالثة والرابعة، نجد أنها من أكبر الدلائل على أن الحروب الصليبية لم تكن موجهة ضد المسلمين فقط. وأنها كانت في بعض جوانبها أوربية- أوربية أو مذهبية- مذهبية، وأن إدارة المصالح السياسية والاقتصادية هي التي تتحكم في سياسة الطرفين. ففي الحملة الصليبية الأولى نشأ الزواج اللاتيني البيزنطي المؤقت؛ بناء على اعتبارات سياسية وليست دينية، حيث اشترط الإمبراطور البيزنطي على قادة الحملة أن يقدموا الدعم اللازم لها في مواجهة السلاجقة وأن يردوا عليه كل ما يمكن استعادته من الأراضي التي سبق للمسلمين أن سيطروا عليها. أما في الحملة الثالثة فقد استولى ريتشارد قلب الأسد على قبرص، في مؤشر واضح على تزايد الأطماع اللاتينية في أملاك الإمبراطورية البيزنطية، وأن لكل من الفريقين منطلقاته السياسية الخاصة، ومواقفه المتحولة بناء عليها. لقد كان لبيزنطة قضيتها الخاصة بها، والتي تدور حول حماية أراضيها ودرء الخطر السلجوقي عنها، وأنه من غير المنطقي أن تتخلى عن قضيتها من أجل الغرب الذي أقدم على دعمها في البدء طمعاً فيها وليس إخلاصاً لها (عوض، ٢٠٠٠، ص ٢٦١). ومن الجدير بالذكر أن الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧-١١٩٠م) قد تعرضت للنقد اللاذع لأنها كانت تعارض التعاليم المسيحية الرئيسية.

وكانت الحملة الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤م) تعبيراً عن فضيحة دينية وسياسية، حيث انتهت بإخضاع القسطنطينية المسيحية الأرثوذكسية، ونهبها، لمجرد مخالفتها للغرب اللاتيني في المذهب، ومعارضتها لممارساته السياسية في أوروبا والشرق على السواء. وعلى الرغم من أن أنوسنت الثالث مهد لهذه الحملة، بالسعي لتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية. ولكن مساعيه باءت بالفشل، فحين وصلت سفن الحملة في ٢٤ يونيو ١٢٠٣م أمام القسطنطينية، لم يرحب بها الإمبراطور ألكسيوس الثالث، بل أغلق جميع أبواب المدينة في وجوههم، وأقام الجنود البيزنطيين فوق أسوارها لحمايتها والدفاع عنها في مواجهة الحملة (الشامي، ١٩٩١، ص ١٨٥-١٨٩). ومن هنا اقتحم الصليبيون المدينة وقاموا بقتل العديد من البيزنطيين واغتصبوا الراهبات في الأديرة، وعبث الجنود الذين لعبت الخمر برؤوسهم كنيسة آيا صوفيا (قاسم، ٢٠١٣، ص ١٤٨)، ومارسوا كثيراً من ألوان السلب والنهب (عوض، ٢٠٠٠، ص ٢٦٨). ومن هنا يمكن القول إن سقوط القسطنطينية على مثل هذه الصورة كان بمثابة كارثة على فكرة الحملات الصليبية، وأن أهداف تلك الحملات قد اتسعت لتشمل المخالفين لكنيسة روما في المعتقدات أو المذاهب الدينية. ومما يؤكد ذلك أن البابا أنوسنت الثالث شن حملة صليبية ضد العناصر التي رأتها البابوية مُهرطقة في جنوب فرنسا، وأن خليفته حارب الإمبراطور الألماني فريديريك الثاني لمجرد أنه اختلف معه



وأنة قاد حملته إلى الشرق، والأراضي المقدسة دون تنسيق مسبق مع البابوية. وهنا لا بدّ من القول إن أسباب الخلاف بين الفريقين تعود إلى وجود مجموعة من الفوارق الحضارية التي أخذت في الاتساع بين الطرفين: الشرق البيزنطي والغرب الأوروبي، وأن هناك ما يمكن وصفه بفجوة حضارية بين الجانبين، حيث ظل البيزنطيون ينظرون إلى الغرب الأوروبي نظرة ازدراء واحتقار، كما ظلوا يشعرون بأنهم خلفاء الرومان. ولم تكن بيزنطة تعترف بوجود إمبراطور آخر في الغرب الأوروبي. ومعنى ذلك أن كلا من الجانبين افتقد القدرة على الاعتراف بالآخر (عوض، ٢٠٠٠، ص ٢٥٤)، وأن الصراع العقائدي والتنافس المذهبي بين الكنيستين حول الزعامة العالمية لعب دوراً بارزاً في إذكاء حدة الخلاف، وفي تعميق وتوسيع أبعاده (زيتون، ١٩٨٠، ص ٣٢٦)، على الرغم من وجود «مصالح متبادلة» بين الشرق البيزنطي والغرب الأوروبي وأن الطرفين كانا حرصين على الاحتفاظ بها (عوض، ٢٠٠٠، ص ٢٥٩).

وهكذا نخلص، الحملة الصليبية الرابعة لم تكن ضد المسلمين فقط، بل ضد كل من يناصب البابوية العداء، وضد كل من يرفض الخضوع لسلطان كنيسة روما سيدة الكنائس، وصاحبة السيادة العالمية على عالم المسيحية، على نحو يؤكد بالفعل أن الحملات الصليبية هي السياسية الخارجية للبابوية. ومما يذكر أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة استقلالهم وسيادتهم على أراضيهم عام ١٢٦١م، أي بعد أن ظلت خاضعة للحكم اللاتيني لمدة سبعة وخمسين عاماً (عوض، ٢٠٠٠، ص ٢٦٩-٢٧٥).

وفي الحملة الصليبية الخامسة، تنازل الملك الكامل للصليبيين، أثناء الصراع بينه وبين الصليبيين حول مصر، عن كل الأراضي التي كانت بأيدي الصليبيين، قبل معركة حطين عام ١١٨٧م وما تلاها من فتوحات عدا الكرك والشوبك (الخطيب، ٢٠٠١، ص ٢٣٨). وهو ما كان يسمح بإحياء مملكة بيت المقدس القديمة، في الوقت الذي لم تكن فيه هذه المملكة موجودة أصلاً (طقوش، ٢٠٠٨، ص ٣٠٦). ومع ذلك رفض الصليبيون هذا العرض السخي؛ لأنهم اعتقدوا أن امتلاك مصر أصبح شيئاً مضموناً (طقوش، ٢٠٠٨، ص ٣٠٨-٣١٠).

وهكذا يمكن القول إن الحروب الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي انخرقت عن هدفها الرئيسي الذي قامت من أجله، وهو استرداد بيت المقدس، وتحوّلت إلى أهداف دنيوية استعمارية (طقوش، ٢٠٠٨، ص ٣٠٨).

أما في الحملة السادسة فيتضح أن الدور السياسي الذي لعبته البابوية يقوم على أساس تقديم مصالحها السياسية والدينية في أوروبا، على مطلب استعادة الماكن المقدسة، لأنها حرّضت الملك الكامل على عدم التفاهم مع الإمبراطور الألماني، المعادي لها، وحثته على عدم تمكينه من زيارة بيت المقدس أو وضع قدم لإدارة الأماكن المقدسة دينياً. وأنها عندما تيقنت بعدم استجابة الملك الكامل أصدرت مرسوماً بجرمان الإمبراطور الألماني وحرّضت مسيحي الشرق ضده وحثتهم على عدم التعاون معه وعلى عدم نجاحه في تحقيق أية مكاسب سياسية في فلسطين (عوض، ٢٠٠٠، ص ٣٠١). ومن هنا، فقد تعرضت الحركة الصليبية، القرن الثالث عشر، لانتقادات مريرة من جميع العناصر اللاهوتية والعلمانية والتروبادور ورجال الدولة والمبشرين والتجار وأرباب المصالح التجارية، ومن الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان على السواء (براور، ٢٠٠١، ص ١٣).

٣- أن المناخ العام للحملات الصليبية كان مناخاً دينياً دنيوياً مختلطاً:

ويتضح هذا المر من خلال الإشارة إلى عدة جوانب رئيسية، منها:

أن الأهداف المعلنة للحملات الصليبية كانت تجمع بين عدة أهداف رئيسية، منها ما هو ديني، ومنها ما هو سياسي ومنها ما هو اقتصادي: فقد كان من بين الأهداف المعلنة هدف الاستيلاء على بيت المقدس، وهو هدف يجمع بين الولاية الدينية والسيادة السياسية، وهدف الدفاع عن النفوذ الصليبي في المشرق الإسلامي، وهو هدف توسعي صريح (سمث، ١٩٩١، ص ٧)، يمس مختلف أقاليم العالم الإسلامي في الشرق. وهو الهدف الذي تمت ترجمته بالسيطرة على الرها وأنطاكية وعدد

كبير من مدن وسط وشمال الشام، وعلى رأسها حلب ودمشق وغيرها من المدن الرئيسية. أن الظروف الحياتية والمادية الصعبة التي شهدتها المجتمع الأوربي المناخ السياسي والديني، قد مهدت للإقدام على تنفيذ الحروب الصليبية، حيث كان قد حلّ بأوروبا في ذلك الحين، عدد من الكوارث الطبيعية، كالفيضانات والمجاعات والأوبئة، التي زادت من شعور الناس بالضيق والضرر والحزن (براور، ٢٠٠١، ص ١٤، ١٨).

أن الحملة الصليبية قد ارتبطت في بعض أهم جوانبها بنصرة الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، الذي سبق له أن استغاث بأوروبا اللاتينية لمواجهة الخطر السلجوقي، ثم كرر الاستغاثة مرة أخرى عام ١٠٩٥م (براور، ٢٠٠١، ص ١٨). وأن طبقة النبلاء المحاربة وجدت في المشاركة في هذه الحملة قد وجدت متنفساً لإظهار قوتها واستثمار مهاراتها العسكرية (براور، ٢٠٠١، ص ٢١). وهو ما يدفعنا إلى القول بأن الحملة الصليبية الأولى، كانت خليطاً من حب المغامرة والأطماع الدنيوية والتقوى وحب النساء والرغبة الجنسية (براور، ٢٠٠١، ص ٢٣).

أن تلك الحروب لم تكن موجهة بإطلاق إلى الأراضي المقدسة، وأنها شهدت صراعاً في أواسط آسيا وفي آسيا الصغرى، كما شهدت صراعاً في قلب وربما، لأسباب تتعلق بالخلاف بين السلطين الدينية والمدنية أو لأسباب تتعلق بالخلافات المذهبية بين الغرب اللاتيني والغرب البيزنطي. وهو ما دفع البابوية القائمة في ذلك الحين إلى محاولة إخضاع كل ذلك لهيمنة الكنيسة وإرادتها المطلقة، وهو ما دفعها إلى تنويع صكوك الغفران، إذ كانت تلك الصكوك تعطي لمن يخرج للقتال في الديار المقدسة، كما كانت تعطي لمن شارك في محاربة الخونة المعارضين لتعاليم الكنيسة اللاتينية (سمث، ١٩٩١، ص ٧)، حتى وإن كان هؤلاء أباطرة مثل الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني الذي عوقب بالحرمان، والتحريض، والسعي الدائب للتقليل من شأنه، وإفشال كل جهوده الدبلوماسية، على اعتبار أن ذلك ينتقص من شأن البابوية ويحد من سلطاتها التي كانت تتمتع بها في ذلك الحين.

ومهما يكن من أمر فإن الباحث يمكن أن يصل إلى نتيجة أولية ومباشرة، مفادها فساد الدعاوى الفرنجية المتعلقة بارتباط الحروب الصليبية بهدف حماية الحجاج وحماية الأماكن المقدسة من عدوان المسلمين، وذلك للأسباب التالية:

١. أن العوامل السياسية والرغبة في التوسع والسيطرة على عالم الشرق كانت واضحة منذ البدء، من خلال تشكيل ثلاث إمارات صليبية فرنجية لا علاقة لها بفلسطين

٢. أن عناصر الحملة الصليبية الأولى قاموا بمجازر وانتهاكات لا علاقة لها بالدين، ولا تعبر عن طبيعة دعوة المسيح المسالمة المفعمة بالإنسانية. فأثناء حصار مدينة أنطاكية، في فبراير ١٠٩٧م قام الصليبيون بضرب أعناق الأسرى، حيث ألقوا رؤوس مائتين منهم داخل المدينة، ثم قاموا برفع بقية رؤوس القتلى على سواقي نصبوها أمام أنطاكية ليراها سكان المدينة (الصوري، ١٩٨٩، ج٤، ص ١٠٤). وفي صباح اليوم التالي نبش الصليبيون القبور، وأخرجوا الجثث من المقابر، وقطعوا رؤوسهم، ونقلوا رؤوس الموتى إلى خيامهم، في حالة من الانتقام البعيدة عن الإنسانية وشرف الحرب (توديبود، ١٩٩٨، ص ١٦٦-١٦٧). ثم كرروا نفس السلوك الهمجى في معرة النعمان في نوفمبر ١٠٩٨ م، حيث قاموا ببقربطون القتلى سحب جثثهم إلى خارج أسوار المدينة، حيث قاموا بجمعها في أكوام، وأشعلوا فيها النيران (وندوفر، ٢٠٠٠، ج ١، ص ٧٠). انتهت رحلة حملتهم الأولى بمجزرة كبرى بحق المسلمين في بيت المقدس، حيث قيل إنهم قتلوا من المسلمين نحو سبعين ألفاً، وأنهم ارتكبوا من الفظائع بحق أولئك القتلى على نحو غير مسبوق في تاريخ الحروب، بين الشرق والغرب (ابن القلانسي، ١٩٠٨، ص ١٩٨، وابن الأثير، ج٩، ص ١٩-٢٠). ومما يذكر أن الفرنجة قد ارتكبوا مجازر أخرى مماثلة، في عسقلان وفي عكا وفي أرسوف وقيسارية، وفي عدد من المدن الأخرى (توديبود، ١٩٩٨، ص ٣٤٠، وشارتر، ١٩٩٠، ص ١١٤، ١٣١، عاشور، ١٩٩٩، ج١، ص ٢٦٧). ومما لا شك فيه أن ارتكاب هذه الفظائع بل الجرائم الحربية ساهم في زيادة حدة

العداء والنفور بين المسلمين والمسيحيين إلى اليوم، رغم أن الحدث نفسه لا علاقة له بالدين المسيحي، بل لا علاقة له بالعلاقات الحضارية الطيبة، التي سادت بين المسلمين والمسيحيين على مدار التاريخ (شارتر، ١٩٩٠، ص ١٣١). ومما يذكر أن مبالغة مؤرخي المسلمين والفرنجة، على السواء، في وصف تلك المجازر قد ساهمت، في تعزيز حالات العداء والكراهية بين المسلمين والصليبيين، الأمر الذي انعكس فيما بعد على العلاقات الإسلامية المسيحية، وعلى العلاقات بين الشرق والغرب، على وجه العموم (الشارتري، ١٩٩٠، ص ١١٥، والصوري، ١٩٨٩، ج ٢، ص ١٢٧، وابن القلانسي، ١٩٠٨، ص ١٦١-١٦٣).

٣. أن ثلاث حملات فرنجية فقط هي التي اتجهت إلى فلسطين، هي الحملة الأولى والثالثة، والحملة والسادسة، أما الحملات الأخرى فقد اتجهت إلى دمشق ودمياط والقسطنطينية وتونس، وغيرها.

٤. أن مسيحيي الشرق عموماً تعرضوا للاضطهاد والتنكيل، واتهموا بالهرطقة والخروج عن الدين. ولم يكن لهم أي دور سياسي في الإمارات الأربع الفرنجية الأربع.

وبناء على ما سبق يجب أن نفرق بين المسيحيين الوطنيين في فلسطين وسائر الشرق، وهم أصحاب وجود أصيل ومؤثر، ولهم كامل حقوق المواطنة، وعلى الدولة أن تتحمل المسؤولية كاملة عن رعاية هذه الحقوق، بل بين أتباع الديانة المسيحية على وجه العموم، وبين الصليبيين الفرنجة الغزاة الذين قدموا إلى الشرق بأهداف دينية محاطة بعدد من الأهداف السياسية والاقتصادية البعيدة عن الدين، والتي ضلّت بهم عن طريق الدعوة الدينية، وأشعلت فتيل الصراع لمدة قرنين كاملين، دون أن تتمكن من حسم الصراع عن طريق القوة العسكرية والغلبة القهرية على الشعوب.

ويُشار إلى أن الهدوء النسبي والاستقرار في مملكة بيت المقدس استمر بين الحملتين الأولى والثانية حوالي خمسين عاماً، وبين الفترتين الثانية والثالثة استمرت حوالي خمسين عاماً أيضاً. أما الحملات الأربع البعيدة عن فلسطين، فقد وقعت خلال ست وأربعين عاماً فقط.

ثالثاً- التركيب السكاني لفلسطين في زمن الحروب الصليبية:

كانت تعيش في بلاد الشام الداخلية تركيبة عجيبة من السكّان، من حيث الانتماء العرقي والديني على السواء، فقد كان فيها العرب والأتراك والأكراد والأرمن والنوج، ومماليك من كل أصقاع الدنيا، ومهاجرون من المغرب العربي أو من بلاد فارس أو من القفقاس، ومن اليونان، والسرمان والفرنسيين والإنجليز والإيطاليين والألمان (الشارتري، ١٩٩٠، ص ٧٠، ٧٧، ١٠٨، وفورزبورغ، ١٩٩٧، ص ١١٣) والأسبان الأرمن، والأقباط، والمصريين، والموارنة، والجورجيين، والهنود واللاتين، والبرتغاليين، والمسلمين والأرثوذكس والكاثوليك واليعاقبة واليهود، والسلاجقة والفرس وغيرهم (الفيتري، ١٩٩٨، ص ٩٦-٩٧، ١١٨، ومصطفى، ١٩٧٤، ص ٣٤٠). وقد هؤلاء يتحدثون لغات مختلفة، ويعتقدون أديان متعددة، ومذاهب شتى بينها كثير من التنافر أحياناً، وكثير من وجوه الالتقاء في أحيان أخرى، حتى قيل إنهم «خليط من البشر من كل أمة ولسان (التطيلي، ٢٠٠٢، ص ٢٣٩، ٢٤٧).

قد قدر مجموع هذه الفسيفساء ما بين ٤٠٠ ألف و ٥٠٠ ألف نسمة (مصطفى، ١٩٧٤، ص ٤٥٢)، منهم نحو عشرين ألف في بيت المقدس (خسرو، ١٩٨٣، ص ٥٦). ويعتقد أن أعداد المسلمين داخل مملكة بلغ نحو ثلاثة أرباع السكان (، ، ١٨). وقد تعرض كثير من هؤلاء السكان عند بداية الغزو الفرنجي للكثير من عمليات الطرد والتهجير القصري والإحلال المخطط (براور، ٢٠٠١، ص ٦٧). ولكن مملكة بيت المقدس سرعان ما شعرت بخطأ التهجير العشوائي المصاحب لموجة الحج الكبرى، لأن كثيراً من الحجاج الفرنج عادوا إلى مواطنهم الأصلية، فأصبح كثير من القرى شبه خال من السكان، في الوقت الذي ازدادت فيه حاجة الدولة إلى العنصر السكاني المسلم، لكونه يشكل الطبقة العاملة في مجالات الزراعة والصناعة وعمليات الإعمار (عطية، ٢٠٠٠، ص ٣)، كما ازدادت حاجتها لعناصر سكانية من المسيحيين، وهو ما دفعها للتعايش والقبول المضطر بعدد من الجماعات المسيحية الشرقية التي تم استدعاؤها من شرق الأردن.

وكان المجتمع الصليبي يتكون من أربع طبقات رئيسية، هي:

طبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان، ولا يزيد عددهم عن بضعة آلاف، وهم عبارة عن الطبقة الحاكمة وبطانتها من كبار الفرسان ورجال الدولة، وقد كان هؤلاء من أصحاب القول الفصل والكلمة النافذة التي لا ترد (ابن منقذ، ١٩٩٥، ص ١٨٩، وعاشور، ١٩٩٩، ج١، ص ٣٩٣-٣٩٤).

طبقة رجال الدين الذين أداروا المؤسسة الكنسية، وتفردوا بالقرار الديني الكاثوليكي، وأقصوا أتباع المذهب الأرثوذكسي واتهموهم بالهرطقة، وتمته هؤلاء بكثير من الحظوة الاجتماعية والاقتصادية، حيث ملكوا كثيراً من الضياع والأموال، كما تمتعوا بامتيازات خاصة كالإعفاء من الضرائب، ومن الخدمة العسكرية (عاشور، ١٩٩٩، ج١، ص ٣٣٨-٣٣٩، والبيشاوي، ١٩٨٩، ص ٩٦).

الطبقة البرجوازية التي تعيش في المدن الكبيرة وتمارس حياتها بكثير من الاستقلالية والحرية، وتستولي على مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية والضياع الممتدة (كاهن، ص ٢٠٠، وبراور، ٢٠٠١، ص ١٠١، ١٠٩).

طبقة المولدين، الذين عرفوا باسم البولونيين، الذين نتجوا عن عمليات التزاوج بين الفرنجة والمسيحيين الشرقيين، وقد كان جل هؤلاء من السريان واليعاقبة، والأرمن والأقباط والنساطرة (بورشارد، ١٩٩٥، ص ١٧٣)، وقد كانوا أقرب إلى طبيعة الحياة والعادات والتقاليد الشرقية. ولم يكن هؤلاء على وئام مع الفرنجة، وإن تعاونوا معهم، لأن الفرنجة كانوا يعاملونهم بقسوة وينظرون إليهم نظرة استعلاء، وهو ما دفع كثير منهم لمواصلة التعاون مع المسلمين، حتى في زمن الحروب وأوقات الصراع (الفيتري، ١٩٩٨، ص ١٠٥-١٠٧، والشارتري، ١٩٩٠، ص ٢١٨، والأغا، ٢٠٠٧، ١٦٥-١٦٦). ويشار إلى أن أكثر سكان مملكة بيت المقدس وفلسطين، في ذلك الحين كانوا من هذه الطبقة، حيث كانوا يسكنون إلى جوار العرب المسلمين، وقد ذكر المؤرخون أنهم كانوا يسكنون في مناطق كثيرة تند عن الحصر، مثل البحر الميت، وبيت جبرين، ضواحي الخليل ووادي موسى وطبريا والرملة والجليل والناصره وجبل الطور وبيت جالا وقرى راماتيس وبيت لقياء، والداروم، وفي بيت لحم، وبعض ضواحي القدس، مثل قلنديا وبيت سوريك (الصوري، ٢٠٠٣، ج١، ص ٥٦٠، وبروشارد، ١٩٩٥، ص ١٥٦، والدباغ، ٢٠٠٠، ق ٢، ج ٨، ص ٧٢، ٣٠٦، ٣٧٨-٣٨٢، والأغا، ٢٠٠٧، ١٦٧-١٧٠).

وكان للمسيحيين الوطنيين وجود معترف به، وإن كانوا ينتمون إلى طوائف عديدة، أبرزها: الروم الأرثوذكس أو الملكانيون، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وكان هؤلاء يعيشون، مع المسلمين، في مناطق كثيرة من فلسطين، مثل القدس وبيت لحم والناصره واللد والرملة وغزة والجليل، وطبريا وهضبة الجولان، وبيروت وصيدا وطرابلس، وغيرها. أما في زمن الحروب الصليبية، فكانت الغالبية العظمى من السكان من العرب المسيحيين أو المسلمين. في حين كان أغلب الفرنجة فرساناً ومقاتلين يشكلون طبقة إقطاعية حاكمة في المدن والحصون الفرنجية الرئيسية التي كانت تتخذ للإدارة المدنية وإدارة التحركات العسكرية، في ذات الوقت.

وقد كان أكثر العرب المسلمين في فلسطين ينتمون إلى الإسلام السني الذي كان منشراً في معظم القرى الفلسطينية، في حين لم يشكل الشيعة سوى أقلية قليلة في بعض المناطق، مثل أرياف اللد والرملة وطبريا، وشمال الجليل. أما غالبية الشيعة فكانوا في بلاد الإسماعيلية في شمال الشام (المقدسي، ١٩٨٧، ص ١٥٣، وخسرو، ١٩٨٣، ص ٥٣). وكان هؤلاء يشكلون أغلبية سكانية في المناطق الريفية والرعية، سواء في الداخل، كمحيط نابلس وجنين والجليل، أم في الساحل كمحيط حيفا وعكا وغيرها. وقد ذكر المؤرخون والرحالة أن المسلمين كانوا يقيمون في كل قرى وأرياف مملكة بيت المقدس (١٨٧١، ٢٨٠)، وأن كل القرى عبارة عن ضياع متصلة وعمائر منتظمة يسكنها المسلمون، وقد تركت لهم جميع أحوالهم وأمور معاشهم في أيديهم، في حين لم يحتفظ الفرنجة سوى بالمدن الرئيسية مثل القدي ونابلس ويافا وعكا وحيفا وغيرها من مدن السواحل الشامية. وفي هذا يقول ابن جبير: «طريقنا كله ضياع متصلة، وعمائر منتظمة، وسكانها كلها مسلمون وهم مع الإفرنج



على حالة ترفيه... ومساكنهم بأيديهم وجميع أموالهم متروكة لهم، وكل ما بأيدي الإفرنج من المدن وساحل الشام على هذا السبيل» (ابن جبير، د. ت، ص ٢٣٤). ومع ذلك فقد كان بعض المسلمين الذين يحتكون بأسيادهم الفرنجة على نحو مباشر يعانون من الذلة والمسكنة، والقهر والغلبة لدرجة أنه حذر بقية المسلمين من الدخول في المناطق الفرنجية الخالصة (ابن جبير، د. ت، ص ٢٣٨).

أما إذا نظرنا للتركيبة السكانية من ناحية الانتماء المذهبي فإننا نجد أن أكثر المسلمين ينتمون إلى الإسلام السني الذي كان منشرًا في معظم القرى الفلسطينية، في حين لم يشكل الشيعة سوى أقلية قليلة في بعض المناطق، مثل أرياف اللد والرملة وطبريا، وشمال الجليل. أما غالبية الشيعة فكانوا في بلاد الإسماعيلية في شمال الشام (المقدسي، ١٩٨٧، ص ١٥٣، وخسرو، ١٩٨٣، ص ٥٣).

الكنيسة الرومانية تؤمن بالأب والابن والروح القدس الرب المحيي المنبثق منهما، والتي حثت على ضرورة بقاء الكهنة متفرغين للكهانة وغير مرتبطين بزواج. وقد أصبح أتباع هذا المذهب يعرفون بأتباع الكنيسة الكاثوليكية أو اللاتينية، وأكثرهم بل معظمهم كانوا من الفرنجة، بينما رفض أتباع كنيسة القسطنطينية هذا التوجه، وقالوا بالطبيعة الواحدة، حيث شكلوا مذهباً مغايراً عرف أتباعه بأتباع الكنيسة الأرثوذكسية، وكانت أكثر انتشاراً في الشرق، ومنهم اليونانيين واليعاقبة والسريان والموارنة والأقباط والنساطرة، وغيرهم (براور، ٢٠٠١، ص ٢٦٨، وميخائيل، ١٩٩٥، ص ٩٣-٩٤) وقد كان هناك اختلاف في طبيعة التواصل الاجتماعي بين سكان البلاد الأصليين: مسيحيين ومسلمين، وبين قدامى الفرنجة والحجود منهم، بقوله: «فكل من هو قريب عهد بالبلاد الفرنجية أجفى أخلاقاً (في التعامل مع المسلمين بفلسطين)، من الذين تبدلوا (أصبحوا مسيحيين محليين) وعاشروا المسلمين (ابن منقذ، ١٩٨٧، ص ١٣٤).  
رابعاً- الأنشطة الاقتصادية:

يمكن للباحث أن يشير في هذا الجانب إلى جانبين أساسيين من جوانب العلاقات بين المسلمين والصليبيين، وذلك على النحو التالي:

#### ١ الأنشطة التجارية:

حرص الطرفان على عقد اتفاقات تجارية تنظم العلاقات بين الطرفين بهدف الحفاظ على الاستقرار السياسي. وقد وردت نصوص كثيرة متشابهة على وجه الإجمال، في النص على «أن التجار والسفار والمتردين من جميع الجهات المذكورة (المشمولة بالهدنة) يكونون آمنين من الجهتين الإسلامية والفرنجية والنصرانية، في البلاد التي وقعت الهدنة عليها، على النفوس والأموال والدواب، وما يتعلق بهم، بحميهم السلطان ونوابه، ويتعهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح، وفي بلد المناصفت من جميع المسلمين، ويحميهم بيت الإسبيتار في بلادهم الواقع عليها الصلح، وفي بلد المناصفت من الفرنج والنصارى كافة (القلقشندي، ١٩١٤، ج ١٤، ص ٣٧، وعلي، ١٩٩٦، ص ٥٣-٥٤) وهكذا يتضح أن هذه الاتفاقات وقد شملت نوعين من التجارة، هما:

١- التجارة الداخلية: وقد لخصها ابن جبير بقوله: إن القوافل التجارية، في وقت السلم، وفي المناطق الهادئة في وقت الحرب، تذهب وتجيء ببُسر بين مصر ودمشق عبر بلاد الفرنج في فلسطين، وأن للنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، وأن الأمن والأمان كان منتشرًا في كل الدروب والطرق في كلا الطرفين.

٢- التجارة الخارجية: وفيها عقد الطرفان معاهدات واتفاقات كثيرة تنص على تأمين حركة التجارة بين الطرفين، وبخاصة مع جنوة، وبيزا، وأمالفي، والبندقية، وبرشلونة، فلورنسا، وناربون ومرسيليا. «وما منهم إلا من يجلب آلة قتاله، ويتقرب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكلهم قد قرّرت معه المواصفة وانتظمت معه المسألة.



كانت فترات الهدن بين المسلمين والصلبيين، تسمح بتجدد نشاط حركة التجارة بين داخل البلاد ومينائي عكا وصور، الأمر الذي كان يجلب كثيراً من الازدهار إلى فلسطين، وإلى تمتع التجار من أبناء الديانتين بكثير من المزايا (رانسيان، ١٩٩٦ ج ٢، ص ٥٠٩).

ومن الجدير بالذكر أن الدولة الأيوبية قد أدركت حاجتها لكسب التجار الإيطاليين، فلوّحت لهم بالمكاسب، وعقدت معهم الاتفاقات على أساس الفائدة المشتركة، وهو ما دفعهم إلى تحدي كل قرارات المنع التي كان يصدرها البابا (الحايك، ٢٠٠٦، ج ٢، ص ٢٧٤).

٢ اعتماد نظام المناصفت :

اتفق الملك بلدوين الأول ملك بيت المقدس، مع طغتكين حاكم دمشق، سنة ١١٠٨م، على هدنة مدتها عشر سنوات على أن يتم اقتسام عوائد إقليم السواد بشمال الأردن وجبل عوف بين ثلاثة أطرف، فثلث لحاكم دمشق، وثلث لملك بيت المقدس وثلث للفلاحين من سكان الإقليم، وهو ما يعني أن الفريقين اتفقا على تحييد هذين الإقليمين باعتبارهما مناطق حدودية مفتوحة (ابن القلانسي، ١٩٠٨، ص ١٦٤).

وترددت المراسلة بين الملك بلدوين صاحب بيت المقدس وبين ظهير الدين أتابك مرة أخرى في السنة التالية، ١١٠٩م، حيث تقررت المودعة بينهما على أن تقسم موارد الجولان على ثلاثة أقسام: الثلث للإفرنج والثلثان للمسلمين والفلاحين (ابن القلانسي، ١٩٠٨، ص ١٧١). وبناء على ذلك تم التوافق بين الطرفين على أن تخضع بعض الحصون القريبة من الجولان لإدارة مشتركة من قبل الطرفين.

وفي صلح الرملة الذي عقده صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد (٥٨٨هـ - ١١٩٢م) نصت الاتفاقية على أن تكون عوائد مدينتي اللد والرملة مناصفة بين الفريقين (كمال، ١٩٨٦، ص ٣٢) وفي سنة ١٢٠٤م، عقد العادل مع الفرنج صلحاً وشرطوا أن تكون يافا لهم، واستنزله عن مناصفات اللد والرملة، فأجابهم على ذلك، وعقد الهدنة بينه وبينهم (ابن واصل، ١٩٦٠، ج ٣، ص ١٦٣).

وكثيراً ما كان يتم الاتفاق على الحدود بين الطرفين، مع استبقاء بعض المناطق للمناصفة؛ نظراً لاختلاط السكان والمزارع وصعوبة رسم الحدود أو للحاجة للتنقل لبن القرى والمدن المتجاورة، فمثلاً كان جبل لبنان حداً فاصلاً بين الفرنجة في أنطاكية واللاذقية وبين الأراضي الإسلامية إلى الجنوب منها وكان الاتفاق على الحدود يهدف إلى حماية التجار والمسافرين وتحركات المواطنين العاديين ووقف العمليات العدائية والتعديان الحدودية المتبادلة، فقد نصت معظم الهدن والمعاهدات، على أن يلتزم كل طرف بحماية ما تحت يده من المجرمين والمتلصقين والمفسدين (علي، ١٩٩٦، ص ٥٢-٥٣) ويلاحظ أن الطرفين المتصارعين لجأ إلى تطبيق نظام المناصفت على الأراضي ذات السكان المسلمين والمسيحيين الشرقيين المختلطون وبعض الفرنجة. وقد توافقت القيادات الإسلامية مع القيادات الصليبية على اقتسام عوائدها مناصفة بين الطرفين، سواء كانت تلك الأراضي تابعة للمدن، أم كانت من الأراضي الزراعية أو الرعوية. وقد تم، على سبيل المثال، اقتسام عوائد إقليم السواد بشمال الأردن وجبل عوف، كمت تم تقسيم موارد الجولان. وفي صلح الرملة نصت الاتفاقية على أن تكون عوائد مدينتي اللد والرملة مناصفة بين الفريقين. وهو ما يؤكد أن كثيراً من المناطق الفلسطينية كانت عبارة عن عمائر ممتدة من السكان المسلمين والمسيحيين على السواء، وأن الوجود الوطني المسيحي، كان وجوداً كبيراً وفعالاً ومؤثراً.

ومن الجدير بالذكر أن بلاد المناصفت قد شكلت نقاط التقاء واحتكاك حضاري، وتعاون وتنسيق إداري وأمني واقتصادي، فقد نصت معاهدات كثيرة، على «ضرورة المناادة في بلاد الطرفين بعودة فلاحي المسلمين إلى بلاد المسلمين، وفلاحي بلاد الفرنج إلى بلادهم، ولا يمكن فلاحو بلاد طرف من الطرفين من الإقامة في بلاد الطرف الآخر، مع توفير

خامساً- سيادة روح التسامح الديني:

ورغم أن فترة الحروب الصليبية كانت في الغالب فترة صراعات وتحشيد عسكري وسياسي، وديني متبادل، فقد سمحت فترات السلم والمعاهدات والهدن الكثيرة التي تم عقدها بين الفريقين إلى سيادة كثير من مظاهر التسامح الديني. وقد بدأ التسامح منذ فتح صلاح الدين بيت المقدس، فقد كان في القدس عندما استرجعها صلاح الدين سنة ١١٨٧م مائة ألف صليبي، منهم ستون ألف راجل وفارس، سوى من تبعهم من النساء والأطفال، فأبقى صلاح الدين على حياتهم، واستوصى بهم خيراً، وناذ فقهاءه فيما ارتأوه من معاملتهم بمثل ما عامل به أجداد الصليبيين جمهور المسلمين يوم فتحهم القدس، واكتفى بأن ضرب على كل رجل منهم عشرة دنانير، وعلى كل امرأة خمسة، وعلى كل طفل دينارين (علي، ٢٠١٧، ص ٢٥٩). ثم أعفى صلاح الدين كثيراً منهم من هذه الغرامة، وأغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة، وعامل نساء الإفرنج معاملة لطف وظرف، وسهل سبيل الخروج للملكتين عظيمتين بما معهما من جواهر وأموال وخدم، ورخص للبطريك الأكبر أن يسير آمناً بأموال البيوع وذخائر الجوامع التي كان غنمها الصليبيون في فتوحهم (علي، ٢٠١٧، ص ٢٥٩). ومما يذكر أن صلاح الدين تسامح مع جميع الفرق الدينية المسيحية وأعاد لها اعتبارها. وقد أدى هذا السلوك إلى تغيير وجهة نظر كثير من النصارى تجاه المسلمين، وبخاصة بعد أن أدركوا مدى عدل الإسلام وإنصاف الحكم الإسلامي، ورحمته برعاياه وتسامحه مع مخالفه في العقيدة (الرومي، ٢٠٠٧، ج٢، ص ٧٥٤).

ونشأت صداقات بين أفراد الفريقين، عقبى المعاهدات التي عُقدت بين المسلمين والصليبيين لاستعانة فريق بأخر ليقاوم له منافساً أو منازعاً من أبناء دينه (حسين وآخرون، ٢٠١٨م، ص ٤٨-٤٩)

وساعد اختلاط التجار المسلمين والنصارى وشيوع التعامل فيما بينهم بالإنصاف والحسنى، في إزالة كثير من الجفوة والحقد والعداوات السابقة، التي سادت عند بداية الحروب الصليبية. وقد أن اختلاف القوافل بين القاهرة ودمشق عبر فلسطين وأن اختلاف المسلمين إلى عكا، كذلك، لم ينقطع. وكان الاتفاق بينهم والاعتدال قائم في جميع الأحوال، حتى حين يكون أهل الحرب منشغولون بحربهم، إذ لم يكونوا يعترضون الرعايا ولا التجار، لا يفارقهم الأمن في جميع الأحوال (ابن جبير، ١٩٨٠، ص ٢٥٩-٢٦٠). وقد عبر فوشيه دي شارتر عن عمق العلاقات الاجتماعية والشعبية، بين الطرفين، بقوله: « صرنا - نحن الذين كنا غربيين- شرقيين. ومن كان منا إيطالياً أو فرنسياً، أصبح في هذه البلاد (فلسطين) جليلاً أو فلسطينياً. والذي كان من مواطني رِمس أو شارتر، أصبح الآن سورياً أو أنطاكياً. لقد نسينا الأماكن التي ولدنا فيها، وأكثرنا لا يعرفها، بل لم يسمع عنها (لويس، ١٩٥٤، ص ٢٠٦-٢٠٧).

كانت العلاقات السلمية بين الصليبيين الفرنجة والمسلمين بمثابة قناة حضارية للتواصل وتطوير العلاقات بين الطرفين، حيث لم تمنع الحملات العسكرية العديدة، وحالة الحرب المعلنة بين الإفرنج والمسلمين الاتصالات السلمية، سواء على مستوى الشعوب أم على مستوى القادة (الربيعي، ١٩٩٤، ص ٤١). وقد انتقلت هذه الروح الودية إلى علماء اللاهوت المسيحي، الذين أصبحوا، بعد اختلاطهم بالمسلمين، يحملون نحو الإسلام والمسلمين، رأياً أكثر إنصافاً وعدلاً (أرنولد، ١٩٧٠، ص ١١٠).

لقد أتاحت فترة الحروب الصليبية فرصة التواصل بين الصليبيين والمسلمين، بحكم التعايش الجغرافي في ذات الإقليم. ولكون فترات السلم أطول بكثير من الفترات الحروب والحملات العسكرية. وقد أتاحت هذه الفترات فرص اللقاء بين الطرفين، على مستوى القادة وعلى مستوى الأفراد (حتى، د.ت، ص ٢٢٣). لقد جرت اتصالات كثيرة بين زعماء الإفرنج والعرب، في أوقات السلم والحرب على السواء، حيث كانوا يوقفون حرباً دائرة؛ لتبادلوا عبارات التحية والتقدير.

وربما اشترك الجنود والصبيان في مشاهدة حفل ممتع، وكأنه لم يكن بينهم صراعات سابقة (ابن شداد، ١٩٩٤، ص ١٠٨-١٠٩، ورناسيمان، ١٩٨١، ج ٣، ص ٥٩).

ومما يؤكد عمق الامتزاج الاجتماعي، في وقت السلم، أنهم كانوا يجاملون بعضهم، في الأفراح والمناسبات، وكثيراً ما قدموا لبعضهم الخدمات الودية ومن خلال المبادرات الفردية ومن خلال السياسات الحكومية التي سمحت بحرية التنقل والاتجار واستخدام وسائل النقل العامة، وحتى المشاركة، في بعض الأحيان في دور العبادة. وقد سمحت التعاملات القائمة على التسامح، بين المسلمين والصليبيين، بأن يؤدي المسلمون صلاتهم، وقيموا شعائرهم في أحد مساجد عكا، وذلك على سبيل المثال، بينما كان النصارى يأتون ويؤدون بعض طقوسهم وشعائرهم في الجانب الآخر من المسجد (ابن جبير، ١٩٨٠، ص ٢٧٦). وقيل إن بعض النصارى إذا رأوا أحداً من المسلمين منقطعاً للعبادة جاؤوه بالزاد والماء (ابن جبير، ١٩٨٠، ص ٢٥٩-٢٦٠). وكثيراً ما كانت تجري بين الطرفين ألعاباً مسابقات ثقافية، على سبيل التسلية والترفيه (ابن شداد، ١٩٩٤، ص ١٦٩-١٧٠)

ومن مظاهر تحسن العلاقات بين الفريقين، أن قادة الصليبيين البلديين خففوا من حدة اضطهادهم للمسلمين الواقعين تحت حكمهم، وأعطوهم حق حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية، بل سمحوا لهم في كثير من الأحيان أن يحتكموا لحكم مسلم يرجعون إليه من دون الصليبيين (الرومي، ٢٠٠٧، ج ٢، ص ٧٦١)، بل إن بعض القرى المسلمين التي كانت تحت النفوذ الصليبي، أتيح لها أن تدير شؤونها المدنية المحلية علة نحو شبه مستقل (ابن شداد، ١٩٩٤، ص ١٤٤). ومن الجدير بالذكر أن الصلات بين الملك الكامل والإمبراطور لم تتوقف، حيث استمرت الرسل تتردد بين الطرفين، فبعد عودة الإمبراطور إلى بلاده أرسل رسالة إلى فخر الدين يبين له فيها شوقه إليه، ويدعو له بالخير ودوام حكم الملك الكامل، ويشكو له ما فعله البابا (الخطيب، ٢٠٠١، ص ٣٠٤).

وتطور هذا التسامح الديني فيما بعد في عصر دولة المماليك الأولى والثانية، فأصدروا المراسيم التي تنص على ضرورة معاملة النصارى والفرنج والحجاج معاملة حسنة، وألغوا الرسوم التي كانت تفرض عليهم أثناء زيارتهم للمقدسات المسيحية وأمروا بعدم التعرض للرهبان والرهبانيات براً وبحراً بأيّ سوء. وهكذا انتهى الأمر بإدراك الفرنجة أن الصراع المسلح على الديار المقدسة، غير ذي جدوى، وأن التفاهم السياسي والتعايش الحضاري بين الإسلام والمسيحية، وبين المسلمين والمسيحيين، هو الأساس المتين الذي ينبغي أن تنبني عليه العلاقات الدائمة بين الطرفين.

سادساً- العلاقات الدينية والتفاهم على إدارة الأماكن المقدسة:

سوف تتم معالجة هذه القضية في نقطتين أساسيتين، هما:

١ التفاهم على الحرية الدينية وحق الوصول إلى الأماكن المقدسة:

بدأ التفاهم الديني بين الطرفين المتصارعين يبرز للوجود بدءاً من الحملة الصليبية الثالثة، حيث أقر الجانب الصليبي بقيادة ريتشارد قلب الأسد بأن الحروب أدت إلى هلاك البلاد، وانهايار الاقتصاد، ودمار الموارد البشرية والمالية وتعدد الأمور السياسية والحربية بلا طائل. فقد قال ريتشارد إلى صلاح الدين: «بالله عليك أجب سؤالي في الصلح، فهذا أمر لا بد له من آخر، وقد هلكت بلادي وراء البحر، وليس لنا ولا لكم في الحرب مصلحة». وكان رأي المسلمين قريب من ذلك حيث، قال قادة الجيش «إن البلاد تشعثت، والأقوات قلّت، والعسكر ضجر، والدواب هلكت، والأسلحة نفدت، والصواب القبول بالصلح. وأن في عقد الهدنة فرصة للراحة من الحرب، وإعمار للبلاد، وإصلاح للعباد، كما أن فيها إقرار للأمر السياسي وتنفيس للأزمة بفتح آفاق التعايش الديني والحضاري، والتمهيد لإغلاق باب الصراع الحربي بشكل نهائي.

ومهما يكن، فقد أسفر صلح الرملة عن تقاسم جيوسياسي، حيث تولى المسلمون حكم عسقلان بعد تخريب أسوارها، وغزة والداروم (دير البلح)، ومعها سائر البلاد الداخلية بما فيها بيت المقدس بأيدي المسلمين (أبو شامة، ٢٠٠٠ ج ٢ ص ٢٠٠، وعاشور - ج ٢ ص ٨٥٨). وهكذا تم الصلح، وتم تفكيك الأزمة الدينية على نحو جزئي، في معاهدة صلح الرملة ١١٩٢م، التي أعطت الصليبيين الحق في حماية الأماكن المقدسة، وضمنت لهم حرية الحج والوصول إليها، في مقابل التخلي عن حق السيطرة السياسية على بيت المقدس، الذي يعتبره المسلمون حقاً سيادياً حافظوا عليه أكثر من خمسة قرون. وبدا واضحاً أن التعايش الحضاري هو الذي سيسود في المراحل المقبلة.

وقد تم تطوير هذه العلاقات الدينية من خلال التفاهات الواردة في اتفاقية يافا، التي عقدت بين الملك الكامل والإمبراطور الألماني فريدريك الثاني، والتي نصت على أن يسلم إليه القدس على شرط أن يبقى خراباً، ولا يحدد أسوارها بالإضافة إلى الناصرة وبيت لحم ومدينة اللد والمنطقة الواقعة بين الناصرة، وعكا والسهول التابعة لها (، ١٩٦٢، ٦٩، ٨٩٠)، وذلك لتكون طريقهم للحج في مأمن، وللحيلولة دون أن يقاتلهم أحد من المسلمين، في طرق القدوم والعودة. (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٩٩٨، ج ١٠، ص ٤٨١)، والتي نصت في المقابل على أن يكون الحرم بما فيه الصخرة والمسجد الأقصى في أيدي المسلمين، يتولاه قوام من المسلمين وقيميون فيه شعائر الإسلام من الأذان والصلاة، ولا يدخله الفرنجة إلا للزيارة (المقريزي، ٢٠٠١، ج ١، ص ٣٥٣، وأبو الفداء، دت، ج ٢، ص ٢٤٠)، وأن تكون جميع القرى التابعة لبيت المقدس للمسلمين، ويأتي الحجاج المسيحيون إلى الأماكن المقدسة ليؤدوا العبادات الخاصة بهم بالقدر الذي يسمح لهم به، وألا يحملوا بداخلها أي نوع من الأسلحة، وعلى ألا يسمح لهم بالسكنى داخل المدينة، وعليهم الرحيل عند الانتهاء من طقوسهم (المقريزي، ٢٠٠١، ج ١، ص ٣٥٤).

وإذا نظرنا لهذه الاتفاقية نظرة معتدلة بعيدة عن التعصب، نجد أنها أدت إلى نتائج حضارية بالغة الأهمية، منها:

١. الفصل بين السيادة السياسية والسيادة الدينية، حيث احتفظ المسلمون بحق السيادة السياسية العامة على الإقليم، في الوقت الذي أتاحت فيه حق ممارسة الشعائر الدينية وحق الوصول إلى الأماكن المقدسة في حرية تامة. وهو ما تم التفاهم عليه مسبقاً، من خلال العرض الذي تقدم به الإمبراطور الألماني، فريدريك الثاني، حين قال للملك الكامل: «فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد؛ ليرتفع رأسي بين الملوك، فأنا ألتزم بحمل دخلها لك. وهو ما يعني أنه لم يكن يطالب بأكثر من ولاية إدارية على الأماكن المسيحية المقدسة. وهو ما تمت ترجمته فعياً، عند تنفيذ مراسم التسلم والتسليم. ومما يذكر أن الملك الكامل لأن لهذا الطلب، فجاوبه بأجوبة غليظة، باطنها نعم» (الذهبي، ١٩٦٨، ج ٣، ص ١٣٢). وربما كان ذلك لأنه لا يريد أن يثير رعيته ضد تفاهات لم يتم تفهم واستيعاب ما يمكن ما تتمخض عنه من نتائج حضارية.

٢. التسليم بأن الصراع العسكري لن يؤدي إلى غلبة إحدى الحضارتين على الأخرى، ونسجل في هذا الإطار، أن ريتشارد قلب الأسد، كان يعي هذه الحقيقة جيداً، وهو ما دفعه لأن بعث إلى صلاح الدين برسالة يقول فيها: «لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم».

وهو الوعي نفسه الذي دفع الإمبراطور الألماني، فريدريك الثاني، يقول للملك الكامل: «هذه القدس هي أصل دين النصرانية»، وقد أصبحت غير محصنة وبلا أسوار وولم تعد تتمتع بمكانة استراتيجية من الناحية العسكرية، «وليس لها دخل طائل. فإن رأيت أن تنعم عليّ بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، فأنا ألتزم بحمل دخلها لك فلان له الكامل وجاوبه أجوبة غليظة، وباطننا نعم» (الذهبي، ١٩٦٨، ج ٣، ص ١٣٢).

٣. تراجع البعد الصليبي، لصالح الاعتدال الديني، والتعقل السياسي، وعلى أساس الاحترام المتبادل بين المسلمين المعتدلين، والمسيحيين المتمسكين بأصول عقيدتهم بعيداً عن نزعة التعصب والاستعلاء والعنصرية التي نادى بها الفرنجة حين شرعوا في التحضير للحملة الصليبية الأولى.



٤. وهذا الأمر كان يعيه الملك الكامل تماماً والذي يستشف من قوله بأنه لم يسلم في القدس سوى أديرة وكنائس خربة فهو لا يقصد أن يقلل من قيمة القدس ومكانتها وهو القائل لأخيه: «أن أخذه الفرنجة حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحداث ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمُّنا. وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند الله» (ابن واصل، ١٩٦٠، ج ٤، ص ٢٣٤)، إنما كان يعني أن تسليم القدس بهذا الشكل لا يعني شيئاً من الناحية العسكرية (حجازي، ٢٠١٥، ص ١٨).  
 ٥. أن إبقاء القرى والرساتيق التي هي حول مدينة القدس بأيدي المسلمين، وكذلك، إبقاء أسوار مدينة القدس مهدامة، يعني الحيلولة دون العودة للصراع العسكري حول المدينة (حجازي، ٢٠١٥، ص ١٩)، وأن العلاقات السلمية وحدها هي التي يمكن أن تقيم علاقات حضارية متزنة بين الطرفين، وهي التي يمكن أن تسمح بحرية إقامة الشعائر الدينية لكل الأديان والمذاهب، على قدم المساواة. وقد تأكد هذا التوجه عندما تم التوافق على أن يتسلم الإمبراطور مدينة القدس، وبيت لحم، وشريطاً من الأرض، يصل بين عكا والقدس، وفي مقابل التعهد بوقف الحملات الفرنجية طوال مدة. ومن الجدير بالذكر أن ما تم التفاهم عليه قريب جداً مما كان المسلمون والمسيحيون يمارسونه على مدار التاريخ الإسلامي في بيت المقدس وفلسطين، باستثناء حالات نادرة تأثرت فيها الطريق إلى بيت المقدس بالصراعات السياسية بين السلاجقة والبيزنطيين، أو بالخلافات بين الخليفة الفاطمية والدولة البيزنطية، أو بينه وبين بعض القوى المسيحية الوطنية التي مست بمكانة الخليفة، على الأقل من وجهة نظره. وقد برز هذا الموقف الفاطمي كأقصى ما يكون في زمن الحاكم بأمر الله، أي قبل بداية الحروب الصليبية، بأكثر من ثمانين عاماً.

## ٢ - فشل محاولات التنصير:

حاول بعض الصليبيين التبشير بين الطبقات العاملة من الفلاحين ومعاوني التجار وصغر الحرفيين، كما حاولوا التبشير بين الأسرى والمستعبدين بمساومتهم على حريتهم مقابل التنصر والدخول في الدين المسيحي، حيث نصت قوانين مملكة بيت المقدس على أن المسلم الذي تحول إلى المسيحية ينال حريته. (، ١٩٧٩، ١٣٢٠). ولكن نتائج محاولات التنصير القائمة على الرعاية السياسية كانت متواضعة ومحدودة للغاية. فإذا كان جودفري دي بوايون قد نجح في إقناع حاكم الرملة الفاطمي باعتراف المسيحية، وبلدوين الأول قد نجح في تنصير بعض المسلمين، الذين يقال إنهم تنصروا وحسنت نصرانيتهم فمنحهم وظائف سامية في بلاطه (حسين، ١٩٨٩، ص ٣٥). ففي المقابل حاول جاك دي فيتري، أسقف عكا (١٢١٦-١٢٤١م) سنة ١٢١٧م تنصير من أسر من أطفال المسلمين في بيسان، حيث سلمهم إلى راهبات عكا لكي يقومون بتلقينهم التعاليم المسيحية (، ، ١٦). ولكنه سرعان ما عادوا إلى أهلهم دون تنصير. وحاول ريتشارد قلب الأسد إقناع الأمير الأيوبي العادل بالتنصر، ولكن هذا الأمير رفض أن يفكر في هذا المقترح من حيث المبدأ (ابن شداد، ١٩٦٤م، ص ١٩٥).

وجرت محاولة لتنصير الملك العادل، حيث عرض ريتشارد على صلاح الدين زواج شقيقه العادل من أخته الأميرة جوانا، أرملة ملك صقلية، على أن يملك بيت المقدس معاً. ولكن هذا العرض جوبه بعدة عراقيل، منها اشتراط تنصر الملك العادل، وهو ما لم يفكر فيه العادل أصلاً (ابن شداد، ١٩٦٤م، ص ١٩٥)، ورفض الأميرة جوانا، واعتراض مراكز القوى الصليبية. وكذلك حاول فرانسيس الأسيزي إقناع الملك الكامل الأيوبي بالتنصر، ولكنه لم يعطه جواباً، ولم يرد عليه، حتى سمح له بالانصراف (عمران، ١٩٨٥، ص ١٩٤-١٩٧).

ومن هنا يمكن للباحث أن يخلص إلى أن مساعي وأساليب التنصير السياسية القائمة على المصالح الاجتماعية والاقتصادية قد فشلت فشلاً ذريعاً. ويعود هذا الفشل إلى عدة أسباب منها:

١. أن العمل والحرفيين والعبيد العاملين في المناطق الخاضعة لسلطة الصليبيين، كانوا، أحياناً، يعلنون تنصرهم، ثم يفرون إلى معسكر المسلمين حين ينالون حريتهم (، ١٨٥٣، ٦٦-٦٧).



٢. أن الإقطاعيين من الصليبيين: المتدينين والعلمانيين، عارضوا سياسة التنصير التي انتهجتها الحكومة ووضعوا العراقيل أمامها، لأنها تتسبب في التأثير على اقتصادهم، وتسبب لهم عجزاً ونقصاً في العمالة الزراعية، وعمالة الخدمات المعاونة في الأعمال التجارية. وهو ما أدى إلى نشوء خلاف بين البابا جريجوري التاسع ورجال الإقطاع في فلسطين، وإلى أن أقدم الباب على تهديد الإقطاعيين بالحرمان، في حالة عدم سماحهم لعبيدهم بالتحول للمسيحية مقابل إطلاق حريتهم (حسين، ١٩٨٩، ص ٢٧).

٣. أن حكام المسمين عملوا على تحجيم هذه المساعي التبشيرية وإفشالها. ومن ذلك أن صلاح الدين الأيوبي أمر، حين سيطر على حصن الأحزان، بإعدام المرتدين، والمتعاونين مع الصليبيين (حسين، ١٩٨٩، ص ٣٦). وأن الظاهر بيبرس، على سبيل المثال، تصدى لهذه الظاهرة بأن شرط معاهدته مع الاسبتارية، أن يتم تحرير الفلاحين المقيمين في أراضي المناصفت سوا كانوا مسلمين أم مسيحيين، على أن تطبق على المسلمين أحكام الإسلام، وعلى المسيحيين أحكام المسيحية (القلقشندي، ١٩١٣، ج ١٤، ص ٣٢-٣٣). وينطبق هذا الموقف على سياسة السلطان المملوكي المنصور قلاوون الذي أمر بتجريد من يتنصر ويهرب إلى عكا من أملاكه وأمواله، ولكنه أتاح له فرصة العودة، وقرر منح العفو لكل من يرجع عن النصرانية، ويعود إلى ديار المسلمين (القلقشندي، ١٩١٣، ج ١٤، ص ٥٦-٥٧). ومما عزز دور هذه السياسة أن المسلمين أصبحوا أصحاب اليد العليا بعد استعادة بيت المقدس، وأن النصوص الدينية الإسلامية تحرم الردة عن الإسلام وتنزل بالمرتدين أقصى العقوبات (حسين، ١٩٨٩، ص ٣٨).

٤. عدم إعداد الصليبيين في الشرق للعملية التبشيرية، على نحو جيد ومنهج. وعدم مأسسة العمل التبشيري إلا في وقت متأخر. لقد كانت معظم محاولات التنصير تأتي بالصدفة وعلى نحو فردي، وترتبط بالحوارات السياسية، وبإدارة العلاقات بين الحرفيين والعبيد وأسيادهم.

٥. انهيار الممالك الصليبية المتتالي، وبخاصة بعد استرداد صلاح الدين لبيت المقدس، أضعف الروح التبشيرية لدى بقايا الفرنجة الذين ظلوا في بعض الجيوب أو الممالك الصليبية الساحلية. في الوقت الذي لم يكن المسيحيون الوطنيون معنيين بالتبشير لصالح الكنيسة اللاتينية التي لا يُكِنّ لهم كثيراً من الاحترام والتقدير. وقد انتهى هذا الأمر إلى تراجع محاولات التنصير السلطات الإسلامية

٦. الرأي العام الوطني في بلاد الشام قد تغير تجاه بقايا الصليبيين (حسين، ١٩٨٩، ص ٣٨)، لسببين رئيسيين، أولهما أن سلطانهم الاجتماعي أخذ في التراجع، وأن قاتهم حاولوا التعاون مع التتار ضد المسلمين، وهو ما جعلهم ينظرون إليهم بعين الشك والريبة.

سابعاً- النتائج:

وأخيراً لا بد من القول إن هذه الدراسة قد توصلت إلى عدة نتائج، منها:

١. أن الصلات بين الغربيين والشرقيين بدأت بحرب بين المؤمنين، وانتهت بمسائل تكونت بين المتجرين، بامتزاج الغربيين بالشرقيين (حسين وآخرون، ٢٠١٨، ص ٤٩)، حيث نشأت صداقات بين أفراد الفريقين، وبخاصة في عقب المعاهدات طويلة الأمد والتي عُقدت بين المسلمين والصليبيين بناءً على تفاهات سياسية واقتصادية، وقبول بالعيش المشترك وتبادل المنافع الحياتية. وهو الأمر الذي سمح، أحياناً، باستعانة أحد الفريقين بالآخر، ليقوم بدعمه في مواجه منافس له أو منازع له في ملكه، من أبناء دينه (حسين وآخرون، ٢٠١٨، ص ٤٨-٤٩). وقد حدث هذا الأمر غير مرة، بل عشرات المرات، بين مختلف الحكام المسلمين والمسيحيين، المتنازعين مع خصومهم على السيطرة الإقليمية، أو بسبب الخوف على مركزهم ومواقعهم السياسية المعرضة للتهديد من قوى المعارضة في دولتهم أو إمارتهم.

٢. أن العلاقات السلمية بين الصليبيين الفرنجة والمسلمين كانت بمثابة قناة حضارية للتواصل وتطوير العلاقات بين الطرفين، حيث لم تمنع الحملات العسكرية العديدة، وحالة الحرب المعلنة بين الإفرنج والمسلمين الاتصالات السلمية، سواء على مستوى الشعوب أم على مستوى القادة. (الربيعي، ١٩٩٤، ص ٤١). وقد عبر فوشيه دي شارتر عن عمق العلاقات الاجتماعية والشعبية، بين الطرفين، بقوله: « صرنا - نحن الذين كنا غربيين - شرقيين. ومن كان منا إيطالياً أو فرنسياً، أصبح في هذه البلاد (فلسطين) جليلاً أو فلسطينياً. والذي كان من مواطني رمس أو شارتر، أصبح الآن سورياً أو أنطاكياً. لقد نسينا الأماكن التي ولدنا فيها، وأكثرنا لا يعرفها، بل لم يسمع عنها (لويس، ١٩٥٤، ص ٢٠٦ - ٢٠٧).

٣. أن مخرجات الحروب الصليبية من حيث غاياتها الأولى: السياسية والعسكرية، كانت سلبية عقيمة، فإن الصليبيين على ما أهرقوا من الدماء وبذلوا من الأموال، رجعوا، من الشرق، بعد قرنين كاملين من الصراع السياسي والعسكري، بِخُفْيٍ حُنَيْنٍ. ولم يتمكنوا من فرض سيادتهم على أي شبر من أراضي المسلمين (حسين وآخرون، ٢٠١٨م، ص ٤٩)، بل لم يستطيعوا أن يفرضوا سيادتهم السياسية حتى على الأماكن المقدسة في بيت المقدس، حيث رجعت الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه قبل الغزو، وسمح للحجاج المسيحيين، على اختلاف طوائهم بالحج والزيارة وإقامة الشعائر الدينية، تماماً مثلما كانت أيام الاستقرار السياسي، في العلاقات الإقليمية والدولية.

٤. أن الصلات بين الغربيين والشرقيين بدأت بإعلان حرب دينية، ولكنها انتهت بالتوافق على إدارة المصالح الاقتصادية من جهة، وبالفصل بين الأطماع السياسية والحقوق الدينية من جهة أخرى، حيث أصبح الفرنجة على قناعة تامة بأن الصراع المسلح على الديار المقدسة، غير ذي جدوى، وأن التفاهم السياسي والتعايش الحضاري بين الإسلام والمسيحية، وبين المسلمين والمسيحيين، هو الأساس المتين الذي يمكن أن تنبني عليه العلاقات الدائمة بين الطرفين.

٥. أن العامل الديني والدعوة إلى الحج والزيارة المقدسة لم تبرز إلا في الحملة الأولى، بينما جاءت باقي الحملات في إطار الصراع السياسي، ومن ثم اكتفت بالبحث في سبل تأمين طرق وصول حجاج الطرفين: الإسلامي والفرنجي إلى الأماكن المقدسة الخاصة بكل منهما في أمن وأمان.

٦. أنه قد تم تصحيح كثير من المفاهيم الدينية المغلوطة سواء لدى علماء اللاهوت المسيحي، أم لدى علماء المسلمين وعامتهم، حيث أصبح الطرفان أكثر استعداداً للتعيش والاندماج، وتفهماً لعقيدة الآخر. وقد أخذ الصليبيون يقولون لقومهم إن أعداءهم كانوا أهل دين وتوحيد ومروءة، وذوي وِدٍّ ووفاء وحرمة، وأن ما كانوا يتهمونهم به من الإساءات والعدوان والمساس بالمقدسات، والمنع من الحج والزيارة ومصادرة المتاجر، وتهديد الأمن غير صحيح، ولم يكن شيء من ذلك إلى في حالات استثنائية مرتبطة بتوتر العلاقات السياسية الإقليمية والدولية (حسين وآخرون، ٢٠١٨م، ص ٥١).

٧. أن المشكلة لم تكن في حرية الوصول للأماكن المقدسة، ولا في حرية إقامة الطقوس والشعائر الدينية فيها، حيث تقادم العهد بالاضطهاد الدين، ولم يكن موجوداً في الأراضي المقدسة على أقل تقدير، وإنما في الروح العدائية التي قدم بها الصليبيون الفرنجة، والتي كانت تتهم المسلمين بالكفر والإلحاد، وتهدف لإقصائهم عن الأراضي المقدسة، باعتبارهم أغراباً وأن وجودهم كان احتلالاً، وأن طردهم والقضاء عليهم قربي إلى الله.

٨. أن الحج الجماعي لم يكن هو الهدف النهائي في ذاته وإنما تم استثماره لتثوير العاطفة الدينية وتحويلها إلى قوة مواجهة صليبية شاملة ضد المسلمين عامة وبخاصة في آسيا الصغرى وبلاد الشام ومصر، ضد المذاهب المسيحية المخالفة للتوجه اللاتيني. وهو الأمر الذي قاد للصراع بين القوى اللاتينية وبين الإمبراطورية البيزنطية، سواء في الوطن الأم أم في الأقاليم التابعة لهذا الوطن، مثل قبرص وشمال الشام.

٩. أن تسوية الخلافات الدينية تمت بالتفاهم الحضاري، ولم تحسم في ميادين القتال. وهو ما ترتب عليه نشأة قناعة تامة بأن الحروب الصليبية كانت عقيمة، وأن كل الحروب والصراعات الصليبية انتهت دون تحقيق أية مكاسب سياسية

أو إقليمية، على الرغم مما بذلوا من الأموال، وأراقوا من الدماء، ولأن محاولاتهم للتنصير القائم على الضغوط السياسية والاقتصادية باءت بفشل كبير.

١٠. أن المسلمين فرقوا بين الصليبية باعتبارها حركة سياسية وبين المسيحية باعتبارها عقيدة دينية، كما ميّزوا بين الصليبيين الفرنجة، وبين المسيحيين الوطنيين، أو غير المنتمين للحركة الصليبية، وأنهم أدركوا أن المسيحيين الشرقيين أكثر تمسكاً بوطنيتهم، وأبعد ما يكون عن المشاركة في العدوان.

١١. أن الحوار الحضاري اضطر الساسة من طرفي الصراع إلى تجاوز النصوص والتعليمات الدينية الجامدة، حيث أخذ كل طرف من الدين جوهره وتعامل بواقعية كبيرة حافظت على شعرة معاوية بين الحضارتين: الإسلامية، والمسيحية.

### قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر والمراجع العربية:

١. ابن الاثير، عز الدين ابي الحسن (١٩٩٨م): الكامل في التاريخ، تحقيق محمد يوسف الدقاق، بيروت.
٢. براور، يوشع، (٢٠٠١م): الاستيطان الصليبي في فلسطين، مملكة بيت المقدس الصليبية، تعريب عبد الحافظ البناء، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة.
٣. بورشارد، الحاج بورشارد (١٩٩٥م): وصف الأراضي المقدسة، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان.
٤. البيشاوي، سعيد عبد الله (١٩٨٩م): الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية «دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
٥. التطيلي، بنيامين (٢٠٠٢م): ترجمة عزار حداد، ط ١، المجمع الثقافي، أبوظبي.
٦. توديبود، بطرس (١٩٩٨م): تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين عطية، ط ١، دار المعارف الجامعية، الإسكندرية.
٧. توماس، أرنولد، سير (١٩٧١م): الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، تعريب حسن إبراهيم وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة
٨. ابن جبير، محمد بن أحمد (١٩٨٣م): رحلة ابن جبير، أو تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت.
٩. الحايك، منذر (٢٠٠٦م): العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية، تقديم سيهل زكار، الأوائل للنشر والتوزيع، دمشق.
١٠. حسين، حسن عبد الوهاب (١٩٨٩م): المحاولات التبشيرية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
١١. حسين، حمدي عبد المنعم (٢٠٠٠م): دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية.
١٢. الحويري، محمود محمد (١٩٧٩م): الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، عصر الحروب الصليبية، دار المعارف، القاهرة.

١٣. خسرو، أبو المعين ناصر (١٩٨٣م): سفرنامه، تحقيق يحيى الحشاب، ط ٣، دار الكتب الجديدة، بيروت.
١٤. الخطيب، إبراهيم ياسين (٢٠٠١م): القدس بين اطماع الصليبيين وتفريط الملك الكامل الأيوبي، دار المناهج للنشر والتوزيع، عمان.
١٥. الدباغ، مراد مصطفى الدباغ (٢٠٠٠م): موسوعة بلادنا فلسطين، ١٠ ج، دار الهدى، كفر قرع.
١٦. الذهبي، الحافظ (١٤١٣): سير أعلام النبلاء، ٢٣ ج، تحقيق شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، ط ٩، مؤسسة الرسالة، بيروت.
١٧. رانسيما، ستيفن (١٩٩٤م): تاريخ الحملات الصليبية، تعريب نور الدين خليل، ج ٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
١٨. الرومي، سليمان بن عبد الله (٢٠٠٧م): دعوة المسلمين للنصارى في عصر الحروب الصليبية، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض.
١٩. ريشار، جان (١٩٩٥م): تكوين مملكة بيت المقدس اللاتينية وبنيتها، وقع ضمن كتاب الصراع الإسلامي الفرنسي على فلسطين، تعريب سهيل زكار، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت.
٢٠. زيتون، عادل (١٩٨٠م): العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دار دمشق.
٢١. سمث، جوناثان رايلي (١٩٩١م): ما هي الحروب الصليبية، تعريب محمد الشاعر، توزيع دار المعارف، القاهرة.
٢٢. شارتر، فولشر أوف (١٩٩٠م): تاريخ الحملة إلى القدس، (١٠٩٥-١١٢٧م)، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان.
٢٣. الشارتر، فوشيه (١٩٩٠م): تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العسلي، دار الشروق، عمان.
٢٤. شامة، شهاب الدين أبو محمد (٢٠٠٠م): الروضتين في أخبار الدولتين التورية والصلاحية، ويليه الذيل على الروضتين، ٥ ج، قدم له وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ م. أبو.
٢٥. الشامي، أحمد (١٩٩١م): صلاح الدين والصليبيون تاريخ الدولة الأيوبية، مكتبة النهضة العربية، القاهرة.
٢٦. شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع (١٩٦٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة. ابن.
٢٧. الصوري، وليم الاعمال (٢٠٠٣): المنجزة في ما وراء البحار، ترجمة سهيل زكار، بيروت.
٢٨. طقوش، محمد سهيل (٢٠٠٨م): تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام وإقليم الجزيرة، ط ٢، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.
٢٩. عاشور، سعيد عبد الفتاح (١٩٩٩م): الحركة الصليبية، ط ٥، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٣٠. عطية، حسين عطية (٢٠٠٠م): دراسات في تاريخ الحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية.
٣١. علي، علي السيد علي (١٩٩٦م): العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين، عين للدراسات والبحوث، القاهرة.
٣٢. علي، محمد كرد علي (١٩٧١م) خطط الشام، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت.
٣٣. عمران، محمود سعيد (١٩٨٥م): الحملة الصليبية الخامسة، دار المعارف، القاهرة.
٣٤. عوض، محمد مؤنس (١٩٩٩-٢٠٠٠م): الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب، عين للدراسات

والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة

٣٥. غروسية، رينيه (٢٠١٤): موجز تاريخ الحروب الصليبية في المشرق الإسلامي وشرقي حوض المتوسط، تعريب أحمد أيبش، أبو ظبي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، دار الكتب الوطنية.
٣٦. أبو الفداء، إسماعيل بن علي (د.ت): المختصر في أخبار البشر، ٥ ج، د. ط، دار المعرفة، بيروت، د.ت.
٣٧. الفرات، ناصر الدين محمد (١٩٦٩م): تاريخ ابن الفرات، ٤ مج، نشر حسن محمد الشماع، دار الطباعة الحديثة، البصرة. ابن
٣٨. فورزبورغ، يوحنا (١٩٩٧م): وصف الأراضي المقدسة في فلسطين، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان.
٣٩. الفيتري، يعقوب (١٩٩٨م): تاريخ بيت المقدس، ترجمة سعيد البيشاوي، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨
٤٠. ابن القلانسي، أبو يعلى حمزة (١٩٠٨م): ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت.
٤١. القلقشندي، زكريا بن محمد بن محمود (١٩١٣-١٩٢٠): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ ح، القاهرة.
٤٢. كاهن، كلود (١٩٩٥م): الشرق والغرب زمن الحروب الصليبية - ترجمة أحمد الشيخ - سينا للنشر، القاهرة.
٤٣. مصطفى، شاكر (١٩٩٨م): في التاريخ الشامي، دار طلاس، دمشق.
٤٤. مصطفى، شاكر (١٩٧٤م): دخول الترك الغز إلى الشام، المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، الجامعة الأردنية، الدار المتحدة للنشر، عمان.
٤٥. المقدسي البشاري، شمس الدين أبو عبد الله (١٩٨٧م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، قدم له ووضع حواشيه، محمد مخزوم، دار إحياء التراث، بيروت.
٤٦. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (٢٠٠١م): اتعاظ الحنفا بأخبار الأمة الفاطميين الخلفاء، ٢ ج، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت
٤٧. المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (د.ت): سلوك لمعرفة دول الملوك - لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
٤٨. ابن منقذ، مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي (١٩٩٥م): الاعتبار، تحقيق سهيل زكار، وقع في الموسوعة الشاملة، ج ١٢، دار الفكر، دمشق.
٤٩. ميخائيل السوري (١٩٩٥م): تاريخ ميخائيل السوري، وقع ضمن الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، ترجمة سهيل زكار، ج ٥، ط ١، دار الفكر، دمشق
٥٠. ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (١٩٦٠م): مفرج الكروب في تاريخ بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال وحسين ربيع، القاهرة.
٥١. ويندوفر، روجر أوف (٢٠٠٠م): ورود التاريخ، ترجمة وتحقيق سهيل زكار، ضمن الموسوعة الشامية، ج ٣٩، ط ١، دمشق.

ثانياً- المراجع الأجنبية:

1. Benvenisti, M. (1972): The Crusaders in the Holy Land, Jerusalem, New York.
2. Ernoul (1871): La Chronique d'Ernoul et de Bernard le Tresorier, ed Mas Latrie, paris.
3. Oliver of Padenborn, Trans John J. Gavigan (1948): The Capture of Damietta,



University of Pennsylvania Press, Pennsylvania.

4. Fulcher of Chartres (1941): Chronicle of the First Crusade, Translated by: Martha Evelyn McGinty, University of Pennsylvania Press

5. Jean, Riechard (1979): The Latin Kingdom of Jerusalem, Translated from French by Shively, 2 Vols, Amsterdam.

6. Hovden, Roger (1853): The Annals of Roger de Hoveden: Comprising the History of England and of Other Countries of Europe, 2 vols; H. G. Bohn, London:

## هوية المسيح في الميزان المنطقي والتاريخي والاركولوجي

مقابل المسيح التاريخي الذي تزخر به روايات الأناجيل الأربعة كما نصوص عدد من المؤرخين الرومان الذين عاشوا في منتصف القرن الميلادي الأول وعاشوا تلاميذ المسيح، صدرت دراسات أخرى أغلبها باقلام أهل الغرب طعنت بالمسيح التاريخي وكتبت عن المسيح الافتراضي، أي المسيح الأسطورة الذي هو نسخة شبيهة بألهة الموت والقيامة التي عرفتها ديانات الشرق القديمة كالإله تموز في بلاد ما بين النهرين وأدونيس في سوريا وأتيس في آسيا وحورس في مصر، أي أن المسيح حسب هذه الدراسات هو طبعة متأخرة من الديانات الوثنية، بينما ظلت هذه الدراسات معلقة على افتراضات نظرية لم يتم تدعيمها بحشوات من الحقائق التاريخية أو الأثرية.

باستثناء هذه الدراسات وأبرزها وأحدثها دراسات الكاتب الأمريكي ريتشارد كارير المختص بالشخصيات التاريخية الاسطورية، كما دراسات استاذ الشيلوجيا الأمريكي روبرت برايس<sup>١</sup> يتعذر وجود باحث أو مؤرخ صاحب وزن علمي ثقيل ينفي وجود المسيح التاريخي، الأبحاث التاريخية وخاصة الأبحاث التي صدرت في الغرب والتي قامت على فرضية المسيح الخيال لم تعد مقبولة حتى للمؤرخين والكتاب غير المتدينين، والكثير من أصحاب هذه الأبحاث أعادوا بناء أبحاثهم على فرضية المسيح التاريخي، أي أن يسوع المسيح حقيقة تاريخية وليس إسقاط خيالي<sup>٢</sup>.

ويكاد أن يكون هناك اتفاقاً قوياً بين الباحثين العلمانيين باختلاف مرجعياتهم ومذاهبهم على تعليل مشترك للوجود التاريخي للمسيح انطلاقاً من الاعتقاد القائل : بأنه لا يوجد أي مرجع تاريخي يحظى بإجماع علماء الاختصاص يشير أن هناك أي شخص سواء كان يهودي أو روماني أو كنعاني أو يوناني أو غيرهم ممن عاشوا في القرن الأول الميلادي ينكر وجود المسيح، ونحن بناء على هذا الاعتقاد الرصين نضيف بأنه لا يوجد دافع لاستشهاد أغلب تلاميذ المسيح الذين كانوا شهود عيان في زمن المسيح في سبيل شخص ما أو رسالة ما إلا إذا كان هذا الشخص حقيقي أو كانت الرسالة حقيقية، فحسب الكتابات الأولى حول المسيحية المبكرة فلم يستشهد تلاميذ المسيح في صراعات داخلية بينهم، أو طمعا بالسلطة أو بالمال، ولم يكونوا ينتظرون يختات ملكية في مياه البحر الأبيض المتوسط أو قصور على جبل الزيتون في القدس، ذلك أن غياب هذه الاسباب لاستشهادهم لا يمكن إلا اعتبارها الدليل القوي على صدق شهادتهم حول وجود المسيح كما على سيرته ورسالته، كما لا يمكن الطعن منطقياً بوجود أحد عشر تلميذاً ليس لديهم دوافع شخصية وليس أمامهم أرباح مادية وأمامهم مخاطر وخسائر واتفاقهم جميعاً على أنهم عاشوا مع المسيح ورافقوه في جميع محطات حياته وشاهدوا أعماله وسمعوا أقواله وتناولوا معه الطعام، وبعد ذلك سيتعذر على أي إنسان عاقل ان يقوم بتكذيبهم.

لم يقتصر وجود المسيح التاريخي على شهادات تلاميذ المسيح وإنما إتسعت الدائرة لتشمل عدداً من مؤرخي القرن الأول الميلادي، ويأتي في طليعتهم وأقدمهم المؤرخ اليهودي الشهير يوسيفس فلافيوس الذي عاصر البعض من تلاميذ المسيح كما تلاميذ الرسل والمولود عام ٣٧ ميلادي والمتوفي عام ١٠٠ ميلادي، أي أن هناك دلائل على وجود المسيح التاريخي من خارج الأناجيل كما من خارج رسائل بولس الطرطوسي، فيما

١ انظر : Richard Carrier: Sense and Godness without God, Auther House, 2005

٢ انظر Robert price , theory problems and the Christ myth , press American , USA, 2011

٣ انظر الباحث المختص في العهد الجديد والأكثر طمعا للأناجيل الأربعة : Ehrman Bart, Did Jesus Exist? Harper Collins , USA

جاءت مكتشفات علم الآثار لتطابق مجدود كبيرة بين ما جاء في الروايات المختلفة عن سيرة المسيح وأسماء الأمكنة التي كان يتحرك المسيح في مداراتها، لتعزز من قيمة تلك الشهادات، وفي هذه الحثية الأخيرة لنا وقفة موسعة. في الدراسات المعاصرة وخاصة دراسات كمال الصليبي وفاضل الربيعي الملفتة للانتباه إنتقل قرص البحث نحو هوية المسيح كما نحو مسقط رأسه وإسمه الحقيقي، ومع أن كمال الصليبي وفاضل الربيعي يشتركان في إحالة الموطن التاريخي ليسوع المسيح إلى الجزيرة العربية وليس إلى فلسطين، فإن الأول يرد نسبه إلى سبط داوود ويرد مولده في وادي جليل في الحجاز، بينما الثاني يرد مسقط رأسه إلى نجران ويرد نسبة إلى قبيلة عربية في نجران دون أن يذكر إسم القبيلة ولا إسم العائلة، مع أن العرب قبل الإسلام كما أيضا بعد الإسلام كانوا بارعين في تدوين شجرة الأنساب .

كتب كمال الصليبي في مؤلفه : البحث عن يسوع الناصري : قراءة جديدة في الأناجيل : ولد يسوع المعروف بالنجار أو ابن النجار والملقب بالناصرى في مكان ما خارج أرض «اليهودية» بفلسطين، هو وادي جليل بمنطقة الطائف من الحجاز، وكان والده يوسف يعتبر في دياره سليلا لزرابابل من نسل داوود وصاحب الحق في المطالبة بعرش داوود، وعند وفاة زرابابل إنتقل حق المطالبة بالعرش لابنه البكر يسوع، وكانت الظروف للمطالبة بالعرش مواتية في حينه بسبب وجود كيان يهودي قائم في فلسطين يحكمه ملوك وأشبه ملوك من الأسرة الهيرودية غير الاسرائيلية الأصل ومن كبار اليهود الفريسيين المنتفعين من الأسرة الهيرودية والمتعاونين معهم، ومن اليهود الناقمين عليهم من أسرة داوود الآملين بعودة عرش اسرائيل الى أصحابه الشرعيين، وقد شجع ذلك يسوع للأعلان عن نفسه مطالبا بالعرش بعد وفاة والده يوسف مباشرة، فأخذ يجمع حوله الأنصار وأخوته يدعمونه في مسعاه، ولعل يسوع كان يأمل في البداية بأن يعترف به ملكا على اسرائيل وهو في وادي جليل في الحجاز، ولكن أخوته أشاروا اليه أن يذهب الى اليهودية في فلسطين ويعلم عن نفسه هناك وريثا شرعيا لعرش داوود، وما لبث يسوع أن اقتنع بذلك، فخرج من دياره عام ٢٨ أو ٢٩ ميلادي قاصدا فلسطين، وحاملا ما ورثه من مال عن أبيه لينفق على مسعاه.

يعترف كمال الصليبي بان هذه الرواية هي رواية إفتراضية، ولكنه يدعمها بالصراعات أو الخلافات التاريخية بين أسباط اليهود خاصة بين سبط يهوذا ومنه جاء داوود ثم زرابابل الجد الذي يسبق حفيده المسيح ب ٥٠٠ سنة على الأقل وبين سبط بنيامين ومنه جاء شأوول وأرميا، ويقول الصليبي ان الخلاف بين سبط يهوذا وسبط بنيامين هو خلاف قديم يمتد الى الزمن الذي خرج فيه داوود عن طاعة شأوول البنياميني<sup>٦</sup>. بالطبع يوثق الصليبي الصراع بين داوود وشأوول بنصوص العهد القديم الواردة في سفر صموئيل وسفر الملوك الأول، الصراع بين شأوول وداوود أحاله الصليبي حصرا على خروج داوود عن طاعة شئوول، بينما لوعدنا الى مشهد القبائل اليهودية في ذلك الزمن فان الصراع بين شأوول وداوود لم يكن زائدة دودية في الجسم القبلي اليهودي، الصراع كان عينة من عينات غزيرة لدورة الصراع بين الأسباط والأبناء والأحفاد والتي لم يفلت من طاحونها الدموية ملوك وأنبياء القبائل اليهودية وأنسأهم، ولم تكن هذه الدورة وقفا على العلاقة بين شأوول وداوود، ولكن ما يميز الصراع بين شأوول وداوود ان شأوول عمل على المس بصلاحيات المؤسسة الكهنوتية بمصر السلطتين السياسية والدينية في قبضته فتمت إزاحته عن السلطة بينما داوود جمع السلطتين في يده بحكم انتمائه للقبيلة اليهودية الأقوى، واذا قارنا بين نموذج داوود الكهنوتي والسياسي والغزواتي بنموذج المسيح المختلف عن نموذج داوود كما هو مدون في الروايات الدينية والعلمانية فإن الربط التوريثي الذي عمل عليه الصليبي بين نموذجين متفارقين لا يعدو عن كونه تليقا توريثيا هشا.

٤ مدارات حركة المسيح كانت تشمل الجليل وقرها والقدس وقرها ونابلس وقرها وأريحا ونواحيها والخليل وصور وصيدا وطبريا وبرية الأردن والتي تقع بين القدس والخليل والبحر الميت، أي شرايين فلسطين التاريخية

٥ كمال الصليبي : البحث عن يسوع الناصري : قراءة جديدة في الأناجيل، دار الشروق، ٢٠٠٠، ص ٦١ - ٦٢

٦ نفس المصدر، الصليبي ص ٢١

لنعد ونتابع مع الصليبي، يضيف الصليبي كان يسوع المعروف بالناصرى أميرا من بيت داوود ومن جد له اسمه زربابل فحاول الوصول إلى العرش على اسرائيل منقفا ما ورثه عن أبيه من مال، ولكن مطالبة يسوع بعرش اسرائيل اصطدمت بمقاومة شديدة من المؤسسة الكهنوتية اليهودية وهي المؤسسة ذاتها التي سبق أن تصدت لمسعى جده زربابل إلى الملك على اسرائيل قبل خمسة قرون تقريبا فافشلت بطريقه أو بأخرى، وعندما بدأ يسوع المطالبة بالعرش حاول الكهنوت اليهودي أن يردع مسعاه في البداية عن طريق التهديد والوعيد فلم يرتدع، وكان نهاية الأمر أن تم القبض عليه واقتيد أمام رئيس كهنة اليهود للمحاكمة فحكم عليه بالموت ثم سلم للسلطات الرومانية لتنفيذ الحكم عليه صلبا<sup>٧</sup>. هذه الرواية التي نسجها الصليبي أشبه بالرواية البوليسية فهي تصور المسيح قائدا عسكريا يعد المال والمعاونين للانطلاق من الحجاز إلى فلسطين للقيام بانقلاب عسكري ضد سلطة الكهنوت اليهودي للقبض على السلطة واسترداد عرش الأجداد، وإذا اعتبرنا أن غياب الأدلة التاريخية هي كعب أخيل هذه الرواية فإن كعب الكعب هو الانقلاب الجذري في تصوير شخصية المسيح من شخصية تاريخية عامة يخلو تركيبها اللاهوتي والانساني من أية محمولات سياسية وعرقية كما تفصح عن ذلك نصوص الأناجيل وشهادات المؤرخين الرومان إلى شخصية قبلية تحركها نوازع السلطة والارث الأبوي، وقد يكون هذا التصوير مقبولا بحدود معينة لو كانت بيئة المسيح الحقيقية هي بيئة الصحراء وليست بيئة فلسطين وبلاد الشام، ولو جاءت مكتشفات علم الآثار وبرهنت على أن المسيح هو ابن الحجاز وليس ابن الجليل الفلسطينية فإن الصليبي يكون قد فتح فتحة ضوئية في المناطق المعتمدة من مسيرة التاريخ، بينما لسوء حظ الصليبي فإن مكتشفات علم الآثار الحديثة قد دحضت فرضيته وما قام عليها من خيالات شبيهة بخيالات جورج مارتن في روايته لعبة العروش<sup>٨</sup>، وفي حثية مكتشفات علم الآثار الحديثة لنا وقفة أخرى في الصفحات القادمة.

أما فاضل الربيعي فقد كتب : ان المسيحية الأولى أي «النصرانية العربية» ظهرت في نجران كإنشقاق عن اليهودية وقد استمرت في التطور البطيء هناك مع اندثار يهودية اليمن وتراجع حضورها في حياة القبائل العربية، ومن المحتمل في ضوء هذه الفرضية أن النصرانية «دين عيسى بن مريم» وبعد أن انتشرت افكارها ومعتقداتها في شمال الحجاز حتى جنوب بلاد الشام قد وصلت الى فلسطين قبل عام ٢٠٠ قبل الميلاد على أبعد تقدير، لقد حصل هذا الانتشار بالتلازم مع وصول القبائل العربية النصرانية واليهودية المهاجرة التي سوف تنقل معها كما يفعل كل المهاجرين لا ديانتها ومعتقداتها وإنما أساطيرها كذلك، ويضيف الربيعي : بالطبع فنحن لا نعرف أي شيء عن هجرة معاكسة من فلسطين الى جنوب غرب الجزيرة العربية، بينما يمكننا ان نقبل فكرة حدوث العكس<sup>٩</sup>، ولتعزيز فرضيته بأن النصرانية العربية قد ولدت في نجران، يقول الربيعي : ولعل العبارة الشهيرة التي وردت في العديد من المؤلفات التاريخية القديمة على لسان الحارث بن كعب ( وهو من قبيلة بلحارث أحد أساقفة نجران) قبل وفاته وهو يوصي أولاده بأن يتمسكوا بالنصرانية وأن يقاوموا الضغوط والتحديات السياسية والفلسفية كافية للدلالة على حجم التحدي ونوع التراجع ويقصد الربيعي تراجع النصرانية العربية إذ خاطب الحارث بن كعب أبناءه قائلا : يا بني قد أتت علي مئة عام وستون سنة ولا بقي من دين عيسى بن مريم من العرب غيري وغير تميم بن مر بن أسد، فموتوا على شريعته واحفظوا وصيتي وإلهكم فاتقوا، يكفيكم ما أهمكم ويصلح لكم حالكم وإياكم ومعصيته<sup>١٠</sup>.

٧ نفس المصدر، الصليبي ص ١٦٨، ١٦٩

٨ انظر رواية لعبة العروش الخيالية الصادرة عام ١٩٩٦ للروائي الأمريكي جورج مارتن وهي قريبة من رواية الصليبي حول صراع العائلات النبيلة من اجل استرداد عروش الاجداد، والرواية تحولت الى مسلسل تلفزيوني وحازت على عدة جوائز امريكية وعالمية

٩ فاضل الربيعي: المسيح العربي، النصرانية في الجزيرة العربية والصراع البيزنطي الفارسي، رياض الريس للكتب والنشر، ط ٢٠٠٩،

هذا التدعيم التوثيقي الذي قام به الربيعي لاثبات أن نجران هي الموطن الأصلي للنصرانية العربية، هو توثيق ينطوي على كبة كبيرة وقع فيها كاتب كبير، حيث أن النص المكتسب غير مسنود من أي مرجع تاريخي محدد، لا يوجد عنوان مرجع ولا أسم مؤلف ولا رقم الصفحة، بينما كل ما ذكره الربيعي أن وصية الحارث بن كعب قد وردت في العديد من المؤلفات التاريخية القديمة، ولو افترضنا أن مرجع اقتباس الوصية قد سقط سهواً، فإن العودة إلى زمن الحارث بن كعب وهو قس نجران، فإن المصادر التاريخية تربط بين زمن الحارث بن كعب وذو نواس الحميري اليهودي ملك حمير كما تربط بين ذو نواس الحميري ومذبحه نجران، أي أن الحملة العسكرية التي شنها ذو نواس الحميري اليهودي على نجران المسيحية قد وقعت في القرن الرابع الميلادي لاختراع نجران وتهويد سكانها وعدم استسلام الحارث بن كعب وأهالي نجران للتهويد بقوة السلاح، أي أن الوصية ترتبط بزمن متأخر جدا عن بدايات وصول المسيحية إلى الجزيرة العربية ونجران كما سنعمل لاحقا على إثبات ذلك، فهذه الوصية ستكون حجة قوية لدى الربيعي لو كانت تنتمي إلى ما قبل القرن الميلادي الأول، ذلك أن الربيعي يرد ميلاد المسيحية أو كما يسميها بالنصرانية العربية إلى عام ٢٠٠ قبل الميلاد، لأنها ستظهر الفرق بين النصرانية العربية التي ولدت في نجران والمسيحية البولسية أي نسبة إلى بولس حسب تعبيرات الربيعي التي جاءت بعد قرون من النصرانية الأولى في نجران، أو جاءت أي المسيحية البولسية أيضا مختلفة عن نصرانية الحيرة في العراق حيث في مملكة الحيرة فإن النصارى العرب كما يقول الربيعي قد تماثلوا واتبعوا خطى آخوتهم في نجران، أما حول النصارى العرب في مملكة الحيرة فإن المصادر التاريخية لا تشير لا من قريب ولا من بعيد عن وجود مسيحي في الحيرة قبل منتصف القرن الميلادي الأول، وحتى بعد منتصف القرن الميلادي الأول ودخول عدد من الرهبان إلى الحيرة فإن أهل الحيرة استمروا على الديانة السومرية البابلية الاشورية ولم يدخلوا المسيحية إلا في أواخر القرن الميلادي الأول، وندل على ذلك بالحملة العسكرية التي شنها كسرى الأول عام ٩٨ ميلادي ضد مسيحيي العراق ثم تواصلت حملات الاضطهاد التي قام بها أبناء كسرى وأحفاده في القرن الثاني الميلادي ضد المسيحيين، بينما تعتبر الفترة الواقعة من عام ٣٣٩ - ٣٧٩ ميلادي من أشد حملات الاضطهاد ضد مسيحيي العراق وقد سميت هذه الحملات بالاضطهاد الاربعيني لأنها دامت أربعين عاما، وإذا ذهبنا لدلائل أخرى لا تستقيم مع فرضية الربيعي حول وجود نصراني عربي في الحيرة مختلف عن مسيحية فلسطين تاريخيا وعقائديا، فإن الحفريات الأثرية الموسعة في الحيرة والتي بدأتها البعثة الألمانية عام ١٩٠٢ ثم تنقيبات علماء جامعة أكسفورد عام ١٩٣١ قد أخرجت من باطن الأرض العديد من القطع الأثرية أهمها عملات معدنية وحلي ذهبية وجرار تحمل علامة الصليب، وجميع هذه القطع الأثرية تعود إلى ستينات وسبعينات القرن الميلادي الأول، أما اكتشاف جرار فخارية تحمل علامة الصليب فهذا يؤكد أن العلامات الدينية التي وجدت في الحيرة هي علامات مسيحية فلسطين، ذلك أن الصليب لا يندرج في معتقدات النصرانية العربية القديمة كما تشي فرضية الربيعي، وفوق كل ذلك فإن أهل الحيرة وملوكها كانوا طوال تاريخهم المسيحي على المذهبين النسطوري واليعقوبي، ويتفق المذهبان مع المسيحية الأولى في فلسطين حول الصليب باعتباره رمز الديانة المسيحية، كما أفاد علماء الآثار بأن أول أثر ديني مسيحي في العراق لم يكن في الحيرة، ذلك أن الحيرة ظلت على العبادة البابلية حتى نهاية القرن الميلادي الأول، وإنما كان أول وأقدم أثر في منطقة المدائن في العراق وهو عبارة عن كنيسة شيدت عام ٨٢ ميلادي وكانت تسمى كنيسة الكوخ وقد بنيت على أعمدة رومانية. هذا حول الحيرة، أما حول نجران التي هي الموطن الأصلي للمسيحية ومسقط رأس المسيح حسب فرضية الربيعي فسنعود إليها وسنعمل على دحضها بتعزيز من المراجع التاريخية الموزونة ودشهادات عينة من علماء الآثار.

١١ نفس المصدر، الربيعي، ص ١٥

١٢ انظر بحث الدكتورة أريكا هنتر المبنى على معطيات علم الآثار:



الجزيرة العربية، فكتب بأن أصل ذلك الدين جاء من نجران<sup>١٣</sup>، بالطبع محمد الحميري من مؤرخي القرن الرابع عشر الميلادي، أي بعد المسيح بأربعة عشر قرناً، ويصف الباحث الايطالي اومبرتو ريتسيتانو كتاب الحميري الذي إعتنى بوصف الأماكن الجغرافية في الجزيرة العربية بأن الكتاب كان أقرب الى النقل من مصادر سابقة أكثر من الاعتماد على التجربة الشخصية للمؤلف مما جعل قيمته العلمية أقل أهمية<sup>١٤</sup>.

كما يذهب الربيعي إلى الأزرق في كتابه تاريخ مكة ليدل على الأصل العربي للمسيح : فيضع الاقتباس التالي: أخبرني محمد...عن بن اسحق عن حكيم بن عباد بن حنيف وغيره من أهل العلم أن قريش قد جعلت في الكعبة صورة فيها عيسى بن مريم ومريم عليهما السلام. قال ابن شهاب، قالت أسماء بنت أشقر: أن امرأة من غسان حجت في حاج العرب، فلما رأت صورة مريم في الكعبة، قالت: بأبي أنت وأمي إنك عربية. ثم يكتب الربيعي معلقاً: ترى ما الذي يدفع امرأة بدوية لتردد مع نفسها أو على أسماع الحجيج تحت جدران الكعبة ان شبيهتها في الملامح سيدة الصورة المقدسة هي امرأة عربية بدوية مثلها؟ لولم تكن هناك بواعث أقوى لمثل هذه المشاعر، تتخطى حدود الاشتباه بوجود نوع من التماثل الشكلي، ربما يكون رسام اللوحة قد افترضه مجرد افتراض، وهو يرسم أقرب صورة ممكنة تتناغم مع خيال العرب وتصورهم لأم المسيح، فما هي هذه البواعث؟ إذ لم تكن مزيجاً نقياً وصافياً من التاريخ والثقافة والموروث الراسب والمستمر في مجتمع القبائل حتى اليوم، يفيد بان المسيحية لم تكن سوى ديانة عربية وان المسيح نبي عربي<sup>١٥</sup>.

تفسير الربيعي لردة فعل المرأة العربية التي رأت صورة المسيح وأمه مريم تفسير منطقي، بينما تفسيره للبواعث التي كمننت خلف ردة فعل المرأة العربية هو تفسير إختزالي، يختزل العام في الخاص، كما لو أن الرسم باعتباره إبن بيئته هو حصراً إبن بيئة الجزيرة العربية، بينما الرسم كجنس من أجناس الفنون هو إبن بيئته بصرف النظر عن خاص هذه البيئة العربية كانت أم غير عربية، فالرسام الذي رسم صورة المسيح وأمه مريم نسخ ملامح وجه المسيح وأمه مريم من ملامح وجه شعب الجزيرة، فلو طلب من نفس الرسام الذي رسم صورة المسيح وأمه مريم والتي كانت معلقة على جدار الكعبة والتي كما كتب الأزرق والربيعي بأن الرسول العربي قد أمر بإزالة جميع الصور عن جدران الكعبة باستثناء صورة المسيح وأمه مريم، أن يقوم برسم شجرة، فيا ترى ماذا سيرسم، المنطقي أن هذا الرسام إبن الجزيرة العربية سيقوم برسم نخلة أو أي شجرة من الأشجار التي تعيش في الجزيرة ولن يستطيع بكل ما أوتي من خيال خارق على رسم شجرة كرز على سبيل المثال لا الحصر، لأن الجزيرة العربية لم تعرف شجرة الكرز، وحتى لو تم نقل شتلة الكرز وزراعتها في تربة الجزيرة ومناخها الحار فانها ستموت لان تلك الشتلة لا تنمو إلا في المناطق الباردة، ولهذا فان الأمر الطبيعي أن يرسم صورة المسيح وأمه مريم بملامح متوافقة مع ملامح الوجه الجزيري وليس بملامح الوجه الغربي أوالوجه الأفريقي.

لوحات ثم أيقونات وجه المسيح وأمه مريم تناسلت وتنوعت تاريخياً طبقاً لمعيار ومفهوم الجمال المرتبط بالبيئة والثقافة السائدة، فالأفارقة حتى اليوم أو بعضهم يرسمون المسيح وأمه مريم ببشرة سمراء داكنة وشفاه غليظة وشعر أجمع، بينما الشكل الشائع في الغرب الذي بدأ مع لوحة ليوناردو دافنشي في القرن الخامس عشر يظهر فيها المسيح ببشرة بيضاء وعيون ملونه وشعر أشقر، بينما في الشرق فالوجه قمحي البشرة أو أسمر فاتح والعيون عسلية والشعر لا هو مجعد وفق الطبيعية الأفريقية ولو هو ناعم وفق الطبيعة الغربية، وفي كنائس جنوب غرب آسيا فان الوجه دائري يميل إلى المزج بين الأسمر الفاتح والأصفر والشعر أسمر ناعم والعيون صغيرة إرتباطاً بالملامح الآسيوية.

لاحظوا أن الأفارقة والغربيين وشعوب جنوب غرب آسيا يرسمون وجه المسيح وأمه مريم على صورة ملامح وجوههم دون أن يكون المسيح من مواليد افريقيا أو بلاد الغرب أو بلاد جنوب غرب آسيا ، وهذا ينطبق تماماً على المرأة العربية

١٣ محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في أخبار الاقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٥، ص ٥٧٣

١٤ أنيس فريجة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الجامعة الأمريكية بيروت، ١٩٥٦، ص ٥٠.

١٥ نفس المصدر، الربيعي ص ٥٦، ٥٥

البدوية التي رأت صورة المسيح وأمه مريم في كعبة مكة وقالت : بأبي أنت وأمي إنك عربية، فقول المرأة البدوية جاء من باب تداعيات التماثل التلقائي الذي يصيب أي عقل حين يتداعى أمامه صورة تشبهه أو قريبة من ملاحظه، أي يغدو التيمن تعبيراً عن هذا التماثل وليس شرطاً أن يكون تعبيراً عن الأصل المشترك بين الملامح المتشابهة، ولا تعبيراً عن إستدعاء موروث تاريخي راسب حسب تعبير الربيعي، بقدر ما هو تعبير عن حالة نفسية إنفعالية يسميها علم النفس بالشرطية القياسية أو الأنعكاس الشرطي.

أما علم الآثار فيفيد أن اقدم لوحة للمسيح وأمه مريم قد وجدت في روما في سراديب بريسيليا في مطلع القرن الثالث الميلادي، وكانت هذه السراديب مدافن وملاجئ للمسيحيين الأوائل، ويظهر وجه المسيح وأمه مريم في هذه اللوحة الجدارية على شكل وجه قمحي وبشعر اسود فاتح كبشرة وشعر فلسطين وبلاد الشام، بينما تم اكتشاف لوحة أخرى في قرية شيفتا في فلسطين عام ٢٣٥ ميلادي ويظهر فيها المسيح بشعر أسمر قصير وكانت هذه اللوحة منتشرة في فلسطين وسوريا ومصر والعراق، وقد تكون صورة المسيح وأمه مريم كما وصفها يوحنا الدمشقي الذي عاش في القرن السابع الميلادي الوصف الأقرب إلى الحقيقة، فكتب القديس يوحنا الدمشقي : كان المسيح طويل القامة بوجه حنطي اللون وبأنف مستقيم وبشعر أسمر فاتح وبلحية سمراء وكان شبيهاً بأمه<sup>١٦</sup> وهذا يدفعنا إلى القول أن دليل الربيعي المقتبس من الأزرقى يصلح أن يكون مثالا للعلاقة بين الرسم والبيئة وليس دليلاً على أن المسيح عربي وأمه عربية.

كمال الصليبي يتفارق عن فاضل الربيعي في تاريخ ميلاد المسيح ونشأة المسيحية، فالأول يتفق مع التأريخ المسيحي الرسمي الذي يرد مولده إلى الخامس أو الرابع قبل الميلاد ويرد إنطلاق حضوره التبشيري إلى بداية عام ٢٨ أو ٢٩ ميلادي، بينما الثاني يعود بالمسيح والمسيحية أو كما يسميهما بعيسى بن مريم والنصرانية العربية إلى مائتي عام قبل الميلاد، والفرق بين الأثنين ليس مجرد فرق في التأريخ، هناك فروقات أخرى في المنهج والمصادر كما في الرؤية الفلسفية للظاهرة الدينية، وهذا سنقوم باجلائه تباعاً.

منشأ فرضية كمال الصليبي وفاضل الربيعي تقوم على بعض التشابه بين أسماء الأماكن في غرب وجنوب الجزيرة العربية وأسماء الأماكن في فلسطين، فمثلاً بيت لحم الواردة في الأناجيل ليست هي بيت لحم الفلسطينية التي ولد فيها المسيح، وإنما إسمها الأصلي لحم وهي موجود في اليمن، أما الناصرة الفلسطينية فهي ليست الناصرة في الجليل وإنما الناصرة في اليمن حسب الربيعي وإسم أحد فروع قبيلة بلحارث في الحجاز حسب الصليبي، ويتوافق الربيعي مع الصليبي بأنه لم يكن هناك قرية إسمها الناصرة في الجليل في القرن الميلادي الأول، بينما اورشليم ليست هي القدس اليبوسية في فلسطين وإنما يوجد في اليمن ثلاثة مواقع تحمل إسم اورشليم، كما أن ييوس ليس إسم القدس القديم في فلسطين بينما ييوس هو حصن منيع يقع في الجنوب الغربي من صنعاء في اليمن، وحررون الاسم القديم للخليل ليست الخليل الفلسطينية وإنما هي قرية الحربان أو الحربان في منطقة النمرة في عسير، وشكيم هي الكشمة في منطقة رجال المع في اليمن وليس نابلس الفلسطينية، والنقب هي النجب في رجال المع وليس النقب الفلسطينية، أما إسم فلسطين فقد جاء من منطقة تسمى الفلسطة في رجال المع في اليمن، بينما الفلسطينيين فلم ينبثقوا من الحضارة الكنعانية كما يقول الربيعي وإنما موطنهم الأصلي الجهة الغربية لمنطقة عسير.

إزاحة بيت لحم والناصرة والخليل والقدس ونابلس والنقب وغيرها من المدن الفلسطينية من المنشأ الجغرافي لفلسطين، واقتلاع فلسطين من حوضها الطبيعي والحضارة الكنعانية من منشئها التاريخي، هي لعبة لغوية تتفنن في تدوير الألفاظ والمفردات واستبدال أمكنتها عنوة لاستخراج استنتاجات لدعم فرضيات الإزاحة والاقتلاع، هذه الطريقة في العمل البحثي التي قام عليها منهجي الصليبي والربيعي شقت عملها دون أن تبرهن على علميتها وتاريخيتها وبقينيتها

بشواهد من علم الآثار، فشواهد علم الآثار هي أداة الحسم، فيما وثائق العصر البرونزي الأول والوسيط والمتأخر الممتد من عام ٣٥٠٠ قبل الميلاد الى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد والحفائر والنقوش المستخرجة من باطن وظاهر جغرافيا فلسطين لا تدعم فرضيات الصليبي والربيبي، وعلى نحو أكثر تحديدا فانها لا تدعم ترحيل الحوض الجغرافي التاريخي للجماعتين الكنعانية والفلسطينية ونقلهما إلى الجزيرة العربية، بالطبع نحن لا ننفي ورود أسماء شبيهة لفلسطين وكنعان في عدد من مناطق الجزيرة العربية كما هو اسم كنعان في مملكة الجوف في اليمن أو في ساحل عمان مثلا لا حصرا، فتشابه الأسماء ظاهرة طبيعية ناتجة عن التفاعل الاجتماعي والزراعي والتجاري المتبادل بين الشعوب، بينما لو أخذنا مدينة أريحا الفلسطينية الكنعانية التي هي من أقدم مدن التاريخ فهي قطعاً تسبق أية مدينة أو قرية أو ناحية أو جبل أو سهل سميت بكنعان أو فلسطين أو أريحا في الجزيرة العربية<sup>١٧</sup>.

فرضيات الصليبي والربيبي من نوع الفرضيات الثقيلة، وهي دون أدنى شك قد هزت تصورات سابقة حول تاريخ اليهودية والمسيحية ونقلت البحث نقلة كبيرة من حيز التسليم الى حيز الجدل والبحث عن الحقيقة، ولكن هل يكفي مقياس تشابه أسماء الأمكنة للوصول إلى الحقيقة؟ وقبل ذلك هل يصلح مبدأ تشابه الأمكنة لإقامة فرضيات علمية واستخدامها كإطار تفسيري للتاريخ، ان مسألة بهذا الحجم يلزمها مقياس علمية وأدلة شبه صارمة، أدلة تقطع بحدود كبيرة مع الشك، كتلك الأدلة التي تجعل القاضي النزيه يحكم بالعدل ببراءة المتهم أو بإدائته، بالطبع عندما نتحدث عن الأدلة التي تمنح القاضي الثقة باصدار الحكم العادل فاننا لا نتحدث عن أدلة مطلقة الصحة وإنما عن تلك الأدلة التي هي أقرب ما تكون إلى الواقع، فالواقع دائما أصدق من الناطقين باسمه وأدق من الأدلة التي تبرهن عليه، إلا أن تتوقّر، خاصة في المسائل التاريخية، شواهد نهائية من علم الآثار تفصل نهائيا في القضايا المطروحة على بساط البحث، فتشابه أسماء الأمكنة يظل لعبة لغوية دون حشوات برهانية من الأحافير والنقوش الأثرية.

مقابل فرضيات كمال الصليبي وفاضل الربيبي سأعمل في اتجاه مضاد استرشادا بالأدلة المنطقية والتاريخية ومعها إقتباسات من علماء الآثار المشهورين حول عينات من الأكتشافات الأحفورية المسجلة كأكتشافات علمية بالغة الجدية والصرامة.

أولا : سأبدأ بالأناجيل الأربعة التي هي شهادة شهود عيان عن المسيح الفلسطيني، لماذا أقول شهود عيان، وما هي الدلائل المنطقية أو الأمبريقية التي تجعلهم شهود عيان حقيقيين وتجعل من أناجيلهم سجلات حقيقية أو اقرب إلى الحقيقة، ان الأناجيل الأربعة وخاصة أناجيل متى ولوقا ومرقص قد تم تدوينها من قبل تلميذ واحد من شهود العيان وهو متى ومن تلميذين من تلاميذ بولس وبطرس هما لوقا ومرقص، وإذا نظرنا في المقابل إلى أناجيل أخرى غير الأناجيل الثلاث، أي الأناجيل التي توصف بالمزورة والمنسوبة إلى بطرس ويعقوب ومريم المجدلية والتي كتبت في القرنين الثاني والثالث الميلادي، فاننا نلاحظ مفارقة هامة جدا، وهي أن بطرس ويعقوب ومريم أشخاص مقربين جدا من المسيح وأسماء كبيرة في التجربة المسيحية الأولى وأكبر بكثير من اسم متى العشار الذي كان أقل قبولا في الأوساط الشعبية بسبب مهنته كجابي ضرائب، يتوجس الناس من الاقتراب منه أو يشككون فيما يقول، بينما مرقص ولوقا لم يكونا من تلاميذ المسيح وأقل شهرة واهمية من بطرس ويعقوب ومريم، ان الدليل المنطقي يقول ليس هناك أي سبب منطقي يتم فيه نسب الأناجيل لهؤلاء الثلاثة الأقل شهرة من الأكثر شهرة إلا في حالة منطقية واحدة بأن تكون هذه الأسماء وهذه الأناجيل الشهادة الصحيحة أو الاقرب إلى الصحة عن يسوع المسيح، أما رفض الأناجيل المنسوبة لبطرس ويعقوب ومريم الأكثر قربا من دائرة المسيح فهذا دليل منطقي آخر على أن تلك الأناجيل ليست لهذه الأسماء المشهورة، وإنما هي لاسماء آخرين جاءت في خضم حالة الجدل اللاحق حول لاهوت وناسوت المسيح، أي كانت تعبيرا عن منظور لاهوتي جديد مختلف عن منظور

الأناجيل الأربع في توصيف جوهر المسيح، بينما جاء تنسيبها لهذه الأسماء الكبيرة من أجل منحها الصدق والمصداقية. ثانياً : سأسأل عن السمات الشخصية لهؤلاء التلاميذ أو أغلبهم، ان السمات الشخصية الأخلاقية العالية أو الهابطة هي معيار مهم من معايير الحكم على صدق الرواية أو الطعن بها، فلو نظرنا إلى سيرتهم الشخصية فلا يوجد أي دليل تاريخي حتى من أعدائهم يغمز في نزاهتهم واستقامتهم، كما لا يوجد أي دليل تاريخي يشير أنهم عاشوا حياتهم الشخصية ورسالتهم بعيداً عن إيمانهم وإخلاصهم برسالة المسيح بدليل أن أحد عشر منهم من أصل اثنا عشر تلميذ قد آثروا الموت على التنازل عن إيمانهم، وهذا يزيك أن هؤلاء شهود العيان ومعهم أتباعهم المباشرين قد نقلوا وكتبوا عن المسيح بدرجة معقولة من الأمانة التاريخية دون أن نغضب العين عن الأخطاء أو الإهدارات التي تسلت لعدد من النصوص، وهذا موضوع آخر لا يتصل بمادة هذه الورقة، لنبدأ بهذا المثال لتدعيم المحاججة : إذا كان المسيح بلا خطيئة لماذا تعمد في نهر الأردن على يد يوحنا المعمدان؟ هذا إذا عرفنا أن المعمودية بالماء في المسيحية هي جسر الانتقال من الخطيئة إلى المغفرة، لقد تعمد المسيح والتلاميذ شاهدوا عماد المسيح وكتبوا عن حادثة العماد، كان من الأجدر للتلاميذ الذين كانوا يؤمنون أن المسيح بلا خطيئة أن لا يكتبوا عن هذه الحادثة لان تأريخ هذه الحادثة يثير اسئلة محرجة، بينما قاموا بتدوين هذه الحادثة التي هي عكس إيمانهم، وهذا المثال كما نظن مؤثر قوي على صدق شهادتهم وعلى دقة تدوين الحدث سواء ما يتعلق بتعميد المسيح أو المكان الذي عمد فيه وهو نهر الأردن الذي هو الجار الأقرب لفلسطين وليس نجران أو الحجاز في الجزيرة العربية والذي يبعد آلاف الكيلومترات عن فلسطين. دعونا نأخذ مثلاً آخر، لماذا اطلق المسيح نداءه المشهور: الهي الهي لماذا تركتني وفي نفس الوقت فإن صاحب هذا النداء كما جاء في الأنجيل قد أقام الأموات من القبور، أي لماذا اطلق هذه النداء الحزين وهو في نفس الوقت قادر على تخليص نفسه من قبضة الرومان والسلطة الدينية اليهودية، ان تدوين هذا الحدث في الأنجيل من قبل تلاميذ قد شاهدوا معجزات المسيح بأعينهم سيكون ضد صالح قدرات المسيح الخارقة واستسلامه السهل على الصليب، أليس من الأجدر أن يتم اغفال هذا النداء لو كانوا ملوثين في كتابة التاريخ؟ وهناك مثال ثالث لا بد من استحضاره، كتب مرقس على لسان المسيح : وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب<sup>١٨</sup>، أليس صحيحاً أن مرقس الذي يؤمن بأن المسيح أعظم من نبي ويعرف بالغييب كان أجدر أن يتجاهل ذلك لو كان هذا النص دون سند تاريخي، أما بولس الطرسوسي فقد أخذ بتلك النصوص كما جاءت في الأنجيل ووضع لها التفسير اللاهوتي، فكتب لأهل فيلبي : ان الله في المسيح قد تخلى طوعاً وعمداً عن صفاته الالهية<sup>١٩</sup>.

ثالثاً : تشير الأنجيل أن مريم ويوسف والطفل يسوع قد هربوا إلى مصر بعد أن أصدر هيرودس الكبير قراره باعدام جميع أطفال بيت لحم دون سن الثانية، وتشير المصادر التاريخية العلمانية أن والي مصر فيليبوس ماكسيموس قد طلب من جميع الرعايا في مصر العودة إلى أقاليمهم للخضوع للاحصاء السكاني، وهذا نص المرسوم الحكومي : بما أن الوقت قد حان لاصفاء السكان من بيت الى بيت، فمن الضروري إجبار كل الذين لأي سبب مهما يكن يقيمون بعيداً عن أقاليمهم الأصلية أن يعودوا الى موطنهم، لكي ينفذوا أوامر التعداد السكاني وكذلك باجتهد رعاية مصالحهم<sup>٢٠</sup>.

وإذا علمنا كما كتبت المصادر التاريخية الرومانية ان كويرينيوس كان والياً على سوريا في تلك الفترة فاننا نستطيع ان نستنتج بسهولة ان مريم ويوسف والطفل يسوع قد عادوا الى منطقة من مناطق سوريا، أي الى بيت لحم التي هي مسقط رأس يسوع أو إلى الجليل التي هي مسقط رأس مريم ويوسف، وليس الى لحم كما اشار الربيعي والصليبي التي هي منطقة من مناطق الجزيرة العربية ولم تكن خاضعة للسلطة الرومانية المباشرة، هنا يحيل مرسوم الاحصاء وإسم الوالي الروماني

١٨ مرقس ١٣ : ٣٢.

١٩ رسالة بولس الى أهل فيلبي ٢ : ٥ . ٨

٢٠ John Mcray. Archaeology and the new Testament, Grand Rapids: Baker, 1991, p155



وإسم سوريا إلى حقائق سياسية وتاريخية وجغرافية محددة ودقيقة وتخلو من الالتباسات.  
 رابعا: جاء إكتشاف لفائف البحر الميت في كهوف تبعد حوالي عشرين ميلا عن القدس أو ما تسمى لفائف قمران والمكتوبة باللغة العبرية والارامية واليونانية والتي قدر علم الآثار تاريخ كتابتها على أوراق البردي من عام ٢٥٠ قبل الميلاد الى عام ٦٨ قبل الميلاد، والتي هي مجموعة من الافكار والطقوس والعادات اليهودية التي تخص طائفة متطرفة من اليهود الاسنيين، والتي خلت تماما من الاشارة الى إسم وحياة يسوع المسيح، والمتفارقة عن تعاليم يسوع المسيح كواحدة من الشهادات التي تنفي فرضية الربيعي حول ظهور «النصرانية» في فلسطين في المائتي عام قبل الميلاد بعد هجرة القبائل العربية النصرانية من الجزيرة العربية الى فلسطين وبلاد الشام، فلفائف قمران مؤرخة قبل ميلاد المسيح بأكثر من مائتي عام وهي بهذا جاءت لصالح التقدير العام بأن المسيح ولد في السنة الخامسة او الرابعة قبل الميلاد، بينما إكتشاف اللفائف في منطقة قريبة من القدس يشير أن اليهود قد عاشوا في فلسطين في فترات معينة من تاريخ المنطقة، دون أن يشير ذلك الى تواصلهم التاريخي، وهنا فان اللفائف لا ترصد المنشأ التاريخي لليهود الذي قد يكون قد إنبعث من الجزيرة العربية كما هي فرضيتي الصليبي والربيعي، وإنما ترصد حياة وعادات طائفة يهودية عاشت في فلسطين في فترة محددة من فترات تاريخ فلسطين، بينما العلاقة بين منشأ اليهود ومنشأ المسيح متفارقان تاريخيا وثقافيا وجغرافيا كما هي فرضية هذه الورقة المحشوة بالمنطق والشهادات التاريخية والآثرية بعكس فرضيتي الصليبي والربيعي.

وفي دراسة لخبير البرديات خوزيه أوكلان أشار ان قطعة من برديات البحر الميت هي جزء من أقدم المخطوطات التي وجدت لأنجيل مرقص، يرجع تاريخها إلى سبعة عشر أو عشرين سنة بعد صلب المسيح، بينما العديد من العلماء وبرزهم ميشيل ولكنز قد شككوا بقراءة خوزيه أوكلان واعتبروها غير معقولة، ذلك ان إنجيل مرقص كتب عن المسيح بينما مخطوطات البحر الميت خلت من قريب أو من بعيد من ذكر إسم المسيح<sup>٢١</sup>.

اما تشكيك علماء الاثار بقراءة أوكلان فهو تشكيك ينطوي على تقدير علمي، ذلك ان مخطوطات البحر الميت استنادا لاسلوب كتابتها فهي تعود إلى الفترة الواقعة بين عام ٢٥٠ قبل الميلاد وعام ٦٨ قبل الميلاد، أي قبل ميلاد المسيح بقرنين مجده الأقصى وبأقل من قرن مجده الأدنى، وهذا أيضا يقوي فرضية هذه الورقة ويضعف فرضية الربيعي حول الزمن التاريخي لولادة المسيحية والمسيح.

خامسا: لم يكن فقط فاضل الربيعي وكمال الصليبي الباحثين الوحيدين الذين شككا بوجود الناصرة الفلسطينية في الجليل في القرن الميلادي الأول لنفي الأصل الناصري الجليلي الفلسطيني ليسوع المسيح، فقد سبقهما في هذا التشكيك عدد من الباحثين الغربيين، يقف على رأسهم فرانك زيندلر، حيث كتب: لم تذكر الناصرة في كتاب العهد القديم أو في التلمود أو من قبل بولس الرسول أو من قبل المؤرخ الروماني يوسيفيوس، كما لم يذكر المؤرخين القدماء إسم الناصرة قبل القرن الرابع الميلادي<sup>٢٢</sup>.

مقابل فرانك زيندلر كتب أيان ويلسون صاحب العقل الشكك في سجلات التاريخ وبناء على مكتشفات علم الاثار عام ١٩٥٥: تم ملاحظة بعض الأثار التاريخية القديمة تحت كنيسة البشارة في الناصرة الحالية كقطع من الفخاريات وهي تدل انه كان هناك قرية صغيرة جدا والأغلب ان إسمها الناصرة<sup>٢٣</sup>.

بينما كتب جيمس سترانج الخبير في التاريخ الجغرافي من جامعة فلوريدا، وعالم الأثار المشهور جاك فينيجيان من جامعة برينستون في أبحاثهما ما ذهب اليه ويلسون، فالأول اشار بأن الناصرة كانت مكانا صغيرا جدا حوالي ٦٠ هكتار ويبلغ الحد الأقصى لسكانها ٤٨٠ نسمة، بينما الثاني وبناء على سجل وجده علماء الأثار باللغة الارامية يتحدث عن أربع

Michael Wilkins, J.P. Moreland, Jesus under Fire, Grand Rapids: Zondervan, p211, 1955 ٢١

Frank Zindler, Where Jesus Never Walked, American Athesit, 1996, P34 ٢٢

Wilson Ian, Jesus : the Evidence, Harper San Francisco, 1984, P67 ٢٣



وعشرين مجموعة من الناس تم نقلهم إلى مناطق مختلفة في الجليل، وتم ذكر أن واحدة من هذه المجموعات نقلت إلى منطقة إسمها الناصرة في بداية القرن الأول الميلادي، وبالتالي يمكن الاستنتاج بأن الناصرة كانت قرية رومانية صغيرة<sup>٤١</sup>. ولأن عبء الإثبات يقع غالبا على المؤرخ، ولأن ذلك ليس ممكنا في كل الأحوال، فيأتي علم الآثار ليفرز الغث عن السمين، وهنا مع الفخاريات المكتشفة تحت كنيسة البشارة عام ١٩٥٥، ومع سجل اللغة الآرامية، ومع عقل فرانك زيندلر الشكك الذي لا يصل إلى النهايات الأكيدة دون أسانيد أثرية، ومع خبير الجغرافيا التاريخية جيمس سترانج وعالم الآثار الفذ جاك فينيجيان تخرج الناصرة تلك القرية التاريخية الوادعة كقطرة ماء صافية من نبع جليلي فلسطيني شفاف. سادسا : يتردد إسم يوسف الرامي في الأناجيل الأربعة وخاصة لدى إنجيل مرقس، وتشير له الأناجيل باعتباره الشخصية اليهودية التي قامت بدفن المسيح في بستانه، وتتفق الأناجيل أن يوسف الرامي كان يهوديا وعضوا في السنهدين اليهودي، والسنهدين هو المجلس الأعلى لليهود في ذلك الزمن، كما تفيد الأناجيل الأربعة أن مجلس السنهدين قد صوت بالاجماع بتسليم اليهود للمسيح لسلطة روما لمحاكمته بتهمة التجديف، كما يفيد إنجيل لوقا أن يوسف الرامي قد تغيب عن إجتماع السنهدين، السؤال الآن : ماذا تقول المصادر غير الأنجيلية عن وجود أو عدم وجود مجلس السنهدين في فلسطين عام ٣٠ ميلادي، وماذا تقول عن وجود أو عدم وجود شخص إسمه يوسف الرامي وماذا تقول عن قرية إسمها الرامة ؟

في كتابه تاريخ اليهود يشرح يوسيفوس عن الطوائف اليهودية في فلسطين كما عن المجالس الدينية وتخصصاتها ووظائفها وتركيبتها بما في ذلك مجلس السنهدين، ولكنه لم يذكر إسم يوسف الرامي وربما يكون ذلك بتوجيهات من أرباب اليهود بعد تغيب يوسف الرامي عن إجتماع السنهدين وتعاطف يوسف الرامي مع المسيح، أو ربما لأن يوسيفوس بدأ يؤرخ بعد ستين عاما على الحدث، وستين عاما بين وقوع الحدث وبداية شروع يوسيفوس بالكتابة مدة ليست قصيرة ومن المحتمل ان الحدث طواه النسيان، وهذا يقود إلى احتمالين، إما أن يوسيفوس لم يسمع بالحدث وهذا ممكن، أو أن يوسيفوس سمع بالحدث ولم يؤرخه لانه لم يكن من أتباع المسيح. فكتابة التاريخ يشوبه في أغلب الأحيان عدم الحياد. هنا يوجد توافق بين الأناجيل ويوسيفوس حول وجود السنهدين والاجتماع الأخير الذي عقده السنهدين لادانة المسيح وتسليمه للمحاكمة، بينما عدم ورود إسم يوسف الرامي عند يوسيفوس لا ينفي وجوده كشخصية تاريخية، فلو كان يوسف الرامي شخصية اسطورية من بنات خيال كتبة الأناجيل لكان من الحكمة ان يصيغ هذا الخيال شخصية غير يهودية، أي شخصية موثوقة ومعروفة في التاريخ المسيحي كبطرس أو يعقوب أو يوحنا لاضفاء مصداقية على الرواية، ولكنهم ذكروا يوسف الرامي كشخصية يهودية كأى شخصية يهودية في ذلك الزمن كانت مكروهة لدى المسيحيين الأوائل، ان تعريف الأناجيل بيوسف الرامي وإشارتها بأنه من تولى مهمة دفن المسيح وعدم الصاق هذه المهمة بشخصية مسيحية كبيرة يصدقها الناس هي دلالة قوية على وجود شخصية تاريخية إسمها يوسف الرامي، وما يعزز ذلك أن يوسيفوس نفسه وفي إحصائه لبلدات الجليل ذكر في كتابه أسماء ٤٥ مدينة وقرية تابعة لأقليم الجليل بينها يافا والرامة، فوجود قرية الرامة كحقيقة جغرافية في إقليم الجليل في فلسطين والتي ينحدر منها يوسف الرامي هي شهادة من خارج الأناجيل على وجود يوسف الرامي وينطبق مثل يوسف الرامي على شخصيات تاريخية أخرى كانت في خضم الحدث التاريخي، أي كان لها أدوار محورية في قضية محاكمة المسيح مثل يوسف بن قيافا رئيس كهنة اليهود الذي تولى دور كبير القضاة، وهذا لا تسجله فقط روايات الأناجيل الأربعة وإنما أيضا كتابات يوسيفوس الذي أشار أن قيافا تم ترسيمه رئيسا لكهنة اليهود عام ١٨ ميلادي من قبل الوالي الروماني فاليريوس جراتوس، وهذه الأسماء التي كانت على صلة مباشرة بزمن المسيح ومراحل المحاكمة والحكم عليه بالموت تضاف كدلائل تاريخية على وجود المسيح الفلسطيني وليس المسيح العربي القادم من الجزيرة قبل

مائتي عام قبل الميلاد حسبما قامت فرضية الربيعي<sup>٥٠</sup>.

سابعاً: في إنجيل لوقا وصف لوقا الأماكن التي كان يسوع المسيح يرتادها، لقد وصف ٣٢ بلدة و٥٤ مدينة و٩ جزر، فيما جاء علماء الآثار وقاموا بفحص إشارات لوقا في الإنجيل كما قاموا بإنزال وصف الأماكن على الأرض في فلسطين ولبنان وليس في الجزيرة العربية، فكتبوا: يبدو أن لوقا كان مؤرخاً دقيقاً جداً فلم نجد في وصفه للأمكنة غلطة واحدة<sup>٥١</sup>. إن لوقا الطبيب والرسام، وبما يمثله الجمع بين الطب والرسم من قدرات تشخيصية ومهارات تصويرية قد وضع على طاولة علم الآثار معطيات تاريخية محددة وملموسة، ولم يكن مطلوباً من علم الآثار الذهاب بعيداً في جوف الأرض، لقد كان المطلوب المقارنة والمعينة السهلة بين إشارات لوقا والحقيقة الطبوغرافية الملموسة لتلك الإشارات، وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن لوقا قد توفي عام ٨٤ ميلادي، فإن أية شكوك حول حدوث إنزيحات وتغيرات طبوغرافية بين زمن صعود المسيح وزمن كتابة لوقا للإنجيل والتي لا تزيد عن ثلاثة عقود على أبعد تقدير، فإن تلك الشكوك لا يعتد بها علمياً.

ثامناً: كان المسيح كما تفيد الأناجيل مطارداً من قبل حاكم الجليل هيرودس انتيباس، وكان الأخير ينوي قتله بعد أن قتل يوحنا المعمدان، وعندما أخبر التلاميذ يسوع بذلك، قال لهم كما كتب لوقا في الإصحاح الثالث عشر آية ثلاثة وثلاثين: ينبغي أن أسير اليوم وغداً وما يليه لأنه لا يجوز أن يهلك نبي إلا في أورشليم. واضح أن يسوع كان يقصد أنه سوف يسير ثلاثة أيام من الجليل إلى القدس، أي جليل هي تلك التي سوف يبدأ منها السير، هل هي جليل فلسطين أم جليل الطائف في الحجاز كما يفترض كمال الصليبي ويشاركه في ذلك فاضل الربيعي مع الإشارة أن جليل فاضل الربيعي هي وادي جليل في اليمن وليس الجليل الفلسطينية، يفصل المسافة بين جليل كمال الصليبي في الطائف وجيليل فاضل الربيعي في اليمن وأورشليم القدس في فلسطين بحران هما البحر الأحمر والبحر الميت، كما يتطلب قطع المسافة بين المدينتين المشي على الأقدام في طريق ترابي طويل يتخلله البوادي والصحارى والقفار، إضافة لاستخدام الدواب لحمل المتاع والشراب وهذا يتطلب التكيف في السير مع حركة إيقاع سير الدواب، وبتعريف بياني ملموس لجيليل كمال الصليبي الأقرب لفلسطين من جليل فاضل الربيعي يتطلب قطع المسافة: الانطلاق من الطائف للوصول إلى جدة ثم الانطلاق من جدة للوصول إلى المدينة والانطلاق من المدينة للوصول إلى تبوك والانطلاق من تبوك للوصول إلى العقبة في الأردن، والانطلاق من العقبة للوصول إلى البترا والانطلاق من البترا للوصول إلى الشوبك والانطلاق من الشوبك للوصول إلى الطفيلة والانطلاق من الطفيلة للوصول إلى الكرك والانطلاق من الكرك للوصول إلى مادبا والانطلاق من مادبا للوصول إلى الشونة ثم الانطلاق من الشونة للوصول إلى أريحا في فلسطين والانطلاق من أريحا للوصول إلى القدس. أظن أن فرضية الجليل في الطائف وقبلها فرضية الجليل في اليمن تتهاوي دون عناء مع هذه الآلاف من الكيلومترات الممتدة من اليمن أو الطائف إلى القدس، ولا يبقى هناك سوى التفسير المنطقي بأن تكون الثلاثة أيام في مقولة المسيح هي الانطلاق من الجليل الفلسطيني إلى القدس الفلسطينية، هذا مع العلم أن زمن الثلاثة أيام في التوقيت الروماني القديم لم تكن تعني ٧٢ ساعة بالتمام والكمال وإنما كانت تعني الانتهاء من ٤٨ ساعة وبداية الساعة الأولى من اليوم الثالث وليس نهاية الـ ٢٤ ساعة من اليوم الثالث، أي من الممكن الوصول قبل إتمام اليوم الثالث.

تاسعاً: يعتبر يوحنا المعمدان في التاريخ المسيحي أهم شخصية تاريخية سبقت ظهور المسيح، وعند يوحنا المعمدان نرى الحقائق التالية: الحقيقة الأولى: كان يعيش حياة تقشفية في بريا الأردن، كان مطلوباً ومغضوباً عليه من حاكم الجليل هيرودس انتيباس، كان يجرى ضد الفريسيين والصدوقيين وضد فساد هيرودس انتيباس، الحقيقة الثانية: بدأ بالتبشير في السنة الخامسة عشر من حكم تيبيريوس أي عام ٢٩ ميلادي، الحقيقة الثانية يذكرها إنجيل لوقا في الإصحاح الثالث الآية الأولى ويؤكد المؤرخ اليهودي يوسفوس، بل إن يوسفوس يورد في كتابه تاريخ اليهود أحداثاً تاريخية معروفة

٢٥ Norman L. Geisler and William E. Nix, A General Introduction to the Bible, Chicago Moody press, 1968, p251

٢٦ Wheaton, 111: Victor When Sceptics Ask, Norman N Geisler and Ho, 1992, p 385

مثل حرب ملك الأنباط الحارث الرابع مع هيرودس انتيباس حاكم الجليل، بعد أن طلق الأخير بنت الحارث الرابع وتزوج هيروديا زوجة أخيه، فوقع هيرودس انتيباس بين فكي كماشة الحارث الرابع ويوحنا المعمدان، الأول شن الحرب على فلسطين وهزم انتيباس والثاني قام بالتحريض ضد هذا الزواج الفاسد.

الحقائق التاريخية أعلاه سواء المتعلقة بالأحداث أو بالأسماء أو بالزمن، وقعت في عهد الإمبراطور الروماني تيبيريوس والذي تولى الحكم من عام ١٤ ميلادي الى عام ٣٧ ميلادي، وخلال هذه الفترة الزمنية كانت العراق وبلاد الشام هي مسرح الحروب والصراعات الساخنة بين الرومان والفرس واستمرت حتى القرن الرابع السابع، ويفيد التاريخ أن الصراع بين الرومان والفرس على جنوب غرب الجزيرة العربية خاصة اليمن لم يبدأ الا مع حملة اليوس جالوس الروماني على منطقة معين عام ٢٤ قبل الميلاد، فيما بقيت أرض شمال الجزيرة ووسطها أي ما أصبحت تسمى أراضي المملكة العربية السعودية بعيدة عن صراعات القوى العظمى ولم تطأها أقدام القوى الأجنبية، إن غياب الوجود الروماني في اليمن وشرق الجزيرة في تلك الفترة التاريخية، أي في فترة المائتي عام قبل الميلاد تحيل الحاكم الروماني وانتيباس ويوحنا المعمدان وملك الأنباط الحارث الرابع على مسرح فلسطين وبرية الأردن لا على مسرح الجزيرة العربية كما هي فرضيتي الصليبي والريعي. عاشرا: الأدلة المنطقية التي قمنا بمناقشتها تستقي مادتها من أناجيل العهد الجديد، وهي بالنسبة للعقل المسيحي جديرة بالثقة ويعزز من هذه الثقة مكتشفات علم الآثار والبرديات التي مررنا على عينة منها، ولكنها مع كل ذلك تبقى غير كافية للعقول العلمية الجادة التي تبحث عن الدليل المثبت من خارج الأناجيل وعن الحقائق المثبتة والموثقة بالكتابات المبكرة من مؤرخي القرن الأول الميلادي، وهنا يبرز السؤال المباشر: هل هناك حقائق مفصلة من التاريخ العلماني عن يسوع المسيح الفلسطيني؟

إذا كان يسوع المسيح المنحدر من عائلة جليلية والمولود في بيت لحم في زمن الأمبرطورية الرومانية في السنة الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد حسب توثيق الأناجيل، بما كان يمثلته المسيح من بديل ثقافي وإجتماعي وإنساني وروحي زعزعت رسالته أرض الأمبرطورية الرومانية وعقائدها ودياناتها القديمة، فهل يقبل العقل المنطقي أن يتجاهل مؤرخو الأمبرطورية الرومانية هذا البديل في مخطوطاتهم؟ بالطبع العقل الايماني يقبل وله تفسيرات وتبريرات قد تكون أهمها أن السلطة الرومانية والسلطة الدينية اليهودية قد حاربت المسيح بالقوة وبالتغيب التوثيقي لوأد الرسالة في مهدها، بينما العقل المنطقي الذي يروم الحقائق العنيدة فلا يقبل ولا يقتنع بأن التجاهل يمكن أن يمر مرور الكرام أمام ظاهرة دينية شغلت المجتمع الروماني وكانت تشكل واحدة من أسخن تحديات ذلك العصر.

حتى وقت قريب كنت اقرأ المسيحية الأولى والمسيح التاريخي بدقة المتشكك، وكانت الأدلة التي تقدمها الأناجيل أضعف من الحقائق القاطعة ولكنها تنطوي على بعض الاشارات المفيدة، إلا ان قرأت ما كتبه ثلاثة مؤرخين من خارج الأناجيل، الأول: المؤرخ الروماني يوسيفوس المولود عام ٣٧ ميلادي والمنحدر من أصول يهودية وصاحب كتاب العصور القديمة وهو عبارة عن تاريخ اليهود منذ النشأة حتى عصره، ذلك أن تاريخ ميلاده يعني أنه عاصر عدد من تلاميذ المسيح كما أن تاريخ وفاته عام ١٠٠ ميلادي يعني أنه عاصر عدد من تلاميذ التلاميذ، ومن هذه الزاوية يمكن القول أنه شاهد عيان، بينما الشهادة فهي لمؤرخ غير مسيحي وغير متعاطف مع المسيح وهذا يضع الشهادة في منزلة القيمة التاريخية الهامة، كما يجعل من الشهادة أقل عرضة لسهام الطعن.

كتب يوسيفوس: في ذلك الزمان غير البعيد عاش يسوع، إنسانا حكيما، لأنه الشخص الذي صنع أعمالا فذة، وكان معلما للناس الذين يقبلون الحق بسرور، وقد كسب أتباعا من اليهود ومن اليونانيين ومن الكنعانيين، لقد كان هو المسيح، وعندما سمع بيلاطس البنطي أن رجالا من أعلى المراكز يتهمونه حكم عليه بأن يصلب، فأولئك الذين كانوا يحبونه في المقام الأول لم يتخلوا عن محبتهم له، وما زال بعضهم أحياء، وبعضهم مات، أما أخوه يعقوب الذي كان رئيسا لكنيسة

أورشليم الأولى فقد تم رجمه حتى الموت بسبب ايمانه بتعاليم أخيه<sup>٢٧</sup>. تعزز هذه الشهادة التاريخية من مؤرخ يهودي يحمل الجنسية الرومانية صورة المسيح التاريخي وتبطل صورة المسيح الخيالي، كما تعزز من خلال الأسماء الواردة في الشهادة بأن مسرح حياة ورسالة المسيح هو فلسطين وليس جنوب وغرب الجزيرة العربية.

كما يضيف يوسيفوس في كتابه تاريخ اليهود نقلا عن المؤرخ يوليوس افريكانو صاحب كتاب تاريخ العالم عما كتبه المؤرخ الروماني ثالوس عام ٥٢ ميلادي حول ظاهرة الظلام التي رافقت موت المسيح والتي رد سببها خلافا لاعتقادات المسيحيين بانها نتيجة كسوف طبيعي للشمس، والاشارة تلك تعني أن ظاهرة الظلام قد وقعت في فلسطين في فترة الحكم الروماني وشاهدها سكان فلسطين كما كتب ثالوس، وتاليا فإن ثالوس قد رصد هذه الظاهرة من فلسطين ولم يرصدها من جنوب أو غرب الجزيرة العربية، كما أنه لم يكن أصلا هناك سيطرة سياسية رومانية في الجزيرة العربية في ذلك التاريخ<sup>٢٨</sup>.

والثاني المؤرخ تاسيتوس، وقد كتب كورنيلوس تاسيتوس عام ١١٥ ميلادي : قام نيرون بتعذيب المسيحيين واعتبرهم طائفة مكروهة - المعروف عن نيرون انه حاكم سادي أمضى حياته في المجون والملذات الحسية وتعذيب الخصوم والمعارضين وتتفق أغلب الروايات التاريخية أن إحراق روما جاء بقرار منه لإعادة بنائها من جديد، وكان اليهود والمسيحيين في مخططة هما كبش الفداء، ولكن اليهود كانوا مقربين من زوجته بوبياسبينا فالصق التهمة بالمسيحيين وسجن الآلاف منهم كما قام بتعذيب وقتل عدد كبير منهم وكان من ضحايا هذا التعذيب الذي استمر أربع سنوات بولس وبطرس اللذان قتلتا عام ٦٨ م، فبطرس صلب منكسا وبولس تم قطع رأسه - وكان المسيح الذي من اسمه تمّ اشتقاق اسمهم، قد نال عقوبة شديدة في عهد طيباريوس على يد أحد وكلاؤنا بيلاطس البنطي، وكانت قصة المسيح خرافة مؤذية تم ايقافها مؤقتا، ولكنها ظهرت مرة أخرى ولكن ليس فقط في اليهودية المصدر الأول لهذا الشر، بل حتى في روما، وتبعا لذلك ألقى القبض على من اعترف بالتهمة ثم بناء على معلوماتهم أدين عدد هائل منهم ليس فقط لأحراقهم المدينة عام ٦٤ ميلادي، بل أيضا لكرهيتهم للبشرية، كما ظل عدد هائل منهم متمسكين بإيمانهم لدرجة أنهم فضلوا الموت على الارتداد عن هذا الدين<sup>٢٩</sup>.

واضح ان شهادة تاسيتوس شهادة غير محايدة، بل أنها شهادة معادية، وهي كونها كذلك فهي تكتسب أهمية علمية وتاريخية أعلى من شهادة يوسيفوس، فهي تبرز عددا من الحقائق التاريخية، أهمها من ناحية تاريخية وجغرافية على الأطلاق ذكر اسم الحاكم في زمن المسيح وهو بيلاطس البنطي الذي حكم من عام ٢٦ إلى عام ٣٦ ميلادي أي فترة حياة وصعود المسيح، كما ذكر تاسيتوس اسم اليهودية وهي منطقة الضفة الغربية التي أطلقت عليها السلطات الرومانية اسم اليهودية في ذلك الزمن، أي أن بيلاطس البنطي كتاريخ واليهودية كجغرافية يتموضعان في فلسطين وليس في غرب وجنوب الجزيرة العربية كما أشار الربيعي ولا في شمالها كما اشار الصليبي، وهي دلائل قوية كما نعتقد ضد فرضيتي فاضل الربيعي وكمال الصليبي.

والثالث : الأديب الروماني بيليني الصغير وهو ابن أخ بيليني الشيخ المؤرخ المشهور في روما والذي مات في عام ٧٩ م، وقد تقلد بيليني الصغير حكم منطقة بيثينية في غرب تركيا، وكان له عدة مراسلات مع صديقه الامبراطور الروماني ماركوس تراجان المولود عام ٥٣ م والذي تسلم سدة حكم الأمبراطورية من عام ٩٨ إلى عام ١١٧ ميلادي والذي أصدر قانون بتحريم الديانة المسيحية وأرسل من يشهر بها أمام منصات الإعدام، ففي الرسالة العاشرة من المراسلات بين بيليني الصغير وتراجان، تقول الرسالة : لقد سألتهم إذا كانوا مسيحيين، فإذا اعترفوا بذلك، أكرر السؤال مرة ثانية وثالثة، مع

Geisler and William E. Nix, A General Introduction to the Bible, Chicahgo, Mooday press, 1968, P 361 ٢٧

James Donaldson: Julius Africanus Extant Writings, Grand Rapid Eerdmans, 1973, p130- Alexander Robert ٢٨

.Patzia Arthur, the making of the new Testment, Inter Varsity press, 1955, P 158 ٢٩



تحذير بالعقوبة التي تنتظرهم، فلو أصروا أمرت باقتيادهم للاعدام، لانه مهما كانت طبيعية اعترافهم، فإني مقتنع أن عنادهم واصرارهم الذي لا يهتز يجب ألا يفلت من العقاب، كما أعلنوا أن كل ما ارتكبه من ذنب أو من خطأ هو هذا : إجتماعهم بانتظام قبل الفجر في يوم محدد ليرتلوا أشعارا بالتناوب فيما بينهم تكريما للمسيح كما لو كان إلهما، كما أنهم يلتزمون بقسم ليس لأي غرض إجرامي بل للامتناع عن القتل والسرقة والسلب والزنا، وقد جعلني هذا أن أنتزع الحقيقة بتعذيب جارتين كانتا تدعيان شماسات، فلم أجد شيئا إلا نوعا منحطا من العبادة يمارسناه بطريقة متطرفة جدا<sup>٣٠</sup>.

ما يلفت الانتباه في الرسالة العاشرة التي هي أيضا رسالة معادية للديانة المسيحية، الفقرة التي تشير : إلى إمتناعهم عن القتل والسرقة والسلب والنهب، ماذا يعني هذا؟ هذا يعني أن هؤلاء المسيحيين يتبنون ثقافة سلمية مختلفة عن ثقافة الرومان واليهود كما مختلفة عن ثقافة العرب قبل الإسلام، وبالتالي فهم ليسوا القبائل العربية النصرانية أتباع عيسى بن مريم التي هاجرت من الجزيرة قبل مائتي عام قبل الميلاد كما أشار الربيعي، لماذا ؟ لأن العرب نحو مائتي عام قبل الميلاد، سواء الذين بقوا في الجزيرة أو الذين هاجروا إلى بلاد الشام، كانوا ممالك وقبائل متناحرة وموزعين في ولاءاتهم بين الفرس والرومان والاحباش، والعلاقة بينهم كانت علاقات غزو وسلب ونهب، والمعطيات التاريخية خلال القرون الثلاث السابقة للميلاد تشير إلى أن الصراعات الطاحنة التي كانت تدور بين قبائل نجران وقبائل سبأ وحميز لم تتوقف خلال تلك الفترة من التاريخ خاصة أن نجران كانت نقطة عبور للقوافل العربية التجارية من الجزيرة إلى بلاد الشام ومصر، وكان موقع نجران التجاري الاستراتيجي مطمعا دائما للملوك سبأ وحميز، وحتى لو أفترضنا وذهبنا مع الربيعي أن القبائل العربية النصرانية التي هاجرت الى بلاد الشام وحملت معها معتقداتها المسيحية والأسطورية هي صاحبة المنشأ التاريخي للمسيحية، فهنا يثور سؤال إشكالي، كيف يمكن لقبائل إمتهنت الغزوات خلال قرون أن تنقلب انقلابا جذريا الى الضد خلال فترة قصيرة من الزمن، هذا يتنافى مع أمجديات المنطق الاجتماعي، فالبشر عندما يدخلون دينا جديدا أو يتبنون ثقافة جديدة يلزمهم مئات السنين حتى يغيروا عاداتهم الثقافية الموروثة، ورغم مرور مئات السنين يظل في أحشاء العادات الجديدة عادات قديمة، هذا ما يقوله المنطق الاجتماعي، أما السؤال الثاني والثالث اللذان لا يقلان أهمية عن السؤال الاشكالي الأول، ماذا تقول الوثائق التاريخية عن ديانات العرب في الجزيرة العربية في المائتي عام قبل الميلاد، وهل مجعبة التاريخ وثائق تدحض فرضيتي الصليبي والربيعي، أي هل هناك وثائق تاريخية موثوقة ترصد زمن إنطلاق المسيحية من فلسطين إلى الجزيرة العربية بعكس فرضيتي الصليبي والربيعي؟

في الأجابة على السؤال الثاني : نحن أمام ما يشبه الإجماع لدى المؤرخين المسلمين كما لدى فريق واسع من الكتاب وعلماء الآثار الغربيين، بأن ديانتني العرب في القرنين السابقين للميلاد : كانتا الوثنية واليهودية، فالعرب عبدوا الكواكب ثم انتقلوا لعبادة الأصنام، وعبادة الكواكب عبادة قديمة تعود إلى القرن السابع أو الثامن قبل الميلاد أسوة بالعبادات الدينية لدى الكنعانيين والفينيقيين والبابليين والاشوريين والفرس واليونان والرومان وشعوب البحر الأبيض المتوسط، والشمس هي أول الألهة المعبودة لدى جميع قبائل الجزيرة العربية وكان لها كهنة ينظمون طقوسها وهذا ينسحب على عبادة القمر والسيارات الخمس خاصة لدى قبائل بني كنانة، بينما في القرنين السابقين للميلاد كانت اللات من أشهر وأهم معبودات قبائل العرب، وكانت عبادة هذا الصنم شائعة في شمال الجزيرة وجنوبها، واللات عبارة عن صخرة بيضاء مربعة كانوا يتقربون إليها ويقدمون لها الذبائح لصرف الشر وجلب الخير، ويعتقد أن اللات هي تأنيث لاسم الله، وحسب المؤرخ هيرودت فإن إسمها الأصلي اليتا وتعني الزهرة السماوية وكانت معبودة لدى عرب الجزيرة والعرب الأنباط وعرب حوران وتدمر في بلاد الشام، ولدى اليونان إسمها أثيني وتعني آلهة الحكمة بينما أوصافها قريبة من اوصاف الزهرة والتي تعني باليونانية فينوس، أما صنم العزى فكان شجرة في شرق مكة وكانت العزى من أعظم الاصنام عند قريش، يزورونها



ويقدمون لها الهدايا ويتقربون منها بالذبايح، وكانت العرب اذا فرغوا من حجهم وطوافهم حول الكعبة يأتون العزى فيطوفون حولها ويعكفون عندها يوماً كاملاً، ولم تقتصر عبادة العزى على أهل مكة وقريش وإنما عبدتها غنى وباهلة وخزاعة وعطفان من القبائل العربية، بينما كانت مناة صخرة أقيم لها معبد على ساحل البحر الأحمر بين مكة ويثرب، وكانت مقدسة عند قبائل هبل وخزاعة والعرب جميعاً وبخاصة عند الأوس والحزرج، يحجون إليها ولا يخلقون رؤوسهم إلا عندها، وكان لسعة انتشار هذا الصنم أن سمت عدد من القبائل أسماء ابنائها باسم هذا الصنم كعبد مناة وزيد مناة... الخ<sup>٣١</sup>.

إضافة لهذه الأصنام الرئيسية التي عبدها العرب، تبنى العرب أصناف أخرى من الأصنام، بعضها كان يخص قبيلة بعينها وبعضها يخص عدة قبائل، بعضها كان محصوراً في منطقة جغرافية وبيئية ضيقة وبعضها كان منتشراً في منطقة جغرافية وبيئية واسعة كالصنم يغوث الذي كان على صورة أسد منحوت من الرصاص الذي انتشر في مناطق واسعة في اليمن، أو صنم ودا الذي كان يخص قبيلة كلب وهو كان على هيئة تمثال لفارس مقاتل يحمل سيفاً، أو صنم سواع وكان تمثال حجري على هيئة رجل صالح عبده قبائل العرب في مناطق يثرب<sup>٣٢</sup>، فيما كانت عبادة يعوق وهو على هيئة فرس وعبادة النسر على صورة نسر طائر كبير منتشرة بين العرب في الجنوب والعرب في شمال الجزيرة العربية<sup>٣٣</sup>، وقد بقيت هذه الأصنام وغيرها سائدة في الجزيرة العربية في جنوبها اليمني وشمالها وشرقها ولم تتزعج هذه الأصنام وعباداتها وطقوسها إلا بعد هبوب ثلاثة موجات دينية جديدة: اليهودية الذي استوطنت نواتها الأولى في يثرب ومنطقة حمير في اليمن ثم تحولت إلى دين الدولة على يد ذو نواس ملك حمير، ثم المسيحية في خمسينات وستينات القرن الميلادي الأول وبعدها الإسلام في القرن السابع الميلادي. وإذا علمنا أن الملك الحميري ذو نواس قد تسلم زمام المملكة الحميرية في أواخر القرن الميلادي الثالث فهذا يعني أن اليهودية في الجزيرة العربية قد استغرقت على الأقل ثلاثة قرون من النمو والانتشار حتى بلغت دين الدولة، وهذا معطى آخر يصب ويدعم فرضية أن ما قبل الميلاد لم تكن لا اليهودية ولا المسيحية التي لم تولد بعد ذات شأن في الوعي الاجتماعي والديني لعرب الجزيرة بينما كانت عبادات الأصنام تحتل مركز الوعي الديني في جنوب وغرب وشمال الجزيرة العربية.

هنا لم تذكر المصادر والمراجع التاريخية عن وجود مسيحي في الجزيرة العربية في زمن قبل الميلاد بعكس فرضية الربيعي، فيما تفيض المصادر التاريخية عن الزمن التاريخي لانتقال المسيحية من بلاد الشام إلى الجزيرة العربية، وهذا يقودنا للسؤال الثالث، أي السؤال الذي يتتبع مراحل تطور وانتشار المسيحية على ضوء المراجع التاريخية الموثوقة. لا يوجد تاريخ محدد بدقة حول بداية وصول الطلائع المسيحية الأولى إلى بلاد الجزيرة العربية، فيما تشير عدد من المصادر أن البدايات الأولى كانت وصول عدد من الاساقفة والكهنة والرهبان الذين فروا في أزمنة الاضطهاد في عهد القياصرة والملوك الرومان، كما أن عدداً آخر من الرهبان تم نفيهم إلى الصحراء العربية لتعذيبهم وقتلهم بالجوع والعطش، فيما كانت اليمن والحجاز والعراق أماكن لجوئهم الأولى في منتصف القرن الميلادي الأول على أبعد تقدير، كما استقر بعض الرهبان والكهنة في ليبيا التي كانت تسمى المدن السبع والبعض الآخر في سيناء وآخرين في سوريا وبداية الشام<sup>٣٤</sup> هذا التأريخ يتفق مع اشارات الأناجيل حول بدايات إنتقال المسيحية من فلسطين إلى المناطق البعيدة<sup>٣٥</sup> فيما يشير ابن خلدون

٣١ المنذر بن هشام الكلبي، الأصنام، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٤ ص ١٤.

٣٢ نفس المصدر، المنذر بن هشام الكلبي ص ٥٦.

٣٣ جواد علي، العرب قبل الإسلام، الجزء الخامس، المجمع العملي العراقي، بغداد، ١٩٥١ ص ٨٨.

٣٤ انظر: الطبري، تاريخ الملوك والرسول، الجزء الأول، ص ٧٣٧، انظر المسعودي في مروج الذهب: ١: ١٢٧، انظر ابن خلدون في العبر وديوان المبتدأ والخبر: ٢: ٤٧.

٣٥ انظر مرقس: ٣: ٧. لوقا: ٦: ١٧. متى: ٨: ٣١.

أن برثولماوس كان من أول المبشرين المبعوث إلى أرض الحجاز<sup>٣٦</sup> وإذا علمنا أن برثولماوس كان واحدا من تلاميذ المسيح الاثني عشر فاننا نستطيع تقدير أن وصول برثولماوس إلى أرض الحجاز كان يتزامن مع فترة فرار الكهنة والرهبان الأوائل من بطش الرومان إلى الجزيرة العربية في المرحلة المبكرة من تاريخ الجماعة المسيحية الأولى، ولكن علينا الإشارة ان المسيحية المنظمة وواسعة الانتشار لم تتغلغل في الجزيرة العربية قبل القرن الرابع الميلادي. بينما تشير مراجع سريانية مبكرة أن اليمامة ونجران التحقت في القرن الثالث الميلادي بالبرشية المسيحية في قطر<sup>٣٧</sup>.

يقول اليعقوبي فإن أول من تنصر من الأقوام العرب فقوم من قريش واقوام طي وبهراء وتنوخ ولخم وهي أقوام من أصول يمنية - لاحظوا هنا أن لحم هو اسم قوم أو فخذ قبلي حسب ما أورد اليعقوبي وليس اسم مكان في اليمن حسب فرضية الربيبي -، أما قبيلة قضاة القوية ذات الأصول اليمنية فكانت تحكم بادية بلاد الشام باسم الرومان والتي كانت تعبد كواكب السيارات والنجوم وهي أول من تنصر في بادية بلاد الشام ثم قبيلة سليم ثم غسان<sup>٣٨</sup>.

وارتباطا بفرضية الربيبي حول منشأ النصرانية العربية في نجران، فان المصادر التاريخية تشير أن نجران في المائتي عام قبل الميلاد وحتى منتصف القرن الأول الميلادي كانت تعبد الصنم عزي، ويقول ياقوت الحموي في معجم البلدان بأن أهل نجران انقلبوا من عبادة الأصنام إلى الديانة المسيحية على يد أحد المبشرين واسمه فيميون الذي كان له الفضل في نشر المسيحية في اليمن، وبعد اليمن إنطلق إلى نجران في زمن حاكم نجران سيد بني الحارث الذي أقنع قومه بالتخلي عن عبادة الاصنام<sup>٣٩</sup>، ويعزز ابن خلدون هذه الرواية بأشارته ان فيميون قام بتعيين النجراني عبدالله بن الثامر رئيسا دينيا عليهم تحت رعاية الاسقف بولس<sup>٤٠</sup>، فيما المصادر السريانية تقول أن اسمه ليس فيميون وإنما حيان وأن حفيدته هي الشهيدة النجرانية حبصة ابنة حيان الصغير<sup>٤١</sup>، أما الكنائس التي بنيت في نجران وفي مأرب وفي عدن وفي ظفار بعد منتصف القرن الميلادي الأول فكانت بلمسات الفن المعماري الروماني ثم لاحقا بالزخارف البيزنطية وتخلو من اللمسات التراثية المحلية بدلالة أن أرض الجزيرة العربية لم تعرف معمار الكنيسة إلا بعد منتصف القرن الميلادي الأول، أما الحجاز نقطة انطلاق المسيح الى فلسطين عام ٢٨ أو ٢٩ ميلادي حسب فرضية الصليبي فان أهل الحجاز في هذا التاريخ وقبله بقرون وبعده يعقود كانوا مولعين بعبادة الأصنام خاصة عبادة النسر، وقد وجد علماء الآثار العشرات من صور النسر منحوتة على الصخور في الحجاز<sup>٤٢</sup>، ولم تعرف الحجاز المسيحية إلا بعد وصول برثولماوس إلى ارض الحجاز قادما من بلاد الشام<sup>٤٣</sup> أما وصوله للحجاز فكان في الفترة الواقعة بين صعود المسيح وبداية خمسينات القرن الأول الميلادي، أي بعد اشتداد الهجمة الرومانية واليهودية على الجماعة المسيحية في فلسطين وبلاد الشام.

ان هذا المعطيات التاريخية التي جاءت بتوثيق كبار المؤرخين لا تتوافق مع ما جاء به الصليبي حول المسيح الحجازي اليهودي ومع ما جاء به الربيبي حول المسح العربي النجراني، كما أن شهادات التاريخ العلماني التي كتبت عن المسيح والجماعة المسيحية الأولى في فلسطين وروما ليست أيضا في صالح فرضيتي الرجلين، بينما ما جاء في كتب اليهود في مطلع العقود الأولى من القرن الميلادي الأول عن المسيح وهم الأكثر كرها للمسيح والأكثر استفادة من إنكار وجود المسيح قد أضاف شهادات أخرى حول الأصل الفلسطيني الجليلي للمسيح، ففي الأدب اليهودي التقليدي : يتكرر اسم يسوع

٣٦ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الثاني : ٢ : ١٥٠

٣٧ افرام الأول، الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة، الجزء الأول، ص ٣٩٠

٣٨ انظر أحمد اليعقوبي، تاريخ ابن واضح : ١ : ١٠٢٩٨ : ٢٣٤، انظر ايضا المسعودي في مروج الذهب : ٣ : ٢١٦.

٣٩ ياقوت الحموي، معجم البلدان، الجزء الخامس، ص ٢٦٦.

٤٠ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، الجزء الثاني، ص ٥٩.

٤١ الوثائق السريانية : شهداء حمير ص ٨

٤٢ جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، الجزء الخامس ص ٨٨

٤٣ ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر : ٢ : ١٥٠

المسيح مجذر ويذكر هذا الأدب أنه كان يشفي المرضى ويصنع المعجزات وينسب ذلك للسحر والشعوذة، وتارة يتم وصف المسيح بالمخادع وتارة أخرى بالهرطوقي، وفي التلمود اليهودي يصف التلمود المسيح بأنه المسيا المزيف الذي مارس السحر وحكم عليه بالموت بعدل في زمن بيلاطس البنطي، كما يشير إلى الاشاعة بأن المسيح ولد من علاقة غير شرعية بين جندي روماني ومريم<sup>٤٤</sup>.

سأختتم مرافعتي عن هوية المسيح أو الأصل الفلسطيني للمسيح بعكس الأصل النجراني للمسيح كما هي فرضية الربيعي، بتناول ومناقشة إستعانة الربيعي بالقرآن من خلال صورة مريم آية ٢٥ لدحض الأصل الفلسطيني للمسيح، يقول الربيعي: ولعل الصورة المدهشة التي يرسمها القرآن لولادة المسيح تحت ظل نخلة وامه العذراء التي ولدته بغير دنس وهي تهز الجذع اثناء المخاض فيتساقط عليها رطبا جنيا، هي التي اثارَت التساؤلات عن معارف العرب عن ولادة المسيح وكيف قيض لهم أن يتخيلوها وكأنها تمت تحت شجرة نخيل، بينما لا توجد أشجار نخيل في بيت لحم الفلسطينية<sup>٤٥</sup>.

صورة مريم آية ٢٥ هذا هو نصها: وهزي اليك مجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، النص واضح فلا يذكر الولادة ولا يذكر المخاض كما جاء في تفسير الربيعي، وإنما هي تصوير بلاغي للتبشير بالولادة دون دنس كما جاء بتوافق واجماع المفسرين المسلمين وغير المسلمين لصورة مريم آية ٢٥، وما بين التبشير بالولادة والولادة الحقيقة من المنطقي أن يكون هناك فاصل زمني، والفاصل الزمني يعني أن التبشير في الولادة ليس بالضرورة قد وقع في مدينة بيت لحم، قد يكون وقع في أي منطقة من المناطق التي كانت تتحرك عليها مريم العذراء اثناء فترة الحمل قبل أن يقترب المخاض وتضع الطفل يسوع في المغارة في مدينة بيت لحم، والمناطق التي كانت تتحرك عليها مريم العذراء مناطق واسعة تمتد على مساحة الجليل والقدس وبيت لحم وما بينهما من مدن وقرى وخرب فلسطينية تعد بالمئات إذا لم يكن أكثر من المئات، أما النخيل في فلسطين فتاريخه يمتد منذ الألف الثالث قبل الميلاد، ومعروف أن النخيل يزرع في المناطق الحارة أو شبه الحارة كأريحا المجاورة للقدس وبيت لحم، كما أن بيت لحم لا تعتبر من المناطق الباردة خاصة حدودها الشرقية ذات الامتداد والتواصل المناخي مع مدينة أريحا، وهذا يقودنا إلى التقدير أن بيت لحم قد تكون عرفت زراعة النخيل في وقت من أوقاتها، وسواء عرفت بيت لحم أو لم تعرف زراعة النخيل في زمن المسيح فان السند المنطقي في المرافعة هو الفرق الزمني الطويل بين التبشير بالولادة والولادة الفعلية.

بعكس الربيعي فإن مصطلح النصرانية العربية لم يكن محوريا في اطروحة الصليبي، وقد يكون مرد ذلك أن الصليبي يعرف الفرق بين مصطلحي النصرانية والمسيحية، كما اقتضب الصليبي في استخدام إسم عيسى بن مريم وكان أكثر انجذابا واستخداما لاسم يسوع، فإسم يسوع هو الاسم الأصلي الأول للمسيح حسب البشارة الأولى لولادة المسيح<sup>٤٦</sup>، وإسم يسوع مشتق من الاسم الأرامي أيشوع ويعني المخلص، بينما تم تهويد الاسم الأرامي الاصلي ليصبح الإسم يشوع بالعبرية، وفي اللغة اليونانية تم ترجمة إسم يسوع إلى إيسوس، وهو أقرب لفظ للاسم عيسى الذي أصبح متداولاً في اللغة العربية، بينما تحتل مصطلحات النصرانية العربية وعيسى بن مريم بؤرة عمل الربيعي، وقد قام كتابه المعنون المسيح العربي على مقاربات تلك المصطلحات المعربة، الصليبي مرجعيته واقتباساته جملة مواد مستقاه من التاريخ والجغرافيا وروايات العهد القديم في اطار منهج النقد الكتابي، بينما بوصلة ومرجعيات واقتباسات الربيعي قادمة من نصوص القرآن والتاريخ العربي والمؤرخين العرب والمسلمين في اطار النقد التاريخي، وإن يشترك الاثنان في المزاجية بين النقد الكتابي والنقد التاريخي كمنهج يجمعهما في المقاربات والاستخلاصات إلى أن الأول أكثر استهداء بالدين التاريخي بينما الثاني أكثر استهداء بالدين العربي، وصاحب هذه السطور سيحيل القارئ على المعنى التاريخي والمفهومي لمصطلح النصرانية بفارق

.M.Wilcox, Jesus in the light of his Jewish Environment, Welt 2. No 25.1, 1982, P133

٤٤

مصدر سابق: فاضل الربيعي ص ٧٦ - ٧٧

٤٥

مقي ١: ٢١.

٤٦

كبير عن أصل ودلالة المصطلح الذي تبناه الربيعي عن الأقدمين دون التدقيق في منشئه التاريخي ومضمونه اللاهوتي، فالمصطلح لم يكن شائعا وقويا في القرون الميلادية الأربعة الأولى وإن كانت بذرته الأولى قد نبتت في المجادلات المبكرة بين أعضاء الجماعة المسيحية الأولى، فخلال فترة الأربع قرون الأولى كان السائد مصطلحات من نوع: المسيحية نسبة إلى المسيح، اليسوعية نسبة إلى يسوع، الناصرية نسبة إلى الناصرة التي هي مسقط رأس مريم العذراء ويوسف النجار، كما لا يوجد علاقة قربي بين الناصرية والناصرانية لا بالمعنى اللغوي ولا بالمعنى الاصطلاحي، العلاقة بين المصطلحين هي علاقة لاهوتية، أي منظوران مختلفان في مقارنة المسيحية، الأول الناصرية أي المسيحية نسبة إلى المسيح الناصري وهي صاحبة المنظور الأصلي الذي يتبنى روايات الأنجيل ورسائل بولس، والثانية هي النصارانية وهي كلمة عبرية (נצרי، nazyr) وتعني الراهب أو المتعبد، وقد وردت أكثر من مرة في أسفار العهد القديم وخاصة في سفر القضاة<sup>٧</sup>، والناصرانية هي صاحبة المنظور الذي يصهر المسيحية في اليهودية صهرا كاملا، وقد تبلورت أجنة هذا المنظور في مطلع خمسينات القرن الميلادي الأول، وأصحاب هذا المنظور طائف يهودية متعصبة أمنت بالمسيح من منطلق استحواذي وأحقية العرق اليهودي بالسيادة على الجماعة المسيحية غير اليهودية واشترطت التزام المسيحيين غير اليهود سواء من كانوا وثنيين أو من كانوا ينتمون إلى عقائد وعراف غير يهودية بتبني الناموس اليهودي وطقوس الختان ويوم السبت وتحريم أكل بعض أنواع الطعام كشرط لناصرانيتهم، وقد دخلوا في صدام مع الجناح المسيحي الذي كان يقف على رأسه بولس الطرطوسي، وبعد إنتصار رأي بولس في المجمع المسيحي الأول الذي انعقد في القدس عام ٤٧ ميلادي والذي تم فيه استبدال الختان بالمعمودية بالماء، وافق بعض النصارى اليهود على قرارات المجمع الأول وتخلوا عن الختان لصالح المعمودية، ورفضت الفئة المتعصبة قرارات المجمع وبقيت على عقيدتها اليهودية السابقة وطقوسها الحرفية التي رفضها المجمع الأول ولكنها بقيت تؤمن بأن المسيح هو المخلص، وقد نعتهم اليهودية الفريسية التي حاربت المسيح بالناصرانية<sup>٨</sup>، ومن هنا جاء مصطلح النصارانية أي تلك الفئة من اليهود التي ناصرت المسيح ولكن من منطلقات الناموس والشرائع والطقوس اليهودية .

هاجرت هذه الفئة لاحقا من القدس إلى الأردن وعاشوا مع اليهود الاسينيين وهم جماعة يهودية ينتمون لطائفة يهودية قديمة ظهرت قبل الميلاد ويجمع الاسينية والناصرانية رؤية دينية مشتركة عمادها الناموس اليهودي وطقس الختان، وما أن حل القرن الميلادي الثاني حتى أصبح لرهبان النصارانية بعض الحضور والأتباع في عدد من حواضر وبادي الجزيرة العربية وكانوا يتجولون بين العرب ويبشرون بمعتقداتهم اليهودية - المسيحية ومن بطن تعاليم النصارانية جاءت الابيونية وانتشرت في جنوب وشمال الجزيرة العربية وتركزت في مكة والحجاز ودخلتها أفواج من قريش<sup>٩</sup>. ولو عدنا للربيعي وما كتبه عن وصية النجراني الحارث بن كعب أحد أساقفة نجران الذي أوصى ابنائه بالتمسك بعقيدة عيسى ابن مريم ومقاومة الضغوط والتحديات السياسية والفلسفية، ولو عدنا لزمان الحارث بن كعب وهو القرن الرابع الميلادي فسيتضح معنا أن الحارث بن كعب لم يكن سوى قسا متأخرا من قساوسة الموجة النصارانية التي وصلت الجزيرة العربية بعد القرن الميلادي الثاني.

لقد ربط بعض المؤرخين واللاهوتيين المسيحيين ربطا غير دقيق بين النصارانية والابيونية من جانب وبين الاريوسية والنسطورية من جانب آخر، وردوا منشأ الاريوسية والنسطورية إلى النصارانية والابيونية، فالاريوسية والنسطورية تلتقيان مع النصارانية والابيونية في بعدها المسيحي وتتفارقان عنهما في بعدها اليهودي، ذلك ان أريوس ونسطور قد قطعا مع اليهودية ولم يقطعا مع المسيحية، ولم ينكرا مبدأ الثالوث المسيحي ولكنها كانا لهما تفسيرا مختلفا عن الكنيسة الرسمية

٤٧ سفر القضاة: ١٣ : ٧،

٤٨ الرسائل المتبادلة بين القديسين هيرونيمس وأوغسطين، نقلها إلى العربية سعد الله سميح جحا، دار المشرق، بيروت، ط١، ٢٠١١،

ص ٦٨ + ٩٢

٤٩ أحمد يعقوبي، تاريخ ابن واضح، ١: ٢٩٨



حول الثالث، الكنيسة الرسمية نظرت للثالث نظرة غير تراتبية بينما فسره أريوس بطريقة تراتبية<sup>٥٠</sup>. بعد هذا الشرح التوضيحي للفرق بين النصرانية والمسيحية، وهو شرح أملاه إعادة جذور النصرانية إلى المنشأ الأصلي وهو فلسطين وليس نجران، كما إبراز أصلها اليهودي والمدارس الدينية التي خرجت من أحشائها، فإن ربط الربيعي بين النصرانية ونجران هو ربط ضعيف ولا يوجد ما يعزز هذا الربط من معطيات تاريخية، وما جاء به كان بتأثير كتابات العرب قبل الإسلام كما بتأثير كتابات بعض المؤرخين العرب والمسلمين الذين أصبحوا بعد البعثة المحمدية يطلقون إسم النصراني على جميع المسيحيين، وقد إنتبه المقريزي إلى الخلط بين النصراني والناصري أو بين النصراني والمسيحي الذي كان متداولاً بين العرب قبل الإسلام، فكتب : نزلت السيدة مريم إلى قرية الناصرة، فنشأ فيها طفلها عيسى ثم أصبح المسيح ثم أصبح يسوع الناصري نسبة إلى تلك القرية، وبعد مماته تفرق الحواريون يدعون إلى دين يسوع الناصري واطلق عليهم لفظ الناصرية، حتى تلاعب العرب قبل الإسلام بهذه الكلمة، وقالوا نصارى<sup>٥١</sup>.

هذه هي جملة الدلائل المنطقية والتاريخية التي نقدمها على طاوله العقل المحايد للحكم عليها، أما الدلائل الامبريقية فهي قاطعة وتكاد تكون الأولى من نوعها في اوتوغراف أدب التاريخ القديم : لقد تم اكتشاف البردية الأصلية لجزء من إنجيل يوحنا البشير عام ١٩٢٠ في مصر، يحتوي على نصوص من الأصحاح الثامن عشر بخط اليد، وهي خمس آيات، ثلاث منها على أحد الوجهين واثنان على الوجه الآخر وتبلغ مساحته اثنان ونصف بوصة X ثلاث ونصف بوصة، وهي محفوظة في مكتبة جون ريلاندز في مانشستر في بريطانيا، وقد حدد علماء البيبلوغرافيا المشهورين فريدريك كينيون وهارلود بيل وأدولف ديسمان وآخرون أن البردية بناء على أسلوب كتابتها تعود على أبعد تقدير إلى زمن الامبراطور تراجان وكان عهده من عام ٩٨ - ١١٧ ميلادي، وهنا فان فرضية الربيعي التي اشارت أن «النصرانية» دين عيسى بن مريم قد وصلت إلى فلسطين عام ٢٠٠ قبل الميلاد على أبعد تقدير مع وصول القبائل العربية النصرانية واليهودية المهاجرة إلى فلسطين والتي حملت معها ديانتها ومعتقداتها إلى فلسطين، لم تعد ذات قيمة علمية بعد اكتشاف بردية الاصحاح الثامن عشر من إنجيل يوحنا المكتوب أولاً باللغة اليونانية التي ليست لغة القبائل العربية المهاجرة، وثانياً الفارق الزمني الكبير الذي يمتد حوالي مائة عام بين تاريخ الاصحاح وتاريخ هجرة القبائل العربية إلى فلسطين ومائتي عام بين تاريخ ميلاد المسيح حسب الأناجيل وتاريخ هجرة القبائل التي حملت المسيحية إلى فلسطين وبلاد الشام حسب تقديرات فاضل الربيعي، كما تواتر اكتشاف برديات أخرى تحتوي على نصوص متفرقة من الأناجيل، لقد تم العثور عام ١٩٣٠ على برديات جديدة تحتوي على ثلثي إنجيل يوحنا وعلى أجزاء من إنجيل لوقا ومرقص ومتى وعلى أجزاء كبيرة لثمانية رسائل من رسائل بولس الطرطوسي وسفر أعمال الرسل وقدر علماء البيبلوغرافيا أن أبعد تاريخ لها هو عام ٢٠٠ ميلادي، وقد بلغ مجموع المخطوطات الأصلية باللغة اليونانية ٣٠٦ من المخطوطات القديمة المعروفة بالمخطوطات الانشئية وهي مكتوبة بالحروف اليونانية الكبيرة ومحفوظة في مكتبة الفاتيكان في روما<sup>٥٢</sup>، وإذا تم مقارنة هذه المخطوطات بأعمال أدبية قديمة فاننا سنرى الفرق الكبير بين الفجوة الزمنية القصيرة بين الحدث وتاريخ كتابته كما هي مخطوطات العهد الجديد والفجوة الزمنية الكبيرة بين الالياة مثلا التي كتبها هوميروس عام ٨٠٠ قبل الميلاد وأول إعادة كتابة لها في بداية السنة الميلادية، يعني فجوة زمنية عمرها الحد الأدنى ثمانمئة عام، مما يجعل على مجمل نصوص العهد الجديد ومناطق تدوينها وجنس لغتها مصداقية شبه عالية.

إن الإنزياح المحوري لفرضيتي الصليبي والربيعي عن فلسطين التاريخية بما هي المنشأ الأصل للمسيحية هو ضرباً

٥٠ نهاد خياطة، الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام، دار الأوائل، دمشق ٢٠٠٢، ص ٨١.

٥١ تقي الدين المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، الجزء الثاني، المركز الإسلامي للطباعة والنشر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٧، ط ٢ ص ٤٨٢.

٥٢ انظر: لي سترو، القضية المسيح، ترجمة سعد مقاري، مكتبة دار الكلمة، القاهرة، ٢٠٠٧، ص ٧٧، ٧٨، ٧٩.



من ضروب الخيال الذي اقتات على اشتقاق لغوية لتشابه أسماء الأمكنة دون أسانيد نظرية محكمة ودون شواهد أثرية لا قديمة ولا معاصرة، فتدوين تاريخ المسيح والمسيحية الأولى دون المعطيات التاريخية لفلسطين وبلاد الشام ودون العودة إلى الشهادات الرومانية والمخطوطات الشامية والمصرية المبكرة سيظل محل شك واهتزاز، فالحكم الرصين هو حكم العقل المنفتح غير الموجه ايدولوجيا كما قوة الأدلة المنطقية والأدلة الإثباتية الامبريقية.

ولأن الحقائق على وزن الأدلة، والأدلة المنطقية والتاريخية والأثرية التي قمنا بمناقشتها في الرد على فرضيتي الصليبي والربيعي حول الأصل التاريخي ليسوع المسيح، فإن الحقيقة المتبقية أن يسوع المسيح قد ولد في مدينة بيت لحم الفلسطينية<sup>٥٣</sup>، ولكن دون تحديد دقيق لتاريخ ميلاده، وكانت ولادته في زمن هيرودس الأول أو هيرودس الكبير الذي ولد عام ٧٣ قبل الميلاد ومات عام ٤ قبل الميلاد، والأغلب أن المسيح قد ولد في السنة الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد، وينبع هذا التقدير من الفترة القصيرة جدا التي أعقبت ولادة المسيح وموت هيرودس الكبير الذي طالب برأس المسيح، فهربت العائلة المقدسة إلى مصر وعادت بعد موت هيرودس الكبير، وكان الفرق بين موت هيرودس وعودة العائلة المقدسة إلى فلسطين لا يتعدى بضعة شهور حسب التقديرات.

نشأ المسيح في مدينة الناصرة وقد سمي ببسوع الناصري تيمنا بتلك المدينة التي احتضنت طفولته وشبابه طيلة العقود الثلاث الأولى من حياته، فضلا على أن الناصرة هي مسقط رأس السيدة مريم العذراء والدة المسيح الطفل، وقد عادت إليها وسكنتها مع طفلها وخطيبها يوسف النجار بعد الهروب إلى مصر والنجاة من الذبيحة التي طالت أطفال بيت لحم من هم دون سنتين بقرار من هيرودس الأول، والذي كان يستهدف من قراره حياة الطفل يسوع المسيح. صممت الأناجيل الأربع كما رسائل بولس الطرطوسي عن سيرة حياة المسيح في الناصرة، كما صممت الكنيسة ومثقفوها وكتاب السيرة اليسوعية عن فتح هذا الملف الذي يمكن ان يساعد فتحه على إنارة ما لم يذكره التاريخ حول هوية يسوع المسيح - الانسان في سنوات حياته الأولى.

صممت الأناجيل وتلاميذ المسيح كما صممت الكنيسة سواء في سنوات التأسيس أو ما بعد التأسيس وصولا للحاضر يحال على إشكالية العلاقة بين اللاهوت والناسوت أي بين الإلهي والإنساني في هوية المسيح التي شغلت الفكر المسيحي طيلة القرون الميلادية الثلاث الأولى إلى أن تم ترسيمها نهائيا في مجمع نيقية المسكوني عام ٣٢٥ ميلادي حيث تداعى ٣١٨ اسقفا من أنحاء المسكونة وقرروا الاتفاق على ترسيم قانون الايمان المسيحي، وقد جاء الاتفاق بأغلبية الحضور وليس بالاجماع<sup>٥٤</sup>.

٥٣ بيت لحم مشتقة من الإسم لحم وأصل الكلمة لحم نسبه للالهة الكنعانية لخم وهو آلهة الخيرات، وتعني بيت لحم بالارامية بيت الخبز، وفي العهد اليوناني ثم الروماني تم تسمية جنوب فلسطين ومن ضمنها بيت لحم باسم جوديا Judaea، وجوديا مصطلح جغرافي يدل على إسم منطقة الجنوب الفلسطيني وليس مصطلح ديني مشتق من اليهودية، فاليهودية هي Judasim، وليس Judaea.

٥٤ انظر قانون الايمان المسيحي الذي أقره مجمع نيقية عام ٣٢٥ ميلادي : نؤمن بإله واحد، ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يرى وما لا يرى، نؤمن برب واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساو للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي، تألم وقبر وقام من بين الأموات في اليوم الثالث كما في الكتب، وصعد إلى السموات، وجلس عن يمين أبيه، وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات، الذي ليس ملكه إنقضاء، نعم نؤمن بالروح القدس، الرب المحيي المنبثق من الآب، نسجد له ونمجده مع الآب والابن، الناطق في الأنبياء، وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية، ونعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ومنتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي، آمين.

انظر ايضا وجهة نظر أريوس والأقلية التي لم توافق على صيغة قانون الايمان : أريوس لم يختلف مع مجمع نيقية حول الاعتراف بمبدأ الثالوث المقدس : الآب، الابن، الروح القدس، بينما اختلف مع مجمع نيقية بحصره الصفات الالهية المطلقة بالآب، واعتبر الصفات الالهية للابن والروح القدس أقل منزلة من الآب، بعكس مجمع نيقية الذي نظر للآب والابن والروح لقدس كإله واحد في ثلاثة اقانيم تتمتع بنفس الصفات الالهية المطلقة. للتوسع انظر المرجع السابق : نهاد خياطة، الفرق والمذاهب المسيحية منذ البدايات حتى ظهور الإسلام.

قانون الايمان المسيحي الذي حل إشكالية اللاهوت والناسوت لصالح مركزية اللاهوت في الايمان المسيحي (قانون الايمان) والذي قاد الى نشوء مدارس لاهوتية متصارعة في الفكر الديني المسيحي لا يمنع ملاحظة ان المسيح - الانسان أو المسيح ابن الانسان هو مصطلح ثقيل الحمولة في الأناجيل التأسيسية، وقد تكرر ذكره في الأناجيل الأربع ٨٨ مرة دلالة على محورية المصطلح في النصوص الدينية، والمسيح نفسه عرف نفسه في أكثر من واقعة بأنه ابن الانسان ويبدو أن هذا التعريف كان من التعريفات المفضلة للمسيح لابرار هويته، ولقب ابن الانسان لا ينطوي فقط على تعريف سوسيلوجي باعتبار أن المسيح فاعل إجتماعي يحمل رسالة في وسط إجتماعي ولجمهور إجتماعي، بل وأيضا ينطوي على تعريف بيولوجي من حيث أن المسيح كائن عضوي تعرض لكافة أعراض الانسان من جوع وعطش وتعب وألم وبكاء وعطف وفرح ومحبة وصوم وصلاة الخ<sup>٥٥</sup>، وفوق كل ذلك فان مصطلح ابن الانسان يرمز لهوية عالمية من حيث كون المسيح في عمله وخدمته على الأرض كان يمثل الجنس البشري في صورته المثالية .

كانت الناصرة التي هي جزء من إقليم الجليل خاضعة مع جوارها لسلطة هيرودس أنتيپاس وهو ابن الملك الطاغية هيرودوس الأول، وكانت سلطته مستمدة من الحكام الرومان مع انه كأبيه ليس روماني الأصل وإنما أدومي الأصل، والأدوميين عرق سامي إستوطن بلاد الرافدين ومصر ولغتهم قريبة من اللغة الكنعانية والعربية والعبرية القديمة، وحسب روايات التوراة فان علاقتهم باليهود كانت في أغلب مراحل التاريخ علاقات عنف دموي خاصة في فترة داوود وسليمان، حروب متبادلة بين الطرفين كما معاهدات سلام بين الطرفين ركضا وراء ثقافة القبيلة التي تتوسل السلم أو تشن الحرب ارتباطا بمنسوب قانون القوة ونظام التحالفات<sup>٥٦</sup>.

إمتزجت على أرض الجليل كما على أرض فلسطين أعراق وثقافات متعددة، بينما ميزة الجليل انها كانت بواية الغزوات إلى فلسطين، وبحكم موقعها العالي المطل على مرج ابن عامر، فقد شهدت معارك الأزمنة الغابرة التي سبقت الميلاد، واستوطنتها شعوب من أصول كنعانية وaramية وعربية واغريقية ورومانية ومغولية وفارسية، وكان لموقعها الأمن وبيئتها الطبيعية وغزارة مياهاها وتنوع سلتها الغذائية قوة جذب واستقرار للشعوب التي سكنتها، وظلت تحتفظ بهذا الاستقرار والتنوع الثقافي والعربي الذي شهده وعائشه المسيح قبل أن يقوم الرومان بتدمير القدس عام ٦٧ ميلادي، وبعد هذا التاريخ شهدت الناصرة - التي لم يرد لها ذكر في التوراة أو المصادر اليهودية القديمة - أفواجا من اليهود الذين غادروا القدس واستوطنوا فيها وبنوا فيها بعض مقاماتهم الدينية، أي أن الجليل والناصرة في زمن طفولة وشباب حياة المسيح لم تكن خاضعة للكهنوت اليهودي وسلطته كما كانت القدس، وإنما كان فضاؤها الثقافي مفتوحا على ثقافات متنوعة، وكانت تحتفظ بحكم هذه الميزة بمركز قضاء مدني على نموذج القضاء اليوناني لفض المنازعات سلميا بين الشعوب القاطنة على أرضها، ولم تكن ثقافة المسيح الكونية في وجه من وجوها الا صدى ثقافة مدينة ذات طابع تعددي<sup>٥٧</sup>.

خضعت الجليل كما خضعت فلسطين وبلاد الشام لحكم البطالمة والسلوقيين اليونان وكان الجليليون ينظرون لليهود باعتبارهم جسما غريبا في المدينة<sup>٥٨</sup>، أما وصف متى مدينة الجليل بمدينة جليل الأمم<sup>٥٩</sup> فهو ينطوي على اعتراف تاريخي بالطابع الكوني لتلك المدينة.

كانت الجليل نواة لتجربة وجود إنساني متعدد الثقافات والهويات والأعراق، وجوارها كانت القدس تئن من سطوة

٥٥ انظر وصف الأناجيل للمشاعر والأعراض الانسانية للمسيح : مرقس ١٠: ١٤، ١٤: ٤، ١٤: ٣٨، ١٤: ٤١. يوحنا ١٩: ٢٨، ٤: ٦. متى ٢: ٤. لوقا: ٤٤: ٢٢.

٥٦ Avraham Negev and Shimon Gibson: Archaeological of the Holy Land (New York and London: Continuum). 2001, p. 149-150

٥٧ متى ٤: ١٥

٥٨ انظر سفر المكابيين ٥: ١٤-٢٣

٥٩ مصدر سابق متى ٤: ١٥

مركز لاهوتي منافي لنموذج تلك النواة، أي اللاهوت اليهودي المحافظ المتمركز في القدس والذي كان يعرف الافراد والجماعات تعريفاً إثنياً ويضغط الوجود الانساني في بني إجتماعية تراتبية إنطلاقاً من لاهوت عرقي يعتبر الرب يهوه هو حصراً رب اليهود، وانسجاماً مع النظام العبودي الذي يكرس الحدود والتفاوت بين البشر.

لم تكن الجليل خارج رياح ذلك العصر، ان موروثها التنوعي كان الأكثر استجابة لجاذبية الثقافات الجديدة التي بدأت تشق طريقها في عالم البحر الابيض المتوسط القديم، لقد زعزعت فتوحات الاسكندر المقدوني وانتصاره الحاسم على الفرس في معركة إيسوس عام ٣٣٣ قبل الميلاد وفتوحات البطالمة والسلوقيين والرومان، أنماط الحياة القديمة في مصر وبلاد الشام، وفتحت الطريق لانبثاق أساليب حياتية وثقافية جديدة، وكان انتشارها متواتراً وسريعاً خاصة في الجزء الواقع تحت سيطرة السلوقيين، ذلك أن الفينيقيين السوريين المعروفين بشعب البحر قد وصلوا بلاد الأغرقيق قبل أن يصل الأغرقيق بلاد الشام ونقلوا معهم بعضاً من ثقافة وعلوم اليونان وكانوا مهياًين لاستقبال الوافدات الثقافية الجديدة.

لقد استدعت إلى ميدان المسألة منظومات الشرف التقليدية القائمة على السلطة والثروة والمكانة الاجتماعية المرصوفة في مبنى اجتماعي تراتبي تقليدي، كما استدعت أعراف الطهارة الطقوسية والمحرمات المفروضة على الاتصال بأناس من جذور إثنية مختلفة، كما استدعي الاقتصاد الذي كان عماده فرض الضرائب الخانقة على الناس، لقد تم تشجيع الناس على أن يحرروا أنفسهم من القيود الاجتماعية التقليدية، وان يعتبروا أنفسهم أنهم ينتمون إلى عائلة إنسانية أكبر، هذا على النقيض من القدس التي كانت مراكز القضاء فيها يرأسها رجال دين يهود، وكان اليونان ثم الرومان يمنحون تلك الامتيازات لحاخامات اليهود مقابل قيام جباة الضرائب اليهود بتحصيل الضرائب لليونان وللرومان<sup>٦</sup>، وهذا يبين الفرق بين التكوين الثقافي للجليل والتكوين الثقافي للقدس في تلك الفترة من التاريخ، وهذا يفسر ان وتأثر الصراع العالية بين المسيح واليهود لم يكن الا انعكاساً لهذا الفرق في التكوين الثقافي بين بيئتين تنتمي الى درجات مختلفة في التطور الحضاري.

مثلت تداعيات هذه الاستدعاءات حملاً ثقيلاً على الثقافة اليهودية المنغلقة وخطراً داهماً على امتيازات رموز وحاملي لواء تلك الثقافة، وبشكل أكثر تحديداً على قادة الطائفة اليهودية الكهنوتية التي تسمى بالصدوقية المناهضة لعقلانية تلك الاستدعاءات والأكثر إنتفاعاً من سلطة الرومان، وبالمقابل سزى أن حامل تلك الاستدعاءات وممثلها الأبرز لم يكن إلا المسيح القادم من مدينة الناصرة، تلك المدينة الكنعانية التي كان يعتدل في رأسها تلك الاستدعاءات. في هذه البيئة نشأ وتربى المسيح، وفي هذه البيئة تحول الطفل يسوع الى المعلم الجليلي الكوني، وفي هذه البيئة ومن داخل مجالها الثقافي تبلورت رسالته الدينية بشقيها الروحي والانساني، ومن داخل هذه البيئة تشكلت مفاهيم ترسانة الرسالة المسيحية التي كانت متفارقة مع كل ما هو دون إنساني، وبقليل من المخاطرة يمكن الظن أن مريم العذراء ويوسف النجار كانا ينتميان الى هذه البيئة وثقافتها، وليس بين أيدينا من مراجع تاريخية حول أصل تلك الأسرة الدينية، ولكن الافتراض المنطقي يردهما الى الأصول الارامية، والأراميون شعب من الشعوب السامية القديمة التي استوطنت كامل المنطقة الممتدة بين بلاد ما بين النهرين، وهم أصحاب حضارة زراعية وتجارية وفنية، وأهم الممالك والدول التي أقاموها وعمرت طويلاً وامتدت على كامل بلاد الشام مملكة آرام في دمشق، ويؤكد منطقية هذا الافتراض أن المسيح وأسرته كانوا يتكلمون اللغة الارامية، ومع ذلك لا نستبعد أن العائلة المقدسة ذات الأصول الارامية أو الكنعانية الأكثر قدماً وانتشاراً في منطقة بلاد الشام قد دانت باليهودية في فترة من فترات التاريخ بحكم التداخل بين الأقوام والديانات في منطقة كانت تحتمل الاختلاط والتنوع الثقافي والديني، ومع أن هذا الافتراض يظل واحداً من الافتراضات التقديرية إلا انه يصطدم بحقيقة أن الجماعات اليهودية لم تطأ أقدامها أرض الجليل والناصرة إلا بعد النصف الأول من القرن الميلادي الأول، أي

بعد أن أنهى المسيح مهمته في التاريخ القديم، كما يصطدم بحقيقة أن مريم العذراء كانت تخدم في الهياكل الدينية كما تشير نصوص الأناجيل، فلو كانت حقا يهودية لكان محرما عليها القيام بهذه الخدمة، ذلك ان التقليد الديني اليهودي يمنع النساء من الخدمة في الهيكل، والخدمة موقوفة فقط على الرجال، هذا اضافة أن اليهود لم يعتبروا المسيح يهوديا ، وحسب يوحنا البشير فان اليهود قد احتاروا في إنتماء المسيح الديني<sup>٦١</sup>.

هذه هي هوية المسيح : الجليلي - الفلسطيني - الانساني - الكوني الذي قلب العالم القديم وأسس طريق الخلاص لعالم إنساني جديد فوق قومي - فوق إثني - فوق عرقي - فوق جنسي، عالم على نموذج المدينة الفاضلة سيان في الأرض أو في السماء .

المطران الدكتور منيب أ. يونان  
مطران الكنيسة الانجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة سابقاً

## الخلفية التاريخية للمذاهب المسيحية: الوحدة في تعدد المصالح

المقدمة:

من الصعب بمكان، في محاضرة ان اعطي خلفية تاريخية وافية للمذاهب المسيحية. ولكنني حاولت في هذه المقالة ان ابرز من هو مؤسس المسيحية؟ وهو الرب يسوع المسيح، ثم تكلمت عن ميلاد الكنيسة المسيحية في عيد العنصرة وانتشارها في جميع انحاء العالم. ثم عرضت تطور الكنيسة في تنصير الامبراطور قسطنطين ودعوة الاباطرة الى مجامع مسكونية سبعة، ليُطَوَّرَ عقيدة ايماننا المسيحي من الكتاب المقدس، ومما سمعوه ورأوه وآمنوا به. ثم عرضت تطوّر الكراسي الرسولية الخمسة ثم الانقسام الكبير عام ١٠٥٤ والإصلاح. وعرضت الأربع عائلات الكنسية التي تطوّرت من جراء ألفي عام. ثم انهيت هذه المقالة بأن القرن العشرين كان قرن التقارب بين الكنائس وتوقيع الاتفاقات، لأنه مهما حَدَثَ من تاريخ تصدع، إلا اننا نبقى كنيسة واحدة في تعدد مصالح. مؤسس المسيحية: -

لقد ولد سيدنا يسوع المسيح في مدينة بيت لحم، وترعرع في مدينة الناصرة. وجال يعلم في مدن وقرى الجليل، وعلم تعاليم سامية تتلخّص في الانجيل الأربعة وبنوع خاص الموعظة على الجبل. ويتركز ايماننا المسيحي، ان المسيح قد مات وصُلب وقام في اليوم الثالث من بين الأموات. ومن ثمّ بعد أربعين يوماً من الظهورات صعد الى السماوات. فالمسيح حسب ايماننا المسيحي، هو تتمّة لجميع النبوات. ولذلك، فهو مخلص البشرية وبدّمه الكريم على الصليب أعاد للإنسان كرامته الإنسانية. ويتلخّص تاريخ حياة المسيح في الأربعة انجيل في العهد الجديد وهي انجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا. ونسمع عند نهاية كل انجيل في الانجيل الأربعة في العهد الجديد نغماتين تترددان دوماً، النعمة الأولى: وهي نعمة النصر بسبب نهاية عمل المسيح على هذه الأرض، والنعمة الثانية: وهي التحدي للمأمورية سوف يُشرعُ بها (انجيل متى ٢٨: ١٨-٢٠) (انجيل مرقس ١٦: ١٥ + ١٩ + ٢٠) و(انجيل لوقا ٢٤: ٤٤ - ٤٩). وهذه المأمورية ان يحمل الرسل وأتباعه المؤمنين الانجيل والتي تعني البشارة المفرحة عن خلاص المسيح ومحبة للبشرية. ويُعتبر عيد العنصرة، وهو عيد حلول الروح القدس على التلاميذ بعد خمسين يوماً من قيامته هو ميلاد الكنيسة المسيحية. ويتناول البشير لوقا في سفر اعمال الرسل قصة البداية من القدس، حيث يُخبرنا عن امتداد الكرازة والتبشير وانتشارها في الخارج الى ان شملت السامريين واليهود والأمم. وبدأت الارسالية الكاملة للأمم من انطاكية (اعمال الرسل ١٣ - ٢٨). وفي انطاكية دُعِيَ اتباع المسيح بأنهم مسيحيون.

وفي المد التبشيري الذي قام به رسل المسيح واتباعه، نقرأ ان كل جماعة مسيحية كانت تُشكّل كنيسة في البيت. وحتى عام ٢٠٠م، كانت عبادة المسيحيين تتمركز في بيوت أحد المؤمنين. فقد كانوا يختارون فيه غرفة كبيرة تصلح للاجتماعات وبعيدة عن مسببات الإزعاج. وكان المؤمنون حديثاً يحفظن في زمن الخطر والاضطهاد بالمكان سراً عن الجميع إلا عن



الأصدقاء المقربين.

وبعد ٢٠٠ عام، بدأنا نسمع عن أماكن معينة للعبادة، حيث ظهرت بنايات صغيرة استُعمِلت لغرض العبادة وكان يدعى «بيت الرب».

وفي عام ٢٦١م، ظهرت الإمبراطورية الرومانية استعدادها للتساهل مع المسيحية، لأن الامبراطور هادريان أمر باضطهاد المسيحيين عام ١٣٥م. فَبَنُوا بنايات على شكل الباسيليكا وهي عبارة عن بناية مستطيلة تنتهي بشكل مستدير من الجهة الشرقية أعدت لمائدة الرب أي سر العشاء الرباني المقدس أو سر القربان المقدس.

وفي عام ٣٠٣م، هَدَمَت الجماعات المضطهدة لتلك الكنائس أو احرقتها. وبعد عام ٣١٢م، انتهت الاضطهادات عندما تنصَّر الملك قسطنطين. ومنذ ذلك الوقت بدأت أملاك الكنيسة تَكثر وتزداد.

وثمة أربع وسائل مشتقة من العهد الجديد، انتشرت الديانة المسيحية بها: -  
١- المرسلون:

كانت وصية المسيح لتلاميذه ورسله وأتباعه: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم ان يحفظوا جميع ما اوصيتكم به. وها انا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر»  
(انجيل متى ٢٨: ٩-٢٠)

وكان المرسلون في الكنيسة الأولى يَعْلَمُونَ كل الوقت وفي كل مكان. مما لُقِّب هؤلاء: «بمخلفاء الرسل». ويكتب اب الكنيسة اوريجينوس حوالي عام ٢٥٠م، عن هؤلاء الذي عرفوا أحوال افريقيا الشمالية والشرقية وغربي آسيا فقال:

«يعمل المسيحيون كل ما في وسعهم لِيَنْشُرُوا الايمان المسيحي في العالم، وقد جَعَلَ البعض مشغله الشاغل في الحياة التجول ليس فقط من مدينة الى أخرى، بل من القرى والمزارع لِيُرَبِّح النفوس للرب، وليزيد في عدد المهتمين. واينما ذهب رسل الايمان هؤلاء، فقد كان الشعب يحتفي بهم بكل اجلال وإكرام».

٢- شهادة العلمانيين العاديين:

نسمع من شهادة عام ١٨٠م، عن أعمال العلمانيين الذين كان بعضهم من أوضاع الطبقات وَيَشهد عنهم رجل غير مسيحي يكتب عن العبيد الذين كانوا ينقلون عدوى المسيحية الى جميع سكان البيت. فكانوا يَسْتَمِيلُونَ الناس وَيُعْلَمُونهم عن المسيح وخلاصة.

٣- التأثير المسيحي:

يكتب يوستن مارتر وقد وُلِدَ في فلسطين، واهتدى الى المسيحية في افسس. وحوالي عام ١٥٠م غدا مبشراً مسيحياً في روما:

«ان سيدنا يسوع المسيح اهاب بنا بصبر ووداعة، ان نسير من العار ونتحرر من قيود الشهوة. وعلينا ان نظهر هذا مع الكثيرين الذين يحتكون بنا، والذين تركوا حياتهم المستبدة العاتية، وتجددوا عن طريق مراقبة حياة جيرانهم المسيحيين المثالية، او عن طريق مراقبتهم الصبر العجيب الذي تحلّى به المسيحيون عندما كانوا يرهقون بدفع الضرائب والرسوم اثناء سفرهم واقترابهم من حدود البلاد، او عند نزولهم في الخانات».

٤- الشهداء:

انني اضيف قافلة الشهداء الى القائمة، وكلمة شهداء تُشتق من «الشهادة والاستشهاد». وكان هؤلاء المسيحيون مستعدون لان يَتَأَلَّمُوا وان يموتوا في سبيل ايمانهم بالمسيح. ويكتب اب الكنيسة ترتليان من شمال افريقيا عام ١٩٧م ويقول:

«كَلَّمَا ازدرتم في حصدنا، كَلَّمَا ازددنا عددًا. فَدَمَ الشهداء يغدوا بذاراً خصبياً، وكثيراً من كُتَّابكم عَلَّمُوا الناس بان يُقابِلوا الموت والالم بشجاعة، ولكنهم لا يستطيعون ان يكتسبوا تلاميذ مثلما استطاع المسيحيون. فهؤلاء مُعَلَّمُونَ لا بالكلام بل بالأعمال».

هذه كانت الطريق التي بها اهتدى اب الكنيسة ترتليان نفسه الى الايمان المسيحي. وعلى ضوء هذه الصور الأربع التي اوردناها، نستطيع ان نميِّز في مفاهيمها انتشاء المسيحية وتأسيس الكنائس المتعددة في الغرب والشرق وفي القارات الثلاثة المعروفة في ذلك الوقت.

اهتداء الامبراطور قسطنطين وتأثيره على المسيحية:

لقد أثر اعتناق الامبراطور قسطنطين الى المسيحية وجعلها دين الدولة على الإمبراطورية باسرها. ويُعتَبَر ابتداء حياة الكنيسة في الغرب في يوم صدور منشور ميلان عام ٣١٣م، الذي فيه أعلن التساهل مع المسيحيين وغيرهم. ونوّه ذلك المنشور الى المسيحيين خاصة والتسامح معهم ووَعَدَ بإعادة ممتلكاتهم المغتصبة إليهم. ومن هنا نرى في تنصّر الامبراطور قسطنطين بدء العصر الذهبي للكنيسة المسيحية. ذلك العصر الذي دام ثلاث قرون إلا ان نعتته عصر من التاريخ بالذهبي، هو امر نسبي. فمهما عظم شأن القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي، لكنه قد نتج عن ذلك تدخّل الدولة بالدين. وَقَبِلَت المسيحية كدين للدولة بالإضافة الى الإمبراطورية الرومانية في أرمينيا التي تنصّرت عام ٣٠٠م، وفي الحبشة (اثيوبيا). ولَمَّا كانت الكنيسة حركة جماعة من الأقلية المضطهدة، فإنها نزعت لان تكون عالمية ومثلها كانت كنيسة الدولة ايضاً التي كانت ميّالة لتتخذ طابعاً عالمياً مشتركاً. وابتدأت الاختلافات اللاهوتية والعقائدية تطفو على السطح. ودخل فيها تيارات مختلفة. ولكن كان بينها نزاع على أمور عقائدية كثيراً منها:

- أي الاسفار يجب ان تكون ضمن قانون الكتاب المقدس؟

- ما هي المعتقدات المطلوبة من المسيحيين التي يتفق عليها الجميع؟

- اين يجب ان يكون مركز إدارة الكنيسة؟

- هل السلطة هي لبابا الغرب؟ او لكل البطريركية؟

فدعا الاباطرة المتعاقبون لتوحيد الكنيسة والوصول الى اتفاقات مشتركة للإيمان المسيحي.

فدعا قسطنطين على سبيل المثال: الى مجمع نيقية عام ٣٢٥م، ثم عقد مجمع القسطنطينية ٣٨١م، ثم مجمع افسس عام ٤٣١م، ثم مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م، ثم المجمع الخامس: مجمع القسطنطينية الثاني المسكوني عام ٥٥٣م، الذي دعاه اليه الامبراطور يوستاس ومجمع القسطنطينية الثالث ٦٨١م، ومجمع نيقية الثاني.

وتعترف جميع الكنائس المسيحية بمسكونية هذه المجمع السبعة، وتعترف بها الكنيسة شرقاً وغرباً. واستطاعت هذه المجمع المسكونية السبعة ان تجمع المسيحيين في قوانين إيمان ثلاثة: قانون الإيمان الرسولي، وقانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني الرسولي والنيقاوي القسطنطيني وقانون الإيمان الاثناسي. واستطاعت ان تعلن قانونية اسفار الكتاب المقدس بما فيه العهد القديم والجديد. والإعلان عن الاحتفال بعيد القيامة الا انها لم تستطيع ان تحل جميع القضايا المستعصية، ولكنها بقيت في شركة ايمان مسيحية مع بعضها البعض. وبالأخص ما جرى من نقاشات لاهوتية واتفاقات في المجمع المسكونية السبعة، وبعجالة الشخص ما اتفقوا عليه هذه المجمع.

- نؤمن بآله واحد، آب ضابط الكل، خالق السماء والأرض، ما يُرى وما لا يُرى، نؤمن بربّ واحد يسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الآب قبل كل الدهور، نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كل شيء، هذا الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء. وتجسد من الروح القدس

ومن مريم العذراء وتأنس. وُصِّبَ عَنَّا على عهد بيلاطس البنطي. وتَألمَ وقُبرَ وقامَ من بين الأموات اليوم الثالث كما في الكتب. وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين أبيه. وأيضاً يأتي في مجده ليدين الأحياء والأموات. الذي ليس لملكه انقضاء. نعم نؤمن بالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الأب. نسجد له ونمجده مع الأب والابن. الناطق بالأنبياء. وبكنيسة واحدة، جامعة، مقدسة، رسولية. ونعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا، ومنتظر قيامة الأموات والحياة في الدهر الآتي، آمين.

- إننا نعلم جميعنا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين. ونعترف بابن واحد هو نفسه ربنا يسوع المسيح. وهو نفسه كامل بحسب اللاهوت وهو نفسه كامل بحسب الناسوت. إله حقيقي وإنسان حقيقي. وهو نفسه من نفس واحدة وجسد واحد. مساو للأب في جوهر اللاهوت. وهو نفسه مساو لنا في جوهر الناسوت مماثل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة. مولود من الأب قبل الدهور بحسب اللاهوت. وهو نفسه في آخر الأيام مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت لأجلنا ولأجل خلاصنا. ومعروف هو نفسه مسيحاً وابتناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين لا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال من غير ان يُنفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد، بل أنّ خاصّة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً وأقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مُتَجزَّءاً إلى شخصين بل هو ابن وحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الله الابن الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الأنبياء منذ البدء وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلّمنا دستور الآباء. - ونعترف بالمثل، بحسب رأي الآباء القديسين: في المسيح مشيئتان وإرادتان طبيعتان وفعالان طبيعتان بدون افتراق، بدون استحالة. بدون انفصال، بدون اختلاط. ونعترف في إرادتان طبيعتان غير متضادتين معاذ الله، ولكن الإرادة الإنسانية في يسوع مطيعة وغير مقاومة وغير نائرة بل خاضعة للمشيئة الإلهية والكلية القدرة. فكان على مشيئة الجسد ان تتحرك، ولكن ان تخضع للإرادة الإلهية وذلك بحسب اثناسيوس الحكيم جداً.

- إننا نقبل الايقونات ونسجد لها ونكرمها، احتراماً للذين صوّرت عليهم لا عبادة لهم، لان العبادة إنما تجب لله دون غيره. ونعترف بمريم العذراء بانها «الدة الاله» (Theotokos). هذا هو ملخص لما تمّ الاتفاق عليه، واعيد وأقول: «جميع الكنائس المسيحية شرقاً وغرباً، نتحد على هذا اللاهوت المسيحي المسكوني الوحدوي».

نشأة الكراسي الأسقفية الكبرى او البطريركيات:

لا بد من الكلام ان هذه الكراسي الأسقفية الكبرى أي البطريركيات نشأت لتكون نظاماً إدارياً كنسياً حسب المناطق والاقليم. ولكن بقيت هذه البطريركيات الخمسة في حضانة الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية. وما يجب الإشارة إليه أنّ الكنيسة راعت التقسيمات الإدارية التي اجراها الامبراطور ويوكليسيانس في آخر القرن الثالث الميلادي. فكان لأساقفة العواصم سلطة على جميع النواحي التابعة لها. وفي أيام الامبراطور يوستيانس (٥٢٧ - ٥٦٥م) دُعِيَ أولئك بتسمية بطاركة أي (اب الآباء). وقد امتدّت سلطتهم الى تلك الأقاليم التابعة الى البطريرك. ويحق للبطيرك ان يرسم أساقفة لتلك الأقاليم التابعة له فقط. كما يحق للبطيرك ان يُعالج أمور هؤلاء المطارنة تحت سلطته. وإذا كانت ثمة شكوك على أحدهم، فهو الذي يحاكمهم. وكان في الاحتفال الكنسي في كل واحد يصلي البطاركة لبعضهم بعضاً ولمن يخدم المسيح.

١. كرسي الإسكندرية:

يذهب التقليد ان الرسول مرقس هو اسس كنيسة الإسكندرية. وكان لأسقفها سلطة واسعة على جميع ربوع مصر والقيروان. ومرقس هو يوحنا مرقس ابن مريم حيث كان المسيحيون الأوائل في القرن الأول ميلادي يجتشدون للصلاة في دارها وهي التي أوت بطرس عند خروجه من السجن (اعمال الرسل ١١: ١٢-١٧). وكان مرقس ابن عم برنابا (كلوسي ٤:

١٠). ولما خرج بولس وبرنابا لرحلتهم الرسول الأولى، اصطحبا مرقس (اعمال الرسل ١٣: ٥ + ١٣). ولكنه تركهما وصار ابناً روحياً لبطرس (بطرس الأولى: ٥: ١٣).

ومرقس هو كاتب الانجيل الثاني على طلب من رعايا رومة. ومن هناك ذهباً للتقليد لتبشير مصر. وبتبشيره انتشرت المسيحية في مصر وأصبحت كرسياً رسولياً هاماً في تاريخ الكنيسة المسيحية.  
٢. كرسي انطاكيا:

كانت انطاكيا (سوريا) بعد القدس (اورشليم) أعظم منطلق للبشارة الانجيلية على ما جاء في كثير من صفحات الكتاب المقدس (اعمال الرسل ١١: ١٩-٢٨). وكانت البشارة الانجيلية تُنشر في الهلال الخصيب إذ كانت متقدمة جداً، ومع الوقت أصبحت انطاكيا مركزاً مسيحياً هاماً وأصبحت كرسياً هاماً. حيث انطلق المبشرون المسيحيون منها الى العالم اجمع. وفي انطاكية ابتدأت تسمية اتباع المسيح بالمسيحيين. وكان كرسي انطاكيا يمتد الى سوريا وآسيا الصغرى (تركيا).  
٣. كرسي القدس (اورشليم):

لقد كان يعقوب الصغير، أحد الرب، أول أسقف على جماعة القدس الأولى، والمقيمة على جبل صهيون المسيحي والمتألفة من اليهود المعادين المنتصرين. وقد اضافت الدراسات والأبحاث العصرية نوراً ساطعاً على هويتهم بأنهم «كنيسة الختانة». لكنه مهما كانت أهمية هذه الكنيسة «ام الكنيسة وجميع الكنائس»، فإنها كانت مرتبطة بقيصرية الساحل، وقد أصبح اسمها اسماً وثانياً عام ١٣٥م، وسُميت ايلينا كابتولينا عندما حكم الامبراطور هادريان المدينة. وقد أولى مجمع نيقية عام ٣٢٥م، كنيسة القدس منزلة شرف مع بقاء حق الصدارة لقيصرية.

وكان طموح ليوفنالس أسقف المدينة (عام ٤٢٢م ٤٥٨م)، الذي كان معروفاً بالدهاء والطمع ان يرضى بهذه الحالة، وان لا يحلم بامتداد سلطته الى فينيقية وبلاد العرب. وفي مجمع خلقدونية تم الاتفاق ان يكون أسقف القدس مسؤولاً عن ربوع فلسطين. وهذا القرار هو مولد بطريركية اورشليم.

#### ٤. كرسي القسطنطينية:

لقد قام الامبراطور قسطنطين عام ٣٣٠م بجعل عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية واسماها القسطنطينية. وقد اعتبرت في تاريخ الكنيسة انها رومية الجديدة. وأعطى أسقف القسطنطينية ان يكون له تقدم شرف بعد أسقف روما. ومن هنا قال أحد المؤرخين: «قد لا نبالغ إن قلنا ان بُدور الانشقاق ترتقي الى تأسيس القسطنطينية». وهكذا فقد أصبح كرسي القسطنطينية كرسياً بطريركياً.

#### ٥. كرسي رومة:

يُعتبر بطرس الرسول هو اول أسقف على روما. وحسب الرواية، قضى فيها آخر عمره واستشهد ودُفِنَ فيها نحو سنة ٦٧م. وعلى إثر وفاة الرسول بطرس، ظهرت كنيسة رومة بمظهر البكر بين الكنائس المهمة بجميع الكنائس. ويعزى ذلك الى ما كتبه أب الكنيسة كبريانوس الافريقي: «ان كرسي رومة هو كرسي بطرس، الكنيسة الرئيسة ومركز الوحدة». وفي القرن الرابع اخذت رومة تفقد عظمتها الأولى الوثنية، إذ نَقَلَت العاصمة الى القسطنطينية.  
وخلاصة القول: «كانت البطريركيات الخمسة القديمة هي ممثلة للمسيحيين، وتدير الشؤون المسيحية بأكملها في الشرق والغرب».

## الانشقاق الكبير:

في عام ١٠٥٤م، حَدَثَ الانشقاق الكبير بين جناحي الكنيسة الشرقي والغربي. فأصبح بابا روما زعيم كنيسة الغرب، وبطريك القسطنطينية زعيمها في الشرق. ولكن الكنائس التي نشأت إثر مجمع أفسس عام (٤٣١م)، ومجمع خلقيدونية عام (٤٥١م). وهي الكنائس التي تُدعى اللاخلكيدونية أو المونوفيزية، وهي الاقباط والسريان والارمن. بقيت مستقلة عن البطريركيات الخمسة. فالانشقاق الذي يعنينا هو انشقاق الكنيسة (اليونانية) الشرقية الملقبة اليوم بالأرثوذكسية والكنيسة الملقبة بالكاثوليكية.

ف وراء هذا الانشقاق هناك اولاً الهوة العميقة القائمة بين الشرق والغرب بسبب واقعهما الجغرافي والتاريخي، وصعوبة تفاهمها لاختلاف اللغة والحضارة والآراء والعادات وحتى الطقوس الدينية. ويرتقي الامر ايضاً الى يوم تأسيس العاصمة الشرقية وتقسيم الإمبراطورية الرومانية شرقية وغربية. وتدور رفض البابوية قرارات مجمع القسطنطينية الأولى عام ٣٨١م، ومجمع خلقيدونية عام ٤٥١م، في شأن أولوية كرسي القسطنطينية بعد رومة.

وقد أدى احياناً الى التصادم بين البابوات والباطرة ومما زاد الطين بلة، بأن الكنيسة البيزنطية رفضت إضافة كلمة والابن الى قانون الإيمان النيقاوي القسطنطيني، وذلك في الكلام عن انبثاق الروح القدس. وقد بدأت هذه العادة في اسبانيا، في القرن السادس الميلادي ثم امتدت شيئاً فشيئاً في الغرب، ولم تقبلها روما قبل القرن الحادي عشر. فهذا الانشقاق له علاقة ايضاً بقوانين الكنيسة وأنظمتها، وبعضها له علاقة في استعمال الصور والايقونات والتماثيل الكنائس. ولكن عقدة العقد يمكن ايجازها بما يلي:-

- من هو الذي يترأس الكنيسة؟ البابا ام مجمع الكنيسة؟

فالكنيسة الغربية الكاثوليكية أعطت السلطة للبابا بينما الكنيسة الشرقية الارثوذكسية أعطت السلطة للمجمع الكنسي برئاسة البطريرك. ودام نقاش مدة اربعمئة عام ونفوس الاتقياء في كنائس الشرق والغرب تحاول ان تضمد هذا الجرح، وتعتبر الوحدة للشرق والغرب.

وقد كانت ثمة محاولتان بفعل اباطرة القسطنطينية إزاء المدّ التركي، إذ عادت الكنيستان مرتين الى اتحاد مؤقت. المرة الأولى في مجمع ليون الثاني عام ١٤٣٩م. فاضطروا في النهاية الى الإقلاع عن محاولة توحيد الكنيستين، إذ بلغ الانشقاق مرحلته الرسمية القاطعة بعد سقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م بثلاثين عاماً، تاركاً في الكثير من الحنين الى الوحدة. فثمة الكنيسة الرومانية الكاثوليكية التي يرأسها البابا وبينما بقيت الكنائس الارثوذكسية يرأس كل بطريركية بطريك ولديه مجمع مقدّس. وهؤلاء البطاركة الأربعة الباقين اعتبروا أنفسهم متساويين في السلطة، لكن ثمة شراكة فيما بينهم. ويعتبر بطاركة الكراسي الأربعة الرسولية مساويين لبطريك روما. وقد قال البابا يوحنا الثالث والعشرون: «ان الطرفين مسؤولان عن هذا الانشقاق».

## الإصلاح اللوثيري:

ابتدأ الإصلاح اللوثيري حينما علق المصلح الدكتور مارتن لوثر خمسة وتسعين احتجاجاً على بوابة كنيسة فترغ في المانيا. وقد قام الإصلاح في أوروبا احتجاجاً على تصرفات الكنيسة الكاثوليكية في العصور الوسطى. حيث اعتبر المصلح مارتن لوثر انها مارست بعض الطقوس التي تتناقض مع الكتاب المقدس وبعض المراسيم التي تتنافى مع مبدأنا المسيحي الإنجيلي.



فعلى سبيل المثال: «صكوك الغفران وغيرها». ولم يكن هدف المصلح مارتن لوثر ان يشق الكنيسة الكاثوليكية، إنّما ان يُصلحها من الداخل. وواجه صعوبات مع البابا آنذاك، الذي كان رئيس الكنيسة ويعين القياصرة والحكام. وبسبب إصلاحه وعدم الرجوع عن مبدئه، حرمة البابا في كانون الثاني عام ١٥٢١م. لقد ركّز المصلح مارتن لوثر بعد ان كان ناسكاً اوغسطينياً ولاهوتياً كتابياً في جامعة فرايبورغ على أساس العقيدة المسيحية التي اكتشفتها من تعاليم بولس الرسول في رسالته الى اهل رومية الاصحاح ٣: «الا وهي عقيدة التبرير بالايمان والتي تتلخّص» مبررين مجاناً بنعمته بالفداء الذي ببسوع المسيح» (رو ٣: ٢٤). «وان البار فبالايمان يحيا» (حقوق ٤: ٢) + (رومية ١٧: ١). فأصبحت عقيدة التبرير بالايمان هي القاعدة الأساسية التي تقف عليها الكنيسة او تسقط.

وكان تركيز المصلح مارتن لوثر على ثلاثة أمور:

١- Sola Scriptura: الكتاب المقدس وحده بمعنى ان ركيزتنا العقائدية تستند على الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، لا على التقليد الكنسي.

٢- Sola Fide: بمعنى الايمان اقوى من الاعمال الصالحة.

٣- Sola Gratia: بمعنى النعمة اقوى من أي استحقاق.

وبالطبع التركيز على المسيح نفسه وعلى الحرية التي اعطانا اياه الآب. وانتشر الإصلاح في جميع انحاء أوروبا وواكب الإصلاح بعض المصلحين الآخرين مثل واللذان اختلفا مع المصلح مارتن لوثر على لاهوت العشاء الرباني (سر القربان المقدس) وعلى تمسكه بالليتورجية الكاثوليكية ونظامها. ومن تعاليم الإصلاح الهامة: -

كهنوت جميع المؤمنين، الخلاص بالايمان ببسوع المسيح مخلصاً وفادياً، حرية التفكير وسمو الشخصي ومجد سلطان الكتاب المقدس.

وقد تم انشقاقاً آخر في الكنيسة الكاثوليكية. ودخل الإصلاح ايضاً إنكلترا عن طريق الملك هنري الثامن، بسبب منعه البابا الزواج من زوجته السادسة.

عندها أعلن انه الكنيسة الانجليكانية تتبنى تعاليم الإصلاح الانجيلية وهكذا انتشرت الكنيسة الانجيلية، حيث أصبح ملك إنكلترا رئيس الكنيسة.

لكن الحركة البروتستانتية رافق تاريخها وجه محزن، وأحياناً مُجمل. وهو انقساماتها وتعدد فرقها. وقامت أنظمة مختلفة منها النظام المشيخي، والاسقفي واللوثري والجمهوري. وظهرت هذه الكنائس ايضاً جماعات حرّة امتدت في أوروبا واميريكيا، وأثرت على القارات الأخرى فيما بعد.

العائلات الكنسية في مجلس الكنائس في الشرق الأوسط:

بعد هذا العرض السريع الذي يوضح بعض جوانب التاريخ، اريد ان اعرض العائلات الكنسية الأربعة في الشرق الأوسط:

١. عائلة الكنائس الارثوذكسية:

لقد ذكرنا سابقاً ان ثمة خمسة بطريركيات رسولية تاريخية. وفي الشرق الأوسط لا نزال نحتفظ بثلاثة بطريركيات كنسية أرثوذكسية وهي:

- بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس.

- بطيركية انطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس.  
 - بطيركية الإسكندرية وسائر أفريقيا للروم الأرثوذكس.  
 وينضم الى هذه الثلاثة كنائس في مجلس الكنائس في الشرق الاوسط، كنيسة الروم الأرثوذكس في قبرص.  
 وتعتبر كل بطيركية بانها مستقلة في قراراتها وإدارتها وتعيينها للأساقفة. وهذه ما تعرف بـ ( ) بمعنى ان البطريرك هو رئيس الكنيسة ويديرها مع مجمع كنسي يضم مطارنة ورؤساء مطارنة و متروبوليت من حيث البطريركية وحيث موقعها الجغرافي. وتحتفظ البطريركية باستقلالية قرارها وإدارة شؤونها المالية والإدارية. ولا تتدخل كنيسة أخرى او بطيريك آخر في قراراتها ومقرراتها.

ولهذه الكنائس شركة إيمان كاملة يصلون لبعضهم بعضاً في خدمات العبادة وفي الليتورجية. وتعتبر هذه الكنائس ان البطريرك المسكوني في إسطنبول (القسطنطينية سابقاً) هو الأول بين المتساوين، وهذه منزلة شرف. ولكن لكل كنيسة الحق في إدارة شؤونها وواقفها حسب الأصول المتبعة. وأن ما يجمعهم معاً هو تعاليمهم المسيحية الارثوذكسية وعقائدها. وفي هذه الكنائس الارثوذكسية سبعة اسرار مقدسة الا وهي: -

- سر المعمودية

- سر الافخارستيا

- سر الميرون: وهي ختم الطفل المعمد مباشرة بعد تعميده، إشارة الى ختم الروح القدس.

- سر التوبة والاعتراف

- سر الكهنوت

- سر الزواج

- سر الزيت المقدس

وترتبط هذه الكنائس مع الكنائس الارثوذكسية الأخرى الروسية والناطقة باليونانية، وكنائس ارثوذكسية أخرى في العالم.

وثمة مجلساً مسكونياً مُوحّداً يجتمع بين الحين والآخر، يجمع جميع كنائس العائلة الارثوذكسية ليُعالج أمور تختص بشهادتهم المسيحية ومشاكل العصر والمسكونية. وآخر مرة اجتمع هذا المجمع في اليونان، كان عام ٢٠١٦.

## ٢. العائلة الارثوذكسية الشرقية:

إنّ هذه العائلة الارثوذكسية الشرقية نشأت منذ مجمع خلقدونية المسكوني عام ٤٥١م. وحدث تصدّع في الكنيسة الواحدة، لان الكنائس الارثوذكسية الشرقية ابتعدت عن الشراكة مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (اللاتين) وعن الكنائس الارثوذكسية البيزنطية.

فهذه الكنائس رفضت في مجمع خلقدونية المسكوني، اصطلاح ان للمسيح طبيعتين واحدة الهية والأخرى إنسانية، كما تُقَرَّبها كنائس الشرق والغرب. فلفظة طبيعتين تُوازي في مفهومهم لفظة شخصين. وكانوا يُفضّلون تعابير أخرى، ولذا دُعيت هذه الكنائس بكنائس الطبيعة الواحدة ( ). وكما يشرحها البابا كيرلس في حينه: «للمسيح طبيعة واحدة للإله الكلمة المتجسد». وعُرِفَتْ في بعض المحافل بالكنائس غير الخلقدونية.

وفي جو العصر المسكوني وروحه الإيجابية، استطاعت هذه الكنائس بالحوار البتاء مع العائلة الارثوذكسية والعائلة الرومانية الكاثوليكية ان تصل الى تفاهات لاهوتية وفاقية، وان هذا الخلاف اللاهوتي التاريخي هو لفظي وليس جوهري لأنها ايضاً تعترف بان للمسيح طبيعتان: الهية و ناسوتية.

وتشمل هذه العائلة في الشرق الأوسط ثلاثة كنائس: -

#### ١. الكنيسة القبطية الارثوذكسية:

وهذه الكنيسة تعتمد على تعاليم البشير مرقس الذي رافق بطرس وبولس، وكان مساعدهما في الخدمة والتبشير. ويُعتَبَر ان البشير مرقس هو الذي حمل رسالة المسيح الى مصر. ان عمر الكنيسة القبطية أكثر من تسعة عشر قرناً. وبالرغم من الاتحاد والاندماج الكامل للأقباط، فقد استمروا ككيان ديني قوي، وكونوا شخصية مسيحية واضحة في مصر. وتُعتَبَر الكنيسة القبطية نفسها مدافعاً قوياً عن الإيمان المسيحي، وتعتبر ان قانون الإيمان النيقاوي الذي تقره جميع الكنائس المسيحية في العالم اجمع كتبه أحد أبناء الكنيسة القبطية العظماء، وهو البابا اثناسيوس. وتُعتَبَر هذه الكنيسة نفسها بان كنيسة الشهداء لما استشهد كثير من أبنائها عبر القرون بسبب ايمانهم المسيحي القويم.

ويُدعى رئيس الكنيسة القبطية بابا الإسكندرية، وهو اعلى سلطة روحية وتنفيذية في الكنيسة. ويعود استعمال لقب بابا الى القرن الثاني، ومن ثم جاء مجمع نيقية عام ٣٢٥م، لِثُقُر الإسكندرية كمركز من مراكز المسيحية الكبرى، أي أحد الكراسي الخمسة الى جانب انطاكية والقدس والقسطنطينية وروما. وتمتد سلطة البابا إضافة الى مصر الى جميع انحاء العالم بما فيها ابرشيات الاغتراب في المهجر.

وثمة مجمع مقدسي يتألف من مئة واثنين عضو، وهم مجموع الأساقفة والمطارنة ورؤساء الأديرة داخل مصر وخارجها، إضافة الى الكنائس ذات الشراكة معها ونواب البابا الذين هم بمرتبة أسقف. ويجتمع دورياً برئاسة البابا نفسه، وتُنظَّم فيه الشرائع والقوانين الكنسية كآلية عمله وصلاحيته الحقيقية.

وينبثق عن المجمع تسعة وعشرون لجنة تغطي جميع مناحي الحياة الكنسية سواء على الصعيد اللاهوتي ام الراعي ام الاجتماعي العام. وينضم الى هذه الكنيسة سبعة عشرة مليون مؤمن قبطي. وثمة نيابة بطريركية في القدس، يرأسها مطران الاقباط.

#### ٢. كنيسة انطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس:

وهي كنيسة انطاكية ارثوذكسية شرقية، ويقع مقرها في كاتدرائية مار جرجس في باب توما في دمشق في سوريا. ويطلق على هذه الكنيسة تسميات أخرى كالمونوفيزية او اليقوبية نسبة ليعقوب البرادعي. ولكن الكنيسة السريانية اليوم ترفض تلك المسميات.

إنَّ لغة الكنيسة الرسمية هي السريانية، وتستخدم الكتابة السريانية (الآرامية) في محفوظاتها الدينية. وترجع جذور هذه الكنيسة الى البدايات المسيحية، وتُعتَبَر نفسها أحد أقدم الكنائس. إذ تسمية او مصطلح «مسيحي» اطلقت لأول مرة على تلاميذ المسيح وأتباعه في هذه الكنيسة في انطاكيا السورية.

للكنيسة بطريرك الذي هو اعلى سلطة كنيسة ينتخبه مجمع الكنيسة المؤلف من الأساقفة ورؤساء الرهبانات. وهو المسؤول الأول عن الكنيسة السريانية في الشرق العربي وفي ابرشيات الاغتراب في المهجر. ولهذه الكنيسة ايضاً اتباع في الهند الذين بَثَّرَهُم الرسول توما. وهذه الكنيسة السريانية الارثوذكسية هي مستقلة ومرتبطة بباقي الكنائس الارثوذكسية الشرقية بوحدة الإيمان والاسرار والتقليد الكنسي.

تنقسم الكنيسة الى ستة وعشرين ابرشية وثلاثة عشرة، نيابة بطريركية. وإحدى هذه النيابات البطريركية هي في القدس في كنيسة مار مرقس، إذ بدى المطران نائباً بطريركياً وبسبب الأوضاع السياسية الصعبة، فقد هاجر كثير من أبنائها وبناتها الى السويد، واسسوا ابرشيتين هنالك.

وتتملك الجالية السريانية العديد من المدارس والمؤسسات الاجتماعية والثقافية في السويد، فضلاً عن عدد من القنوات التلفزيونية باللغة السريانية ونوادي كرة قدم.

### ٣. الكنيسة الأرمنية الرسولية:

وتعرف أيضاً باسم الكنيسة الأرمن الأرثوذكس، وهي أيضاً لم تقبل مقررات مجمع خلقدونية عام ٤٥١م. ولم ترسل ممثليها إلى المجمع نتيجة أحداث التمرد حينها، ووقوع معركة اوراييز. وتعتبر هذه الكنيسة من بين أقدم كنائس العالم. وكانت أرمينيا هي أول بلد في العالم تعتبر أن الديانة المسيحية هي الديانة الرسمية للدولة منذ عام ٣٠١م. وذلك قبل مرسوم ميلانو عام ٣١٣م.

رئيس الكنيسة الرسولية الأرمنية يُدعى كاثوليكوس وللكنيسة كاثوليكوسيان: واحدة في اتشميازين في مدينة فاغارشابات في أرمينيا. والثانية تدعى كاثوليكوسية بيت كيلبكية الكبير ومركزها انطاليا في لبنان.

وللكنيسة بطريركيتان:

١. في إسطنبول

٢. في القدس

ولكل كاثوليكوسية وبطيركية مجمه المقدس واستقلاليتيه، وهو يُدير شؤون الكنيسة والأموال الروحية اللاهوتية والدينية والإدارية. وفي بطيركية القدس ثمة أيضاً معهداً إكليريكياً (Seminary) يلتحق فيه شباب أرمينيا، فيتعلموا اللاهوت الأرمني الأرثوذكسي ولِيُعَدُّوا للرئاسة، وثمة بطيركياً ينتخبه مجمع مقدس. ومن الجدير بالذكر أن هذه الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية تحتفل بعيد ميلاد المسيح بالتزامن مع عيد الظهور الآهي، وتضع عيد الميلاد الأرمني حسب التقويم الجولياني في ٦ كانون الثاني. وهو في الأصل تقليد مسيحي غربي تبعته الكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية. وتستعمل الكنيسة اللغة الأرمنية في خدمات عبادتها وصلواتها وخدماتها الرسمية.

### ٣. عائلة الكنائس الكاثوليكية:

تنقسم العائلة الكاثوليكية إلى قسمين: -

١- الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (اللاتين).

٢- الكنائس الكاثوليكية الشرقية.

#### ١- الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (اللاتين):

وهذه الكنيسة هي من إحدى البطريركيات الخمس التاريخية التي ذكرت في هذه المقالة سابقاً. ويترأس هذه الكنيسة البابا الذي يُعتبر أسقف روما وبحسب تقليدها الكنسي يعتبر البابا بأنه خليفة بطرس تلميذ يسوع المسيح. تتبّعها في الشرق كنائس عديدة في شراكة كاملة معها تعرف بالكنائس الكاثوليكية الشرقية. وعلى مر العصور، طوّرت هذه الكنيسة منظومة لاهوتية وثبتت بنية إدارية فريدة تحكمها البابوية.

ورئيس الكنيسة الحالي هو قداسة البابا فرنسيس الأول. وتقع الإدارة المركزية للكرسي الرسولي في دولة الفاتيكان داخل مدينة روما في إيطاليا.

ويستند اللاهوت الكاثوليكي على قانون الإيمان النيقاوي حيث تعلم الكنيسة أنها كنيسة واحدة جامعة ورسولية،

التي أسسها يسوع المسيح. ويُعتَبَر أسقف روما (البابا) بانه خليفة المسيح على الأرض. وتمارس هذه الكنيسة سبعة اسرار مقدسة الا وهي سر المعمودية سر التوبة سر القربان الاقدس سر التثبيت سر مسحة المرضى سر الكهنوت وسر الزواج.

وفي عام ١٨٤٧، أعادَ الفاتيكان الى القدس بطريك اللاتين الى البطريركية اللاتينية في القدس في باب الخليل، وإعادة البطريرك هي لأسباب كنسية وسياسية واجتماعية في ذلك الوقت. ويُعتَبَر بطريركية اللاتين في القدس هو من البطارقة الثلاثة بالإضافة الى بطريك الروم الأرثوذكس وبتريك الأرمن الأرثوذكس. ويعتبر بطريك اللاتين في القدس انه الرئيس الروحي لجميع الأساقفة والرهبانيات في الأردن وفلسطين وإسرائيل وقبرص. وبما ان ثمة حارس الأراضي المقدسة التابعة للرهبانية الفرنسيسكانية، والذي يعتبر من رؤساء الكنائس الثلاثة عشر. فإدارياً حارس الأراضي المقدسة هو رئيس رهبنة والفرنسيسكان، وأما روحياً فالبطريك هو الرئيس الروحي لجميع الكاثوليك.

وهكذا هو الامر مع باقي الرهبانيات الكاثوليكية المتعددة. يُعَيَّن قداسة البابا بطريك القدس وكان اول بطريك عربي فلسطيني لبطريركية اللاتين غبطة البطريرك ميشيل صّباح. وتنقسم بطريركية اللاتين الى نيابات بطريركية يُعَيَّن في كل ابرشية نائباً بطريركياً وهي عمان والناصرة والقدس ونيقوسيا. وتهتم الكنيسة الكاثوليكية بالكاثوليك العبرانيين الذي تنصروا من اليهود، وثمة ايضاً مطران يرعى شؤونهم. وتهتم البطريركية بالشؤون التربوية والروحية والحجاج والأمر الاجتماعية وخدمة المحبة.

## ٢- الكنائس الكاثوليكية الشرقية:

يُقصد بالكنائس الكاثوليكية الشرقية بانها الكنائس المستقلة والمرتبطة مع بابا روما رئيس الكنيسة الرومانية الكاثوليكية (اللاتين)، ولكنها متميزة عن الكنائس الغربية واللاتينية من ناحية الطقوس والممارسات الدينية. وجميع هذه التقاليد والمرجعيات لها تنظيمها وقياداتها الذاتية تحت سلطة البابا. وهي محمية من أي محاولة لتحويلها للتقليد اللاتيني. وتنقسم الى خمسة تقاليد الا وهي:-

- التقليد البيزنطي
- التقليد الكلداني
- التقليد الانطاكي
- التقليد الاسكندري
- التقليد الأرمني

وسأعرض المعروف من هذه الكنائس فقط:-

### ١. الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية:

هي كنيسة انطاكية وسريانية ومشرقية وكاثوليكية. اجتمعت جماعتها الأولى حول القديس مارون بهيئة حرك رهبانية ما لبثت ان ضمت العلماء فيما بعد. وفي عام ٢٠٠٦، أكد المجمع الماروني ان هوية الكنيسة المارونية هي: «انطاكية سريانية ذات تراث ليتورجي خاص».

وبعد ان ينتخب المجمع الماروني البطريرك، يعترف بانتخابه قداسة البابا في الكرسي الرسولي. ومركز البطريرك الماروني هو في بكركي في لبنان. وتُعتَبَر هذه الكنيسة من ناحية، بانها كنيسة الدولة.

وللبطريركية المارونية سبع وعشرون ابرشية حول العالم بما فيها ابرشيات الاغتراب في المهجر. وللكنيسة المارونية



رهباناتها الخاصة، وتعتبر الرهبانية المارونية اللبنانية أكبر رهبنة في الشرق الأوسط. هذا مع العلم ان ثمة ابرشية في القدس والجليل لكنيسة المارونية ويرعاها مطران يُعيّن من البطريرك الماروني في لبنان.

#### ٢. كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك:

وتعرف ايضاً هذه الكنيسة بانها كنيسة الملكين، وذلك بسبب تاريخي، إذ أُطْلِقَتْ على المسيحين في الشرق الذي قَبِلوا شرعية مجمع خلقدونية والتي اقرّها الامبراطور البيزنطي مرقيانوس عام ٤٥١م. هذا الاسم إشارة انهم يتبعون مذهب الامبراطور او الملك. ولفظه روم تدل على الانتماء لتراث الكنيسة الرومية البيزنطية. ومن هذه الناحية، فان طقوسها وطبيعة بناء ليتورجيتها هي ارثوذكسية كالكنائس الارثوذكسية مع بعض الاختلاف. ولفظة الكاثوليك تدل بشل عام على انتمائهم الى سلطة بابا روما وبطبيعة الحال تدل على وحدة وشركة الكنيسة الكاثوليكية عامة.

ويتأسس الكنيسة بطريرك ينتخبه المجمع الكنسي المؤلف من أساقفة ومطارنة ورؤساء رهبانيات. ويحتاج انتخاب البطريرك والمطارنة الى تثبيت وتأكيد والموافقة على الانتخاب من البابا عند انتخابهم. وهذا بعكس كنائس الروم الأرثوذكس، فعند الانتخاب يُنصب البطريرك او المطران حالاً، لان المجمع الكنسي لا يحتاج الى موافقة البطريرك الأرثوذكسي المسكوني.

مركز البطريرك هو في دمشق في سوريا. ولها ابرشيات في مصر ولبنان وسوريا. وفي فلسطين، ثمة ابرشية للروم الكاثوليك يرأسها مطران وهو نائب بطريركي، ويُدير شؤون الكنيسة في القدس والضفة الغربية وتمتد حتى يافا. وفي الجليل، ثمة ابرشية أخرى يرأسها مطران وترعى الجليل بأكمله. وثمة زخم للروم الكاثوليك في الجليل يبلغ ما يُعادل ستين ألف مؤمن. وفي الأردن، ثمة ابرشية للروم الكاثوليكين يرعاها مطران ايضاً. وهكذا فهذه الكنيسة تختلف عن باقي الكنائس المسيحية الثلاثة عشر في القدس التي تمتد جذورها في القدس الى فلسطين الى الأردن والى لبنان وقبرص. فلها ثلاث ابرشيات في الجليل، والقدس وعمان.

#### ٣. كنيسة بابل للكلدان:

وتعرف الكنيسة الكاثوليكية الكلدانية بكنيسة بابل، وهي كنيسة شرقية مركزها في بغداد. وقد انشقت عن كنيسة المشرق الذين كانوا نساطرة في القرن الخامس عشر الميلادي. وهي بشركة تامة مع الكرسي الرسولي ومع بابا روما. لغة الشعائر الدينية هي السريانية باللهجة الشرقية، وهي من سلالة الآرامية لغة المسيح. إنَّ مركز البطريرك الكلداني الكاثوليكي هو بغداد، وله مجمع كنسي مؤلف من مطارنة ورؤساء الرهبانيات تُدير شؤون الكنيسة إدارياً ولاهوتياً. ولها تسع ابرشيات في العراق حلب، بيروت والمهجر. وعند انتخاب البطريرك أو أي مطران يحتاج الى موافقة البابا. والبطريرك هو رئيس هذه الكنيسة في جميع انحاء العالم.

#### ٤. كنيسة السريان الكاثوليك:

هي كنيسة سريانية شرقية مستقلة ولكنها مرتبطة بشركة تامة مع الكنيسة الكاثوليكية في روما بفرعها الشرقي. وهذا يعني انه مسموح للسريان الكاثوليك بالاحتفاظ بعباداتهم وطقوسهم الكنسية، حتى ولو كانت احياناً تُخالف التقليد الكاثوليكي الغربي. ولغة الليتورجيا هي السريانية وليتورجيتهم، لا تختلف عن الكنيسة السريانية الارثوذكسية، ولكن لغتهم المتداولة والمحكية هي اللغة العربية.

وتعتبر هذه الكنيسة نفسها انطاكية، لذلك تدعى بطريركيتها بطريركية السريان الكاثوليك الانطاكية. مركزها

الرئيسي هو في انطاكية في تركيا. ولكن اليوم يقع المقر البطريركي للسريان الكاثوليك في العاصمة اللبنانية بيروت. ورئيس هذه الكنيسة هو بطريرك مع مجمع كنسي ينتخب البطريرك والمطارنة، ويُدير شؤونها الإدارية واللاهوتية. ويحمل بطاركتهم على الدوام اسم مار اغناطيوس كاسم أول، ثم الاسم الشخصي للبطريرك. والبطريرك هو المسؤول الأول عن جميع الابشيات في الشرق الأوسط وبلاد المهجر. ولهذه الكنيسة نائب بطريركي مطران في القدس، ويرعى شؤون ابرشية في فلسطين وإسرائيل والأردن.

#### ٥. كنيسة الأرمن الكاثوليك:

يكتب المونسنيور امدوني في كتابه الكنيسة الأرمنية والكاثوليكية: -  
«إنَّ الكنيسة الأرمنية الكاثوليكية هي ليست كنيسة تعترف بسيادة السلطة البابوية، بل هي بالكمال والايمان والاتحاد مع الكنيسة الكاثوليكية وريثة الكنيسة الأرمنية التي أقامها القديس غريغور المنور، وحافظ عليها القديسون فرنسيس وساهال وسروب ومن خلفهم من المؤمنين».  
فلغة هذه الكنيسة الرسمية هي الأرمنية وليتروجيتها هي قريبة جداً على الكنيسة الأرمنية الارثوذكسية. يرأسها بطريرك ومجمع كنسي يضم مطارنة الابشيات ورؤساء الرهبانيات. ومقرّها في بزمار في لبنان، وتمتاز بطابعها الأرمني الفريد بالإضافة الى الفنون الأرمنية، وعلاقتها ممتازة مع الكنيسة الأرمنية الارثوذكسية ومع الاتحاد الإنجيلي الأرمني. ولهذه الكنيسة ممثل يرعى شؤونها في فلسطين والأردن ومركزه في القدس في المرحلة الثالثة من درب الآلام في الواد.

#### ٦. كنيسة الاقباط الكاثوليك:

وهي ايضاً كنيسة تتبع الطقس القبطي في ليتروجيتها، ولكنها كنيسة شرقية مستقلة ارتبطت مع الكنيسة الكاثوليكية في روما بفرعها الشرقي. أي انه مسموح للأقباط الكاثوليك بالاحتفاظ بعاداتهم وطقوسهم وتقاليدهم القبطية. ولهذه الكنيسة بطريرك ينتخبه المجمع الكنسي ويحتاج بعد انتخابه الى موافقة البابا في الكرسي الرسولي. وثمة سبع ابرشيات، ويقع مركز هذه الكنيسة في الإسكندرية في مصر. ولقد كانت لهذه الكنيسة ممثليه في القدس قرب الدار الكبيرة في حارة النصارى وقرب خان الزيت وفي المرحلة السابعة من درب الآلام. ولكن بعد حرب عام ١٩٦٧م، انتهى تمثيل هذه الكنيسة في القدس. والتحق أعضاءها بالكنيسة الكاثوليكية إما اللاتينية او الشرقية.  
ولقد قدمت عرضاً مقتبساً عن هذا الكنائس الكاثوليكية اللاتين والشرقية. وثمة اجتماعات دورية بين جميع بطاركة الكاثوليك في مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك، حيث يجتمعون لتنسيق رعايتهم وتنسيق المواقف. ويكتبون رسائل راعوية الى مؤمنينهم في شتى أماكن إقامتهم.  
وأخر رسالة راعوية التي كانت الحادية عشرة كان عنوانها: «مسيحيو الشرق اليوم: «مخاوف وآمال»، «يشدد علينا الضيق من كل جانب ولا نُسحق، نُحارُّ ولا نياس» (٢ كورنثوس ٤:٨). أطلقوها في عيد العنصرة ٢٠١٨.  
ولهذا المجلس امانة عامة في بكركي في لبنان. ويُنْتخَب رئيساً دورياً من البطاركة ليرأس اجتماعات هذا المجلس.

#### العائلة الانجيلية:

ترجع جذور العائلة الانجيلية الى الإصلاح اللوثري عام ١٥١٧م، ولم يقتصد المصلح مارتن لوثر من الانشقاق عن كنيسته الكاثوليكية الام، إنما إصلاحها من الداخل. وانتشر الإصلاح في الغرب حيث نشأت منه كنائس انجيلية

(بروتستانتية) مختلفة. وقد اتبعت هذه الكنائس حركة الإصلاح بمركزية المسيح ومركزية الإيمان ومركزية الكتاب المقدس. إلا أنها اتبعت نظام الحوكمة الارثوذكسية باستقلالية كل كنيسة محلية أو إقليمية أي (Autocephalous). فلكل كنيسة قرارها اللاهوتي والعقائدي والإداري، وتمتاز الحركة الانجيلية بان لكل كنيسة مجمع كنسي يتألف من القساوسة وممثلين علمانيين (غير مرسومين) من رعاياهم المختلفة. ويميل نظام الحوكمة الى الديمقراطية في اتخاذ القرارات وإدارة الكنيسة. وقد تتنوع في الحركة الإنجيلية أنظمة الحوكمة فمنها نظام مجاعي، حيث ان القرار بمعنى ان الرعية هي التي تأخذ القرار. ولذلك، فثمة تعددية في أنظمة حوكمة العائلة الانجيلية. وثم أيضاً نظام اسقفي وثمة نظام اسقفي مجاعي. نعم، لا مارتن لوثر ولا زفنجلي ولا كالفن ولا وسلي زاروا الشرق الأوسط. فالعائلة الانجيلية في الشرق الأوسط نشأت نتيجة الهبة التبشيرية الى الشرق الأوسط ولم يكن هدفها بتاتاً تأسيس كنائس، إنما كان هدفها إنعاش الكنائس المسيحية. ومن ناحية أخرى تبشير بعض أعضاء الديانات السماوية الأخرى.

وقد أثرت الحركة الانجيلية على الشرق الأوسط:-

- ١- لقد ترجمت الكتاب المقدس كاملة الى اللغة العربية عام ١٨٦٤م.
  - ٢- لقد فتحت المدارس والمعاهد العلمية والجامعات.
  - ٣- لقد شجعت على التعليم، المختلط وفتحت مدارس للبنات.
  - ٤- ونتيجة التعليم، فقد ساهمت في إنعاش مع المواطنة والقومية العربية.
  - ٥- ولقد ساهمت في التعاون مع الكنائس المختلفة في العمل المسكوني وفي الحوار بين الأديان.
  - ٦- لقد ساهمت في عدالة النوع الاجتماعي في الشرق العربي.
- وثمة سران مقدسات في هذه الكنيسة الا وهو: سر المعمودية المقدسة، وسر الشركة المقدسة (الافخارستيا). ولذلك، فمع ان ينضم الى العائلة الانجيلية ثمانية عشرة كنيسة في الشرق الأوسط، إلا انها تمثل ثلاثة تقاليد او مذاهب إصلاحية:

- المذهب الإنجيلي اللوثيري
- المذهب الإنجيلي المسيحي
- المذهب الإنجيلي الاسقفي

مطرانية القدس المشتركة:

في عام ١٩٤١م، أسست بروسيا وانكلترا مطرانية القدس المشتركة بين الكنيستين اللوثيرية والاسقفية. وتوافقت على المداورة في انتخاب المطارنة على ان يكون المطران الأول انجليكاني من إنجلترا اولاً، ومن ثم المطران الثاني لوثيري من المانيا او سويسرا.

ودامت هذه الاتفاقية حتى عام ١٨٨٧م، حيث افترت الكنيسة لاسباب ظاهرية الا وهي بأن جمعية التبشير الأنجليكانية ( ) ارادت عمل التبشير لليهود. ورکز (Jerusalem Sverein) جمعية القدس التبشيرية العمل على أعضاء الكنائس في فلسطين. ولكن السبب الحقيقي هو سبب سياسي باختلاف المواقف السياسية بين إنكلترا وألمانيا في ذلك الوقت.

ولكن بالرغم من هذه الأسباب، إلا ان هذه المطرانية المشتركة اهتمت بفتح المدارس وأعمال المحبة، فقد نشأت

منها كنيستان مستقلتان.

١. الكنيسة الأسقفية في القدس والشرق الأوسط:

ومع ان تأسيس الكنيسة الانجليكانية عامة كان حينما قطع الملك هنري الثامن علاقته مع الكرسي الرسولي، وأصبح هو رئيس الكنيسة الانجليكانية. وتبنّت الكنيسة الانجليكانية الإنكليزية تعاليم الإصلاح. ولكنها حافظت على نوع من الحوكمة الكاثوليكية الكنسية، وحافظت على الليتورجية الكاثوليكية. ولكنها تبنّت نظام (Autocephalous) باستقلالية كل ابرشية او كنيسة انجليكانية في العالم، حيث يرأسها مطران. ولكل كنيسة مجمع كنسي يضم المطران والرعاة والعلمانيين وممثلي رعاياهم. وثمة اتحاد شركة الايمان مع رئيس أساقفة كنتربري الانجليكاني الذي هو يمثل الشراكة الأسقفية في العالم، ولكنه الأول بين المتساويين من المطارنة ورؤساء الأساقفة. ويجتمع جميع المطارنة الانجليكان في العالم مرة، ويجتمع كل عشرة سنوات في كانتبري إنكلترا ليضعوا استراتيجية لكنائسهم المتعددة.

١. ابرشية الأسقفية في القدس والشرق الأوسط حيث يرأسها رئيس أساقفة وتمتد رعاياها في فلسطين الى إسرائيل الى الأردن الى لبنان وسوريا.

وهي أكبر ابرشية اسقفية في الشرق الأوسط تمتاز بمؤسساتها التربوية، والتعليمية، والخدماتية، والمسكونية. وهي جزء لا يتجزأ من مجلس رؤساء الكنائس المسيحية في القدس. وقد تعربت رئاسة هذه الكنيسة فانتخب اول مطران عربي المطران نجيب قبعين عام ١٩٥٦م، ولكن حصلت على الاعتراف الأردني من الملك حسين عام ١٩٥٧، وفي عام ١٩٧٧م، كان المطران فايق حداد اول مطران متراس عربي منذ تأسيس الكنيسة. خلف رئيس الأساقفة الإنجليزي. وكانت ثمة محاولات عدة للتقارب مع الكنيسة الانجيلية اللوثرية التي لم تأت ثمار إيجابية بعد. وتقوم جميع خدماتها باللغة العربية وترعى الجاليات الناطقة باللغة الإنجليزية.

٢. ابرشية قبرص والخليج، ويرأسها مطران انجليزي الذي يرعى أيضاً الجاليات الإنجليزية في هذه المناطق.

٣. ابرشية إيران ويرأسها مطران إيراني ايضاً.

٤. ابرشية مصر ويرأسها مطران مصري ايضاً.

٢. الكنيسة الانجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة:

تتبع الكنيسة اللوثرية تعاليم الكنيسة الانجيلية اللوثرية المؤسسة على الكتاب المقدس. وكما هي مصرّح بها في إقرار اوغسبرغ للعقيدة اللوثرية منذ عام ١٥٣٠م، والذي قد ترجمته شخصياً عام ١٩٩٣م الى اللغة العربية. وان ليتورجية الكنيسة باللغة العربية في كتاب الصلاة، حيث تتبع نطاقاً مرتباً في تراتيل وقراءات معينة من العهد القديم والعهد الجديد، وثمة تركيز خاص على العظة في الخدمات التعبدية.

والكنيسة الانجيلية اللوثرية حصلت على الاعتراف بها من جلالة الملك حسين عام ١٩٥٩م. وفي عام ١٩٧٩م، تعربت بانتخاب المجمع الكنسي لأول مطران عربي فلسطيني المطران داود حداد. وتُرَكِّز في عملها على المؤسسات التربوية والتعليمية والحياة الراعية والعمل الروحي والمسكوني وخدمة المصالحة والحوار بين الأديان.

ومنذ عام ١٩٧٤، أصبَحَتْ عضواً في الاتحاد اللوثرى العالمي الذي هو شراكة بين ١٤٨ كنيسة لوثرية في جميع انحاء العالم.

وفي عام ٢٠١٣، أصبحت عضواً في مجلس الكنائس العالمي وهي أيضاً عضو في مجلس الكنائس في الشرق الأوسط ورابطة الكنائس الانجيلية في الشرق الأوسط. وتتميز هذه الكنيسة، انها في عام ٢٠١٥، تبنت قانون محكمتها الكنسية عدالة النوع الاجتماعي للأحوال الشخصية، حيث ثمة عدالة ومساواة في الزواج، وفسخ الزواج والتبني والارث. وكان ذلك نتيجة توصيات لجنة سيدات الكنيسة، بقيادة السيدة سعاد يونان. وثمة مجلس للكنائس المشاركة في المانيا والسويد وفنلندا والنرويج وكندا والولايات المتحدة يجتمع مرة في العام لينسق التعاون بينها.

### ٣. الكنائس المصلحة:

بخلاف مع الكنيسة اللوثرية، فقد اتبعت هذه الكنائس تعاليم المصلح جون كالفن، كما عبّرت عنه في وثقته جينيفا في زمن الإصلاح. وشددوا تعاليمهم على سلطة الكتاب المقدس. ولكن، حوكمة الكنيسة هي بيد شيوخ تنتخبهم رعاياهم وترشحهم ليكونوا مجعاً كنسياً. وان الليتورجية في هذه الكنائس هي بسيطة وتتخلص بالقراءات المعينة من الكتاب المقدس، والوعظ، وصلوات عفوية، وترانيم. وتنقسم الكنائس المصلحة الى قسمين في الشرق الأوسط: -

١- المشيخية: وتضم أكبر كنيستين وهما: سينودوس النيل الانجيلي في مصر. والسينودوس الانجيلي الوطني في سوريا ولبنان. كما وتضم الاتحاد الانجيلي الوطني في لبنان. وكنائس وطنية في الكويت والسودان وإيران والعراق، والخليج، والجزائر، وتونس.

إنّ السينودوس في مصر، او سوريا، او لبنان، او أي كنيسة وطنية، فهي مستقلة بقرارها ومجمعها وأعمالها. ويرأسها أمين عام لكل كنيسة ينتخبه المجمع الكنيسي لمدة أربعة سنوات، وهو يُعتبر رئيس الكنيسة حسب المفاهيم. ولها عمل تربوي، وروحي، وخدمي، ومسكوني. وفي عام ٢٠٠٦، وقعت الكنيسة الانجيلية اللوثرية في الأردن والأراضي المقدسة وثيقة عمان للاعتراف المشترك المتبادل بينها وبين الكنائس المصلحة في الشرق الأوسط. وهذا الاتفاق تاريخي يقوي شهادة الكنائس الانجيلية ورسالتها في الشرق الأوسط عامة.

### ٢- كنائس نظام الجماعة (Congregational) :-

تتبع هذه الكنيسة تعاليم الإصلاح، وتشدد على استقلالية كل كنيسة محلية. ويرجع تاريخ هذه الكنائس نتيجة التأثير البيوريتاني (Puritan) في إنكلترا او الصفوية في الدين. وبمعنى ان الانتماء الى عضوية الكنيسة يرجع الى المؤمنين التابعين لها، وليس بالضرورة الى المنطقة او الإقليم الذي ينتمون اليه. وفي الشرق الأوسط ثمة اتحاد الكنائس الانجيلية الأرمنية في الشرق الأدنى والذي يعمل في سوريا ولبنان والعراق وإيران. ويمتاز هذا الاتحاد باتحاد الرعايا، وينتخب مجلساً تنسيقياً يُنتخب فيه قسياً مسؤولاً لمدة أربعة سنوات فقط. وهذا الاتحاد يعطي كل رعيته أهميتها وتشكل مع الرعايا الأخرى اتحاد الكنائس. وتستخدم اللغة الأرمنية في ليتورجيتها وعملها. وقد وقعت الكنيسة اللوثرية مع الاتحاد الانجيلي الأرمني في الشرق الأوسط وثيقة عمان عام ٢٠٠٦.



رابطة الكنائس الانجيلية في الشرق الأوسط:  
وتنضم جميع هذه الكنائس الانجيلية في رابطة الكنائس الانجيلية في الشرق الأوسط التي تأسست عام ١٩٧٧ وهدفها تنسيق روجي بين جميع كنائس العائلة الانجيلية التي هي ١٨ كنيسة في الشرق الأوسط. وينتخب الرابطة رئيساً للرابطة مرة كل أربعة سنوات، واميناً عاماً لمدة أربعة سنوات.  
وفي عام ٢٠١٠، قد صوتت الجمعية العمومية لرابطة الكنائس الانجيلية بالإجماع، رسامة امرأة في الشرق الأوسط. وقد قام السينودوس الإنجيلي الوطني في سوريا ولبنان برسامة ثلاثة قسيسات عربيات في لبنان.

### نحو الوحدة في تعدد مصالح:

يقول الدكتور جورج صبرا، رئيس كلية اللاهوت في الشرق الأدنى: «نستطيع ان نعتبر القرن العشرين بانه قرن مسكوني بامتياز، لان الكنائس المسيحية المختلفة بدأت فيه مسيرة انفتاح وتقارب بين بعضها بعضاً، وهذا هو بمثابة تغيير هام.

لقد عكست الاتجاه الذي سارت فيه الكنائس ما يقارب خمسة عشر قرناً. إن تاريخ المسيحية يظهر ان ثمة اهتزازاً كبيراً تَبَعَهُ انشقاق كنسي حَدَثَ كل خمسمئة سنة تقريباً. ففي القرن الخامس انشقت الكنيسة في الشرق على خلفية مجمي افسس عام ٤٣١م، ومجمع خلقونية عام ٤٥١م. وفي القرن الحادي عشر حدث انشقاق بين الكنيسة الارثوذكسية والكنيسة الرومانية الكاثوليكية عام ١٠٥٤. وبعد حوالي خمسمئة عام أي في القرن السادس عشر، حدث انشقاق كبير في الغرب المسيحي في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، أدى الى نشوء الكنائس الانجيلية، ولكن القرن العشرين أي بعد خمسمئة عام شهد ولادة الحركة المسكونية التي أطلقت المبادرة لعملية رأب الصدع في العالم المسيحي ومعالجة الجراح التي ألمت بالجسد الواحد. وسأعطي بعض المحطات الهامة في ذلك.

تعود بداية العمل المسكوني او عمل الوحدة في العالم الى تداعيات مؤتمر ادنبرة عام ١٩١٠م. الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للحركة المسكونية العالمية. لقد تَوَجَّ مؤتمر ادنبرة حركات الوحدة المسيحية في القرن التاسع عشر والتي كان تهدف الى نشر الانجيل في العالم. وتألّفت من أعضاء وقيادات كنسية تكوّنت في أحضان حركة الاحياء والتبشير البروتستانتية منذ نهاية القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر. وانطلاقاً من هذا المؤتمر الذي جمع جميع الحركات التبشيرية، ابتدأت الكنائس في العالم تُفكّر بإحياء الحركة المسكونية. ونتيجة لهذا المؤتمر، وويلات الحرب العالمية الأولى والثانية، تحرّكت الكنائس في العالم، وأسست مجلس الكنائس العالمي. لأنها اعتقدت ان الوحدة الكنسية نتمكّن من التغلب على السياسات القمعية او التي تهدف لتدمير الشعوب بالحرب والدمار.

وقد نجح مجلس الكنائس العالمي بجمع شمل الكنائس المسيحية التي هي من العائلات الكنسية الثلاثة، وقَبِلَ الكرسي الرسولي في الفاتيكان ان يكون عضواً مراقباً في هذا المجلس. وَلَعِبَ المجلس في تقريب وجهات النظر بين كنائسي الغرب والشرق وبين الشمال والجنوب. وتمكّن من إعطاء الكنائس التي كانت نتيجة العمل التبشيري في الجنوب استقلالها.

أمّا في الشرق الأوسط، فمع ان مؤتمر ادنبرة كان روادها الأوائل الانجيليين الغربيين العاملين في ارساليات تبشيرية في هذه المنطقة، ثم اشترك فيها انجيليون محليون وكنائس في العائلة الانجيلية المحليّة في عام ١٩٣١م، الذين حملوا مشعل الوحدة. وابتدأوا يتكلمون ان مستقبل الكنيسة المسيحية في الشرق الأوسط هو بالسعي للتقارب والوحدة، لأننا كنيسة

المسيح الواحدة.

وفي عام ١٩٦٤، انضمت كنيسة السريان الأرثوذكسي الى هذا التجمع، ومن بعدها ابتدأت بعض رواد الحركة المسكونية مثل البطريرك زكا عواصي، رئيس الكنيسة السريان الأرثوذكس والبطريرك هزيم، رئيس الكنيسة الارثوذكسية الانطاكية والمطران صموئيل من الكنيسة القبطية الارثوذكسية والقس اوهانس اهارونيان من الاتحاد الأرمني الإنجيلي والمطران سمير قفيعتي من الكنيسة الأسقفية والقس سليم صهيوني من السينودس الوطني في سوريا ولبنان. الحديث عن تأسيس مجلس يضم جميع الكنائس المؤسسة من العائلات الانجيلية الأربعة ونجحوا هؤلاء القادة الانجيليين في إقناع الكنائس الخلقيدونية وغير الخلقيدونية. أي الكنائس الارثوذكسية والارثوذكسية الشرقية بتأسيس مجلس الكنائس في الشرق الأوسط عام ١٩٧٤.

وفي عام ١٩٩٠، بجهود مباركة من المطران يوسف خوري للموارنة بإقناع البطريركيات السبعة الكاثوليكية في الشرق الأوسط الى الانضمام الى هذه المسيرة المسكونية المباركة. فأصبح المجلس يمثل الكنائس ويتحاور مع بعضهم بعضاً ويخلق جواً من الثقة والعمل وفي خطاب التأسيس للقس الدكتور اوهانس اهارونيان، رئيس الاتحاد الإنجيلي الأرمني وأحد مؤسسي مجلس الكنائس في الشرق الأوسط أمام الجمعية العمومية الأولى في نيقوسيا عام ١٩٧٤م قال: «اننا نأتي الى هذا المجلس وفي نيتنا ان ننسى خلافاتنا، مُحاولين ان نكتشف الأمور التي نتشارك بها، أي ان نبحت عما يُمكن ان نتفق عليه وان نعمل معاً لأجل شهادة مشتركة.

وبما اننا لا نعرف ما نُريد تحقيقه. إِنَّا مُقْتِنِعُونَ بِأَنَّنا نستطيع ان نساهم بفاعلية في شركة ( ) هذا المجلس فقط حتى نكون ذواتنا ونعرف ما نُمثله وما نُريد تحقيقه.

٢. وللمجمع الفاتيكان الثاني دور هام في الحركة المسكونية ايضاً كما نشهدها اليوم. فقد دعا قداسة البابا يوحنا الثالث والعشرون ليحدث إصلاحاً وحدويّاً في الكنيسة الكاثوليكية. وحضر هذا المجمع بصفته مراقب ممثلون عن العائلات الكنسية الارثوذكسية والارثوذكسية الشرقية والانجيلية، وصدر مرسوم هام عن المسكونية. وقد بعث هذا المرسوم شرارة وحدوية جديدة، حيث ابتدأ التقارب المسكوني بين العائلة الارثوذكسية والعائلة الكاثوليكية، ومع العائلة الارثوذكسية الشرقية ومع العائلة الانجيلية وكنائسها المتعددة. وابتدأ عصر التقارب الوجدوي مع الجميع بواسطة المجلس البابوي للوحدة بين الكنائس المسيحية. فعلى سبيل المثال لا الحصر:

في ٢٨/٤/٢٠١٧ صار اتفاق مشترك بين الكنيستين الكاثوليكية والقبطية للاعتراف المتبادل لسر المعمودية. إن اللقاء التاريخي بعد عشرة قرون بين البابا بولس السادس والبطريرك المسكوني أثينا غورس ومع البطريرك بندكتس للروم والارثوذكس في القدس عام ١٩٦٤، افتتح اجواءً جديدة إيجابية في العلاقات بين الكنائس المسيحية في العالم ولا سيما القدس. وأصدر بياناً مشتركاً يأسفان لكل ما حدث من انقسام واغتراب. ويدعون الى حذف أي ذكر لأي تراشق بالحرمانات التي جرت في الماضي. واتاح هذا اللقاء التاريخي الى بداية التنسيق فيما بينهم في سياق الوضع السياسي والاجتماعي الصعب.

وأثر الانتفاضة الفلسطينية الأولى، ابتدأ بطاركة ورؤساء الكنائس المسيحية الثلاثة عشرة في القدس الاجتماع، وبحث الأمور المشتركة. فكان اول بيان لهم في كانون الثاني عام ١٩٨٨. ومنذ ذلك الوقت، فهم يصدرن بيانات مشتركة ومذكرات بالإضافة الى رسائل مشتركة بمناسبة عيدي الميلاد والقيامة من كل سنة. ومن أهم المذكرات التي كتبوها هي موقف الكنائس المسيحية عن القدس عام ١٩٩٤ وعام ٢٠٠٦، والتي تبناها جميع الكنائس المسيحية في العالم أجمع ولا يزال

يجمعهم الهم المشترك حول مستقبل الحضور المسيحي والدفاع عن الحقوق التاريخية للكنائس في الأراضي المقدسة. ومع ذلك، لا يزال الكثيرون يرغبون في تعاون أوثق في المجال الراعوي، كمدارس والمؤسسات الخيرية والعمل الراعوي للشبيبة وغيرها.

وكان للبطريرك ميشيل صباح دوراً رئيسياً، حيث اتفق مع البطريرك ثيودوروس بطريرك القدس ان يرأس المجلس الذين يضم الثلاثة عشرة كنيسة مسيحية في القدس، ولعل الاحتفال باليوبيل الثاني في كانون الأول عام ١٩٩٩ في ساحة المهد في بيت لحم وبمشاركة جميع الكنائس المسيحية وامناء عاميين الاثني وعشرين اتحاداً كنسياً عالمياً أضاف الى قوة ترابطنا ككنيسة مسيحية مع بعضنا بعضاً.

أما مع الكنيسة الانجيلية اللوثرية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية، فابتدأ منذ عام ١٩٦٧ حواراً لاهوتياً بناءً عميقاً بين الكنيستين. فقام ممثلو الكرسي الرسولي والاتحاد اللوثيري العالمي بالحوار عن عقيدة التبرر وبالإيمان التي كانت السبب الكبير في الانفصال. ووقع الفاتيكان والاتحاد اللوثيري بياناً مشتركاً حول عقيدة التبرير في الايمان في ١٠/٣١/١٩٩٩، ورفعوا جميع الحرمانات والإدانات السابقة بين الكنيستين. وكوّن هذا الاتفاق اساساً لتعميق العلاقة بين الكنيستين.

وقد ترجمته كنيستنا اللوثرية الى اللغة العربية ودقق غبطة البطريرك ميشيل صباح، بطريرك اللاتين ي القدس الترجمة في اللغة العربية.

وقبيل ذكرى خمسمئة عام على الإصلاح، أصدر المجلس البابوي لدعم الوحدة المسيحية والاتحاد اللوثيري العالمي، وثيقة من النزاع الى الشراكة والتي فيها يشرح الإصلاح من منطلق لوثيري ومنطلق كاثوليكي وعلى ما نتفق وعلى ما يختلف، وان سر المعمودية المقدسة يُطعمنا معاً في جسد المسيح الواحد لأول مرة في التاريخ، وبعد فرقة دامت خمسمئة عام، ارسل قداسة البابا فرنسيس الأول، وسيادة المطران منيب أ. يونان، رئيس الاتحاد اللوثيري العالمي والقس د. مارتن يونغه الى دعوة مشتركة للاحتفال المشترك بخمسمئة عام للإصلاح اللوثيري. وبالفعل، في ١٠/٣١/٢٠١٦، قمنا بخدمة مشتركة (٠) بين البابا والمطران يونان رئيس الاتحاد اللوثيري العالمي وأمينه العام القس مارتن يونغه لذكرى خمسمئة عام في الكاتدرائية اللوثرية في لوند في السويد.

وثناء هذه الخدمة الوجدوية التاريخية، قمنا بالتأكيد ان الكنيسة الكاثوليكية واللوثرية هي عبر العصور امينة لإنجيل المسيح وشكرنا المسيح على هذه الأمانة. واعترفنا على أخطاء الماضي وثبنا معاً على انقسامنا وغربتنا وفرقتنا لبعضنا بعضاً، ثم التزمنا بالعمل معاً على إنجاح جميع جهود الوحدة والوصول الى اتفاق مشترك حول الأمور التي لا تزال موضع خلاف.

ووقعنا قداسة البابا فرنسيس وسيادة المطران منيب أ. يونان بياناً مشتركاً أعلنتا المصالحة التاريخية بين الكنيستين، وأن ما يجمعنا هو أعظم بكثير مما يفصلنا. والتزمنا الى العمل الخدماتي المشترك الذي وحدنا مع بعضنا بعضاً لان هذه خدمة المسيح في كنيسته الواحدة الجامعة الرسولية.

وأستطيع القول: «إنّ الروح القدس هو الذي يحرك هذه المساعي الوجدوية. لأننا بالفعل كنيسة واحدة، وكما نقول: «اننا نريد وحدة في تعدد مصالح». وطالما الروح القدس يعمل فينا، فطريق الوحدة معبّد بالنعم والبركات.

وكما قال بولس الرسول: «جسد واحد وروح واحد كما دعيتم، وايضاً في رجاء دعوتكم الواحدة. رب واحد. إيان واحد. بمعمودية واحدة واله وآب واحد، لكل الذي على الكل، وبالكل وفي كلكم» (رسالة افسس ٤: ٢-٦) وسلام الرب معكم جميعاً.

## قائمة المصادر والمراجع

- ١- Leo Donald Davis, S.J  
1987 Wilmigton, 787 – 325 The first seven Ecumenical Councils
- ٢- Henry Chadwick  
1969, 500k The Early Church, Penguin
- ٣- 1982 The Worlds Religions, Lion Publishing
- ٤- جان كوربون: كنيسة المشرق العربي منشورات النور ١٩٧٩
- ٥- جون فوستر، من اورشليم، بيروت ١٩٥٧
- ٦- الوحدة الانجيلية التي دعا اليها مؤتمر قارة الكنائس الانجيلية في البلاد العربية، بيروت ١٩٥٥
- ٧- الاب جورج سابا، أضواء على ماضينا المسيحيين، القدس ١٩٨٦
- ٨- القس منيب أ. يونان اعد الترجمة والدراسة، إقرار اوغبرغ  
كتاب الإقرار الرئيس لعقائد الكنيسة الانجيلية اللوثرية، القدس ١٩٩٣
- ٩- القس الدكتور اندريه زكي، نحو لاهوت عربي معاصر، دار الثقافة، القاهرة ٢٠٠٧
- ١٠- خطابات القس اوهانس اهارونيان التي القاها ما بين ١٩٧٤ و ١٩٨٥ والمنشورة في  
Rw H.P. Aharomian, TLe Armenian Evangelical Chruch in the Crossroads Beirut, MECC  
328 – 271 .Pp 1980
- ١١- 1971 Seppo A. Timonen, Symboliikon Peruskurssi, Helsink
- ١٢- من النزاع الى الشراكة
- ١٣- إحياء ذكرى الإصلاح المشترك اللوثيري الكاثوليكي في عام ٢٠١٧
- ١٣- المسيحية عبر تاريخا في الشرق، عفاف ديب قديس مديرة المشروع، مجلس كنائس الشرق الأوسط ٢٠٠١
- ١٤- جون لوريمر، تاريخ الكنيسة، دار الثقافة الناصرة ١٩٩٠

## المؤرخون العرب وكتابة التاريخ المسيحي

من الجدير قوله في بداية هذا البحث أن الاهتمام بكتابة تاريخ المسيحية في فلسطين ودراسة تاريخ فلسطين المسيحي انتابه التقصير، وحتى في مواقع البحث الإلكتروني إذا حاول أي باحث وضع العديد من المفاتيح فإنها على الأغلب لن تأخذه إلى تاريخ المسيحية، وإنما تركز على التاريخ المعاصر، وإحصاءات سكانية معاصرة. وهذا ربما له مبرراته ودوافعه التي لا تنفك عن الصراع القائم في فلسطين وما عليها وتبعاته، إضافة إلى خطورة حضور هذا التاريخ في الصراع القائم، ومدى تأثيره في الغرب، واهتمام أغلب المؤرخين والدارسين في قضية برزت على هامش التاريخ المسيحي الفلسطيني وهي حروب الفرنجة «الحروب الصليبية» التي أخذت أكبر الاهتمام خاصة عند المؤرخين العرب والمسلمين بحكم مكانة القدس الدينية لديهم، واهتمام الغرب بتلك الحروب لمبررات وأسباب خاصة بهم، وإن تمثلت في الأغلب في وجود التجمعات اليهودية في أوروبا ومحاوله البحث عن حلول لها سواء على المستوى الفكري والسياسي، وعدم التركيز على دراسة التاريخ المسيحي في فلسطين لصالح صب الاهتمام على دراسة التاريخ اليهودي. لهذا وغيره يأتي هذا المؤتمر كخطوة أولية في سلسلة خطوات أتمنى أن تستكمل وتستمر لإلقاء الضوء وتخليطه بل وإعادة صياغة وكتابة تاريخ المسيحية في فلسطين من قبل أبنائها ومؤرخيها مسيحيين ومسلمين لما لذلك من أهمية بعيدة المدى في إعادة هندسة تاريخ فلسطين ككل منذ القدم وحتى اليوم، ولما لذلك من أهمية في إعادة رسم خريطة الصراع الحالي، انطلاقاً من التأكيد على أن المكون المسيحي هو عربي وعروبي قديم وأساسي، بل وإن اتباع السيد المسيح بكل توجهاتهم المذهبية والطائفية والقومية والسياسية هم ملح الأرض وهم من دعائم المجتمع الفلسطيني في الصراع القائم عليها.

بعد دراسة مطولة ومعقدة حول موضوع البحث، ارتأيت تقسيمه إلى ثلاثة محاور رئيسية، أولها: المؤرخون وتاريخ المسيح والمسيحية حتى الفتح الإسلامي، وثانيها: من الفتح وحتى الحروب الفرنجية (الصليبية)، وثالثها: المؤرخون والحروب الصليبية.

أولاً: المؤرخون وتاريخ المسيحية حتى الفتح الإسلامي  
لم يكن ظهور السيد المسيح حدثاً عادياً ولا عابراً في تاريخ فلسطين وتاريخ البشرية ككل، فقد أحدث تغيرات فكرية ودينية واجتماعية وسياسية هائلة واعتبر أحد الباحثين «ظهور المسيحية وتطورها واستقرارها في ربوع الإمبراطورية الرومانية من أهم الأحداث التي هزت كيانها وهددت وجودها واستقرارها. ففي الوقت الذي تعرضت فيه الإمبراطورية للانحلال البطيء، تسلسل في شكل خطة ورقة إلى أذهان الناس دين نقي متواضع ونما في صمت وخفاء... نشأت المسيحية وتبلورت معالمها كعقيدة تضاهي المعتقدات الدينية المنتشرة»<sup>١</sup>.

نشأت المسيحية في بداية الأمر في فلسطين ومنها انتشرت إلى ربوع العالم، والمسيحية اسم اشتق من المسيح عليه السلام «وأرجع البعض اسم المسيح إلى الشعائر والطقوس التي درج عليها اليهود، والتي اعتبرت المسح بالزيت من أعظم



الشعائر لتقديس وتكريم الناس والأماكن»<sup>٢</sup>.

وجاء في معجم الإيمان المسيحي «مسيح أي المسوح الذي مسح الله وأرسله إلى العالم لقب أطلقه يسوع على نفسه بتحفظ في أثناء حياته... ثم جهازاً في أيام الأمة... ولا سيما بعد قيامته، واعتادت الكنيسة القديمة أن تطلقه عليه، لتدلّ اليهود أن المسيح الذين يرجون مجيئه قد جاء في شخص يسوع، ولقد أصبحت هذه التسمية، منذ عهد الرسل اسم علم يسوع»<sup>٣</sup>.

ويطلق على المسيحية أيضاً مصطلح النصرانية وهي نسبة إلى قرية الناصرة في فلسطين، بلدة دعوة المسيح وأشار الهروي إلى ذلك بقوله «الناصرة: مدينة بها دار مريم ابنة عمران ولهذا يقال نصارى»<sup>٤</sup>.

دون شك فإن هذا الانتشار للديانة المسيحية لم يكن سهلاً، فقد تعرض أتباعها الأولين إلى شتى أنواع الاضطهاد والمطاردة وبرغم ذلك «ثابر أتباع المسيح على نشر رسالته وتوسعت دائرة تأثيرهم في النواحي جميعاً وكان من نتائج ذلك اعتبار فلسطين الأرض المقدسة، وهي الكنية التي لا تزال تعرف بها»<sup>٥</sup>.

والسؤال هو كيف تناول المؤرخون هذه المرحلة في كتاباتهم، ومن أي منطلق.

دون شك لم يكونوا على رأي واحد، وإن اتفقوا على الأحداث التاريخية فإنهم اختلفوا في فهمها وتفسيرها وربما أن ذلك يعود إلى منطلقاتهم العقائدية والفكرية بالدرجة الأولى.

واهتم المؤرخون العرب بحياة السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام وما قبل ذلك وما بعده، وانتشار المسيحية بعده على يد تلاميذه.

فتناولوا حمل السيدة العذراء به ويقول المسعودي أن ولادتها كانت في بيت لحم يوم الأربعاء ليلة أربعة وعشرين خلت من كانون الأول<sup>٦</sup>، وذكر الحنبلي «أن جبريل نفخ في جيب مريم فحملت بعيسى عليه السلام، وخالتها حملت بيحيى وهو وُلد قبل المسيح بستة أشهر»<sup>٧</sup>.

وابن كثير يفصل ويشرح الآية «ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا»<sup>٨</sup> اعتماداً على ما ذكره السلف «أن جبريل نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلمها.. ومنهم قال أنه نفخ في فمها أو أن الذي كان يحاطبها هو الروح الذي ولج فيها من فمها وهو يرفض هذا الرأي الذي رواه أبي بن كعب ولا في صدرها كما رواه السدي»<sup>٩</sup>.

وأغلب المؤرخين المسلمين تناولوا مولد مريم وعيسى عليهما السلام اعتماداً على النص القرآني بالدرجة الأولى، فيذكروا الآية القرآنية وتفسيرها من السلف، دون الأخذ بما جاء في الرواية المسيحية أو ما ذكره الإنجيل، ويقول المسعودي حول ذلك «في الإنجيل خطب طويل في أمر المسيح ومريم عليهما السلام ويوسف النجار، أعرضنا عن ذلك لأن الله عز

٢ يحيى، أحمد إسماعيل، الإسلام والمعتقدات الدينية القديمة، مكتبة الدار العربية، ٢٠٠٢، ص ١٨٨.

٣ أو يحيى، سعيدة، مجلة تاريخ المغرب العربي، نشأة المسيحية وعوامل انتشارها في الإمبراطورية الرومانية، ٢٩٤، الجزائر، ٢٠١٣، ص ٩.

٤ الحنبلي، مجير الدين، الأنسب للجيل بتاريخ القدس والخليل، ج، مكتبة المحاسب، د، ١٩٧٣، ج ١، ص ١٥٨-١٥٩.

٥ المسعودي، مروج، ج ١، ص ٦٣.

٦ شوفاني، الياس، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ٢، ١٩٩٨، ص ١٣٣.

٧ الهروي، أبي الحسن، الإشارات إلى معرفة الزيارات تحقيق: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٢٠٩.

٨ المسعودي، أبي الحسن بن علي، (ت ٣٤٦هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، المكتبة العصرية، بيروت، ج ١، ص ٦٤.

٩ الواقي، أبو عبد الله محمد بن عمر، (ت ٢٠٧هـ) فتوح الشام، ج ٢، المكتبة الشعبية، بيروت، ج ٢، ص ١٣٤.

١٠ سورة المؤمنون، أية ٥٠.

وجل لم يخبر بشيء من ذلك في كتابه ولا أخبر به نبيه (ص)»<sup>١١</sup>.

وتناولوا كذلك خروج مريم وعيسى عليهما السلام إلى مصر يورد الواقدي الآية القرآنية «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآييناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين»<sup>١٢</sup> وهو يستفيض في تفسير هذه الآية اعتماداً على ما قدمه المفسرين وأصحاب السير وأصحاب التاريخ دون أي ذكر للرواية المسيحية، ويؤكد أن الخروج كان عن طريق ملك من الله أخبر يوسف النجار بضرورة أن يخرج بهم إلى مصر<sup>١٣</sup>.

ويفصل الواقدي في قصة الدخول إلى مصر وما حصل فيها من عجائب، ومدة إقامتهم فيها، وكيفية خروجهم منها إلى أرض الشام<sup>١٤</sup>. وأسهب النويري وتوسع في قصة آل عمران من زكريا ويحيى، ومريم وحملها وولادتها والخروج إلى مصر والعودة منها وبدء المسيح دعوته ونزول المائدة ورفعته إلى السماء<sup>١٥</sup>.

واستطرد النويري في شرح معجزات السيد المسيح عليه السلام وخبره مع اليهود حين ظفروا به ومسألة صلبه، ورفعته أول مرة إلى السماء وهبوطه ووصيته إلى الحواريين وأخبارهم<sup>١٦</sup>.

وفي فترة زمنية لاحقة أخذ المؤرخون في النقل عن السابقين وتناول سيرة السيد المسيح وأمه عليهما السلام كما جاءت في النص القرآني، فابن كثير ينقل عن ابن عساكر نسب زكريا عليه السلام، ونقل عن المفسرين الذين اعتمد أغلبهم على روايات وهبة بن منبه وأبي بن كعب وكعب الأخير وغيرهم<sup>١٧</sup>.

ويذكر ابن كثير أن الله أنزل صدر سورة آل عمران وهو ثلاث وثمانون آية منها في الرد على النصارى عليهم لعائن الله الذين زعموا أن لله ولده<sup>١٨</sup>.

وكثيراً ما كان المؤرخون يختلفون في تفاصيل بعض القضايا، ومنها الربوة التي خرج إليها عيسى وأمه مريم عليهما السلام، وعنده أن الربوة في دمشق الشام ومحلها مشهور وهي ذات القرار المعين<sup>١٩</sup>. كما اختلفوا في مدة الحمل منهم من قال ساعة ومنهم من قاله ثمانية أشهر وآخرين تسعة<sup>٢٠</sup>، وكذلك حول مكان مولده فذكر ابن كثير عن وهب بن منبه أنه في مصر<sup>٢١</sup>. ولن أطيل في سرد هذه الاختلافات، ومجمل القول أن المؤرخين العرب المسلمين اهتموا في سرد كل كبيرة وصغيرة تتعلق بالمسيح وأمه مريم عليهما السلام، انطلاقاً من النص القرآني والسنة النبوية وما نقله الرواه والمفسرون، ولم يتطرقوا إلى تطور الديانة المسيحية وعلاقتها بالدولة الرومانية.

واهتم المؤرخون في بناء الكنائس ووصفها ومكان بنائها، وأحياناً بشكل عميق، واهتم الجغرافيين والرحالة أكثر من غيرهم، فذكر المسعودي كنيسة الناصرة بقوله «فيها توابيت من حجارة فيها عظام الموتى»<sup>٢٢</sup>.

١١ المسعودي، مروج، ج ١، ص ٦٤.

١٢ ابن كثير الحافظ أبو الفداء، (ت ٧٧٤ هـ)، البداية والنهاية، ج ٢١، ط ١، مكتبة المعارف، بيروت، ج ٢، ص ٦٤-٦٥.

١٣ سورة التحريم، الآية ١٢

١٤ ابن اياس، محمد بن أحمد، (ت ٩٢٧)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، دار الفكر، د.ت، د.م، ص ١٨٤-١٨٥.

١٥ المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٦.

١٦ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ٤٧-٥٧.

١٧ المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٢٣٠-٢٦٠.

١٨ النويري، شهاب الدين، (ت ٧٢٣)، نهاية الأرب في معرفة فنون العرب، ج ٣٣، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ج ١٤، ص ٢٠٩-٢٣٠.

١٩ الواقدي، فتوح، ج ١، ص ١٣٤.

٢٠ المصدر نفسه، ج ١، ص ٥٨.

٢١ المصدر نفسه، ج ١، ص ٦٦.

٢٢ المسعودي، مروج الذهب، ج ١، ص ٦٣-٦٤.

وقد وقع بعضهم في سرد بعض المعلومات أو الأخبار بشكل غير وافي ولا أدري هل هذا بشكل عفوي ينم عن عدم معرفة أم ماذا؟ فالمسعودي يقول: أن المسيح عليه السلام أقام على دين من سلف من قومه يقرأ التوراة والكتب السالفة في مدينة طبرية في كنيسة يقال لها فدارس ثلاثين سنة، ويقال تسع وعشرين سنة<sup>٢٣</sup>، وما لا يعلمه المسعودي أن كلمة المدارس أو المدارس تشير إلى شكل من أشكال الأدب الحاخامي أو هي سلسلة من التعليقات القديمة على التناخ وليس مكان. وأشار إلى كنيسة القيامة بأن سليمان ابن داود بنى له بيتاً في الموضع المسمى كنيسة القمامة (القيامة) وهي الكنيسة العظمى في بيت المقدس عند النصارى<sup>٢٤</sup>.

ولنا أن نتساءل عن ربط المسعودي موضع بناء كنيسة القيامة بسليمان خاصة وأنه يقول أن سليمان بنى المسجد الأقصى<sup>٢٥</sup>.

وذكر كذلك أن في بيت المقدس كنيسة صهيون، والكنيسة المعروفة بالجسمانية ويزعمون أن فيها قبر داود<sup>٢٦</sup>. وأشار على دور القديسة هيلانة في بناء الكنائس حين جاءت إلى الشام<sup>٢٧</sup>.

وأشار الرحالة العرب إلى عدد من الكنائس التي امتدت على أرض فلسطين، منها كنيسة اليعاقبة وبها بئر يقال أن المسيح اغتسل منها وكنيسة السليق وأن رفع المسيح إلى السماء كان منها وكنيسة صهيون وأن نزول المائدة على السيد المسيح عليه السلام والحواريين كان بها<sup>٢٨</sup>.

ووصف كنيسة القيامة بأن عمارتها من العجائب ولهم فيها المقبرة التي يسمونها القيامة والصخرة التي يزعمون أنها انشقت وقام آدم من تحتها لأنها كانت تحت الصليب بزعمهم، وأما كنيسة بيت لحم فإن بها آثار عمارة عجيبة من الرخام والفض المذهب والعمد وأن تاريخ عمارتها يزيد على ألف ومائتي عام محفور في الخشب لم يتغير إلى هذا الزمان<sup>٢٩</sup>. ويلاحظ قوله أنهم يزعمون أو بزعمهم، وكأنه يقول أنه غير مقتنع بهذه الرواية أو أن ما يذكره هم يقولون به وحدهم وأن هذه روايتهم عن المكان.

وكما المؤرخين وقع بعض الرحالة في بعض الأخطاء سواء حول أسماء الأماكن أو ارتباطها ببعض الأحداث والأشخاص، فهناك من قال أن بها بيت مريم وبها كان المسيح، وأن في «سبسطين وهي فلسطين» وربما يقصد سبسطية «بها بدن يحيى وقبة أمه ويضيف أن الأقصى تحت اصطبل كان لداود وهناك مغارة يقال بها مهد عيسى عليها السلام»<sup>٣٠</sup> واعتقد أن في هذا خلط وعدم معرفة بالأماكن والأحداث التاريخية المرتبطة بها.

ويمكن القول أن هذه الأخطاء أو المغالطات كانت تنتقل من رحالة إلى آخر وإلى مؤرخ آخر، فقد نقل ياقوت الحموي في معجم البلدان عن الهروي أغلب معلوماته، فالهروي يمر في كتابه على القرى والمدن التي زارها ويورد ما فيها من قبور أو مباني أو غرائب تخص في أغلبها قبور وأماكن الأنبياء والرسل والصالحين بشكل عابر وبشكل غير دقيق، دون أن يتحدث عن الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وأحوال الناس فيها، وأغلب معلوماته تستند إلى مصطلح

٢٣ الحنبطي، الأنس الجليل، ج١، ص ١٥٨ - ١٦٥.

٢٤ ابن كثير، البداية، ج٢، ص ٧٥.

٢٥ المصدر نفسه، ص ٣٣ - ٣٤.

٢٦ الهروي، ابن الحسن علي بن ابي بكر، (ت ٦١١هـ) الإشارات إلى معرفة الزيارات، تحقيق، علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، ط١، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٣٣.

٢٧ المصدر نفسه، ج١، ص ٣٨٠.

٢٨ المصدر نفسه، ج١، ص ٦٦.

٢٩ المسعودي، مروج الذهب، ج١، ص ٥٨.

٣٠ خسرو، ناصر، (ت ٤٦٦هـ)، سفرنامه، ترجمة: يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٨٨-٨٩.

يرد عنده كثيراً «يقال أن بها»<sup>٣١</sup>.

وذكرت بعض المصادر باختصار عدد من الكنائس التي بنتها القديسة هيلانة ومنها كنيسة القيامة وكنيسة بيت لحم وكنيسة بطور زينا مكان صعود عيسى عليه السلام وكنيسة الجسمانية التي بها قبر مريم عليها السلام<sup>٣٢</sup>. وقد توسع ناصر خسرو في وصف الكنائس في رحلته «سفرنامه» وخاصة كنيسة القيامة فيشير على بنائها الأول ومكانتها لدى المسيحيين والحج إليها من بلاد الروم، ويذكر هدم الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي لها ومن ثم إعادة بنائها بمساعدة قيصر الروم، ومن وصفه لها «فسيحة تسع ثمانية آلاف رجل عظيمة الزخرف من الرخام الملون والنقوش والصور وهي مزينة من الداخل بالديباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب، وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى عليه السلام وهي مطلية بزيت السندوس، وفيها لوحة مقسمة إلى قسمين عملاً لوصف الجنة والنار وليس لهذه الكنيسة نظير في أي جهة من العالم»<sup>٣٣</sup>.

ووصف برنارد الحكيم الكنائس في القدس وبيت لحم ويذكر وصفاً لكنيسة القيامة بأنها أربع كنائس متصلة ببعضها البعض، وكنيسة القديس سمعان على جبل صهيون، حيث غسل السيد المسيح أقدام تلاميذه (وربما يقصد الجسمانية) وفي وصفه لكنيسة المهد «كنيسة كبيرة جداً تكريماً للقديسة مريم، في الوسط يوجد سرداب تحت صخرة مدخله من الجنوب ومخرجه من الشرق»<sup>٣٤</sup>.

ويذكر الرحالة الحاج دانيال بتوسع الأماكن والكنائس التي زارها ففي اللد زار كنيسة القديس جورج وبها ضريح، ويصف كنيسة القيامة في القدس وما بها من أعمدة وما تمثله الصور التي تعلوها، كما يصف الضريح المقدس وموضع صلب المسيح عليه السلام، ويتطابق مع بعض المؤرخين العرب في ذكر الصخرة التي تحتها جمجمة آدم والجلجثة ومكان سجن المسيح، وغيرها من الكنائس والمواقع التي بها ذكرى للسيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام<sup>٣٥</sup>.

ويدشير دانيال على كنيسة الجسمانية بأنها قرية «الجسمانية هي قرية قريبة من بيت المقدس وتشمل على ضريح العذراء المقدسة وتقع القرية في وادي قدرون»<sup>٣٦</sup> واستطاع القول أن الحاج دانيال لم يترك بقعة لها صلة بالمسيحية إلا ذكرها ووصفها.

كما ذكر بعض الأحداث التي حصلت منها هدم كنائس وأديرة على أنها هدمت من الكفار وعلق مترجم الرحلة على ذلك بأنه يقصد المسلمين، ويؤكد المترجم أنه لم يعرف عن المسلمين أنهم قاموا بهدم الكنائس أو تعرضوا للمسيحيين بأذى<sup>٣٧</sup>.

أعتقد أن رحلة الحاج دانيال إلى فلسطين وما قدمه من وصف لكل الأماكن يمكنها رسم جغرافيا فلسطين المسيحية بدقة من نهر الأردن إلى بيت لحم إلى الجليل والناصرة شمالاً.

وتناول بعض المؤرخين بالبحث والوصف لأعياد المسيحيين التي ارتبطت بسيرة السيد المسيح وأمه مريم عليهما السلام، منها أن «٥ تشرين أول يكون عيد كنيسة القيامة، حيث تجتمع النصارى فيه من سائر الأرض وتنزل عليهم نار

٣١ الحنبلي، الأُنس الجليل، ج١، ص ١٦٩- ١٧٠.

٣٢ المصدر نفسه، صفحات مختلفة.

٣٣ الهروي، الإشارات إلى، ص ٢٦- ٣٤.

٣٤ المصدر نفسه، ماشية ٤، ص ٨٥.

٣٥ المصدر نفسه، ص ٥٨.

٣٦ دانيال الراهب، وصف الأرض المقدسة في فلسطين ١١٠٦ - ١١٠٧م، نقلها للعربية: سعيد البيشاوي، الشروق، ٢٠٠٣، ص ٤٧.

٣٧ خلف، تيسير، برنارد الحكيم، من روما إلى القدس زمن الخليفة المعتز، العربي الجديد، ٩ مارس، ٢٠١٩.

من السماء، فيسرج هناك الشمع ويجتمع فيه من المسلمين خلق عظيم للنظر إلى العيد ويقتلع ورق الزيتون». ومنها عيد الصليب الذي يرتبط باكتشاف القديسة هيلانة لخشبة الصليب التي صلب عليها المسيح عليه السلام، ويقول ابن إياس أن هيلانة «صنعت لتلك الأخشاب غلفاً من ذهب فاتخذوا ذلك اليوم عيداً وسموه عيد الصليب وذلك بعد ولادة المسيح بثلاثمائة وثمانية وعشرين سنة وهذا غاية اعتقاد النصارى في أمر الصليب»<sup>٣٨</sup>. تناولت الموسوعة الفلسطينية المسيحية بعض الشرح واعتمدت في ذلك على الرواية المسيحية والأنجيل وتشير إلى «أهم الوثائق عن حياة السيد المسيح هي الأنجيل والرسائل التي كتبها تلامذته ورسله الحواريون ويتألف من مجموعها العهد الجديد»<sup>٣٩</sup>.

وهي تتناول الأنجيل بالشرح والتفصيل في عددها وما تتضمنه وتشير إلى بعض المصادر عن حياة المسيح عليه السلام من غير المسيحيين<sup>٤٠</sup> وتتناول كذلك الظروف والأوضاع التي كانت سائدة آنذاك في فلسطين والحضارة التي كانت سائدة، وأوضاع الناس الاقتصادية والثورات، والفرق الدينية اليهودية، وتصوراتها حول المسيح ورسائل السيد المسيح الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، والأهم المبادئ الأخلاقية<sup>٤١</sup>. وتناولت حركة الرسل التبشيرية في مختلف البلدان، منهم بطرس وهدايتة لليهود في مختلف البلدان السورية، وبولس ودوره في هداية الوثنيين ورحلاته في مختلف البلدان<sup>٤٢</sup>.

وأما المراجع والمصادر المسيحية فهي تناولت حياة المسيح وأمه مريم عليهما السلام، وما كتب عنهما من آلاف الكتب في أنحاء العالم مصدره الأنجيل الأربعة التي كتبها تلاميذ السيد المسيح، كما تناولت ما قام المؤمنون به في أوقات لاحقة من بناء الكنائس في كل مكان ورد ذكره في كتب الأنجيل<sup>٤٣</sup>.

كما تناولت العهد الجديد بالشرح التاريخي، ما تتضمنه من رسائل وتعاليم، وماذا يعتقد المجتمع المسيحي والمؤرخون حولها، كما تناولت ولادة السيد المسيح والاختلاف الحاصل حولها، وكذلك تلاميذ السيد المسيح والمبشرون والنبى زكريا، ويوحنا المعمدان، وما كتب عنه في الكتب المقدسة، وقصته مع هيرودوس، وعلاقة السيد المسيح بالأردن وبنهر الأردن، وكذلك حياة مريم العذراء، طفولتها وخطوبتها وبشارتها بالحبل الإلهي، وسفرها ويوسف إلى بيت لحم، والخروج إلى مصر، وبداية المسيح بتعاليمه ووجوده في الناصرة ومعجزاته، وتعاليمه المختلفة، وتجليه فوق جبل طابور وبكائه على أورشليم، ونبوءته بمخربها، ودخوله القدس آخر مرة، وتناوله العشاء الأخير مع التلاميذ وغسله أرجل تلاميذه ومحامته، ورجوع النساء إلى القبر وصعود المسيح إلى السماء وأعمال الرسل، والكنائس والحج والطوائف، وحياة الرهبنة<sup>٤٤</sup>.

وقد أورد جقمان ما ورد في القرآن الكريم عن حياة مريم من لحظة ولادتها وكل الآيات التي ارتبطت بها، وكذلك يورد الآيات التي جاءت على ذكر السيد المسيح، وزكريا ويحيى، ويورد رأي العقيدة الإسلامية بالصلب كما جاء بها النص القرآني<sup>٤٥</sup>.

٣٨ المصدر نفسه، ج٤، ص ٢١٥-٢١٦.

٣٩ المصدر نفسه، ج٤، ص ٢١٤.

٤٠ الموسوعة الفلسطينية، القسم العام، ع مج، ط١، ١٩٨٤، ج٤، ص ٢١٣.

٤١ المصدر نفسه، ص ٩٠.

٤٢ المرجع نفسه، صفحات متفرقة.

٤٣ المرجع نفسه، ج٣، ص ٣٨-٩٥.

٤٤ جقمان، حنا عبد الله، جولة في تاريخ الأرض المقدسة من أقدم العصور حتى اليوم، ع٤، مج، ط١، القدس، ١٩٩٩، مج ٣، ص ٣٨.

٤٥ المصدر نفسه، ه٤، ص ٢١٦، ٢١٧.



ومن المؤرخين المحدثين ينقل الدباغ بعد ذكره لمولد السيد المسيح عليه السلام ونشأته بعض من عظاته من إنجيل حتى، وبشر إلى أن فلسطين كانت مقر البنية الأولى للديانة المسيحية، منها خرج الحواريون يبشرون رسالة عيسى التي أخذت في الانتشار إلى العالم وأن هؤلاء الحواريين نصفهم كان من فلسطين<sup>٤٦</sup>.

ويلخص شوفاني الظروف والأوضاع التي ولدت فيها المسيحية في فلسطين، بأن تردي أوضاع الإمبراطورية الرومانية في القرون الميلادية الثلاثة الأولى، واختلال حالة الأمن، والتناحر بين فئات الجيش، وما لاقاه المسيحيون من مطاردة واضطهاد، في هذه الظروف «توسع انتشار المسيحية بين طبقات متعددة من المجتمع وربما أن هذه الظروف استدعت بروز ديانة جديدة، وكانت المسيحية تقدم المطلوب، حيث بحث الكثيرون عن الخلاص عبر ديانة جديدة تشكل قاسماً مشتركاً بين مختلف طبقات وفئات المجتمع الروماني»<sup>٤٧</sup>.

ويتولى قسطنطين عرش الإمبراطورية، تنفست المسيحية الصعداء، حيث سمح لها بالانتشار بل هو نفسه تنصر، وزارت أمه هيلانة فلسطين وبنّت فيها الكنائس، ويشير إلى انقسام المملكة إلى شرقية وغربية، وانقسام الكنيسة تبعاً كذلك إلى شرقية وغربية<sup>٤٨</sup>.

وشهدت فلسطين -الأراضي المقدسة- توافد الحجاج إليها منذ القرون الميلادية الأولى، خاصة بعد تدشين الكنائس من سائر أنحاء العالم، أوروبا، العراق، الهند، فارس وروسيا والتي بدأت بمبادرات فردية دافعا زيارة وتتبع خطى المسيح في كل الأماكن التي وردت في الأناجيل<sup>٤٩</sup>.

وإذا حاولنا تلخيص هذا المحور، يمكن القول أن المؤرخين العرب الأوائل اهتموا بشكل كبير بسيرة المسيح وأمه مريم من ولادتها حتى صعوده أو صلبه، انطلاقاً من النص القرآني، واعتماداً على كتب التفسير وأخبار الرواة، منهم من ذهب إلى كل التفاصيل والرواة في البدايات، وأخذ بعضهم بالتأخر في الاختصار بذكر الحدث أو الرواية، ولم يتطرقوا إلى الرواية المسيحية وما ذكرته الأناجيل في ذلك، أما الرحالة والجغرافيين فقد ذكروا الأماكن التي مروا بها، ولها علاقة بالمسيحية، وإن وقع بعضهم في كثير من المغالطات.

أما المؤرخين المسيحيين، فقد تناولوا سيرة السيد المسيح بتفصيل دقيق انطلاقاً مما ذكرته الأناجيل، وما كانت عليه البلاد من ظروف وأحوال، وعلاقة المسيحية باليهودية من ناحية دينية وسياسية، بعضهم المتأخر أورد ما جاء في النص القرآني إلى جانب ما ذكرته الأناجيل.

وأما المؤرخين المعاصرين فقد اهتموا بالمصادر المسيحية في سرد وتناول سيرة المسيح والمسيحية وما جاء في الأناجيل انطلاقاً من سرد الروايات أو روايات الطرفين، وتأكيداً على عروبة السيد المسيح والمسيحية.

### المحور الثاني: المؤرخون والمسيحية من الفتح إلى الحروب الصليبية:

انصب اهتمام المؤرخين في هذه المرحلة من التأريخ للمسيحية بشكل خاص ولفلسطين عموماً على سير المعارك التي دارت رحاها بين الجيوش الإسلامية وجيش الروم، وهذا من جانب لآخر ركزوا على جهود الفتح التي منحت لسكان البلاد، وخاصة وثيقة عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء (بيت المقدس).

٤٦ جقمان، جولة، مج ٣، ص ١٣٥.

٤٧ العارف، عارف، تاريخ القدس، دار المعارف، مصر، ص ٣٧، ٣٩.

٤٨ شوفاني، الياس، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ط ٢، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٣٩-١٤٠.

٤٩ الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين، القسم الجغرافي، ١١ مج، دار الطليعة، بيروت، مج ١، ص ٦٥٠-٦٥٤.

وأورد بعضهم أدق التفاصيل في سير تلك المعارك معتمداً على الرواة وأصحاب التاريخ كما أطلق عليهم، والبعض الآخر أخذ في تناول الأحداث سريعاً مركزاً على الحوادث العامة، وقد أورد الطبري أن المسلمين أخذوا طبرية وصالحوا أهلها على أن «يشاطروا المسلمين المنازل في المدائن، وما أحاط بها مما يصلها، فيدعون لهم نصفاً ويجمعون في النصف الآخر، وعن كل رأس دينار كل سنة، وعن كل جريب أرض جريب بُر أو شعير... وأشياء مثل ذلك صالحوهم عليها».

وفي رواية للطبري أن أهل إيلياء قدموا على عمر بن الخطاب وهو في الجابية بالشام فأعطوه واكتبوا منه على إيلياء وحيزها وعلى الرملة وحيزها (أعتقد أن الرملة كمدينة لم تكن قد بنيت بعد لأنها بنيت في عهد سليمان بن عبد الملك) وفي رواية عن «خالد وعبادة قالاً: الذي صالح فلسطين العوام من أهل إيلياء والرملة وذلك أن اربطون والندارق لحقا بمصر<sup>٥١</sup>، (أي القواد الروم) والروايات حول ذلك متعددة متضاربة لكن المهم أن الفتح تم والصلح تم وأخذ أهل بيت المقدس من المسيحيين ما أرادوا من عمر كما تضمنت ذلك العهدة العمرية.

ويعرف الواقدي في تفاصيل الحصار الذي فرض حول بيت المقدس ومدته وظروفه وتسير المحادثات بين من هم في الداخل من أهل بيت المقدس والمحاصرين لهم وتوجه أهالي المدينة إلى البطرک في كنيسة القيامة طالبين منه التدخل لإيجاد حل لذلك الحصار خاصة وأنه لم يصلهم مدد من الملك، ويورد حواراً جرى بين مترجم البطرک وأبو عبيدة دار حول العقيدة ومطالب العرب من البطرک<sup>٥٢</sup>.

ويعيد ابن الأثير ذكر حدث محاصرة ومقاتلة أهل بيسان وطبرية، والصلح. ويشير إلى حصار غزة وقيسارية وفتحهما إلى ذكر فتح بيت المقدس ويقول وهو إيلياء<sup>٥٣</sup> والمتابع لما دونته المصادر التاريخية يلاحظ أنها غابت أخبار السكان والأهالي المسيحيين.

وابن كثير يذكر أن عمر سار إلى الشام وصالح نصارى بيت المقدس على الجزية وشروطاً أخرى منها إجلاء الروم عن القدس وكتب إلى أهل اللد كتاباً آخر ودخلوا فيما صالح عليه أهل بيت المقدس<sup>٥٤</sup>.

وأغلب المصادر والمراجع سارت على المنهج ذاته والمنوال نفسه، فحنا جقمان يورد في كتابه الفتح الإسلامي من معركة مؤتة وتولي أبو عبيدة فتح إيلياء وإنذاره لأهلها ووصول وفد إيلياء إلى الجابية والعهدة العمرية بنصها ويشرحها ويتناول فلسطين بعد الفتح وفي عهد عبد الله ابن مروان ومكانة القدس<sup>٥٥</sup>، دون أن يتطرق إلى أحوال المسيحيين وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية.

وفي محاولة التحليل وتوضيح وثيقة عمر بن الخطاب لنصارى القدس، فإن بعض المؤرخين المحدثين أشاروا أن نص الوثيقة ظهر لاحقاً لا في زمن الفتح وأن أول من أورده بشكله الموسع «المشرف بن المرجى في القرن الخامس الهجري، ويرجع الدوري سبب الاختلاف بين المصادر المبكرة والمتأخرة حول نص الوثيقة وشروط الصلح لحرمة المدينة وعظمة كنائسها وتطور العلاقات مع النصارى، ويشير إلى تطور العلاقات مع النصارى منذ عصر عمر بن عبد العزيز وحتى العهد الفاطمي<sup>٥٦</sup>.

٥٠ الطبري، محمد بن جرير، ت ٣١٠، تاريخ الطبري، ١٠ ج، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢، دار المعارف، مصرن ج ٣، ٤٤٠ - ٤٤٤.

٥١ المصدر نفسه، ح ٣، ص ٦٠٧ - ٦٠٨.

٥٢ الواقدي، فتوح الشام، جزء ١، ص ١٤٣ - ١٥٤.

٥٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٣، ص ١٦٦، ١٩٢.

٥٤ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٧، ص ٥٦ - ٥٧.

٥٥ جقمان، ص ٣، ص ١٨٩ - ١٩٥.

٥٦ العسلي، كامل جميل، القدس في التاريخ، الأردن، ١٩٩٢، ص ١٢٣ - ١٣٣.

وقد وصف برنارد الحكم أوضاع المسيحيين تحت حكم المسلمين بقوله «والآن سأقول لكم كيف أن المسحيين حافظوا على شريعة الله في كل مكان من القدس ومصر، وإن المسلمين والمسيحيين على تفاهم تام»<sup>٥٧</sup>. وفي العادة كانت العلاقات بين المسلمين وغيرهم حسنة، وكان المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم وخاصة الزراعية منها<sup>٥٨</sup>.

وكان الإمبراطور شارلمان أسس عدداً من النزل ومكتبة في القدس كما أجرى البطريك بعض الإصلاحات في مباني القبر المقدس<sup>٥٩</sup>.

وقد أشار أحمد أمين، على سياسة الفاطميين نحو النصارى واعتبرها أكثر من ودية، رغم أنهم قاسوا الاضطهاد في بعض الأزمنة خاصة على يد الحاكم بأمر الله، إذ أمر بتدمير كنيسة القيامة سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، وعاد وسمح للنصارى بإعادة بنائها بمساعدة ملك الروم<sup>٦٠</sup>.

وسلط الضوء كذلك على سياسة الخليفة العباسي المتوكل الذي ألزم أهل الذمة بلبس الطيالة العسلية والزنانير وأمر بهدم بيعهم المحدث وأخذ العشر من منازلهم ونهى عن استخدامهم في الدواوين وأعمال السلطان التي تجري فيها أحكامهم على المسلمين وأرسل إلى ولاته بذلك، ويرى أحمد أمين أن ذلك ناجم عن سوء العلاقة مع الروم ويعلق على ذلك بأنه مهما كان الأمر فهي حالة سيئة تدل على ضيق العقل ومخالفته للنظر الواسع والحكم الذي أمر به الإسلام<sup>٦١</sup>. ورأى بعض المؤرخين أن الدولة الأموية والعباسية تسامحت مع أهل الذمة واستخدمتهم في الأعمال المختلفة بل وأن أكثر الكتبة والأطباء كانوا من النصارى<sup>٦٢</sup>.

وتناول بعض الباحثين والمؤرخين موقف العرب في بلاد الشام، والنصارى فيهم من الفتح الإسلامي بالتحليل والبحث وأن هذا الموقف لم يكن مؤيداً ومستجيباً ولا متساهلاً مع الدعوة الجديدة ويستدل على ذلك بأن عرب الشام عموماً حاربوا مع الروم بل وحاولوا التجسس والتطلع على الفاتحين الجدد، وشاركت قبائل لخم وجذام وكنب وغسان وغيرها في كل المعارك التي دارت على أرض الشام<sup>٦٣</sup>.

وأن هذه الحرب اتخذت منذ البداية بعداً دينياً واضحاً فالرهبان والشمامسة والقسيسين كانوا يتقدمون على القادة الروم ويحرضون على القتال والمقاومة وأنهم كانوا يشجعون الجنود ويحثونهم، ولكن في السياق نفسه يرى البعض أن النصارى لم يكن موقفهم جامداً ولم تلازمه الصلابة فبعد هزيمة الروم في معركة اليرموك أخذوا طريقاً في مداراة الإسلام وفسح المجال له فقبل أهل إيلياء الصلح على أن يتولى الخليفة عمر بنفسه عقده معهم<sup>٦٤</sup>.

في حين أن بعض المؤرخين شكل رأياً ليس مغايراً للرأي السابق وأنه غير منسجم معه، حيث يرى بأن سكان بلاد الشام الذي شكل العنصر العربي كما ذكرنا سابقاً نسبة عالية بين سكانه لم يروا في الفتح العربي الجديد تسلطاً أجنبياً بسبب شبكة العلاقات القبلية والدينية والقومية والاقتصادية التي ربطت بينه وبين الجزيرة العربية، إضافة إلى أن سلوك

٥٧ دانيل الراهب، وصف، ص ٤١.

٥٨ العسلي، القدس في، ص ١٤٥.

٥٩ المرجع نفسه، ج ١، ص ٨٢ - ٨٣.

٦٠ المرجع نفسه، ج ١، ص ٤٣-٦٤.

٦١ أمين، أحمد، ظهر الإسلام، ج ٢، دار الكتاب العربي، ج ١، ص ٤٣.

٦٢ العسلي، القدس، ص ١٤٠.

٦٣ فيصل، شكري، حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول، ط ٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٤، ص ٤٥-٤٦.

٦٤ المرجع نفسه، ص ٥١-٥٥.

الفاتحين الجدد المتسامح دينياً واجتماعياً وإعطاء الأمان على أرواحهم وممتلكاتهم ومعابدهم مقابل الجزية وبولاء قد ساهم في تقبل الفاتحين الجدد<sup>٦٥</sup>.

### تاريخ الكنيسة

ولنا القول إن المؤرخين لم ينظروا للفتح الجديد في إطار واحد، أو بتوجه واحد، فالبعض رأى أن أوضاع الدولة البيزنطية (الروم) وصراعها مع الفرس وسوء الأوضاع المحلية، واندفاع القوة الجديدة وتشابك علاقاتها بالشام من قبل ساهم كله في تسارع سقوط المدن الشامية عموماً والفلسطينية خاصة.

وإن جرت بعض المحاولات المتكررة في إعادة السيطرة على بعض المدن، إضافة إلى أن هذه المرحلة وإن سحبت البساط من تحت المسيحية بالسيطرة السياسية والدينية على فلسطين فإنها سمحت للمسيحية والمسيحيين بالعيش بأمان في بيوتهم ومعابدهم، بل وساهموا في تطوير الدولة الإسلامية خاصة في الخلافة الأموية والعباسية، وتسلم العديد من أصحابها المناصب العليا فيهما.

وقد تناول بعض المؤرخين المسيحيين أحوال المسيحية والمسيحيين في ظل الدولة الإسلامية بمختلف مراحلها انطلاقاً من عهود ومواثيق الفتح الأولى سواء مع أهل نجران ووثيقة عمر لأهل إيلياء والقوانين والأحكام التي أصدرها الخلفاء لتنظيم أوضاعهم الدينية والاجتماعية والسياسية، وأن عليهم حمايتهم ولهم حق الحرية الدينية والسكن ومزاولة الأعمال، وتشير إلى أن المسيحية عاشت حياة هادئة مستعرضاً شروط الفتح ومساهمات المسيحيين (القبائل المسيحية في الفتوحات) وتثبيت أركان الدولة العربية، في حين حافظ قسم كبير منها على معتقداتهم المسيحية على اختلاف مزاجهم وطوائفهم<sup>٦٦</sup>.

ويقول آخر «كان الوجود العربي المسيحي واضح المعالم منذ السنوات الأولى للمسيحية» وكان أساقفة عرب في مجمع نيقيا سنة ٣٢٥م وكان هناك عدد قبائل عربية مسيحية وكان لها أدبها ولاهوتها وفلسفتها، واشتهرت ببناء الكنائس والأديرة، وكان للمسيحيين العرب والسريان وغيرهم مدارس وفكر ولاهوت... وبعد بدء الدعوة الإسلامية وتأسيس الخلافة كان للمسيحيين العرب دور رئيس في الترجمة والشرح والتأليف، وكان لهم دور مهم في بناء الصرح الحضاري العربي، كان لهم مساهمة كبيرة في تطوير العلوم والآداب<sup>٦٧</sup>.

### المحور الثالث: المؤرخون والحروب الفرنجية (الصليبية)

إن مصطلح الحروب الصليبية استخدم للمرة الأولى في القرن السادس عشر الميلادي في إشارة إلى المشاركين في الحملات التي انطلقت من أوروبا الغربية على الشرق العربي، وكانوا يلقبون بأسماء مختلفة، ولاستخدامهم الصليب على ملابسهم وراياتهم وانتقل استخدام هذا المصطلح من اللغة الفرنسية إلى اللغات الأوروبية الأخرى في القرن السابع عشر الميلادي، ومبتدع هذا المصطلح الحروب الصليبية هو الفرنسي لويس حمبور وإعطاء المصطلح عام ١٦٧٥ مغزى دلاليًا أثر في نفوس الأوروبيين لارتباطه بالصليب<sup>٦٨</sup>.

٦٥ شوفاني، الموجز في، ص ١٦٤ - ١٦٥

٦٦ الأب ميشيل تيم، الأب اغناطيوس ديك، تاريخ الكنيسة الشرقية، ط ٢، مطبعة الاحسان، حلب، ص ١٥٢ - ١٥٦.

٦٧ خوري، جريس، سعيد، عرب مسيحيون: أصالة... حضور... انفتاح اللقاء مركز الدراسات الدينية، القدس، ٢٠٠٦، ص ٤١.

٦٨ التباين في المفاهيم في مصطلح الحروب الصليبية، An-najahstaff.edu، ص ٨-٦

ويقول جوناثان فيليبس «إن الصليبيين الذين استوطنوا في شرق المتوسط كانوا يعرفون باسم «الفرنج» لدى معاصريهم من المسلمين واللاتين في الشرق»<sup>٦٩</sup>.

ويطلق على هذه الحروب بأنها استعمار ديني انطلاقاً من اعتقاده بأن المستعمرة التي نتجت عن هذه الحروب هي أراض تم غزوها واستيطانها لأسباب دينية بالدرجة الأولى ولأن سكانها الأصليين حافظوا على صلتهم الوثيقة بوطنهم<sup>٧٠</sup>. وقد استخدم كل المؤرخين المسلمين مصطلح الحملات الفرنجية والإفرنج بأشكال مختلفة حسب المناطق والمؤرخين ولازمته في إشارة منهم إلى حملات الغرب التي انطلقت على الشرق. ويصف ابن الأثير ذلك بقوله «أخذت الفرنج لعنهم الله بيت المقدس... وكانوا في نحو ألف مقاتل، وقتلوا في وسطه أزيد من ستين ألف قتيل من المسلمين»<sup>٧١</sup>.

وعن ذلك وفي الإطار نفسه يقول المقدسي «أخذ الفرنج خذلهم الله عسقلان وبقيت في أيديهم إلى أن فتحها صلاح الدين»<sup>٧٢</sup>. واستخدم المصطلح ذاته من قبل ابن الأثير وهو يفصل كغيره من المؤرخين في سير المعارك التي دارت في القدس وعسقلان وغيرها من المدن الفلسطينية<sup>٧٣</sup>.

وحول دور مسيحيي البلاد فقد لجأ حاكم الفرس إلى طرد السكان النصارى الكفيلين بالتعاون مع إخوتهم في الدين من الفرنج كما فعل ذلك نفسه حاكم أنطاكيا، وربما أن هذا الإجراء اتخذ خوفاً من تعاون البعض منهم مع الفرنج فقد ذكر معلوف أنه وبعد سيطرة الإفرنج على مدينة القدس أنهم «حتى إخوانهم في الدين أنفسهم لم يوفروهم وكان أول ما اتخذوه من تدابير أنهم طردوا من كنيسة القيامة جميع الكهنة من الطقس الشرعي - روما وجورجين وأرفيين وأقباط وسريان الذين كانوا يقيمون القداديس معاً تبعاً لمذهب كان جميع الفاتحين احتراموه حتى ذلك الحين»<sup>٧٤</sup>.

ويبدو أن المؤرخين العرب استطاعوا التفريق بين المسيحيين من سكان البلاد الأصليين وموقفهم منهم وبين الغرب الفرنجي الذي نظروا إليه كمحتل وجاء هذا الوصف (الفرنج) الذي يدل على تلك الرؤية، ووصف هؤلاء المؤرخين الفرنجة ببعض الوصف الدال ربما على الحق والكره لهؤلاء المحتلين، فأغلبهم استعمل لفظ لعنة الله عليهم، عليهم لعائن الله ولعنهم الله<sup>٧٥</sup> وغيرها، وقيل عن بردويل الإفرنجي، بعد محاولته أخذ غزة وتخريبها وإحراق مساجدها قد رحل عنها وهو مريض فهلك في الطريق فشق أصحابه بطنه ورموا حشوته هناك فهي ترجم إلى اليوم<sup>٧٦</sup>، ويصف ابن منقذ الفرنجة بعد قوله «خذلهم الله ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ووصف بعض قادتهم بالشياطين»<sup>٧٧</sup>.

ولم تكن الصورة مختلفة عن رؤية الفرنج للمسلمين فيصفهم وليم الصوري بقوله «خصوم الملة وأعداء المسيح»<sup>٧٨</sup> وينقل البشاوي عن الرحالة الأوروبي سايلوف «على الجانب الآخر لنهر الأردن تقع الجزيرة العربية وهي بلاد تتسم بالعداء

٦٩ فيليبس، جوناثان، التاريخ الكامل للحملات الصليبية ترجمة أحمد زيد، ص ٢٠٩.

٧٠ المرجع نفسه، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

٧١ ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ١٥٦.

٧٢ المقدسي، شهاب الدين، الروضتين في أخبار الدولتين، ج ٢، دار الجليل، بيروت، ج ١، ص ١٢.

٧٣ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ١٥٦.

٧٤ معلوف، الحروف الصليبية، ص ٧٨.

٧٥ ابن الأثير، الكامل، ح ٨، ص ١٥٦، الحنبلي، الأنس، ج ١، ص ٣٠٧.

٧٦ الحنبلي، الأنس، ج ١، ص ٣٠٩.

٧٧ ابن منقذ، أسامة بن مرشد، (ت ٥٨٤هـ)، الاعتبار، تحقيق: قاسم السامرائي، دار الأصاله، الرياض، ١٩٨٧م، ص ٤٠، ص ٨٧.

٧٨ الصوري، وليم، (ت ٥٨١هـ)، الحروب الصليبية، ج ٢، ترجمة، حسن حبشي الهيئة المصرية العامة، ١٩٩١، ج ١، ص ٢٢٧.



للمسيحيين ولا تتسم بالود لكل من يعبد الله<sup>٧٩</sup>.

ورغم هذه الصورة لكل من الطرفين ورغم ما جرته هذه الحملات من دمار وخراب وقتل وتشريد، لا أود الخوض فيه، إلا أن العلاقات بين الفرنجة من جهة والمسلمين من جهة أخرى شهدت فترات من الهدوء، والعلاقات الاقتصادية ربما أملتھا الظروف أو أجبر الطرفان عليها، ويصف سير توماس أرنولد - أن التجارة اقتفت آثار الحروب أثناء الحروب الصليبية، إذ سرعان ما احتث التاجر الإيطالي خطاه في سوريا أعقاب الفارس الفرنسي<sup>٨٠</sup>، وأن التجارة الشرقية التي نشطت في فترة الحروب كانت مركزة في سوريا بالدرجة الأولى خلال القرن ١٢م، وكان تأثيرها كبيراً على تقدم المسالك التجارية<sup>٨١</sup>. وعلى الصعيد المحلي فإن المزارعين المسلمين كانوا يأتون للمدينة بكل منتجاتهم الزراعية، ولتوفر الأمن كانت التجارة بين المدن المحلية نشطة، في الخليل دمشق وطرابلس وغيرها<sup>٨٢</sup>.

هذا إلى جانب نوع من العلاقات الدبلوماسية أو الرسمية بين بعض القيادات في الطرف الإسلامي وأخرى في طرف الفرنجة، ويرجع البيشاوي تلك العلاقات إلى ضعف المسلمين وتفككهم وصراعاتهم الداخلية التي دفعت بعضهم لإقامة علاقات مع الفرنج<sup>٨٣</sup>.

وأما عن مبررات هذه الحروب ونتائجها، فقد تباينت الآراء فمنهم من رأى بأنها حروب دينية وإن لم تكن تخلو من أهداف سياسية واقتصادية<sup>٨٤</sup>. ورأى البعض أن هذه الحروب امتازت بصفتها الدينية وانعدام كل المميزات الجنسية والقومية فأصبح المتحاربون شعباً واحداً هو الشعب المسيحي<sup>٨٥</sup>.

ويرى شوفاني أنه كلما تقدمت الدراسات حول الحروب الصليبية إغائها وذلك لأن الدين حسب اعتقاده طوال فترة العصور الوسطى وعلى الجانبين -الشرقي والغربي- كان يلعب بل وله دوراً رئيسياً في حياة الناس، لأنه كان يشكل القاسم المشترك بين شعوب القوتين المتناحرتين<sup>٨٦</sup>، وفي اعتقاده أن بروز العرب على مسرح الأحداث التاريخية في الشرق كقوة سياسية كان على حساب الإمبراطورية الرومانية ووريثتها البيزنطية، التي كانت تسعى دائماً لاستعادة ما فقدته من أراض في الشرق، وهي كانت دائماً تتحين الفرص لذلك<sup>٨٧</sup>.

ويرى توماس أن لهذه الحروب وجهان هما الباعثان الأساسيان لها الأول أنها حركة روحية، هي حرب مقدسة، حرب عادلة عند رجال الدين من الوجهة النظرية، فهي وحدت مصدر قوى المسيحية كلها ضد خصمها الإله في الدين والثاني هو ما يتعلق بالقدس ذاتها فللحروب الصليبية في مملكة القدس اللاتينية أهميتها الخاصة وآثارها، ومنها قيام العهد الفروسي، وإنشاء مؤسسات تجارية في السواحل، ونمو الروابط التجارية<sup>٨٨</sup>.

ولخص البعض دوافع ومبررات تلك الحروب بظهور السلاجقة في الأناضول وصراعهم مع الدولة البيزنطية، وظهور الروح الحربية في الكنيسة، ورغبتها في بسط نفوذها على سائر العالم المسيحي، وكذلك انتصار البابوية كسلطة دينية مع

٧٩ البيشاوي، سعيد، العلاقات بين المسلمين والفرنج خلال فترة الحروب الصليبية، مجلة عملية التربية، جامعة الأزهر، ١٦٨ع، ٢٠١٦، ص ٥٥٧.

٨٠ أرنولد، سيرتوماس (اشراف)، تراث الإسلام، عربيه وعلق حواشيه جرجيس فتح الله، دار الطليعة، ط٣، بيروت، ١٩٧٨، ص ١٠٠.

٨١ المرجع نفسه، ص ١٠٢.

٨٢ الدباغ، بلادنا، ص ٣، ١٧٨.

٨٣ البيشاوي، العلاقات، ٥٦٣-٥٦٤.

٨٤ يتيم، تاريخ الكنيسة، ص ١٩٧.

٨٥ حسن، إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي، ع، مكتبة النهضة المصرية، ط ١، ١٩٦٧، ع٤، ص ٢٤٣.

٨٦ شوفاني، الموجز، ص ١٨٧-١٨٨.

٨٧ توماس، تراث الإسلام، ص ٧٥.

٨٨ المرجع نفسه، ص ٧٦.

الإمبراطورية، ورغبة تجار المدن التجارية الإيطالية مد نفوذهم ونشر تجارتهم في الشرق، كما ساعدت عوامل خاصة بالشرق منها حالة الصراع، الانفكك بين المسلمين وغيرها<sup>٨٩</sup>.

وطرح بعض المؤرخين أن هذه الحروب كانت للبحث عن حل لمشكلة السكان المتفاقمة في أوروبا الاقطاعية وأن النبلاء يبحثون لهم عن مطعم غير متوافر في بلادهم<sup>٩٠</sup>.

واختلفت أسباب الحروب الفرنجية بين دينية وديوية شرقية وغربية، محلية وخاصة، اختلفوا في ذلك في ترتيبها وفي التعمق وشرح أي منها.

أما نتائج هذه الحروب، فقد تناولها المؤرخون العرب على أنها حروب كارثية على المنطقة العربية أو على الشرق عموماً فأحدثت هجرات من مدن إلى أخرى، وقتل وأسر ودمار، إضافة إلى السبي من النساء والرجال والأطفال والكثير عملوا جوارري وعبيد في منازل الأوروبيين، والعكس حدث عند انتهاء تلك الحروب وأثناءها في الطرف الفرنجي<sup>٩١</sup>.

في حين أن الأب يتيم رأى فيها أنها كانت سيئة، أثارت النعرة الدينية والعصبية والطائفية بين المسلمين والمسيحيين ووسعت هوة الانفصال بين الكنيسة الشرقية والغربية<sup>٩٢</sup>، وربما أن معلوف عبر عن رؤيته لنتائجها بطرح أسئلة تتعلق بالشرق «هل يمكن الذهاب إلى حد التأكيد بأن الحروب الصليبية قد أطلقت إشارة نهضة أوروبا الغربية ووقت نفير موت الحضارة العربية»<sup>٩٣</sup>.

ورأى آخرون بأن اختلاط الفرنج بالمسلمين خلال هذه الحروب أدى إلى ولادة جيل من الفرنجة أقل تعصباً، وأكثر التصاقاً بالشرق، فلبس بعضهم العمامة، وأقبلوا على الحمامات، وتزاوجوا من السوريات والأرمنيات<sup>٩٤</sup>.

أعتقد أن تأريخ الحروب الفرنجية كما وصفها المؤرخون العرب الأولين انطلق من منطلقين الأول خاص والثاني محلي، ففي الأول اعتبر المؤرخون أن الفرنجة محتلين لبلادهم الإسلامية والثاني محلي بأنهم استطاعوا التفريق بين الفرنجة الغزاة وبين المسيحيين سكان البلاد، ولم يتعرضوا لهم إلا في أضيق الحالات التي اعتقد القادة أن أصحابها من المواليين للغرب، وربما أن في هذا تفريق بين المسيحيين الشرقيين والغربيين.

في مجمل القول أن التاريخ للمسيحية يحتاج إلى رؤية جديدة تستند على أن المسيحية هي الديانة التي نبتت في الأرض الفلسطينية ومنها انتشرت إلى العالم، وإلى احترام رؤية ومعتقد كل طرف وأن المسيح ابن هذه الأرض فلسطين وأتباعه هم ملحها.

٨٩ حسن، تاريخ الإسلام، ح٤، ص ٢٤٣-٢٤٤.

٩٠ توماس، تراث الإسلام، ص ٨١.

٩١ ابن الأثير، الكامل، ح٩، ص ١٨٠.

٩٢ الأب يتيم، تاريخ الكنيسة، ص ١٩٧.

٩٣ معلوف، الحروب الصليبية، ص ٣٢٣.

٩٤ البيشاوي، العلاقات، ص ٥٦٦-٥٦٧.



## « مؤتمر فلسطين المسيحية »

2021/12/11 (فندق الكرمل)		
9.30 إستقبال وتسجيل		
الجلسة الافتتاحية 10.00 – 10.40		
ميشيل صباح	كلمة البطريرك	10.10 – 10.00
عطالله حنا	كلمة المطران	10.20 - 10.10
أ. جوزيف حزبون	كلمة مديرعام البعثة البابوية	10.30-10.20
أ. حسام أبو النصر	كلمة رئيس المؤتمر	10.40-10.30
الجلسة الأولى: جذور المسيحية في فلسطين 12.00 – 10.45 (د. عبد الرحمن المغربي)		
أ.د. قسطندي الشوملي	يسوع المسيح حياته وتعاليمه من المهد حتى القيامة	11.00-10.45
أ.د. متري الراهب	المسيحية العربية قبل الاسلام	11.15 - 11.00
أ. عبد الغني سلامة	المسيحية في العصور الاولى وظهور البدع	11.30-11.15
د. رياض الأسطل	ظهور الإسلام وعلاقته بالمسيحية	11.45-11.30
أ. عمر حرامي	تعقيب الأوراق المقدمة	12.00-11.45
فتح باب النقاش		
الجلسة الثانية: المسيحية وظهور الإسلام 12.15 - 13.30 رئيس الجلسة (د. عبد الكريم نجم)		
د. وليد الشوملي	الحضارة البيزنطية في فلسطين	12.30- 12.15
د. منى مقاط	التاريخ البيزنطي من خلال المكتشفات الاثرية	12.45-12.30
أ. منتصر ترزي	مسيرة الملكة هيلانة وقسطنطين في فلسطين	13.00-12.45
د. الهام شمالي	علاقة المسيحية بالدولة الاموية والعباسية والفاطمية	13.15-13.00
د. مروان القبلاي	العلاقات المسيحية والاسلامية في القدس	13.30-13.15
د. جوني منصور	تعقيب الأوراق المقدمة	13.45-13.30
فتح باب النقاش		
الجلسة الثالثة التاريخ المسيحي وحوار المذاهب 14.00 - 15.00 رئيس الجلسة (د. مجدي شوملي)		
د. محمود رياض	علاقة المسيحية الاسلامية في ظل الحملات الصليبية	14.15 - 14.00
د. جبرا الشوملي	هوية المسيحي في فلسطين	14.30 - 14.15
د. منيب يونان	الخلفية التاريخية للمذاهب المسيحية	14.45 - 14.30
د. منيب منصور	المؤرخون وكتابة التاريخ المسيحي	15.00 - 14.45
أ. جوزيف حزبون	تعقيب على أوراق المؤتمر	15.15 - 15.00
فترة غداء		



## « مؤتمر فلسطين المسيحية »

2021-12-11

اللجنة العليا لمؤتمر فلسطين المسيحية	
أ.حسام ابو النصر	رئيس مؤتمر فلسطين المسيحية، كاتب ومؤرخ فلسطيني، رئيس مجلس بيت القدس للدراسات والبحوث الفلسطينية - رام الله
أ.جوزيف حزبون	المدير الإقليمي للبعثة البابوية - القدس
المطران عتالله حنا	رئيس اساقفة سبسطية للروم الأرثوذكس - القدس
الأب عبد الله يوليو	رئيس دير الروم الملكيين الكاثوليك - رام الله
د.هاني الحصري	رئيس النادي الارثوذكسي - رام الله
أ.عمر حرامي	مدير مركز سبيل - القدس
أ.د.سامي أحمد	أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة القدس المفتوحة
د.جونى منصور	مؤرخ فلسطيني، محاضر في التاريخ الحديث والمعاصر - حيفا
أ.د. قسطندي الشوملي	كاتب ومؤرخ ومترجم فلسطيني، له عشرات المؤلفات - بيت لحم
المشاركون	
أ.د. متري الراهب	مفكر وقسيس فلسطيني، كاتب و لاهوتي ومؤسس لمبادرات ريادية إجتماعية مؤسس ورئيس جامعة دار الكلمة - بيت لحم
أ.عبد الغني سلامة	كاتب وقاص ومفكر فلسطيني، له عامود في عدة صحف منها صحيفة الأيام الفلسطينية، صدر له عدة مؤلفات - رام الله
د.رياض الاسطل	أستاذ التاريخ في جامعة الازهر، وله عدة مؤلفات تاريخية - غزة
م.مجدي الشوملي	كاتب وشاعر وقاص فلسطيني له عدة مؤلفات - بيت لحم
د.منيب يونان	رئيس الاتحاد اللوثيري العالمي، كاتب ومتخصص في علم اللاهوت
د.منى مقاط	باحثة في التاريخ والآثار الفلسطينية لها عدة أبحاث - غزة
أ.منتصر ترزي	باحث وموثق في التاريخ والأرشيف الفلسطيني - غزة
د.إلهام شمالي	باحثة وكاتبة في التاريخ الفلسطيني - غزة
د.مروان قبلاني	أستاذ التاريخ في الجامعات الفلسطينية - نابلس
د.محمود الاسطل	باحث في التاريخ الفلسطيني - خان يونس
د.جبرا شوملي	باحث وكاتب ودبلوماسي فلسطيني - بيت لحم
د.منيب منصور	مؤرخ وباحث في تاريخ القدس
د.وليد الشوملي	أكاديمي وكاتب فلسطيني، مؤرخ وله العديد من المؤلفات - بيت لحم
أ.جورج حنظل	باحث في اللغة الكنعانية - بيت لحم
أ.د. عبد الرحمن المغربي	رئيس قسم تعليم الاجتماعيات جامعة القدس المفتوحة
د. عبد الكريم نجم	رئيس المجلس الصوفي الاسلامي الأعلى في بيت المقدس والديار الفلسطينية

## توصيات المؤتمر

١. ضرورة كتابة التاريخ الفلسطيني بعيداً عن أي مؤثرات دينية أو سياسية أو غيرها، وأن الأبحاث المقدمة لا تشكل رؤية كاملة لتلك الحقبة، وإنما هي اضاءة من خلال الأوراق التي قدّمها المشاركون في اعمال المؤتمر لتكون جزءاً من ذلك التاريخ وفتحت الباب لإكمال عملية كتابته.
٢. وجوب التدقيق في المصطلحات المستعملة لتلك الحقبة المسيحية وضرورة تصحيح مسار استعمالها، وضرورة مراجعة المناهج التربوية لتشمل كل الحقب التاريخية وبشكل مكثف وصحيح دون إثارة اللغظ والاشكاليات، ويعتبر هذا المؤتمر مقدمة لمؤتمرات أخرى تشمل التاريخ المسيحي خاصة والتاريخ الوطني الفلسطيني ككل.
٣. إن فلسطين كنعانية عربية مسيحية إسلامية وطنية، بكل مكوناتها ولا تناقض في تاريخنا الا مع الاحتلال الذي يريد فرض روايته التاريخية.
٤. فتح الأبواب مستقبلاً لمشاركة أوسع لعدد من الباحثين في ميادين التاريخ والعلوم الاجتماعية والانثروبولوجيا وغيرها، لاكتمال الصورة.
٥. على المؤسسة الوطنية الرسمية، سلطة وحكومة ومنظمة تبني إعادة كتابة التاريخ بشكله الصحيح، والاهتمام بالمؤرخين والتاريخ الوطني وإعطائهم مساحة في العمل الرسمي للرد على الادعاءات والروايات والقصص والنظريات التي أصبحت تغرر بجيلنا الجديد.